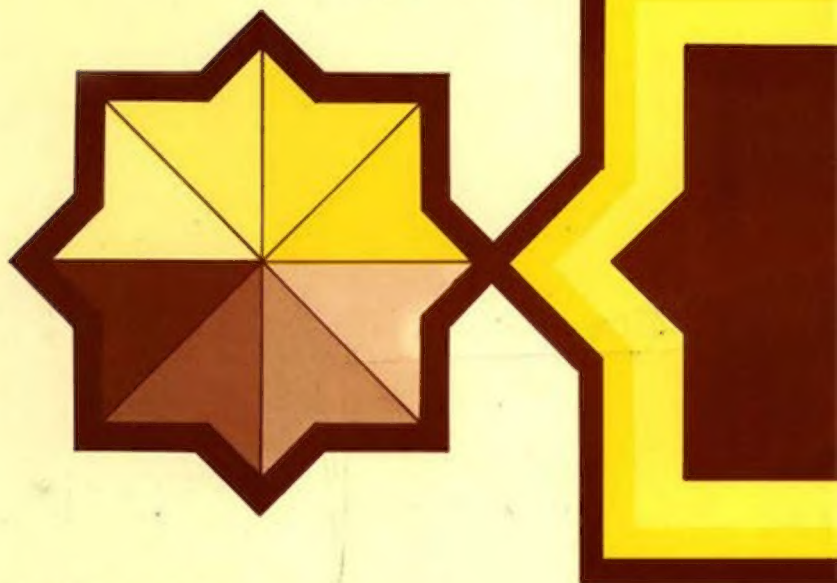


الدكتور
ابراهيم بيضون

الدولة العربية في إسبانية

من الفتح حتى سقوط الخلافة

٩٢ - ٥٤٢٢ هـ / ٧١١ - ١٠٣١ م



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بدمشق - ص ١٤٤



الدولة العُربِيَّة في إسبانيَّة

الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي إِسْبَانِيَّةِ

مِنَ الْفَتْحِ حَتَّى سُقُوطِ الْخِلَافَةِ

٩٢ - ٤٢٢ هـ / ٧١١ - ١٠٣١ م

شبكة كتب الشيعة



الدكتور

ابراهيم بيضون

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر
مصر - ص.ب. ٧١٩



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة

١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

• الإدارة : بيروت، شارع مدحت باشا -

بنية كريدية تلفون: ٣١٢٢١٣ -

برقياً: داهضة -

ص.ب.: ٧٤٩ - ١١ -

تلکس: NAHDA 40290 LE

• التوزيع : شارع البستاني - بنية اسكندراني

رقم ٣ غربي جامعة بيروت

العربية - تلفون: ٣٠٣٨١٦ -

٣١٦٢٠٢.

الإهداء

إلى والديّ
وهي على مشارف الثمانين
تحية الوفاء...

لقد مضت سنوات عشر على هذا الكتاب في طبعته الأولى، حيث كان الدافع مزدوجاً لهذا العمل الصعب، بعد رحلتي إلى الأندلس وتجوالي في مدنها العريقة من جهة، وحاجتي إلى مثل هذا الكتاب، بعد أن توليت تدريس مادة المغرب والأندلس في الجامعة اللبنانية من جهة ثانية. فقد انصرفت تدريساً وكتابةً إلى الاهتمام بقضايا الإسلام الأول، ولا زلت في هذا الهاجس حتى اليوم. ومن هذا المنطلق، فلنني أعترف بتطفلي على التاريخ الأندلسي، الذي يحتاج إلى تخصص دقيق وظروف علمية ملائمة، لا سيما المرحلة التاريخية المتأخرة، بعد ابتعاد المؤرخين والعلماء المسلمين عن دائرة الأحداث أو فقدان بعض نتائجهم، مما يجعل الصورة غائمة أو مشوشة إن لم نقل غير مكتملة. فمن الضروري التعرّف إلى نتائج الكتاب الأسبان في تلك المرحلة، على الرغم من جنوح معظمهم إلى التطرف وتدوين الأحداث تحت تأثير هذا الشعور المعادي للعرب المسلمين، مع أن الموضوعية تقتضي الاعتراف بأن المؤرخين المسلمين كتبوا أيضاً تاريخ الأندلس بشيء من هذه الوتيرة، سواء الذين عاشوا على مقربة من الأحداث، مكاناً وزماناً، أو الذين كتبوا عنها بعد رحيلهم إلى المغرب، حيث عاشوا هنا أو هناك تحت تأثير الحالة الأندلسية، بتفاصيلها الأكثر ارتباطاً بالجهاد ضد الأسبان والحين إلى الأرض المفقودة، دون أن يكون الأوان قد حان لذلك، إذا ما توقفنا عند مريّة الأندلس الشهيرة التي نظمها أبو البقاء الرندي، قبل قرنين أو أكثر من سقوط غرناطة.

ولكن لا بد من الاعتراف أيضاً، بأن ثمة حافزاً آخر دفعني إلى هذه المحاولة، هو أن المكتبة الأندلسية، على توفر الدراسات الأدبية القيمة فيها، فلا زالت فقيرة في الدراسات التاريخية، ربما من الناحية النوعية، حيث القليل منها يندرج في مصاف الأعمال الجادة، بينما الكثير ينوء تحت عبء النصوص، دون ثمة اختلاف - يتعدى الشكل - عن الكتابات القديمة. ومن هنا كانت الحاجة ماسة - بالنسبة لي على الأقل - إلى كتاب جامع للأحداث الهامة ومؤثراتها في مسار حركة التاريخ الأندلسي، يأخذ من النصوص روحها دون الجسد، بحيث يخرج القارئ مزوَّداً بالتفاصيل غير مرهق بها، على الرغم من شمولية الكتاب وسعة مدهاء، وتداخل القضايا المطروحة بين عصر وآخر.

وإذا كان الموضوع قد شكّل وحدة منسجمة من خلال تناوله «الدولة العربية في اسبانية»، أي الحقبة التي ارتبطت بالأسرة الأموية منذ الفتح حتى سقوط الخلافة، فإن ما قمّت به في هذه الطبعة، من إضافة فصل جديد يحمل عنوان «ما بعد الخلافة»، لم يكن خرقاً لهذه الوحدة، بقدر ما كان استكمالاً لها، حيث التاريخ الأندلسي يشكل حالة غير مجتزأة في الأسباب والنتائج. فلا نستطيع على سبيل المثال فصل الظروف التي مهدت لقيام «الطوائف الأولى» عن تلك التي سبقت ظهور «الطوائف الثانية»، كنتيجة حتمية لتدهور السلطة المركزية واستفحال الصراع السياسي الذي مزّق وحدة الدولة. كذلك، فإن الأسباب التي أدت إلى سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين في اسبانية، كانت هي نفسها وراء انهيار تلك النماذج السابقة التي لم تعرف التماسك أو الاستقرار.

ومن هذا المنظور، قد يجوز لنا إعادة صياغة السؤال، ليس عن أسباب سقوط الأندلس، ولكن عن استمرارها تلك القرون في ظل صراعات لم تتوقف وأخطار محدقة من كل صوب؟. ولكن الأندلس على ما يبدو كانت تختزن في الجعب دماء جديدة، وتكتشف مصادر النور عند اشتداد الظلام. وهنا تكمن خصوصية التاريخ الأندلسي، حيث إرادة البقاء كانت قوية وإن تصارعت مع نزعة السلطة القوية أيضاً، دون أن يفجاناً في هذا المجال اتفاق امير مسلم مع الأسيان، ضد امير مسلم آخر، عندما يشعر بالخطر على نفوذه، وعودته إلى معاداة هؤلاء وشن الحرب عليهم انطلاقاً من الشعور نفسه.

والواقع أن هذا الكتاب قد أخذ مني الجهد الكبير في حينه، ولجأت إلى تهذيبه بصورة ما في الطبعة الثانية، قبل أن أضيف إليه فصلاً جديداً في هذه الطبعة، ولكن دون أن أُمسّ السياق العام إلا من تعديل طفيف على بعض العبارات أو سدّ بعض الثغرات القليلة. فقد حرصت على أن يبقى هذا الكتاب ممثلاً لمرحلة، وأن لا يخضع لشيء من إعادة النظر، التي ستجعله - في حال تطبيقها - كتاباً جديداً بكل ما تعنيه هذه الكلمة. وإذا كان هنالك من هنات فيه، فأرجو أن لا تكون كبيرة، فقد بذلت من الجهد ما استطعت في ظل ظروف يعرف الجميع صعوبتها وشدة ضغطها على أهل القلم خاصة .. وفي الختام، لا بدّ من تحية إلى من كان له الفضل في تصحيح وفهرسة هذا الكتاب، إلى تلميذي وصديقي الأستاذ إبراهيم مهدي، وتحية أيضاً إلى الصديق مصطفى كريديه وإخوانه في دار النهضة، لما بذلوه من جهد وحسن تعاون .. والله من وراء القصد.

بيروت في ٢٩/١/١٩٨٦

كان ثمة إحساس بالرضا أو بعضه يرافقني خلال المسافة الزمنية بين طبعتي هذا الكتاب، هو أنني لم أدخر سبيلاً في الوقوف على التاج التاريخي والأدبي للأندلس، سواء القديم منه أم المستجد. كما أنني تداركت عقدة اللغة الأسبانية التي أخذت في تعلمها منذ الطبعة الأولى، بما يعنيه ذلك من تحول جدي إلى مرحلة التخصص في هذا المجال الخضم.

والتاريخ الأندلسي في أمجاده وعثراته، هو حالة قائمة لمن يحسن جيداً قراءة التاريخ، تختزن من صلابة الإرادة وصنوف التحدي ما هو جدير بالاهتمام أيضاً، حتى لا نكون أسرى المفارقة بتراث مجيد والبكاء على عبات الماضي الغابر. فالعرب الأوائل في الأندلس، عاشوا في تلك البقعة الأوروبية النائية، ومعهم تناقضاتهم الجذرية، ربما بصورة أكثر مبالغاً من الشام أو غيرها من الأقاليم الأموية. كما انتقل معهم النمط الحياتي والسلوكي، فضلاً عن الذوق الأدبي الذي بقي في الغالب شرقي الملامح والمضمون، دون أن تغفل التجمعات العسكرية التي احتفظت - رغم الأعوام المديدة - بأسمائها الشامية الأولى، التي عبّرت عن هويتها وكشفت انتماءها، فكان هنالك «جند فلسطين» في شذونة و«جند حمص» في اشبيلية و«جند دمشق» في البيرة و«جند قنسرين» في جيان، إلى آخر هذه القواعد التي كانت تحرك بفعل الدافع القبلي وأحياناً الاقليمي، دون أن يجمع بينها دافع «وطني» ومصريي مشترك.

ومن هذا الواقع افتقدت الأندلس العربية في السنوات الأربعين الأولى من

تأسيسها الاستقرار السياسي، وذلك بسبب غياب الدولة التي ظهرت لأول مرة مع عبد الرحمن (الداخل)، بعد انتصاره في معركة «المصارة»، المنعطف التاريخي الكبير الذي كان بمثابة فتح جديد لهذه البلاد، ربما لا يقل أهمية عن الفتح الأول في «وادي لكة». فمن هنا كان ذلك العبور إلى الدولة، التجربة الوحيدة في تاريخ الأندلس العربية، التي دانت بظهورها للمروانيين من البيت الأموي. لقد نجح هؤلاء في إسبانيا حيث أخفقوا في الشام، رغم توفر المعطيات في هذه الأخيرة بصورة لا مجال فيها للمقارنة. كما تطورت معهم إلى الخلافة في زمن تشرذم هذه المؤسسة واضمحلالها، وذلك في محاولة بعثها مجدداً في الإطار الأموي، في وقت كانت تنبعث فيه الامبراطورية الرومانية وراء السفوح الشرقية للبرينيه، بما تعنيه هذه أو تلك من «إنقاذ» للآمال المنهارة وتعزيز للروح المعنوية لدى الرأي العام الإسلامي والأوروبي.

وتبقى كلمة لا بدّ منها وأنا أعدّ الطبعة الثانية من «الدولة العربية في إسبانيا»، هي أنني مدين بالكثير لمن تفضّل عليّ بمساعدة ما، في هذا الكتاب أو غيره. وأخص منهم الأصدقاء: الأديب المؤرخ حسن الأمين الذي أعود إليه كلما أشكل عليّ الأمر لغوياً أو تاريخياً، وكذلك الأستاذ عبد القادر شعبان والأستاذ حسين خريس، فهما دائماً خير معين عندما يسلبني العمل كل الوقت... دون أن أنسى ما أدين به للصديق مصطفى كريدية وإخوانه في دار النهضة العربية، على حسن تعاونهم والروح الإيجابية التي يتحلون بها. إلى هؤلاء الأصدقاء كل الشكر والتقدير.

إبراهيم ييوضون

بيروت في ٢٣/٢/١٩٨٠

إن تاريخ أمبانية العربية، تراثاً حضارياً وسياسة توسعية، يعتبر إحدى أبرز المحطات في التاريخ الإسلامي وأكثرها أهمية وإثارة، فيها من التآلق والسطوع، كما فيها من التعثر والمأساة. فهذه المملكة القوطية القديمة التي اجتاحتها العرب المسلمون، فتحوّلت إلى ولاية أموية في مطلع القرن الثامن الميلادي، قُدِّر لها أن تأخذ هوية منفردة واتجاهاً خاصاً، بحيث أن ارتباطها بالسلطة المركزية كان واهياً منذ بدايات تكوُّنها العربي، وذلك نتيجة عوامل جغرافية وسياسية معروفة فقد كانت مشكلة الحكم فيها نابعة من ظروف محلية خاصة، وليست مرتبطة بقرارات تصدر عن الخلافة، كما كان يجري في معظم الولايات. وما لبث هذا الجنوح الاستقلالي أن تبلور، بعد غياب الأمويين عن هذه المؤسسة في دمشق ومطاردتهم حتى التصفية.

وحافظت الولاية البعيدة على شواذها بعد انتقال الحكم إلى العباسيين، فكانت رائدة الدويلات المستقلة التي أفرزتها الخلافة، خاصة في الجناح الغربي منها. ولعل ذلك يجبرنا إلى مناقشة الأسباب التي أدت إلى استئثار هذه المنطقة بالتيار الاستقلالي والانفلات من قبضة السلطة المركزية. وللبحث عن تعليل لهذه الظاهرة، لا بد من العودة إلى جذور العلاقة التي ارتبطت بها هذه المنطقة مع حركة التوسع العربي، وهي لم تكن علاقة عادية في مطلق الأحوال. فقد اصطدم العرب بتيار رفضي من قبائل البربر، المتعلقة حتى التثبّت بكياناتها التقليدية المتوارثة. وكان للطبيعة الجبلية بكهوفها ومضائقها وشعابها، التي انعكست بدورها على طبيعة السكان، الدور البارز في تنشيط حركة المقاومة الداخلية، سواء في التصدي لحملات الفتح على مدى سبعين عاماً من المحاولات الصعبة، أم في الثورة على الارستقراطية العربية المهيمنة على الحكم في وقت لاحق. وهذا الواقع لم يكن

يعني للبربر سوى الحرمان من المشاركة السياسية والعسكرية التي تجلت في عهد موسى بن نصير، ومن طرف آخر فقدان الاستقلالية القبلية والفردية.

ومن البديهي أن فتح الأندلس، كان امتداداً طبيعياً لفتح المغرب.. فقد ارتبط كلاهما بالآخر عضوياً، ووحدت بينهما الظروف السياسية، بدءاً بعمليات الفتح وانتهاء بالصراعات القبلية والإقليمية.. وحتى الاجتماعية. فالأندلس كانت جزءاً من تاريخ المغرب، تأثرت به وتفاعلت مع التطورات المتلاحقة على أرضه، بحيث لا يمكننا دراسة أحدهما في معزل عن الآخر.

وفي هذه المحاولة الدراسية لتاريخ الدولة المستقلة في الأندلس، كان لا بد من التعرض لمشاكل الفتوح وآثارها في المغرب وجاراتها الأندلس بصورة خاصة.. وكذلك التيارات السياسية المختلفة التي تجاوزت هذه المنطقة، وجعلت منها المسرح الدموي الدائم، قبل أن تأخذ هويتها الاستقلالية التامة منذ أن ارتبطت بالأسرة المروانية مع عبد الرحمن بن معاوية.

وإذا استطاعت الأندلس «الولاية الأموية» تنشيط حركة التوسع في أوروبا، رغم تعثراتها الداخلية، فإن الأندلس «الدولة الأموية» نجحت لأول مرة في إقامة مؤسسة مستقلة، وهي التجربة المركزية الوحيدة في تاريخ هذا الإقليم التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون من الزمن. ولا ريب أن هذه الحقبة تمثل أزهى فترات الأندلس السياسية، التي اختمرت فيها بذور الحضارة والعطاء الثقافي، فنجحت في اختراق «البربرية» إلى قلب أوروبا، حيث فشل الغزو السياسي في الماضي.

وفي هذه الدراسة المتواضعة، عن تلك الحقبة الزاهرة من تاريخ العرب، جهدت قدر المستطاع لأن يكون طرحي للأحداث حاملاً لملاحم الجدة، متجنباً النصوص الرتيبة والمسببة. وإذا كان ما اعترضني من العوائق، عدم معرفتي للغة الأسبانية، التي ينبغي أن يتسلح بها كل باحث للتاريخ الأندلسي، وكذلك ابتعادي عن بعض المخطوطات حيث لا يزال فيها آفاق واسعة للدراسة، فلإنني لم أذخر جهداً في الاطلاع على معظم ما هو منشور منها، من خلال المصادر الرئيسية والمراجع الحديثة المكتوبة باللغتين العربية والفرنسية.

وفيما يتعلق بتبويب هذا الكتاب الذي تناول تاريخ الدولة العربية في أسبانية منذ الفتح حتى سقوط الخلافة، فقد جعلته في قسمين رئيسيين: الأول، تناول تاريخ

الأندلس مع بداية سيطرة العرب عليها، بما في ذلك فتوحات المغرب وذلك حتى سقوط الخلافة المركزية في دمشق. . وانتهاءً بالفترة الانتقالية بين اضمحلال هذه الأخيرة ومجيء عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) إلى الأندلس. والثاني، تناول الدولة الأموية المستقلة ومعها فترات الإمارة والخلافة وأخيراً الدولة العاصمية، التي كانت آخر مظهر من مظاهر الحكم المركزي والسيادة العربية الفعلية في الأندلس، حيث تشرذمت بعد ذلك إلى دويلات متعددة عرفت «بالطوائف».

وأخيراً. . فإنها لصفحة مشرقة في التاريخ سجلتها دولة الأندلس العربية، وزرعتها تراثاً حضارياً متألقاً في تلك الأرض، التي ما زالت تنعكس على أجيالها ملامح تلك القرون الخالية.

بيروت في ٢٥/١١/١٩٧٧

ابراهيم بيضون

البَابُ الْأَوَّلُ

اسْبَانِيَّةُ: الْوَلَايَةِ الْأُمَوِيَّةِ

١ - فتح المغرب

٢ - فتح اسبانية

٣ - عصر الولاة الأمويين

الفتح العربي للمغرب

الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب: إن اسم «المغرب» اصطلاح يطلق عادة على الأراضي الواسعة والبعيدة التي تقع إلى الغرب من مصر حتى المحيط الأطلسي، بحيث تنتشر بمحاذاة البحر المتوسط في الشمال، وتتوغل في عمق الصحراء الكبرى إلى الجنوب.

ومن الواضح أن هذه الكلمة كان لها مدلول جغرافي محض، يقصد به تلك البلاد الواقعة إلى الغرب من الدولة الإسلامية الأولى. غير أن تحديداتها في إطار هذا المفهوم كان عرضة للاختلاف، فمرة يتناول اسم «المغرب» كل الأقاليم الغربية من الشمال الإفريقي بما فيها ليبيا وتونس والجزائر والمغرب^(١) (الاسماء الحالية)، ومرة أخرى تُسنى منه ليبيا أو برقة (الاسم القديم) ويقتصر على الأقاليم الثلاثة، هذا إذا لم تتوزع ليبيا أحياناً بين مصر وتونس، فتتجه برقة إدارياً إلى الأولى بينما تتجه طرابلس إلى الثانية^(٢).

وإذا كانت هذه الكلمة قد أصبحت أكثر تحديداً الآن باشتغالها على

(١) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ص ٣.

(٢) عبد الحميد العبادي، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٢٠.

تونس والجزائر والمغرب أو ما يعرف بالمغرب العربي الكبير، فإن مدلولها التاريخي منذ القرن السابع الميلادي كان يتناول - حسب ما روته مصادر المؤرخين والجغرافيين القدامى - كل الأقاليم الواقعة بين مصر في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب^(١). وانطلاقاً من هذا التعريف للبلاد المتفق على تسميتها بالمغرب، يمكن تقسيمه إلى ثلاث وحدات ربما كان لهما بعد إداري اقتضته إجراءات الدولة في ذلك الزمن.

١ - المغرب الأدنى أو إفريقية^(٢): وكانت القيروان العاصمة السياسية لهذا الإقليم في أيام الأمويين، ثم تغيرت مع التغيرات في النفوذ السياسي - فأصبحت (المهديّة) في أيام الفاطميين و(تونس) في أيام الحفصيين.

٢ - المغرب الأوسط^(٣): وكانت (تاهرت) أشهر مدنه، حيث اتخذها الخوارج الأباضيون عاصمة لدولتهم الرستمية، و(تلمسان) عاصمة بني زيان، وأخيراً الجزائر عاصمة بني مزغنة.

٣ - المغرب الأقصى^(٤): وهو الإقليم النائي في أقصى الولاية الإفريقية الذي يطل من موقعه الفريد على البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غرباً. وكان المغرب الأقصى أرضاً خصبة، أكثر من أي إقليم آخر، للأحداث السياسية الهامة أثناء وبعد حركة التوسع العربية في هذه المنطقة. ومن أشهر مدنه (فاس) عاصمة الأدارسة، و(مراكش) عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين، وأخيراً الرباط العاضمة الحالية.

وإذا نظرنا في الطبيعة الجغرافية للمغرب، لبدت لنا كتلة واحدة متشابهة إلى حد كبير في التضاريس والبيئة والمناخ، وحتى في الظروف الاجتماعية

(١) ابن حوقل، صورة الأرض ص ٦٤.

(٢) تونس حالياً وبعض المناطق الشرقية من الجزائر.

(٣) الجزائر حالياً.

(٤) المملكة المغربية.

المتجانسة. فهناك سلاسل جبلية ضخمة تخترق البلاد من الغرب إلى الشرق، واصلت ما بين المغربين الأقصى والأدنى، حيث ترتفع في الشمال سلسلة جبال الريف المتوسطة الارتفاع^(١)، من المحيط إلى تلمسان على محاذاة سهول ساحلية ضيقة.

والى الجنوب منها تمتد سلسلة جبال أطلس كجدار مرتفع، يصل أحياناً إلى أربعة آلاف متر أو ما يعرف بأطلس العظمى، الجزء الأكثر ارتفاعاً وضخامة في هذه السلسلة. ثم يتفرع منها قسم جنوبي متوسط الارتفاع أيضاً يعرف بأطلس الداخلية أو أطلس الصحراء، وقسم شمالي له نفس الارتفاع تقريباً، يعرف بأطلس الوسطى^(٢).

والواقع أن هذه الطبيعة الجبلية المتجانسة لأقاليم المغرب، قد انعكست على طبيعة السكان الذين عُرفوا منذ القدم بصلابتهم ومهارتهم القتالية، مستفيدين من الظروف الجغرافية الملائمة، حيث الممرات الضيقة والمسالك الوعرة، مما يجعل الدفاع عنها أمراً غير عسير. ولعل هذه الخاصة الدفاعية كان لها دورها الهام في إطالة العمليات العسكرية التي قام بها العرب المسلمون، قبل أن يتم لهم فتح المغرب بصورة نهائية، على نحو اختلف عن بقية الأقطار التي تم فتحها من دون صعوبة. وإذا كانت ثمة عوامل قد أعاققت الفتوحات في هذه المنطقة، كالدور الذي قامت به المراكز البحرية البيزنطية على الساحل الأفريقي، والأزمات الداخلية التي شلت طاقات العرب وقتاً غير قصير، إلا أن المقاومة العنيفة التي أظهرها البربر سكان المغرب، قد أعاققت بدون ريب عمليات العرب وأحبطت مشاريعهم التوسعية لمدة سبعين عاماً قبل أن تأخذ شكلها النهائي المستقر.

ولعله أن لنا التساؤل عن سكان المغرب عشية اندلاع موجة الفتوح وانتشارها إلى إفريقية؟ فقد مثل المغرب بسلطانه وحدة بشرية متجانسة

(١) صلاح الدين الشامي، الوطن العربي (دراسة جغرافية) ص ٧١-٧٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٠

بالإضافة إلى وحدته الجغرافية. وقد جاء ذلك ثمرة المتغيرات السياسية التي كانت تجرف في طريقها هذه المنطقة وتطبع عليها بصماتها الواضحة. فالمغرب ارتبط بالصراع الشهير بين روما وقرطاجنة أو ما عرف بالحروب البونية (٢٦٤ - ١٤٦ م)^(١) التي انتهت بتدمير الأخيرة ومحوها من الوجود، خاضعاً حينذاك للحكم الروماني كغيره من الأقاليم المطلة على البحر المتوسط. وقد اكتفى الرومان بإنشاء مناطق عسكرية محصنة على الشريط الساحلي، حيث التقدم نحو معازل السكان الأصليين في الداخل لم يكن سهلاً المنال.

وقبل أن نتحدث عن طبيعة هؤلاء السكان وظروفهم الحياتية واختلافاتهم القبلية، تجدر الإشارة إلى أن مناطق الشمال من المغرب قد مرّت عليها شعوب عديدة منذ خضوعها للرومان حتى مجيء العرب المسلمين، في أعقاب الاختلال الذي أصاب مؤسسات الامبراطورية وانقسامها إلى امبراطوريتين (إحداها في الشرق اتخذت من القسطنطينية مركزاً لها، والثانية ظلت في روما العاصمة القديمة) حيث شهد القسم الغربي منها موجات عنيفة من البرابرة والجرمان والأسويين، منذ مطلع القرن الخامس الميلادي. ولعل ما يهمنا من هذه الأفواج المتبربرة التي انتشرت في الأجزاء الغربية لامبراطورية الرومان بشكل خاص، تلك التي امتد تأثيرها إلى سواحل المغرب، لا سيما الوندال Vandal، الذين قنعوا من نصيب التطاحن على الامبراطورية بالسيطرة على أسبانية حتى مجيء القوط الغربيين، عندما اقتلعهم منها هؤلاء واضطروهم إلى اجتياز المضيق والهروب إلى الضفة الأخرى، حيث سيطروا على الإقليم الساحلي الممتد من طنجة غرباً إلى طرابلس شرقاً^(٢).

وكان لا بد للبربر أن يتركوا السواحل مرة أخرى لهؤلاء الغزاة، الذين

(١) راجع: إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ ج ١ ص ٣١ - ٣٤.

(٢) عاشور، أوروبا في العصور الوسطى ص ٧١.

عرفتهم تلك المنطقة من البحر المتوسط ، بأنهم أكثر شعوب الجرمان صلافة وجراً. ولكن ذلك لن يتجاوز القرن من الزمن^(١)، حيث عادت السيطرة على المغرب إلى دائرة الامبراطورية الرومانية التي أصبحت تحمل اسمها الشرقي وهو الامبراطورية البيزنطية .

وهكذا فإن ارتباط المغرب بالمتغيرات التاريخية الهامة، انعكس على تكوينه السكاني قبل الفتح، حيث سكان الداخل من البربر يشكلون الأغلبية العظمى، بينما سكان السواحل متأثرون بالمتغيرات السياسية التي كانت تمر بها المنطقة بين الحين والآخر. وإذا تأملنا جيداً تركيب السكان في تلك الفترة المتدفقة بالأحداث السريعة لوجدنا هنالك نوعين من السكان :

١ - العناصر الوافدة من البيزنطيين، الذين ورثوا ممتلكات الرومان تقريباً على سواحل المتوسط ومنها هذه المنطقة. وساروا على خطى أسلافهم في إقامة قواعد بحرية محصنة. فكان تواجدهم عسكرياً بصورة خاصة. ولهذا كانت نسبتهم العددية ضئيلة بالمقارنة مع سكان الداخل .

٢ - السكان الأصليون الذين عرفوا بالبربر، وكانوا يمثلون الأغلبية الساحقة حيث انتشروا في البوادي والحوضر ومارسوا حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، على نحو يشبه كثيراً حياة القبائل العربية في شبه الجزيرة .

وعدا هاتين الفئتين الأساسيتين فقد عرف المغرب عناصر أخرى غير واضحة هويتها بالتحديد، وإن كان المؤرخون يسمونها بالأفارقة. وهي على ما يبدو خليط من سكان السواحل الأقدمين ومن بعض الشعوب المستعمرة، وكانت هذه العناصر تخضع مباشرة للحكم البيزنطي^(٢).

(١) اعتماد البيزنطيون المغرب من الوندال سنة ٥٣٤ م بقيادة بليزاريوس . راجع : ابراهيم حركات، المغرب عبر العصور ص ٦٦ .

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٣٤ .

البربر: لقد اختلف في تحديد المفهوم الدقيق لهذه الكلمة، ماذا تعني؟ من الذي أطلقها على سكان المغرب؟ من هم البربر في نهاية الأمر؟ هذه التساؤلات لا بد أن تجابه الباحث إزاء التعرض لتاريخ البربر واستقراء منابعهم الأولى. ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن هو البعد اللفظي للكلمة، إذ يبدو أن لها مدلولاً عاماً يرتبط على الأرجح بالعناصر الغربية التي اجتاحت امبراطورية الرومان، حيث كان لشواطئ المغرب نصيبها من هذه الموجات التي عرفت بالبرابرة، ذلك الاسم الذي أطلقه الرومان أيضاً على سكان المغرب، شأنهم شأن بقية العناصر التي اعتبروها غير متحضرة وتكلم لغة غير مفهومة^(١). أما أصل البربر فلا يزال غير واضح، وكذلك تاريخهم القديم ولا يزال علماء الأنساب غير متفقين على تحديد هوية معينة لهم حيث يعتقد بعضهم أنهم يتحدرون من أصول حامية، والآخر يردهم إلى أصول عربية سامية^(٢)، فضلاً عن الذين اعتمدوا التفسير التقليدي الشائع لدى بعض مؤرخي العرب الأقدمين، وهو الاعتقاد بأنهم ينتمون إلى «بربر» أحد أجدادهم، مقارنة بانتساب العرب حسب زعمهم إلى يعرب بن قحطان^(٣).

وكما اختلف المؤرخون وعلماء الأجناس حول هوية البربر، إذا كانت حامية أم سامية أم خليطاً من الإثنين؟ فقد اختلفوا كذلك على المصدر الذي جاءت منه هذه الجماعات إلى المغرب. فمنهم من يعتقد أن البربر وفدوا من آسيا في وقت مبكر، ومنهم من يزعم أنهم أوروبيون في الأصل، استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة^(٤).

وإذا كان المؤرخون مختلفين حول رأي نهائي في مسألة الانتماء العرقي والجغرافي للبربر، فإنهم متفقون بشكل عام على تصنيفهم إلى مجموعتين

(١) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٢٣.

(٣) ابن خلدون، كتاب العبرج ٦ ص ٩٤.

(٤) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير ص ١٣٣.

كبيرتين^(١)، لكل منهما نمطه الحياتي المميز، المرتبط بعوامل اجتماعية معروفة:

١ - المجموعة الأولى التي عرفت باسم البرانس، وهم البربر المستقرون في الأراضي الخصبة والمدن حيث يمارسون الزراعة وأعمالاً حرفية مختلفة. وقد نالوا نصيباً من التطور بفضل اتصالهم بالشعوب الأخرى، سواء التي كانت لها رواسبها في المغرب، أم المستعمرة التي اتخذت من السواحل مقراً لها، مما أدى إلى غلبة الحياة الحضرية على هذه المجموعة.

٢ - المجموعة الثانية (البتري)، مثلها سكان البوادي الرُّحْل، الذين احترقوا الرعي والأعمال الأخرى التي يعتمدونها البدوي عادة كالغزو والإغارة على مناطق الحضر وغير ذلك.

ويميل بعض المؤرخين إلى تفسير هاتين الكلمتين (البرانس والبتري) تفسيراً لغوياً له علاقة بالزي القومي للمغاربة وهو «البُرُنْس»، الذي لا يزال سائداً حتى اليوم. فقد اعتقد أحد المستشرقين ومعه فريق من المؤرخين العرب أن بربر البرانس أو الحضر، كانوا يرتدون البرنس (وهو لباس أبيض عادة يغطي الجسم من الرأس حتى القدمين)، بينما اعتاد البتري البدو على الظهور بهذا الزي مبتوراً من دون غطاء للرأس كما يفعل البرانس ولذلك سمو بالبتري.

ولا نعرف مدى الحقيقة وراء هذا التفسير الذي لا يخلو من الطرافة كما يشير أحد المؤرخين^(٢)، ولا نعرف صحة النظرية التي تقول إن البرانس والبتري يمثلان عرقياً قسماً مختلفتين: الوافدة والعناصر الأصلية^(٣)، فثمة عوامل اجتماعية ربما رجّحت انقسام البربر أكثر من الاختلاف العرقي الذي نستبعده في هذا المجال.

(١) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ ج ١ ص ٢٣.

(٢) العبادي، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٢١.

(٣) حسن محمود، قيام دولة المرابطين ص ٢١.

بقي أن نشير إلى أهم القبائل التي شغلت أدواراً هامة في تاريخ البربر والمغرب عامة. فأشهر قبائل البرانس صنهاجة التي انتشرت على مساحة كبيرة من الأرض بين المغربين الأدنى والأقصى، وقبائل ازداجة ومصمودة وأوربة وكتامة وعدد آخر بلغ نحو عشرة فروع، كما يورد المختصون بتاريخ البربر. أما البتر فيتوزعون في أربع قبائل كبيرة وهي زناتة ولواتة وضريسة ونفوسة وزواغة ونفزة ومططرة وغيرها^(١).

هكذا كان المغرب بظروفه السياسية وقبائله، التي ميزت بينها فوارق اجتماعية واقتصادية ظاهرة، مؤدية إلى تكتلها في مجموعتين كبيرتين، لكل منها مصالحها المتناقضة مع الأخرى. وكثيراً ما نشب العداء الضاري بينهما واستفحل الصراع واستمر دون أن تخفف حدته السنون. وإذا بالبربر تصلهم أنباء تحركات عسكرية تطرق أبوابهم هذه المرة من الشرق، وذلك في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وتكون الجبهة الإفريقية أو المغرب من أعنف الجبهات في مسلسل حركة الفتوح العربية الإسلامية.

فتوحات المغرب في العهد الراشدي: البدايات الأولى يحتل فتح المغرب حيزاً هاماً في تاريخ العرب العسكري، يختلف عن بقية الفتوحات التي تمت في وقت يسير ويجهود متواضعة، حيث كان للعمليات الحربية الخاطفة، تأثير كبير في تحقيق إنجازات، لا زالت موضع دهشة المختصين بالشؤون العسكرية. فعلى عكس ما حدث في جبهات الشام والعراق ومصر، فضلاً عن الجبهة الفارسية التي انهارت في أقل من عشر سنوات وأصبح الحكم فيها إسلامياً، نجد جبهة المغرب تخرج على هذه القاعدة وتصاب الجهود التوسعية فيها بنكسات متلاحقة، قبل أن تخدل إلى الاستسلام وتذوب نهائياً في إطار الحكم الجديد. ولا يعود ذلك فقط إلى المتاعب الداخلية التي حالت دون التفرغ لحسم الموقف على جبهة المغرب بصورة كاملة، وإن كنا

(١) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٤، سالم، المغرب الكبير ص ١٣٨.

لا نستطيع إهمال ما تركته الأزمات السياسية من أثرٍ سلبي واضح على جهاز الحكم، ولكن العامل الأهم كان جغرافياً، له علاقة بالطبيعة الجبلية الوعرة، والقبائل الشديدة البأس المتمسكة بكياناتها التقليدية، والمحترفة لأساليب الحرب الخاطفة التي برع فيها العرب، تساعدها على ذلك معرفة جيدة بطبيعة الأرض وشعابها وكهوفها ووديانها. وهذا النوع من المجابهة ما لبث أن تحول مع الممارسة، إلى ما يشبه حرب العصابات في كل ما تعنيه هذه الكلمة في التاريخ المعاصر.

والبدايات الأولى لفتح المغرب تعود إلى مطلع العقد الثالث من القرن الأول للهجرة، في وقت كان عمرو بن العاص أحد قواد الفتح، قد أنهى السيطرة على مصر خلال سنوات ثلاث (١٨ / ٦٣٩ - ٢١ / ٦٤٢)، ثم تابع سيره غرباً إلى برقة أو ما كان يُعرف قديماً «أنطابلس»، وهي تحريف للكلمة اليونانية Pentapolis ومعناها المدن الخمس^(١). ولعل التفسير المقبول لهذه الخطوة، أن فاتح مصر أراد تأمين الحدود الدفاعية لهذا الإقليم الهام من الغرب، لأن أية خطة منظمة للتوسع أبعد من ذلك لم تكن قد ظهرت بعد. فالقوة العسكرية التي استخدمت للاستيلاء على مصر، وهي جزء من قوات الخلافة المنتشرة على عدة جبهات في المشرق، لم تكن كافية لتنفيذ عملية توسعية جديدة، فضلاً عن أوامر الخليفة^(٢) المتشددة بعدم التوغل بعيداً في بلاد لا تزال مجهولة. فاقنع ابن العاص بتحقيق نوع من السيادة غير الفعلية، حُصرت في وجود حاميات صغيرة من الجُند وفي استيفاء الضرائب من السكان.

ومن الملاحظ أن حملة عمرو بن العاص اتخذت طريقها إلى المغرب

(١) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ٢٢٤، سعد زغلول عبد الحميد، المغرب العربي ص ٨٠.

(٢) عمر بن الخطاب.

بعد إتمام فتح الإسكندرية كما تشير بعض المصادر، ويُعتقد أنها سلكت الطريق المحاذي للساحل إلى برقة، التي كانت معقلاً من معاقل البربر، لا سيما قبيلة لواتة البترية^(١). ومن غير الواضح إذا ما كانت للبيزنطيين قواعد عسكرية في هذه الجهات، حيث الغموض يحيط بموقفهم في تلك الأثناء. ولعل تواجدهم هنا كان ضعيفاً أو متلاشياً ربما تحت ضغط البربر (اللواتيين)، أو لأن سقوط الإسكندرية أحدث ارتباكاً في صفوفهم وحوال دون القيام بدور ما، لمنع تقدم العرب المسلمين في هذا الاتجاه. ومن المرجح أن الثقل العسكري للبيزنطيين كان محصوراً في الشريط الممتد إلى الغرب من طرابلس، حيث القاعدة الشهيرة قرطاجنة، ولذلك فإن عمرو بن العاص نفذ مشروعه الرامي إلى دخول المغرب عبر بوابته الرئيسية برقة، التي استسلمت دون أية مقاومة، ورحبت به قبيلتها البترية العريقة لواتة، فارضاً عليها ضريبة سنوية حددتها ابن عذاري بثلاثة عشر ألف دينار^(٢). ويدور أنه كانت لأخبار الفتح في مصر التي سبقت هذه الحملة، تأثيرها الكبير في استسلام برقة، المعروف عن أهلها اللواتيين الصلابة والنزوع إلى الاستقلال، حيث ظهر ذلك في مقارعتهم للبيزنطيين ودفعهم على ما يبدو إلى الاعتراف بسيادتهم على المدينة.

ومن هذه المنطقة تابع عمرو بن العاص سيره بمحاذاة الساحل إلى طرابلس Tripolis (المدن الثلاث) أو أطرابلس كما جاء في فتوح مصر والمغرب^(٣). وهي مدينة منيعة استطاع البيزنطيون تحصينها بالأسوار من جميع الجهات، باستثناء الجهة المطلة على البحر. ولكن طرابلس سقطت بعد شهر من حصارها، حيث أسهم عنصر المفاجأة، على ما يبدو، في نجاح

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٢٩.

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٨.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٣١.

العملية، بعد تسلل المهاجمين إليها من ناحية البحر^(١)، في الوقت نفسه الذي أحبطت فيه محاولة القبيلة البترية نفوسة لفك الحصار عن المدينة. وما لبثت هذه القبيلة التي اتخذت من مدينة سرت معقلاً لها^(٢)، أن لقيت مصير طرابلس واستسلمت بعد قليل من الوقت (أواخر سنة ٢٢ هـ)، حيث كانت سرت آخر مدينة بلغها المسلمون على الساحل الإفريقي الشمالي.

ولم يأخذ تحرك العرب المسلمين الخط الساحلي فقط وإنما تفرّع عن الحملة الرئيسية التي قادها عمرو بن العاص حملة أخرى على رأسها قائد يافع المن، سيكون له شأن كبير في فتوح المغرب هو عقبة بن نافع الفهري. فبعد سقوط برقة قاد هذا الأخير حملة صغيرة إلى الجنوب في عمل منسق مع قائده، لضرب تحركات القبائل في تلك الجهات ومنعها من القيام بأي عمل معيق لتقدم العرب المسلمين، فحقق انتصارات هامة في ودان وفزان وزويلة^(٣). وعاش هذا القائد الشجاع بعد ذلك سنوات طويلة بين البربر، استطاع خلالها بشخصيته القوية وبما انغرس في قلبه من إيمان عميق أن يطوّع بعض قبائلهم ويشدّ كثيراً منهم إلى الإسلام^(٤)، حتى إذا استلم الأمويون الحكم، جيء بعقبة كخبير في الشؤون الإفريقية ليستأنف بصورة أكثر جدية مرحلة الفتح المنظم للمغرب.

اكتفت القيادة الإسلامية بهذا القدر من الانتصارات التي حققتها في برقة وطرابلس، فأمرت قائد الحملة عمرو بن العاص الذي أصبح والياً على مصر بالعودة إليها. ولم يمر سوى عام واحد بعد ذلك، حتى سقط الخليفة عمر بن الخطاب ضحية مؤامرة غامضة قيل في تحليلها الكثير، وإن كانت سياسة هذا الخليفة المتشددة والمتعارضة مع مصالح جانب كبير من

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٣٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠، سالم، المغرب الكبير ١٤٦.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٤٠.

(٤) حسين مؤنس، فجر الأندلس ص ٣٧.

والارستقراطية العربية الجديدة، تتشابك مع خيوط هذه المؤامرة إلى حد قوي. واستلم الخليفة عثمان الحكم ليعزل بعد قليل من الوقت والى مصر، أول قائد عربي ارتبط اسمه بالفتوحات في إفريقية، ، ويعين قريبه عبدالله بن سعد بن أبي سرح مكانه (٢٤ هـ).

بدأ الوالي الجديد نشاطه الإفريقي، بعد استقراره في القسطنطينية، بسلسلة من العمليات الإستطلاعية لدراسة الموقف عن كثب، تمهيداً لاستئناف العمليات التوسعية نحو الغرب. ويبدو أن تفاهماً جرى مع الخليفة للقيام بعمل عسكري بارز^(١)، يستهدف إلفات النظر إلى الحكم المركزي الذي كان لا يزال غير قادر على ملء الفراغ الكبير بعد غياب الخليفة القوي السابق.

ويتخذ الإعداد لهذا العمل العسكري أسلوباً دعائياً، حين يجتمع الخليفة إلى الصحابة الكبار للوقوف على رأيهم في هذا الشأن^(٢). وتمتلىء عاصمة الخلافة بأخبار الحملة الإفريقية وتعج بأفواج الجند القادمين من مختلف القبائل. ولم تلبث طلائعها أن غادرت المدينة وعلى رأسها أحد أقارب عثمان (الحارث بن الحكم)، ومعه عدد كبير من زعماء المدينة الذين شاركوا فيها، من بينهم أخوه مروان وآخرون من أبناء الصحابة مثل: عبدالله ابن الزبير وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن العباس وغيرهم^(٣). وفي مصر زُودت الحملة بقوات إضافية من حامية القسطنطينية، فارتفع عددها إلى نحو عشرين ألفاً من المقاتلين. وسار عبدالله بن سعد القائد العام بهذا العدد الكبير إلى المغرب الأدنى، متخذاً على الأرجح الطريق المحاذي للساحل الشمالي، الساحلي^(٤) (٢٧ هـ). ويلاحظ أن هذا

(١) فتوح البلدان ص ٢٢٦.

(٢) فتوح البلدان ص ٢٢٦.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٤٦٢.

(٤) نفسه ص ٢٤٦.

الطريق أصبح المعبر التقليدي لحملات المسلمين العسكرية إلى المغرب، إذ تحاشى هؤلاء الصحراء في الداخل وتعتمدوا اتخاذ الخط الساحلي، حيث المدن والركائز العمرانية والحضارية.

وفي تلك الأثناء كانت أخبار تقدم قوات المسلمين تصل إلى مسامع حاكم إفريقية البيزنطي جريجوريوس أو «جرجير»^(١) حسب التعبير العربي الذي كان نفوذه يمتد ما بين طرابلس وطنجة ويتخذ قرطاجنة عاصمة له^(٢). فأخذ يعد للأمر على أكثر من اتجاه، فمن ناحية استنفر كل قواته التي تفوقت عددياً على القوات الإسلامية^(٣)، ومن ناحية ثانية استطاع أن يحمل مدينة طرابلس على العصيان والثورة في محاولة لإنهاك أعدائه قبل الوصول إليه. وقد فوجئ المسلمون بتمرد المدينة، ولكن خطة الحاكم البيزنطي لم تحقق هدفها المنشود، لأن العرب رفعوا الحصار عن طرابلس وآثروا التوجه مباشرة إلى معقل البيزنطيين في قرطاجنة. وفي مكان بعيد عن الشاطئ، وعلى مقربة من مدينة قديمة تعرف باسم سيبتلة Sufetula، حيث كان الحاكم البيزنطي حاشداً قوات كثيفة، جرت معركة وصفت بأنها من أعنف المعارك، قتل خلالها جريجوريوس وعدد ضخم من جنوده، وفرق الآخرون في مختلف الاتجاهات^(٤). وتخليداً لهذا الانتصار العظيم في سيبتلة التي كانت من أهم المدن البيزنطية بعد قرطاجنة، سيقم العرب المسلمون في وقت لاحق بالقرب من هذا الموقع مدينة القيروان، قاعدة إفريقية وعاصمة المغرب لأمد طويل من الزمن.

وبعد ستة أشهر من غيابه، عاد عبد الله بن سعد إلى القسطنطينية، مكتفياً بما حققه من انتصار باهر، دون أن تحمله نشوة النصر على الاستفادة من

(١) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ص ١٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل ج ١ ص ٤٤.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٤٦.

(٤) نفسه ص ٢٤٦.

الظروف ومتابعة النشاط التوسعي في هذه الجهات، متوجساً للخطر على ما يبدو من عملية بيزنطية تهدد طريق العودة الطويل إلى مقر ولايته. ومن هنا فإن النتائج التي أسفرت عنها سببلة، لم تتناول أي تغيير جديد في الصراع على النفوذ في المنطقة. فقد تراجع قائد الحملة بعد انتصاره الكبير دون أن يقيم مركزاً عسكرياً أو حامية مسلحة، بل اقتنع بمجد النصر وقتن بسحر الغنائم^(١). ولكن سببلة لم تخل من نتائج هامة، حيث كانت ضربة قوية أصابت معنويات البيزنطيين في صميمها، وكان عليهم حينذاك الحساب بدقة لكل مجابهة مع المسلمين الذين استعادوا طرابلس بعيد انتصارهم في سببلة، مما يعني أن أي تحالف مرتقب مع البربر سيلحق به الفشل، بعد سيطرة المسلمين على الخط الساحلي، جنوبي هذه المدينة.

كانت حملة ابن سعد إلى إفريقية، العمل العسكري البارز في عهد الخليفة عثمان. وباستثناء عمليات صغيرة على الأطراف الجنوبية من مصر لم يقم أي تحرك جدي في هذه الجبهة، لأن الخلافة غرقت في أزماتها الداخلية التي فجّرها الصراع على النفوذ بين فريق السلطة من الأقارب والأعوان، وبين العسكريين المبعدين في الثكنات والحمالات الحربية. وقد عكست هذه الحالة تأثيرها السلبي على سياسة الفتح، بحيث أصيبت الجبهات المختلفة لا سيما الجبهة الإفريقية بركود طويل، استمر حتى سقوط الخلافة الراشدة ومجيء الأسرة الأموية بزعامة معاوية بن أبي سفيان، بعد أن أخذت الحرب الأهلية كل الاهتمام من السنوات الخمس التي أمضاها علي في الخلافة.

ولقد حدث بعد حسم الموقف لمصلحة معاوية، أن أعيد عمرو بن العاص إلى مركزه السابق في مصر، كجزء من التسوية التي اتفق عليها بين الرجلين في صفين. ولكن معاوية الذكي كان يقظاً في مراقبة واليه الطامح إلى جعل مصر وما يتبعها، ملكاً آخر لا يقل بريقاً عن ملك سيده معاوية. فما كاد

(١) العبادي، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٢٦.

يعود إلى الفسطاط حتى أخذ يخطط لاتساع ولايته باتجاه الغرب والجنوب، ذلك أن الانتصارات السابقة التي حققها في مصر وبرقة وطرابلس، والسرعة التي تمت بها، أعطته ثقة كبيرة في نفسه، فتناق إلى التوسع والمزيد من السيطرة والثراء، وكانت تلك الحملات الدورية الصغيرة التي أخذت طريقها في أكثر من اتجاه، فخفضت حركات البربر الذين تظاهروا بالولاء للحكم العربي الإسلامي، في حين كانوا يلجأون إلى التمرد مع كل سانحة. ثم انتشرت إلى الجنوب وحقت السيطرة على بعض المواقع الهامة في السودان حيث كان لواء هذه الحملات معقوداً لعقبة بن نافع، قائد الحامية في برقة وقريب عمرو بن العاص^(١).

وعلى الرغم من أهمية هذا الجهد الذي قام به عقبة، فإن ذلك لم يدخل في إطار النشاط التوسعي الحاد في المغرب، بل كان مجرد عمليات استطلاعية أو حملات وقائية إذا شئنا، ضد قبائل البربر المتذبذبة في الولاء للحكم العربي الإسلامي. غير أن هذه الحملات ستكون بدون ريب مقدمة للفتح المنظم الذي كان رائده وفارسه المجلي عقبة بن نافع بعد نحو عشرين عاماً. وهكذا انحصرت جهود والي مصر في إطار ضيق، لا يتناسب في كل الحالات مع طموحه الكبير الذي عاد به إلى ولايته. ولعل تقدمه في السن خذل هذا الطموح وأعاق أحلامه التوسعية في هذه المنطقة. وتشاء لعبة الحظ أن تقف دائماً إلى جانب خليفة دمشق، فينتهي من حليفه الخطر عمرو بن العاص، بموته بعد سنة واحدة من إتمام عقبة مهمته في الجنوب (٤٤ / ٦٦٥). ويكون أول قرار يتخذه في أعقاب ذلك، هو الفصل بين ولاية مصر وبين ولاية إفريقية (الاسم الغالب عليها في ذلك الحين)، التي ستصبح مستقلة ومرتبطة مباشرة بعاصمة الخلافة. وقد استمر هذا القرار سارياً حتى سنة (٥٠ / ٦٧٠) عندما عُيِّن مسلمة بن مخلد والياً على مصر والمغرب^(٢).

(١) ابن الأثير، الكامل ج ٢ ص ٢١٢.

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٣٤.

فتوحات العهد السفيفاني: الحملات المنظمة بعد موت عمرو بن العاص، وانفصال المغرب عن ولاية مصر، أصدر معاوية قراراً آخر بتعيين قائد على الولاية المستجدة هو معاوية بن خديج الكندي، وأمره بالتحرك في السنة التالية (٤٥ هـ) إلى برقة لاستلام مهامه، ومعه أوامر باستئناف الأعمال العسكرية في المغرب. وبعد وصوله إلى القسطاط وقف معاوية بن خديج على دقائق الموقف، في وقت كانت الدولة البيزنطية في عهد الامبراطور قسطنطين الثاني، تعمل على إعادة نفوذها إلى إفريقية بعد الضربة التي كسرت شوكتها في سبيلطة، فأخذت في حشد قوات كثيفة لاستعادة ما خسرت هناك.

وتصادف المؤرخ هنا مشكلة تحديد الوقت الذي تمت فيه حملة القائد الجديد إلى إفريقية. ولعل السبب في ذلك هو الخطأ الذي وقع فيه المؤرخ القديم (ابن عبد الحكم) وعدد آخر من المؤرخين المحدثين، حين قالوا إن الحملة تمت في سنة ٣٤ هـ، أي في خلافة عثمان وولاية عبدالله بن سعد على مصر. ويعتقد أن سبب هذا الالتباس ربما يعود إلى مشاركة ابن خديج في إحدى الحملات الإفريقية في أيام عبد الله بن سعد، خاصة تلك الحملة التي تحدث عنها ابن عبد الحكم نفسه، وتعود إلى سنة ٣٤ هـ^(١). ولم يكن هذا القائد جديداً على مسرح النشاط العسكري في إفريقية، بل كان يتردد اسمه كعنصر فاعل في جيش عبدالله بن سعد، مشاركاً في كل أعماله الحربية^(٢). ومما يسقط الاعتقاد نهائياً أن هذه الحملة - كما يقصد بها - حدثت في هذا الوقت حسب رواية ابن عبد الحكم، ما جاء عن وجود عبد الملك بن مروان^(٣) كمقاتل فيها، مع أن عمره حينذاك لم يكن يتعدى العشر سنوات. وبناءً على ذلك فإن حملة ابن خديج، هي حملة أموية الطابع تمت بعد أعوام من انتقال الحكم إلى الأمويين. وكانت تشبه إلى حد ما حملة عبدالله بن سعد

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦١.

(٢) قول ابن معاوية بن خديج أصيب في عينه سنة ٣١ هـ أثناء حملة إلى النوبة. ابن عبد الحكم ص ٢٥٣.

(٣) نفسه ص ٢٦٠.

بمن شارك فيها من الأسماء المعروفة كعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر وعبد الملك بن مروان وغيرهم، ولكنها كانت أقل كثافة منها حيث بلغت نحو عشرة آلاف مقاتل، كان الخليفة الأموي قد أعدّهم من نخبة الجند ذوي الخبرة والمعرفة بشؤون إفريقية^(١).

غادر معاوية بن خديج الاسكندرية إلى المغرب مُتخذاً الطريق التقليدي إلى برقة فطرابلس، دون أن يصطدم بعقبات أو مفاجآت في هذه النواحي التي بات الحكم العربي الإسلامي فيها مستقراً وراسخاً. وكانت وراء ذلك بشكل رئيسي، الجهود الدائبة التي قام بها عقبة بن نافع أحد قواد هذه الحملة. وتوقف الجيش أخيراً في قونية أو قمونية، الواقعة إلى الجنوب من قرطاجنة، وقد وصفها ابن عبد الحكم بأنها تحتل الموقع الذي قامت عليه القيروان^(٢)، مما يعني أن حملة ابن خديج سلكت طريق الحملة السابقة وانتهت تقريباً إلى نفس المكان.

وفي تلك الأثناء تناهى إلى مسامع البيزنطيين أنباء التحرك الأموي، وكانت قرطاجنة تجمع حينئذ بالأنفواج القادمة من جنودهم بقيادة نففور^(٣) Neciphore الذي يبدو أنه أرسل في نفس الوقت حاكماً على أفريقيا البيزنطية، في أعقاب اضطرابات نالت كثيراً من سيادة البيزنطيين فيها. ولكن الحاكم الجديد لم يكن كما يبدو قادراً على إنقاذ هذه السيادة، لأن الروح المعنوية لدى مقاتليه لم تكن على المستوى المطلوب. فبعد سلسلة من المناوشات الخفيفة تقدم الجيش الأموي ليتخذ معسكره في جبل القرن، وقام أحد قواده^(٤) ومعه مجموعة من الفرسان بهجوم جريء على مواقع الجيش البيزنطي قرب (سوسة)، وهي مدينة ساحلية غير بعيدة عن القيروان، فأحدث هلعاً في صفوف البيزنطيين، الذين تهاقتوا مذعورين

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ١ ص ١٦.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٣) نففور عند ابن عذاري، البيان ج ١ ص ١٦.

(٤) عبدالله بن الزبير.

إلى سفنهم، التي حملتهم إلى قاعدتهم الرئيسية في البحر المتوسط (صقلية)، دون حدوث أي اشتباك بين الطرفين^(١). وأعقب القائد الأموي هذا النصر بعمل آخر لم يكلفه من الجهد كثيراً، حين عهد إلى قائد آخر في الحملة^(٢) بمهاجمة أحد الحصون البيزنطية الهامة (جلولاء Gouloulis)، وهو على مسافة نحو عشرين ميلاً من القيروان، فتمكن من إسقاطه دون صعوبة تذكر. وقيل إن عامل الصدفة ساعد الأمويين على الظفر بهذا الحصن، عندما سقط فجأة أحد أسواره، الأمر الذي مهّد الطريق أمامهم لاختراقه^(٣).

وهناك أخبار عن قيام معاوية بن خديج بعمليات عسكرية أخرى، كهجومه على بعض مدن الساحل في الشمال^(٤) أو هجومه على جزيرة صقلية^(٥)، متتبِعاً القائد البيزنطي المهزوم. ولعل أمر الهجوم على صقلية يحتاج إلى تدقيق أكثر قبل الأخذ به، لا سيما وأن الوقت الذي ذكر أنه حدث فيه (٤٦ هـ)، لم يكن سلاح البحرية لدى الأمويين قد تطور بصورة جدية ومتكافئة مع السلاح البحري البيزنطي. كذلك لم يكن الأمويون قد أنشأوا قاعدتهم الإفريقية، ليكون أمر المطاردة في البحر ميسوراً، فضلاً عن ذلك فإن حملة معاوية بن خديج كانت حملة برية، وسلكت طريقاً برياً ومن ثم عسكرت في مكان يبعد عدة أميال عن البحر. لذلك، فإن حملة صقلية لا تعدو أن تكون مجرد تصور خاطيء عند بعض المؤرخين التقليديين كالطبري، والبلاذري، وابن عذاري، إنجر إليه عدد من المؤرخين المعاصرين على الرغم من وصول بعضهم إلى نفي قاطع لهذه الرواية^(٦).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ١ ص ١٦.

(٢) عبد الملك بن مروان.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٦١، ابن عذاري ج ١ ص ١٧.

(٤) من هذه المدن (بنزرت) عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ١٣٠.

(٥) ابن عذاري ج ١ ص ١٨.

(٦) حسين مؤنس، فجر الأندلس ص ٣٩.

وهكذا أُتيح لمعاوية بن خديج، أن يسهم في تنشيط خطة الفتح الأموي للمغرب، حيث شكلت هزيمة البيزنطيين والمواقع العسكرية الهامة التي افتقدوها، بداية الاختلال الواضح في موازين القوى بين الأمويين والبيزنطيين في إفريقيا. وعلى الرغم من ارتكاب القائد الأموي نفس الخطأ الذي وقع فيه القائد السابق عبدالله بن سعد، بعودته دون القيام بإجراءات عسكرية أو إدارية تضمن استمرار هذه المنطقة في ظل الحكم الأموي، إلا أن هذه العملية أسهمت بدون شك في خلق أجواء أفضل لانتزاع المبادرة من البيزنطيين والسيطرة على المغرب.

ولم يستمر معاوية بن خديج طويلاً في منصبه، حيث صدر قرار بعزله (٦٦٩ / ٤٨) وتعيين القائد الآخر عقبة بن نافع الذي عرفته الجبهة الإفريقية واحداً من فرسانها المشغوفين بالجهاد. ومن المستبعد أن يكون قرار العزل له علاقة بتقصير ما وقع فيه القائد السابق المقرب من الخليفة. ذلك أنه اختير لمهمة محددة وأنجزها كما أُريد له إنجازها، ضمن ظروف لم تكن على الأرجح - والحكم الأموي في بداية سنواته - ملائمة لتحقيق ما يتجاوز ذلك. ومن جهة ثانية فإن الدولة قدرت له جهوده بتعيينه، والياً على مصر في وقت لاحق، ولكن دون أن يبقى طويلاً في هذا المنصب، حيث تولى مسلمة بن مخلد^(١) شؤون مصر وإفريقية^(٢). وليس ثمة شك أن اختيار الخلافة آنذاك لعقبة بن نافع، كان مؤشراً لتطور جديد في خطة الفتح الأموي للمغرب، ونابعاً من قناعة تامة بأن القائد الجديد هو رجل المرحلة المستقبلية التي تنتهي معها حروب الاستنزاف والسرائيا العادية، لتبدأ مرحلة ذوي الكفاءات والألمعية العسكرية من فرسان وجنود هذه الجبهة.

عقبة بن نافع: رائد الحملات المنظمة في المغرب يتفق المؤرخون على

(١) عُيِّن سنة ٤٨ هـ. ابن عذارى ج ١ ص ١٨.

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٣٤.

أن الحملات العسكرية المنظمة التي استهدفت فتح المغرب، إنما بدأت مع عقبة بن نافع الفهري، الوالي الجديد لإفريقية، حيث تتأرجح بدايتها ما بين سنتي ٤٩ و ٥٠ هـ تبعاً للروايات المختلفة. ولعل الالتباس حاد في الخلط بين السنة التي عيّن فيها عقبة قائداً عاماً لجهة المغرب^(١) وبين السنة التي نفذ فيها المهمة وقاد حملته العسكرية إليها، وإن كان الأقرب إلى الحقيقة بعد مقارنة مجمل الروايات، هو التاريخ الثاني^(٢) الذي يتوافق عملياً مع تحركات شهدتها الدولة الأموية في هذا المجال، بعد استقرار الوضع السياسي فيها.

بدأ القائد الجديد تحركه العسكري بسلسلة من الحملات الناجحة إلى غدامس، حيث يبرز هنا اسم زهير بن قيس البلوي (والي إفريقية في عهد مروان ابن الحكم)، الذي بقي في المدينة ومعه حامية صغيرة، كمؤشر للخطة الجديدة التي اتبعها عقبة، وهي الاحتفاظ بالأرض وليس الغزو فقط، كما حدث في الماضي. وبعد غدامس خضعت فزان وعاصمتها زويلة، بالإضافة إلى عدد من المدن الهامة الواقعة في المغرب الأدنى^(٣)، حيث كان لشخصيته العسكرية تأثير كبير في نفوس البربر، الذين تهيؤوا جساراً هذا القائد وقوة إرادته في القتال.

وكانت الخطوة التالية والأكثر أهمية، هي الشروع في ترسيخ جذور الإسلام على أرض المغرب، عبر إنشاء قاعدة عسكرية في قلب البلاد التي تمت السيطرة عليها، وذلك من أجل تحقيق هدفين: أولهما توسيع يرمي إلى إيجاد حامية ثابتة تغطي عمليات الهجوم في أطراف المغرب من جهة، وتؤمن الخطوط الدفاعية للحكم الأموي من جهة أخرى، وثانيهما أن تكون مركزاً

(١) حدث ذلك سنة ٤٩ هـ على الأرجح.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٤٧.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٦٤.

لصنع أجيال مستقبلية من البربر تنصهر مع العرب في إطار واحد هو الإسلام.

ويبدو أن الظروف السياسية كانت مواتية في ذلك الحين، مع انصراف البيزنطيين عن التصدي بصورة جديدة لمشاريع عقبة التوسعية، إلى معالجة مشاكلهم في الداخل بُعيد مقتل الإمبراطور قسطنطين الثاني الذي عُرف بسياسته العدائية للعرب المسلمين، ومن ثم تفرُّغ خليفته إلى الاهتمام بحركة التمرد التي قامت في صقلية إحدى ولايات الامبراطورية^(١). فالوقت ملائم إذن لترسيخ النفوذ الأموي في تلك المنطقة، دون ثمة مواجهة بيزنطية ظاهرة، أو مقاومة من البربر الذين كانوا أقرب ربما إلى الالتقاء مع العرب المسلمين في صف واحد أكثر من الرفض لهم. ذلك أن الوجود البيزنطي لم يعكس تأثيره القوي عقائدياً أو حضارياً على طبيعة البربر، الذين كانت علاقتهم بالبيزنطيين علاقة عسكرية سطحية.

ولم يبق أمام القائد الأموي سوى اختيار المكان المناسب للقاعدة العسكرية التي قرر إنشاءها، دون أن يأخذ ذلك من وقته الكثير، لأن المبدأ العام الذي اعتمده العرب في هذا المجال، أن تقام هذه القواعد على مسافة ما من خط المواجهة مع العدو، لتكون خطوطهم الدفاعية في مأمن، وتكون ظهورهم محمية بالعمق من الأرض، لتسهيل تراجعهم في الوقت المناسب.

وهكذا كان اختيار القيروان^(٢) - الاسم الذي عرفت به قاعدة عقبة - في إحدى الوديان ذات الأشجار الكثيفة غير البعيدة عن الساحل^(٣). وهي تقع بالتحديد إلى الجنوب من قرطاجنة، وإلى الغرب بمسافة أقل من

(١) عبد الحميد، المغرب العربي ص ١٤٣.

(٢) يعتقد أن القيروان مأخوذة من أصل فارسي يعني القافلة. حول بناء القيروان راجع: ابن عذاري

ج ١ ص ٢٠ - ٢١.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

سوسة المدينة التي سقطت أثناء حملة ابن خديج . وقد استغرق العمل في القيروان نحو أربع سنوات حيث كانت أولى معالمها دار الإمارة أو مركز الحكم، والمسجد الذي حمل حتى اليوم اسم القائد الفهري ^(١)، فضلاً عن الأسوار ومساكن الجنود التي بنيت بصورة تدريجية . ولقد نمت المدينة بسرعة مذهشة، يساعدها الموقع الجغرافي في منطقة من الأشجار والمراعي، وكذلك موقعها على امتداد الخط البري الذي يصل بينها وبين القسطنطينية، وينأى بها عن أي خطر بيزنطي من جانب البحر . وتأخذ القيروان دورها المرسوم، فتنتقل منها الحملات الصغيرة التي عرفت عند العرب بالسرائيا في وقت واحد مع بناء القاعدة . فلم يكن الجيش بكامل عناصره منهمكاً في هذا العمل، وإنما كان فريق منه يشق طريقه إلى المناطق المجاورة، في مهمات عسكرية وبشيرية أصابت كثيراً من النجاح . فشخصية عقبة القيادية وحرارة الحماسة لدى المقاتلين من جانب، وفراغ الساحة من أي تحرك بيزنطي مضاد من جانب آخر، وجداً مناخاً ملائماً للتحرك بحرية وتحقيق مكاسب هامة، سياسية وعسكرية.

وفي غمرة ذلك الشعور بالنجاح في تثبيت إقدام العرب المسلمين في المغرب، وظهور الولاية الإفريقية إلى حيز التنفيذ، تفاجأ القيروان بعزل قائدها المظفر عقبة بقرار من الخليفة الأموي (٥٥ / ٦٧٤) ، وتعيين قائد آخر هو أبو المهاجر الأنصاري، وكان القواد العظام قدرهم أن يصنعوا الانتصارات ويحترقوا بناها، فيظلون أسرى منجزاتهم التي غالباً ما تعود عليهم بالسوء ونكران التقدير . ويبدو أن تنحية عقبة عن القيادة، كانت له خلفيات سياسية معينة . فمن المؤرخين من رد السبب إلى خلاف بين عقبة وبين رئيسه المباشر والي مصر (مسلمة بن مخلد)، ضمن التفسير التقليدي حول المنافسة بين الرجلين ^(٢)، أو لأن الأخير، الذي حظي بثقة معاوية، آثر أن يكون هذا

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٧ ص ١٩٤ .

(٢) حين مؤنس، فجر الأندلس ص ٤٠، عبد الحميد، المغرب العربي ص ١٤٩ .

المنصب لمولى الأنصار - وهو أنصاري كذلك - أبي المهاجر دينار^(١).

ومن غير اليسير أن ندرك السبب الرئيسي لإبعاد عقبة عن قيادة القيروان، لأن غموضاً يحيط بهذا القرار لم تتمكن من كشفه روايات المؤرخين بشيء من الإقناع، لا سيما وأن عقبة لم يبعد عن هذه الجبهة، أو يتعرض لملاحقة أو اضطهاد، وإنما أبعاد عن القيادة فقط. وهذا ما يجعلنا نعتقد أنه وراء العزل قراراً سياسياً، تجاوز الحساسيات والعلاقات الشخصية. فلعل الخلافة لجأت إلى ذلك قبل أن يأخذ عقبة الحجم الذي ترفض أن يبلغه أحد من القواد، بما يتعارض والنزعة الفردية لدى معاوية الذي لا يستسيغ هذا النوع من الشخصيات القيادية القوية^(٢).

وامثل عقبة لقرار العزل، وعبر كمسكري محترف عن انضباطه الشديدة متعاوناً إلى أقصى الحدود مع القائد الجديد. ولم يكن هذا الأخير بعيداً عن أجواء الحرب، بل كان يجمع بينه وبين عقبة قاسم مشترك بانتمائهما إلى مدرسة واحدة في القتال مع اختلاف في الممارسة. فعقبة كان أميل إلى العنف وحسم المواقف بالسيف بحكم تربيته العسكرية، في حين كان أبو المهاجر بارعاً في المحاوراة واعتماد السياسة.

وكانت أبرز أعمال أبي المهاجر أثناء قيادته التي دامت خمس سنوات (٥٥ - ٦٠ هـ)، ذلك الهجوم الذي شنّه على مصاقل أوربة - إحدى أقوى قبائل البربر من البرانس - الواقعة في جبال أوراس. وقد ظهر دهاء القائد الجديد في اجتذاب زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم والتعاون معه بعد «إيمانه» بالإسلام، مع أنه المسيحية كانت قد عرفت طريقهما في وقت سابق إلى هذه القبيلة. وإذا صح اعتقاد كسيلة وجماعته آنذاك بالإسلام فإن إيمانهم كان سطحياً، لا يلبث أن يخبر بانقلاب كسيلة على الأمويين في وقت لاحق.

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٣.

(٢) علاقة معاوية مع عمرو بن العاص ومحاولة انتزاع مصر من يده رغم الخدمات الجليلة التي قدمها هذا الأخير له.

على أن ذلك لم يخل من أثر إيجابي على العلاقة بين الطرفين ، حيث كانت الخطوة الأولى فيها، الغزو المشترك لتلمسان في قلب المغرب الأوسط .

بعد ذلك عاد أبو المهاجر أدراجه نحو القيروان، ليقوم بأعمال عسكرية ضد البيزنطيين، فينعطف شمالاً باتجاه قرطاجنة ويشن عليها هجوماً عنيفاً (٥٩ / ٦٧٩). ويبدو أن تحركه إلى القاعدة البيزنطية لم تكن له أبعاد الاحتلال المنظم، وإنما كان مجرد محاولة لاستكشاف إمكاناتها الدفاعية. فبعد حصار قصير للمدينة، تراجع عنها لقاء مساومة على أحد المواقع القريبة منها^(١)، حيث كانت هذه العملية على ما يبدو آخر أعماله العسكرية. غير أن اتصالاته مع البربر لا سيما قبيلة أوربة ظلت قائمة، وسادها الهدوء طوال ولايته، التي استمرت ما بقي معاوية الذي كان معجباً بهذا النوع من الرجال ذوي الحنكة، المتوافقين مع مزاجه .

وبموت هذا الخليفة (٦٠ / ٦٨٠)، يصبح مركز القيادة في القيروان في مهب التغيرات، التي عادة ما تحدث في أعقاب انتقال السلطة من حاكم إلى آخر. وكان يزيد بن معاوية الخليفة الجديد، مقدراً جهود القائد السابق عقبة وعلى صلة وثيقة به، ربما نتجت عن إقامة هذا الأخير فترة ما في دمشق قريباً من ولي العهد الشاب^(٢). وما كاد يزيد يتربع على سدة الخلافة، حتى أمر بأن يعاد إلى القيروان قائدها السابق، لاستئناف مشاريعه التوسعية التي خطط لها قبل عزله .

وكان عقبة متعطشاً للعودة إلى إفريقية، بعد أن قطع جلّ سنواته من الشباب إلى الكهولة، مقاتلاً على أرضها لصيقاً بأحداثها. ويبدو أنه كان لا يزال يحمل شيئاً في نفسه على سلفه، بعدما قيل عن اتجاه الأخير إلى طمس

(١) شبه جزيرة شريك .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٦٦ - ٢٦٧، ابن عذاري ج ١ ص ٢٢ .

جهوده^(١)، فهناك أخبار عن اضطهاده لأبي المهاجر واعتقاله، وإن كان روايتها قد جنحوا إلى المبالغة في تضخيمها، وربطها بأمور ليست في مصلحة عقبة، خاصة ما ذكر عن قمع قبيلة أوربة انتقاماً من أبي المهاجر، وهو يعلم أن ذلك سيعود عليه بالضرر الكبير. وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نأخذ في الاعتبار قصة الأصفا^(٢) التي وضع فيها أبا المهاجر أثناء غزوته إلى السوس. فإذا صح ذلك كان الحري به أن يسجنه في القيروان بعيد عودته، دون أن يكون لوجوده أي خطر على عقبة ومعه الجزء الأكبر من الجيش. ثم كيف يكون محكوماً عليه بالسجن في حملة عسكرية، وفي نفس الوقت يكون أحد قوادها المستبسلين حسب الرواية التاريخية^(٣)؟

وصل عقبة إلى القيروان، وقد منحه الخليفة صلاحيات واسعة، حيث أصبح ارتباطه المباشر به، بعد فصل الولاية الإفريقية مرة أخرى عن مصر، ربما كبادرة لإعادة الاعتبار إليه بعد عزله خلال السنوات الخمس السابقة. وما لبث أن شغل عقبة نفسه بالإعداد لعملية كبرى، في نطاق سياسته التوسعية لاجتياح المغرب. فبعد إجراءات تنظيمية وإدارية سريعة، خرج بحملته نحو المغرب الأقصى، تاركاً زهير بن قيس قائداً للحامية في القيروان ومعه «جند من المسلمين»^(٤). ويبدو أن جماعة من قبيلة أوربة قد شاركت في هذه الحملة، كان دورها محصوراً على الأرجح في تزويد الجيش بالمعلومات الجغرافية عن تلك البلاد البعيدة. فلا نستطيع إثبات مشاركتهم كمقاتلين إلى جانب العرب، لأن موقف كسيلة زعيم أوربة، كان غامضاً في تلك الفترة، حتى أن بعض المؤرخين يصفه بأنه كان معادياً لعقبة، منذ أن تحرك الأخير

(١) قيل إن أبا المهاجر رفض النزول في القيروان وقيل إنه أمر بتخريبها. ابن عبد الحكم ٢٦٦، ابن عذاري ج ١ ص ٢٣.

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٢٣.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣.

بحملته ^(١)، دون ثمة تفسير لذلك سوى أن كسيلة وجد في القائد الجديد شخصية الفاتح المهلد لتفوذ ومصالح البربر.

ولقد حقق عقبة في مسيرته الطويلة انتصارات باهرة، بدءاً بغزو باغاية (بجاية) على الساحل الإفريقي إلى الغرب من قرطاجنة، حيث اشتبك في معركة ضد البيزنطيين وصفت بأنها من أعنف المعارك ^(٢). ولكن تراجع البيزنطيين إلى داخل المدينة، أدى إلى إطالة أمد الحصار، واضطرار عقبة إلى العزوف عنها نحو الجنوب، متخذاً الطريق المرسوم لحملة، وهو على الأرجح الطريق المحاذي للسفوح الشمالية لجبال أطلس. فاجتاح إقليم الزاب في المغرب الأوسط ودخل المسيلة عاصمة الإقليم، بعد طرد البيزنطيين وحلفائهم من البربر ^(٣)، ثم تابع فلولهم إلى تاهرت (تيهت) ^(٤) وأوقع بتحالفهم هزيمة عنيفة. وبذلك تمت له السيطرة الكاملة على المغرب الأوسط وأخمد فيه كل تحرك عدائي ضد العرب المسلمين، في الوقت الذي انفتح الطريق أمامه لاختراق المغرب الأقصى. وتجلد الإشارة إلى أن الموقف السياسي العام عند البربر، لم يكن قد تبلور بعد إزاء هذه الموجة التوسعية، حيث كانوا لا يزالون حتى ذلك الحين يرقبون الأحداث والصراع الأموي - البيزنطي. ولم يكن العرب المسلمون من جهتهم، قد توغلوا كثيراً في الداخل أو اصطدموا بنظام القبيلة المترمة عند البربر، بينما الذين دخلوا طرقاتاً في الصراع الحربي الدائر بين القوتين الكبيرتين، كانوا في معظمهم من البرانس الذين كانت لهم مصالح في بقاء القواعد البيزنطية حيث يعيشون في مناطق محاذية لها على السواحل،

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٨.

(٢) ابن الأثير، ج ٤ ص ٥٣. ابن عذاري ج ١ ص ٢٤.

(٣) قبائل لواتة وهوارة ومكناسة. ابن عذاري ج ١ ص ٢٤ - ٢٥.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤.

وكان لهم أكثر من هدف في التصدي للجيش الأموي، دفاعاً عن مصالحهم المتشابكة مع القواعد البيزنطية.

بعد ذلك تابعت حملة عقبة انتشارها في أقاصي المغرب ظافرة متقدمة، فبلغت الثغر الشهير طنجة التي احتلت موقعاً فريداً على المدخل الغربي للبحر المتوسط، واتخذت مركزاً إدارياً للمنطقة الساحلية الممتدة ما بين طنجة وسبتة. غير أن هذه المنطقة تمتعت في ذلك الحين بقدر من الاستقلال، مما أعطى حاكمها حرية الحركة في اتخاذ الموقف المناسب^(١). فشاء أن يقيم علاقات ودية وحسن جوار مع الفاتحين، بدل التصدي والمقاومة^(٢). وإذا شئنا تحليل هذه الاستقلالية لإقليم طنجة، فمن المرجح أن تكون خاضعة للعامل الجغرافي وتقلص السلطة المركزية التي فقدت كثيراً من تماسكها خاصة في أقاليم المنطقة الغربية من البحر المتوسط. ويبدو أن عقبة لم يكن في ذهنه حسم الأمر مع المدن الساحلية التي كانت أشبه بقلع عسكرية حصينة، لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لتصفية هذه المواقع الهامة، ضمن الإمكانيات الأموية المحدودة، سواء في مجال البحرية أم في وسائل الحصار التي لم يكن العرب المسلمون قد وقفوا على جانب متطور منها بعد. فهذا ما حدث أثناء حصار باغاية، وتكرر تقريباً مع طنجة، ولكن من دون حاجة إلى الحصار، لأن حاكمها البيزنطي وضع كل طاقاته في خدمة الأمويين تسهيلاً لتحركهم في هذه البلاد النائية.

ولم يتردد عقبة في الاستجابة لعروض حاكم طنجة^(٣)، تاركاً وراءه هذا الإقليم، لينعطف جنوباً نحو الداخل، ويصل إلى ويلة أو ويلي، إحدى

(١) تشير المصادر إلى أن بوليان كان حاكماً على هذا الإقليم في ذلك الوقت ولا ندري أهو نفسه الذي ارتبط اسمه بحملة الأندلس بعد ثلاثين عاماً أم أنه شخصية أخرى تحمل نفس الاسم؟

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٣، ابن عذاري ج ١ ص ٢٦.

(٣) المكان نفسه.

المدن القديمة^(١) في أطراف المغرب الأقصى . وهناك أنزل بالبربر «المصامدة»^(٢) - وهم سكان أطلس الوسطى - ضربة قوية أرغمتهم على الفرار إلى الصحراء . فاقتفى أثرهم حتى وصل إلى درعة في أقصى الجنوب^(٣)، ولكن دون أن يجد ما يشجعه على الاستمرار في هذا الاتجاه الصحراوي، مؤثراً الصعود مجدداً نحو الشواطئ الغربية للمغرب الأقصى، حيث المدن العامرة وحيث المغامرة تهون لدى الجند المقتحمين أغوار المجهول . وهناك في آخر خطوة من المسيرة الطويلة أخضع عدداً من المدن الهامة، تحت أقدام أطلس العظمى، وسارعت صنهاجة القبيلة الكبيرة تعلن ولاءها للقائد الأموي^(٤) . ثم خضعت إغلمات (إلى الشمال الشرقي من مراكش) بعد حصار قصير، وتبعها مدينة أخرى إلى الغرب (نقيس) وهي أحد المراكز الهامة في تلك المنطقة . ومن هناك انتهى به المطاف إلى السوس الأقصى، فاجتاحه دون مقاومة، مسيطراً على مدنه الرئيسية حتى أدرك أخيراً «أيفيران يطوف» على ساحل المحيط . وإذا بلغ عقبة هذا الحد من فتوحاته، عبر أضخم مغامرة عسكرية عرفتها دولة الأمويين حتى ذلك الوقت، عاد أدراجه إلى القيروان وفي نفسه ظمناً إلى الحرب ورغبة ملحة في متابعة الجهاد . والواقع أن الروايات التاريخية تكاد تجمع على وضع هذا القائد في مصاف القواد العظام الذين عرفهم العرب في الإسلام، بل ينفرد أكثر من غيره بنزعة الجهادية البارزة التي أعطت لأعماله بُعداً ربما حمل بعض ملامح الأساطير^(٥) .

وتشاء المقادير أن تكون رحلة العودة محفوفة بالمخاطر، على خلاف ما

(١) تقع على مسافة قريبة من مدينة فاس عاصمة الادارة في وقت لاحق .

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٢٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦ - ٢٧ .

(٤) ابن عذاري، ج ١ ص ٢٧ .

(٥) نسب إلى عقبة بعد بلوغه ساحل المحيط أنه نزل بفرسه إلى الماء وقال: يا رب، لولا أن منعي هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك . ابن الأثير ج ٤ ص ٥٤ . راجع ابن عذاري ج ١ ص ٢٧ .

توقعه القائد الأموي . فبعد أن اطمأن إلى ما أنجزه في المغرب الأقصى ، ودون أن يشعر بأي تحوّل معاكس في ولاء المدن والأقاليم بعد انتهاء مهمته وقرار العودة ، حيث ترك فيها أصحاباً له يقومون بدورهم التبشيري والتفقيهي ، وبعد أن أدرك ربما عن خطأ في التقدير أن ولاء البربر لن يكون موضع ريب ، حدث ما قلب كل التوقعات حين أرسل الجانب الأكبر من قواته لمهمات معينة بعد وصوله إلى إقليم الزاب . ولعلها عملية استدراج من حليف العرب منذ أيام أبي المهاجر ، الزعيم البربري كسيلة ، أقنعت عقبة باتخاذ هذا الإجراء والبقاء مع نفر قليل من جنوده لا يتجاوز الخمسة آلاف ، حتى إذا وصل إلى مدينة تهودة (تاهودة) في منطقة الأوراس ، فوجيء باعتراض الزعيم البربري له بالاتفاق مع البيزنطيين الذين أحاطوا بحملته من الشمال^(١) . ولم يكن هناك بدّ من مواجهة هذا العدد الضخم ، في وقت غير ملائم وبموازين عسكرية غير متكافئة . فخاض الجنود بقيادة عقبة معركة بطولية عنيفة ، قتل فيها القائد الأموي وعدد آخر من القواد كان بينهم أبو المهاجر ، بينما غرق الباقون في بحر من الدماء^(٢) .

وقد أسفرت هذه الحادثة عن نتائج سيئة للغاية ، فلم تكن مجرد عملية انتقامية موجهة ضد عقبة بن نافع كما يعتقد جانب كبير من المؤرخين^(٣) ، بل كان لها بُعد على قدر من الخطورة . فلا يمكن أن نسمي ما قام به كسيلة ومعه خمسون ألفاً من البربر وحلفائهم كميناً ، حتى لو كان الرقم غير دقيق ومبالغ فيه . ذلك أن حشداً على هذا القدر يفترض أن يكون قد سبقه إعداد منظم وتخطيط بارع ، للقضاء على الوجود العربي الإسلامي في المغرب . ولا نبالغ في التصوّر إذا ما اعتبرنا هذه الحادثة ، أولى الثورات التي قادها البربر ضد سياسة

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٩ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٤ وقد اخذ بهذا الاعتقاد عدد من المؤرخين المعاصرين (مؤنس) (سعد زغلول عبد الحميد) .

التوسع الأموية في بلادهم، بعد أن رأى هؤلاء في منجزات عقبة بن نافع وانتشار قواته حتى ضفاف المحيط الأطلسي، تهديداً لوجودهم واعتداء على سيادتهم المتوارثة التي لم تمس عبر التاريخ. فما زالوا يعيشون منذ البدء حياتهم ويمارسون تقاليدهم، متحررين من كل القيود حتى في ظل الدول المستعمرة من الرومان إلى الوندال إلى البيزنطيين. فهذه القوى غالباً ما كانت تنتشر سيادتها على السواحل أو المناطق القريبة منها، دون أن تتصادم مع سكان البلاد من البربر في الداخل. وغالباً ما كانت العلاقات تأخذ إطارها غير المتناقض بين الطرفين، وبأن مصالح كل منهما لا تتعارض مع الآخر. ولعل هذا الانفلات من السيطرة غير المباشرة، جعل البربر يمتازون عن غيرهم من الشعوب بنزعتهم الاستقلالية، التي كلفتهم كثيراً قبل التخلي عنها. فتحالف البربر مع البيزنطيين في عدة مواقع أثناء حملة عقبة، جاء عن قناعة بأن الأمويين عدو مشترك للفريقين، حيث البيزنطيون لم يمثلوا في نظر البربر، ذلك الخطر الذي داهمهم على يد العرب المسلمين.

انتهت هذه المغامرة الناجحة إذن، بثورة معاكسة من جانب البربر قضت على كل منجزاتها، دون أن تكتفي بهذا القدر من الانتقام، بل أرادت أن تجتث جذور الأمويين بمتابعة الهجوم إلى القيروان. وهناك حدث خلاف بين عناصر الحامية الأموية، من راغب في القتال إلى عازف عنه، حيث الموقف كان شديد الخطورة، دون أن تكون الحامية قادرة على حسم الموقف، مما حمل قائدها زهير بن قيس على الرضوخ والانسحاب بمن معه إلى برقة^(١). فخلت القيروان من الجند، ليدخلها كسيلة ويصبح أميرها المطلق نحو خمس سنوات (٦٤ - ٦٩ هـ)^(٢).

ولعل طبيعة العلاقة بين البربر وبين عقبة بن نافع كانت في مضمونها

(١) كان زهير يرغب في القتال والدفاع عن القيروان حسب ابن عذاري ج ١ ص ٣٠.

(٢) المكان نفسه.

عدائية، بعد أن وجد هؤلاء في سياسة القائد الأموي تصميماً مركزاً، استهدف إلغاء شخصيتهم القومية وصهرها في مجتمع جديد تدوب فيه الكيانات ومعها الروح العصبية. فهي أول حملة في إفريقية تأخذ ذلك الطابع والمنظم، بحيث إنها اعتمدت تحقيق هدفين متوازيين: الأول هو الإحاطة بنفوذ البيزنطيين واقتلاع حامياتهم من السواحل المغربية، والثاني وهو الأهم، تثبيت الحكم الأموي في أوساط البربر ودعوة قبائلهم إلى الإسلام. ومن هنا كان انحراف عقبة جنوباً إلى معاقل البربر، دون الاهتمام كثيراً بإقليم طنجة المسالم. فشخصية القائد الذي وصف بالعنف لم تكن بالضرورة سبب تلك الغضبة البربرية، بقدر ما كان لحملته المنظمة التي اخترقت لأول مرة الحواجز التاريخية، التي أقامها البربر في وجه الفاتحين، مما سوغ على الأرجح تلك «الثورة المضادة» التي دبرها كسيلة لضرب هذه السياسة التوسعية.

يبقى أن موقعة تهودة لا زالت محاطة بشيء من الغموض. فهل سبقتها عملية استدراج من الزعيم البربري، جعلت عقبة يوزع الجزء الأكبر من جنوده في مهمات عسكرية؟ أم أن ذلك مجرد تسويغ أورده المؤرخون العرب، للتقليل من أهمية القوة القتالية لدى البربر وبالتالي لتعليل الهزيمة المدمرة؟ ذلك أن توقيت المعركة في وقت كانت خلافة دمشق تمر في أصعب مراحلها بعد موت يزيد، واستفحال الصراع بين محوري الشام والحجاز، يدفعنا إلى التساؤل عن مدى تأثير ذلك على الجبهة الإفريقية وارتباطه بهزيمة عقبة. فهل كان لهذه الأحداث الدامية من تأثير سلبي على نتائج تهودة وعلى سياسة الأموي في المغرب بصورة عامة؟ وهل كانت الدولة البيزنطية تمتلك تقويماً عن الأوضاع الداخلية المنهارة في عاصمة الخلافة؟

فتوحات العهد المرواني: استئناف الحملات المنظمة والاستقرار النهائي كانت معركة تهودة وانسحاب بقية الجيش الأموي إلى برقة كارثة جسيمة على العرب المسلمين، الذين فقدوا في تلك الضربة الصاعقة كل جهود السنوات الطويلة، وانكفأت سيادتهم إلى نقطة البدء تقريباً، أي أن

محاولات أربعين عاماً لإقامة حكم راسخ في المغرب أصيبت بالفشل . على أن الأمويين إذا فقدوا الأرض وأحبطت مشاريعهم التوسعية، فإنهم لم يفقدوا الإرادة والطموح للعمل من جديد، دون أن يعني لهم الجهد الضائع سوى الإصرار والعزم، برغم ظروف الدولة الأموية الصعبة التي لم تكن مؤهلة في ذلك الوقت للقيام بعمل عسكري، خارج نطاق المشاكل الداخلية، التي هزت دعائمها وأوصلتها إلى حافة النهاية . ففي تلك الأثناء وفي نفس العام الذي سقطت فيه القيروان في قبضة البرانس، كانت أحداث سياسية في متهى الخطورة تشهدها دمشق ومكة والكوفة ومناطق أخرى من الدولة . فقد توفي الخليفة الأموي يزيد الأول، وما كاد الخبر يأخذ طريقه إلى الانتشار ، حتى تمرد العراق وكان أول المتمردين، كتعبير عن عوامل السخط المتفاعلة في نفوس أبنائه منذ انتقال الخلافة إلى الشام الأموية، فانفجرت الثورة ملقية ألقعة الصمت في وجه عمال الدولة، وأخذت تنتقل من يد إلى أخرى، مربكة الحكم الجديد ومعيقة مشاريعه السياسية .

وفي مكة تأخذ الثورة إطاراً تنظيمياً أكثر براعة، ويفيد زعيمها عبدالله بن الزبير من كل الظروف التي اتجهت حيناً لمصلحته، فتتشر سيادته على العراق ومصر فضلاً عن الحجاز، ولكن دون أن يحسن اللعبة السياسية جيداً، فسقط من القمة . أما في دمشق فكانت المعركة سياسية بكل ملامحها، وكادت خلافة الأمويين تضيق في الجدل، لاختلاف الأسرة بعد استعفاء معاوية الثاني - أو إعفائه - على البديل، حتى انتصر أخيراً مؤيدو الشيخ المحنك مروان بن الحكم، الفائز بتأييد الحزب اليمني القوي في تلك المنطقة . فحُسم الموقف في مرج راهط لمصلحة الفرع المرواني، وجيء بشيخه إلى الخلافة (٦٥/ ٦٨٥) . ولم يكن في مقدور النظام الجديد أن يقفز فوق هذه العقبات، وأن يعبر حواجز الخطر بهذه السهولة . وإذا ما استطاع مروان إنفاذه من الضياع خلال تلك الفترة الانتقالية القصيرة، فإن ابنه عبد الملك حمل على كتفيه

العبء الأكبر في استعادة عافيته وصلابته مثبتاً أنه رجل المرحلة بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد سياسية وعسكرية.

هكذا كانت أوضاع الدولة الأموية، وهي تلملم نفسها بعد شتات وتفرق في أمواج الثورات والصراعات الحزبية، التي كانت بمجملها محصلة لسياسة يزيد وقصر نظره، تلك التي قضت بقلة من السنوات على منجزات سلفه. حدث كل ذلك في وقت كان فيه زهير بن قيس قابلاً في برقة بعد انسحابه من القيروان، ينتظر فرصته في إفريقية ويعد نفسه للانتقام من كسيلة. ولكن الخلافة الأموية كانت لديها همومها غير الإفريقية في ذلك الوقت، فانصرفت بكل طاقاتها إلى الداخل، حتى إذا توضحت الصورة ورأى عبد الملك أن خصمه العنيد ابن الزبير فقد جناحيه (المراق ومصر) وتقوقع في مكة، خالجه شعور بالإطمئنان، وبأن الوقت قد حان للاهتمام بسياسة التوسع، لا سيما على جبهة المغرب. ففي سنة (٦٩ هـ/ ٦٨٨ م)، وقبل أربع سنوات من القضاء نهائياً على ثورة الحجاز، عهد الخليفة الأموي بولاية إفريقية إلى زهير بن قيس، الخبير بشؤون هذه البلاد وزوده بعناصر إضافية من الجيش الشامي للاشتراك في الحملة الانتقامية. وكان واسطة العقد أخو الخليفة ووالي مصر آنذاك، عبد العزيز بن مروان^(١). وقد عُرف عن هذا الأخير اهتمامه الزائد في شؤون المغرب، حيث كان ذلك المجهول وراء العمليات المنظمة التي أسفرت عن فتح المغرب نهائياً في وقت لاحق، لا سيما دوره في اختيار القائد الذي ارتبط بهذه المنطقة أكثر من غيره وهو موسى بن نصير، مستشار عبد العزيز وأحد المقربين إليه^(٢).

وقد يتساءل الباحث هنا عن الأسباب التي دفعت الخلافة الأموية في تلك الظروف، إلى القيام بهذا العمل العسكري، في وقت كانت تحتاج فيه إلى

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٩.

(٢) أخبار مجموعة ص ٣. العدوي، موسى بن نصير ص ٣١.

كل طاقاتها في الحرب الأهلية الدامية. والجواب على ذلك لا بد أن يتطرق إلى تقويم حملة زهير، التي لم تكن ضمن إمكانياتها المحدودة مؤهلة لتنفيذ خطة توسعية، بقدر ما استهدفت أولاً استرجاع المبادرة من البيزنطيين لإثبات قوة الخلافة وقدرتها على القيام بعمليات عسكرية في الخارج.

وبسرعة نفذ زهير أوامر الخلافة، وسار بجيشه متخذاً الطريق التقليدي إلى القيروان، وعند اقترابه من قونية^(١) شعر كسيلة بقدمه، فخرج للتصدي له بكل قواته من البرانس ومعه عدد من البيزنطيين، معسكراً في «ممس»، وهي إحدى الوديان الواقعة على مسافة يوم من القيروان، حيث دارت معركة طاحنة انتهت بانتصار الأمويين وهزيمة البرانس وحلفائهم، ووقع كسيلة قتيلاً مع عدد كبير من جماعته^(٢). وكانت النتائج الأولى المترتبة على هذا الانتصار الباهر، استرجاع القيروان وإعادة تحصينها، ولكن دون أن يمكث فيها الأمويون طويلاً، حيث عادوا أدراجهم إلى برقة. ولا نجد تفسيراً لعودة هذا القائد، سوى أن تكون مهمته قد انتهت عند هذا الحد، انسجاماً مع العوامل المشار إليها. فكانت حملته محدودة القوة ومحدودة الهدف، ولم يكن انصرافه عن الاستقرار في القيروان بعيداً عن الشعور الحذر من البربر، الذين أثبتوا أنهم قوة عسكرية لا يستهان بها. ولكن رحلة زهير في العودة كانت مختصرة جداً، إذ فوجيء هو الآخر بحادث لم يكن في حسابه، عندما قطع عليه البيزنطيون الطريق عند درنة (على مقربة من طبرق) وقضوا عليه^(٣)، لتكفيء السيادة العربية الإسلامية مرة أخرى إلى برقة بانتظار فرصة جديدة.

حسان بن النعمان الغساني: ملامح الفتح الأخير (٧٣) / ٦٩٢ - ٧٠٤ / ٨٥ (كان حسان بن النعمان أول قائد من خارج المدرسة التي

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٩.

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣.

زودت جبهة المغرب بالقادة الكبار. فهو لم يعيش حياته العسكرية أو جانباً منها في البلاد أمثال من سبقوه، بل عاش في الشام على مقربة من أحداثها، حيث يبدو من اسمه أنه حفيد للغساسنة أمراء المنطقة قبيل الفتح. ولقد جاء اختيار عبد الملك له ليكون قائد هذه الجبهة ومعه عدد كبير من الجنود^(١)، مؤشراً إلى أن الخلافة قد انتهت من متاعبها بالقضاء على ثورة ابن الزبير واتجهت جديداً إلى المغرب. ويبدو أن عبد الملك كان على معرفة وثيقة بالقائد الجديد وبقدراته العسكرية، حين منحه تلك الثقة المطلقة، حسب رواية ابن عذاري^(٢).

وتبدو لنا شخصية هذا القائد من خلال كتابات المؤرخين، متألفة تتسم بالموهبة القيادية العالية وبالمرونة الشديدة، التي كانت متلاصقة مع أعماله الحربية، وهي أعظم صفات قائد عسكري عليه أن يبدأ من القليل في أرض يسيطر عليها الشعور بالعداء والرفض وحتى بالحقْد. فهناك تجارب مؤلمة ومثيرة، وثلاثة من القادة الكبار دفعوا حياتهم ثمناً لهذه العلاقة الغامضة بين العرب الفاتحين وسكان البلاد، الذين لم يستوعبوا هذه الحركة التوسعية ومضامينها حتى ذلك الوقت. ومن هذا المنظور كانت جبهة المغرب بحاجة إلى هذا النوع من القادة، الذين تجتمع عندهم المقدرة القيادية والسياسية معاً. بحيث تبلور ذلك في الخطة التي وضعها حسان كأساس لتحركه في المغرب، محالاً الوصول إلى قلوب البربر وعقولهم، ومن ثم اجتذابهم إلى جبهة واحدة مع العرب ضد البيزنطيين حلفاء الأمازيغ القريب. ولا شك أنه أصاب في ذلك كثيراً من النجاح، حيث أصبح هذا النهج تقليداً عاماً للسياسة الأموية في المغرب، منذ ذلك الحين.

غادر حسان مصر، (٦٩٤/٧٤)، متخذاً الطريق المعروف حتى

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٩.

(٢) «إني قد اطلقت يدك في أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك، واخرج إلى بلاد إفريقية على

بركة الله من قول عبد الملك لحسان بعد تعيينه قائداً عاماً على جبهة المغرب. ابن عذاري ج ١

ص ٣٤.

طرابلس^(١)، فالقيروان التي استعادها من غير صعوبة، حيث كانت قرطاجنة القاعدة البيزنطية الشهيرة أبرز أهدافه. ففي معركة طاحنة مع حاميتها البيزنطية، هُزمت الأخيرة وأجبرت على مغادرة المدينة مخلفة وراءها أشلاء عدد كبير من القتلى^(٢). فذهب فريق منهم إلى صقلية وآخر إلى أسبانية^(٣)، الواقعة آنذاك تحت سيطرة القوط الغربيين. فكان أن جر ذلك إلى اهتمام الأمويين بهذه البلاد لأول مرة وفي تاريخهم، أثناء حرب التصفية ضد النفوذ البيزنطي في المغرب.

كان سقوط قرطاجنة، بالغ الأثر على مسيرة الفتوحات العربية الإسلامية في المغرب. ومن المستبعد أن يكون الأسطول الأموي قد تدخل في هذه المعركة، التي يبدو أنها جرت ضمن الأسلوب القتالي المعروف. فقد حوصرت المدينة بإحكام واخترق العرب أسوارها بجرأة متناهية، لتسفر هذه العملية عن تدمير القاعدة البيزنطية العريقة وتحويلها إلى أطلال^(٤). وهكذا استطاع حسان أن يمهّد الطريق ويتابع مسيرته التوسعية على أرض صلبة في مختلف نواحي المغرب، بعد أن كانت قرطاجنة عقبة كأداء في وجه العرب، ومركزاً غذى باستمرار عوامل الثورة ضدهم والتآمر عليهم.

وتابع حسان عملياته ضد البيزنطيين الذين كُسرت شوكتهم بسقوط قرطاجنة، فشن سلسلة هجمات على مواقعهم إلى الغرب منها على امتداد الساحل الشمالي. حيث سقطت في يده بنزرت بعد معركة عنيفة شارك فيها البربر، وانسحبت قلوبهم مضطربة، نحو إقليم بونة، إلى الغرب من هذه المدينة^(٥).

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٩.

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٤.

(٣) سيده اسماعيل كاشف، الوليد بن عبد الملك ص ١٢٨.

(٤) ابن الأثير ج ٤ ص ١٨٠.

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٥.

(٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٨٠.

وبعد أن ظفر بهذا الانتصار الباهر عاد حسان إلى القيروان، ليأخذ مع جنوده نصيباً من الراحة، قبل مباشرة تنفيذ المرحلة الثانية من خطته وحسم الموقف مع البربر. ولعل حسان كان مقتنعاً حينذاك بأن سلاح المحاوراة مع هؤلاء قد تكون له نتائجها الممكنة، ولكنه ما كاد يزعم على التحرك من القيروان، حتى داهمته الأخبار عن حشد قوات ضخمة من البربر البتر، الذين تصدوا هذه المرة للأمويين بعد نكبة البرانس في ممس. وكان على رأسهم امرأة صلبة من قبيلة جراوة معروفة لدى العرب بالكاهنة^(١)، يبدو أنها كانت تعتقد باليهودية وتمارس نفوذاً روحياً على جماعتها، فضلاً عن نفوذها السياسي الواسع. وهي تختلف عن زعيم البرانس الذي كان يدين بالنصرانية على الأرجح، حيث الديانات السماوية كانت قد أخذت طريقها إلى المغرب مع الدول التي كانت تجتاحه بين الحين والحين. فانتشرت المسيحية بصورة خاصة في المدن والمناطق الأكثر قرباً من السواحل أي من أماكن استقرار البرانس، بينما كان اليهودية أكثر توغلاً في الداخل بعد أن آمن بها فريق من البتر. على أنه تجدر الإشارة إلى أن كلاً من الديانتين لم تستطع الثبات وسط ضروب الجدل ومعارك الاضطهاد، بحيث ظلت الوثنية التي تستمد عباداتها من الظواهر الطبيعية الأكثر شيوعاً بين صفوف البتر^(٢).

وعلى الرغم من المفاجأة التي أحدثتها تحرك الكاهنة فلان القائد الأموي لم يفقد المبادرة السريعة، بل تحرك بدوره لاعتراضها في باغاية^(٣). ولكن الكاهنة كانت أكثر سرعة بدخولها إلى المدينة والاعتصام فيها، بحيث وقعت معركة عنيفة على مقربة منها^(٤)، انتهت بهزيمة الأمويين وفقد عددًا من

(١) كان اسمها الحقيقي داهية بنت مانية بن تيفان.

(٢) العبادي، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٢٧.

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٣٥.

(٤) غير نيفي عند ابن عبد الحكم ص ٢٧٠ ووادي العذارى عند ابن عذاري ج ١ ص ٣٦.

جنودهم بين قتيل وأسير^(١). غير أن الهزيمة لم تكن ساحقة على غرار الهزائم السابقة، فقد استطاع حسان أن ينجو بنفسه ويقود عملية التراجع والانسحاب إلى برقة للمرة الثالثة منذ معركة نهودة ومقتل عقبة بن نافع.

وتصاب مرة أخرى جهود العرب المسلمين في المغرب بالخيبة وتعجز أقدامهم عن الثبات فيها، ولكن هزيمتهم هذه المرة لم تكن خسارة كل شيء، لأن حملة حسان الأولى استطاعت بدون مجال للشك أن توقع الضربة القاضية بالنفوذ البيزنطي في المغرب، على الرغم من استعادتهم قرطاجنة إثر هزيمة حسان الذي تمكن من ضرب قواعدهم الأساسية قبل ذلك، وفي نفس الوقت لم تنجح الكاهنة بعد انتصارها على الأمويين في إقناع كافة البربر^(٢) بزعامتها المطلقة. ولعل نظريتها العقيمة في اتباع سياسة الأرض المحروقة، قد أثارت عليها سخط البربر لاعتقادها أن الحملات الأموية إنما كانت تستهدف المدن الكبرى بما فيها من مغانم وعمران. وهكذا كان الوقت حليفاً للقائد الأموي خلال السنوات التي قضاها في برقة، منتظراً جولته الثانية مع الكاهنة، دون أن يفقد ثقة الخليفة الذي منحه فرصة جديدة^(٣) (٨١/٧٠٠)، لاستئناف عملياته التوسعية في المغرب والقضاء على زعيمة البربر. والواقع أن الظروف كانت أكثر ملاءمة هذه المرة، عندما وجد حسان أن حكم الكاهنة قد استنفد نفسه، وأن عدداً غير قليل من البربر لا سيما البرانس، كان توافاً إلى الخلاص من تسلط البتر واستبداد الكاهنة الذي جر معه البلاد إلى خراب^(٤).

سلك حسان بقواته الطريق التقليدي حتى قابس، إلى الجنوب الغربي من صفاقس، ومن هناك انعطف شرقاً عبر الطريق الصحراوي إلى حصون الكاهنة

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٧٠.

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٧.

(٤) ابن عذاري ج ١ ص ٣٦.

في الأوراس . ويبدو أن جانباً كبيراً من قبائل البربر قد وقف موقف الترحيب من حملة حسان، بعد أن أدرك إصرار الأمويين على المضي في عملياتهم العسكرية في المغرب . وهكذا لم تكذب تظهر طلائع الحملة الأموية حتى تغيرت الصورة واستبدل العداء بالترحاب، ودخلت أفواج من البربر تقاتل إلى جانب العرب المسلمين ^(١)، معلنةً بداية الانقلاب الجذري في تاريخ المغرب وارتباط الفريقين بمصير واحد وقضية مشتركة .

ولا شك أن تعزيز الجيش الأموي وتطعيمه بعناصر من البربر، على معرفة جيدة بطبيعة الأرض ومتقنة أساليب حرب الجبال، قد ترك انعكاسه السلبي على الكاهنة، التي انكفأت على أعقابها بعد أن شعرت باختلال الموازين العسكرية لمصلحة العرب المسلمين . وفي نفس الوقت كان حسان يتابع تقدمه المظفر في أقاليم المغرب الأوسط متعقباً فلول الكاهنة، التي لم تشأ متابعة لعبة الفرار حتى النهاية، عندما أرادت وضع حد لها بالعودة إلى القتال . وتكون معركة حاسمة عند بئر الكاهنة ^(٢) (يعتقد أنه أحد المعامل في منطقة الأوراس سمي كذلك تيمناً بها)، تنتهي بهزيمتها وقتلها (٨٣ / ٧٠١) ^(٣) .

وبهذه المعركة نستطيع القول إن عملية فتح المغرب، قد دخلت آخر مرحلة من مراحلها الصعبة الطويلة، بعد أن أصبح التقدم في شتى الأقاليم سالكاً دونما وجل أو خوف من المفاجآت . صحيح أن الفتح لم يستكمل نهائياً بعد، لأن جيوشاً من المقاومة البيزنطية وبعض البربرية لا تزال بحاجة إلى تصفية، إلا أن الموقف العام قد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك متجلياً ذلك في تحرك القائد الأموي والانتقال سريعاً إلى جبهة ثانية ضد البيزنطيين، الذين استعادوا قرطاجنة في أعقاب هزيمته الأخيرة . وكان الامبراطور البيزنطي ليونيتوس Leonitus، قد أرسل حملة بحرية نجحت في السيطرة على المدينة

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٧١ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٣٨ .

(٧٧ / ٦٩٧)^(١)، في غياب المقاومة الأموية، غير أن حسان تمكن من استردادها وتخريب ما عمر فيها أثناء عودة البيزنطيين إليها، مؤدياً سقوطها هذه المرة إلى زوال كل أثر للسيادة البيزنطية على السواحل الشمالية للمغرب. وكانت الخطة تقضي بتخريب معاقل البيزنطيين للحؤول دون عودتهم إلى هذه البلاد، فضلاً عن الشروع في إنشاء قاعدة عسكرية بحرية على مسافة قريبة من قرطاجنة، حيث اتخذ من تونس^(٢) البلدة القديمة مركزاً لها. وكان ذلك إجراء لا بد منه، في وقت انتشرت فيه السيادة الأموية فوق هذه المساحة العظيمة من الأرض، حفاظاً عليها من غزوات البيزنطيين الذين ما انفكوا يحتلون المرتبة الأولى في السلاح البحري. وبذلك تظهر نواة البحرية الأموية في المغرب، لتصبح بعد قليل من السنوات قوة فاعلة وقادرة - ليس فقط على حماية شواطئها - وإنما على التوغل في عرض البحر وشن غاراتها على جزره المنتشرة هنا وهناك.

بعد تصفية المراكز البيزنطية والقضاء على شوكة البربر، عاد القائد الأموي إلى القيروان، لأن مهمات أخرى على جانب من الأهمية كانت في انتظاره، لتكون آخر مراحل الاستقرار العربي الإسلامي في تلك الأرض. فأنصرف وقتاً ما إلى معالجة الشؤون المتعلقة بالدواوين والخراج والجيش والشرطة^(٣)، وغيرها من الإجراءات التقليدية التي تتخذ عادة في البلاد المفتوحة، فضلاً عن الاهتمام التبشيري وتجنيد الفقهاء للتوغل بين قبائل البربر، ونشر الإسلام واللغة العربية في صفوفهم^(٤). وقد أعطت هذه السياسة الحكيمة ثمارها السريعة، حيث يعود الفضل في ذلك إلى هذا القائد، الذي استطاع بجرائته وتسامحه، إخراج البربر من عزلتهم التاريخية وإدخالهم في بوتقة

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٧ ص ٣٨٧.

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٤ - ٣٥.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٧١.

(٤) ابن عذاري ج ١ ص ٣٨.

الحكم العربي الإسلامي، بعد أن مارسوا دورهم الفعال في استكمال عمليات الفتح بشكلها النهائي في المغرب، ومن ثم استئنافها على الضفة الأخرى من المضيق، حيث كانت طلائع هذه العمليات في غالبيتها من البربر.

ومن الضروري الإشارة إلى أن بعض العوامل التي كان لها دور إيجابي في تغيير الاتجاه العام لحركة التوسع وتحقيق هذه الانتصارات في المغرب، هي أن المقاتل العربي صهرته الحروب في هذه الجبهة واكتسب خبرة بطبيعة البلاد الجبلية، مما يعني استحداث فنون قتالية جديدة في ضوء خبرات البربر في هذا المجال. كما أن شخصية القائد حسان الذي اكتسب بدوره تجارب سابقة في فهم العقلية البربرية، ساهمت في تعديل الموقف لمصلحة العرب المسلمين. فقد اتبع هذا القائد سياسة جديدة، في التودد إلى البربر واحترام استقلاليتهم، التي لم تعد مصالحها تتنافر مع قدوم هؤلاء، وما يحملوه من عمران وتمدد إلى هذه المنطقة.

وهكذا سطعت القيروان التي اتخذت طابعاً عسكرياً محضاً منذ أيام مؤسسها عقبة بن نافع، لتأخذ دورها السياسي والإداري والثقافي كعاصمة للمغرب أو الولاية الإفريقية^(١)، حسب التعبير المتداول في ذلك الزمن. ففي أقل من سنوات ثلاث، دأب حسان بن النعمان على إظهار هذه المدينة بالمظهر اللائق الذي يطمح إليه، ولكن ثمة تغييرات إدارية مفاجئة أدت حينذاك إلى تنحية حسان عن ولاية المغرب وهو بعد في ألق مجده السياسي، فغادر القيروان سنة ٨٥ هـ على الأرجح وغاب في النسيان. وتنطوي بذلك صفحة هامة من تاريخ المغرب، تألق فيها أحد قواده الكبار الذين تابعوا مسيرة الفتح، دون أن يكون لذلك انعكاس ما على هذه الجبهة يتعدى تغيير القائد، بينما ظل نهجه السياسي قائماً، ولم يطرأ عليه تغيير. وحسب المصادر فإن ظل الحاكم الأموي في مصر - وأخي الخليفة عبد العزيز بن مروان - يقف

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٤.

وراء هذا الإجراء الإداري^(١)، انطلاقاً من العلاقة الوثيقة التي شددت
الوالي الجديد إلى البيت المرواني، لا سيما عبد العزيز^(٢)، الذي اختاره
لهذه المهمة عن سابق تصميم وثقة كبيرة بأنه رجل المرحلة المناسب.

موسى بن نصير: الفتح الأخير (٧٠٧/٨٦ - ٧١١/٩٠) كان موسى بن
نصير قبيل اختياره والياً على المغرب، «مستشاراً» لوالي مصر النافذ والمرشح
للخلافة بعد أخيه عبد الملك. وكانت تربط الرجلين ببعضهما علاقات
إعجاب متبادلة، حيث استمد الأول هذا الشعور من ولاء أسرته القديم
للأمويين، وحفظ الثاني تقديراً ومودة لهذا الرجل الذكي المتحدر من بكر بن
واثل^(٣)، تلك القبيلة التي لنجبت عدداً من القواد الذين شهدت لهم جهات
الفتح في كل مكان لا سيما الجبهة العراقية.

وهكذا فإن ولاية المغرب ستعرف قائداً من العسكريين المحترفين الذين
مروا في تاريخها منذ أكثر من نصف قرن، ولكنه تميز عن هؤلاء باحترافه
الحرب البحرية منذ وقت مبكر إلى جانب إتقانه فنون الحرب البرية، فضلاً
عن شخصية جذابة وتجربة طويلة في عالم السياسة، حيث عاش عن كثب
مشاكل الدولة الأموية، واكتسب منها الخبرة والمعرفة. فلا عجب أن وصف
موسى، بأنه من أقدر رجالات الدولة الأموية والمعهم ذكاء في تلك الفترة^(٤).

اتجه موسى إلى القيروان ومعه أبناءه الأربعة^(٥)، الذين سيكونون يده
اليمنى في المهمات الصعبة، أما تاريخ ذلك فقير معروف بالتحديد، لأن
مصادر المؤرخين ليست متفقة على تحديد السنة التي تم فيها انتقال القائد الأموي إلى

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٩.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٠.

(٣) قيل أنه من لحم أيضاً. المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩. إبراهيم العلوي، موسى بن نصير
ص ٣-١٤.

(٤) مؤنس، فجر الأندلس ص ٤٦.

(٥) عبد الله، عبد الملك، عبد العزيز، مروان.

مركزه الجديد^(١)، وإن كان من المرجح أن هذه الحادثة تمت في سنة ٨٥هـ، أي قبل وفاة عبد العزيز بن مروان التي صادفت في تلك السنة. وسواء تم ذلك قبل وفاة حاكم مصر أم بعده، فإن خليفته عبدالله بن عبد الملك أكد هذا التعيين دونما اعتراض، لموافقة الخلافة مسبقاً عليه. ولعل هذا التضارب في تحديد السنة التي غادر فيها موسى إلى المغرب، مبعثه أن تلك الحقبة كانت غنية بالأحداث الهامة، من موت عبد العزيز ولحاق أخيه الخليفة به بعد سنة واحدة، ثم مجيء الوليد إلى الخلافة (٧٠٥/٨٦). ومهما كان الاختلاف في هذا السبيل، فإن الخليفة الجديد لم يحدث تغييراً في الإجراءات التي تم اتخاذها في المغرب أثناء خلافة أبيه، بل على عكس ذلك، فقد بادر الوليد إلى تثبيت موسى في مركزه وإعطائه صلاحيات شبه مطلقة، حتى أن البعض يعتقد بأن اختيار موسى قد تم في عهد الوليد، لكثرة ما ارتبط الإسمان ببعضهما، خلال تلك المرحلة العثيرة من تاريخ الدولة الأموية.

وكان موسى وهو في الطريق إلى مركز عمله، تتنازع أفكار وتصورات، كونها عبر معاشة طويلة لفتوح المغرب، لا سيما أثناء عمله في مصر متبعاً باهتمام نشاط القائد السابق حسان بن النعمان. فلقد رأى موسى أن السبب الرئيسي وراء تعثر محاولات الاستقرار في المغرب إنما يعود إلى ضعف العرب المسلمين في السلاح البحري^(٢)، مما دفعه إلى سد هذه الثغرة بالسرعة القصوى. كما رأى أن تقصير القواد السابقين في إعطاء القيروان ما تستحقه من اهتمام، بحيث تصبح قلعة حصينة في قلب إفريقية، قد نتجت عنه انتكاسات كثيرة، لافتقارها إلى عدد كاف من الجند وبالتالي إلى غطاء دفاعي جيد، مما جعلها غير مؤهلة للقيام بدورها المطلوب. ومن ناحية أخرى فقد وجد أن أفضل الوسائل في اجتذاب ولاء البربر، هي التعاون معهم ضمن

(١) يتأرجح ابن عبد الحكم بين سنتي ٧٩ و ٨٦ هـ. فتوح مصر والمغرب ص ٢٧٤. أما ابن عذاري فيجعلها في حدود ٨٥ هـ. البيان المغرب ج ١ ص ٤١.

(٢) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية ص ١٠٢.

الإطار العام الذي وضع أساسه حسان بن النعمان. لهذا كان في ذهنه العمل على أن تستوعب السلطة قبائل البربر ويتعايش معها العرب سواء في السلم أم في الحرب، محققة هذه العلاقة ذروتها من النجاح في عهده. وثمة أفكار أخرى لعلها راودته في ذلك الحين أو أن الظروف القائمة فرضتها فيما بعد، حيث لا نملك المعطيات الدقيقة لما كان يجول في رأس هذا القائد الكبير عند وصوله إلى القيروان.

والواقع أن المغرب لم يكن قد أسلس الأمر فيه للأمويين بصورة كاملة، فلا زالت في جزئه الأقصى على وجه التحديد، مواقع هامة خارج دائرة السيادة الأموية، كما كان الأمر يتطلب بعض الإجراءات التأديبية ضد الهاربين من البربر والمعتصمين في هذه الجهات. وما كاد يتسلم موسى مهامه حتى باشر فوراً في توزيع قواده تبعاً للحاجة، حيث كانت أول حملة تشق طريقها إلى زغوان^(١)، وهي قلعة جبلية بين تونس والقيروان، وقد أسفرت عن إسقاط القلعة والسيرة الكاملة على المنطقة المحيطة بها. وهذه الحملة مع حملات أخرى أمكنها تطهير المغرب الأوسط دون صعوبة، لا سيما تلك التي قادها بنفسه إلى سجوما في المنطقة التي تقع فيها تهودة، حيث سقط عقبة بن نافع قبل نحو ربع قرن، وقد شاركه أبناء هذا الأخير في هذه الموقعة الهامة^(٢).

وتأخذ عمليات المطاردة للمتمردين البربر في الاتساع حتى إقليم السوس الأقصى ووادي درعة، في أطول امتداد في عمق المغرب. وكانت حملة السوس بقيادة مروان بن موسى قد ضمت لأول مرة عدداً من البربر، وصل إلى أكثر من ألف مقاتل، إلى جانب ألف وسبعماية من العرب^(٣). ومن

(١) كانت بقيادة عبد الله الحشيني. ابن عذاري ج ١ ص ٤١. العلوي، موسى بن نصير ص ٣٧.

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٤١.

(٣) حسين مؤنس، فجر الأندلس ص ٤٩.

السوس الأقصى إلى السوس الأدنى المجاور لإقليم طنجة، قاد موسى حملة بنفسه إلى عاصمته، الواقعة تحت حكم يوليان البيزنطي، الذي تمتع بنفوذ شبه استقلالي في تلك المنطقة الشمالية. ولم يجد موسى عناء في السيطرة على المدينة، التي تحولت إلى مركز عسكري لتموين حملات الأمويين في تلك الجهات، بعد أن عهد بقيادة حاميتها إلى ابنه مروان ثم إلى طارق بن زياد^(١)، أحد القواد البربر في جيش موسى^(٢)، الذي شارك بدور فعال في عدد من المهمات العسكرية الصعبة في تلك المرحلة. وانتهت عند هذا الحد أعمال موسى بن نصير التوسعية في المغرب، بعد خضوع جميع أقاليمه، باستثناء سبتة عاصمة يوليان. فالحاجة إلى إخضاعها كانت غير ملحة، لأن ظروفاً استجدت بعد سقوط طنجة، ومحاولة اكتشاف المجهول عبر ذلك الحاجز الضيق، الفاصل بينها وبين أسبانية. وسيكون لسبتة دورها المثير في تعديل الخطة الأموية، وتشجيع العرب المسلمين على القيام بأجراً مغامرة في تاريخهم العسكري.

وقد عاد موسى إلى القيروان، بعد أن حقق الفصل الأخير من أطول مهمة عسكرية خاضها العرب على مدى سبعين من الأعوام، ذاقوا خلالها ألواناً شتى من الهزائم والانتصارات، إلى أن جاء موسى فقطف جهود السابقين وأضاف إليها جهوده الخاصة، ليدخل التاريخ من أوسع أبوابه. وفي عاصمته شرع أمير القيروان - وهو اللقب الذي عُرف به - بإعادة تنظيم المدينة وتحويلها من قاعدة عسكرية، إلى مركز إداري وسياسي وثقافي، ينافس المراكز الشهيرة في المشرق العربي. ولا ريب أن القيروان اتخذت سماتها الجديدة، التي أعطتها شهرتها الذائعة في التاريخ، على يد موسى بن نصير.

ولكن الهاجس الأكثر إلحاحاً في حياة أمير القيروان في ذلك الحين، كان

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٧٥.

(٢) ينسب المؤرخون لقبيلة نفزة البربرية. ابن عذاري ج ١ ص ٤٣.

العمل على تنفيذ القوة البحرية التي كانت نقطة ضعف الولاية، المهددة سواحلها بالغزو البيزنطي . وهنا تكمن نظرة موسى البعيدة، عندما يذل أقصى جهوده لصنع قوة بحرية واتخاذ تونس القاعدة العربية الجديدة مركزاً لها، حيث لم يمض سوى قليل من الوقت، حتى ظهر إلى الوجود أسطول حربي من مائة سفينة . وقد ورثت تونس بغير جدال قرطاجنة قاعدة البيزنطيين القديمة وتفوقت عليها، كونها محمية أكثر من الأخيرة، لابتعادها عن الساحل نحو اثني عشر ميلاً^(١) واتصالها به عبر قناة تلجأ إليها السفن عند الحاجة . ومن تونس قامت سلسلة من العمليات، استهدفت جزر صقلية وسردينيا ومايورقة، حيث الأخيرة تقع على مقربة من الساحل الإسباني الشرقي .

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٤ .

الفتح العَرَبِي لِإِسبَانِيَّة

اسبانية القوطية عشية الفتح

تقع اسبانية أو شبه جزيرة ايبيرية على مثلث من الأرض (يضيق شرقاً ويتسع غرباً)^(١)، في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية مقابل السواحل الشمالية للمغرب، حيث يفصل بينهما ما كان يُعرف قديماً ببحر الزقاق^(٢) أو مضيق جبل طارق، الاسم الذي غلب عليه منذ الفتح الأموي لاسبانية. أما في الشمال فتصل

بفرنسا (بلاد الفرنجة قديماً) بواسطة سلسلة جبلية تعرف بجبال البرانس (البيرييه Pyrenaei)، التي تتخللها شعاب ضيقة وممرات قديمة، أشهرها ممر رونسسفال Roncesval. أما بقية حدودها فتنتشر ما بين البحر المتوسط في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب مع قسم من الشمال. وقد ارتبطت اسبانية تاريخياً، بالاسم الذي عُرفت به في العهود الاسلامية وهو الأندلس، فأصبحت الكلمتان مترادفتين منذ القرن الثامن الميلادي^(٣). وعلى الرغم من أن الأندلس لا تعني جغرافياً كل اسبانية لأن سيادة العرب المسلمين، لم تنتشر

(١) الحميري، الروض المعطار ص ٢.

(٢) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨.

(٣) الروض المعطار ج ١ ص ٢.

بصورة مطلقة على جميع أجزائها، فقد ظل التداول بهذا الاسم شائعاً حتى في الوقت الذي تقلصت فيه هذه السيادة وتوقفت في الجنوب .

أما مدلول الكلمة الحقيقي والتداول حتى اليوم فيُقصد به جزء فقط من اسبانية، وهو ذلك الجزء الممتد إلى الجنوب منها ويضم المدن التي شغلت أدواراً سياسية بارزة في أيام العرب، مثل قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقة والمرية^(١) وغيرها. فلم يكن العرب إذن يتداولون سوى لفظة الأندلس في التعبير عن اسبانية (اسبانية Hispania) - الاسم القديم الذي استعمله الرومان - أو (إيبيرية Iberia) حسب التعبير اليوناني . وقد حملت إلينا كتب التاريخ، معلومات مبهمة أحياناً وأسطورية أحياناً أخرى في تفسيرها لهذه الأسماء . فاسبانية يعتقدون أن لها مدلولاً جغرافياً بمعنى البلاد الواقعة إلى الغرب، أو أنها مشتقة من اشبان الاسم الأول لأحد ملوك الأندلس الأقدمين^(٢) . أما إيبيرية فيعتقدون أنها اسم لشعب شارك في سكنى هذه البلاد فعرفت به^(٣) . وتبقى التسمية العربية (الأندلس) Vandalucia، المأخوذة على الأرجح من الفندال (الوندال) Vendals، اسم القبائل الجرمانية التي حكمت اسبانية وجزءاً من المغرب في مطلع القرن الخامس الميلادي^(٤) .

أما سكان هذه البلاد، فقد اختلفت الاجتهادات في تحديد الأصول العرقية التي ينتمون إليها. فهناك نظرية تقول بأنهم مزيج من شعوب قديمة كلتية وإيبيرية، دخلتها تأثيرات يونانية وآسيوية (قرطاجنة) باعتبار أن الأغريق والقرطاجيين، عرفهما البحر المتوسط منذ العصور القديمة، وكانت لهما مستعمرات ومحطات تجارية فيه امتد بعضها إلى اسبانية. على أن ذلك يبدو غامضاً ويجد الباحث صعوبة في تحديد رأي نهائي حوله، وذلك

(١) الروض المطار ص ١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٣٥ .

(٣) الروض المطار ص ٥ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٥٣ .

لتعدد النظريات واختلافها. ولكن الصورة تتضح أكثر بعد قيام دولة الرومان، حيث كانت اسبانية إحدى ولاياتها الغربية منذ النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، فارتبطت حضارياً بالرومان، تسود فيها لغتهم وقوانينهم، وديانتهم التي تحولت إلى المسيحية في وقت متأخر. وحتى العنصر اللاتيني السائد في روما انتشر أيضاً في اسبانية، مع أعداد غير قليلة من اليهود، تسربت إليها في تلك الأثناء واتخذت من المدن الكبيرة بصورة خاصة أماكن استقرارها وتجارها.

وقد ظلت اسبانية إقليمياً رومانياً حتى أواخر القرن الرابع الميلادي، الذي كان بداية النهاية للامبراطورية الرومانية بالمفهوم الشامل لهذه الكلمة. فعند ذلك الحين أخذت تتعرض لاضطرابات داخلية، بدأت بانتقال امبراطورها قسطنطين الأول إلى الشرق واستقراره في القسطنطينية التي أخذت تنمو وتوسع على حساب روما، وما رافق ذلك من ضغط البرابرة على جميع الأقاليم في الامبراطورية. وإذا كان القسم الشرقي قد صمد أمام موجات البرابرة، فإن القسم الغربي كان عليه أن يدفع الثمن باهظاً، حيث وصل في نهاية الأمر إلى روما نفسها، التي استسلمت نهائياً للجرمان في أواخر القرن الخامس الميلادي.

وإذا كان الوندال، إحدى جماعات المتبربرين من الجرمان، قد اقتنعوا بالولاية الرومانية الغربية (اسبانية) وبعض سواحل المغرب في أفريقية، فإن آخرين أشد جراً استهدفوا روما نفسها، حيث دخلها القوط الغربيون سنة ٤١٠ م بزعامة «الأريك» ونشروا فيها القتل والخراب. ولكن إقامة هؤلاء لم تطل كثيراً في روما التي ظفروا منها بما أرادوه، قبل أن ينجح الامبراطور هونوريوس في إقناع «أدلفو» Ataulfo خليفة الأريك بالانسحاب منها، لقاء مساومة على الاقليم الغربي (اسبانية وجزء من غالة). غير أن الرحلة إلى هذا الاقليم كانت شاقة أمام القوط الغربيين، لأن صراعاً على السيادة نشب بينهم وبين الوندال استمر لفترة غير قصيرة. ولكن أدولفو استطاع أخيراً، أن يحقق

الانتصار لقومه وأن يدفع الوندال تحت ضغط هجماته إلى مغادرة اسبانية والاستقرار في سواحل المغرب (٤٢٩ م). وفي نهاية الأمر أقام القوط في اسبانية، بعد أن تخلوا عن اقطاعاتهم في غالة تحت ضغط الفرنجة (من الشعوب الجرمانية)، وأقاموا دولة مستقلة جرمانية الطابع اريوسية المذهب^(١). غير أن اللاتينية ظلت اللغة الرسمية في الدولة، التي استمدت قوانينها ونظمها الإدارية والاقتصادية من النظام الروماني.

ولعل الهدف هنا ليس دراسة تاريخ الدولة القوطية وأخبار ملوكها، لأن ذلك خارج عن إطار هذه الدراسة. فالغاية من هذه المقدمة القاء نظرة عامة على أحوال هذه الدولة التي أصبحت هدف الجيوش الأموية منذ سقوط طنجة. ولا بد للتأخر حينذاك إلى اللوحة السياسية في اسبانية القوطية، أنه سيجدها مشوشة إلى حد كبير. فملوك القوط برغم تحولهم إلى الانثاسيوسية، مذهب السكان الأصليين، فقد ظل الامتزاج الحضاري مفقوداً، حيث منطلق القوة الذي اعتمده القوط في بناء دولتهم، كان هو القانون السائد حتى نهاية هذه الدولة. فهناك تناقضات أصابت شتى جوانب الحياة فيها، العراقية والمذهبية، فضلاً عن الاضطهاد الديني، والصراعات السياسية الأخرى التي كان مسرحها الأسرة المالكة نفسها.

ويستطيع الباحث أن يدرك من غير صعوبة طبيعة المجتمع القوطي في اسبانية في ذلك الوقت، وهو بالضرورة انعكاس واضح لسياسة الملوك القوط، التي فشلت في تحقيق مجتمع موحد المصالح والانتماء. ولعل أكثر الفئات معاناة من جراء هذه السياسة، كانت فئة التجار وصغار الملاكين والمزارعين، الذين كان على عاتقهم وحدهم عبء الضرائب الثقيلة، التي لم تكن في أغلب الأحيان تتكافأ مع انتاجهم الهزيل. على أن أوضاع هذه الفئة كانت

(١) تحول مذهب المملكة القوطية في مجمع طليطلة سنة ٥٧٨ م إلى الانثاسيوسية (الكاثوليكية فيما بعد).

أفضل بكثير من أوضاع اقنان الأرض، المرتبطين فيها مع عائلاتهم والمتقنين معها من مالك إلى آخر^(١)، فضلاً عن العبيد المعدمين الذين استغلوا أسوأ أنواع الاستغلال. ومن البديهي أن نشير إلى أن هؤلاء جميعاً كانوا مسخرين لرفاهية الفئات الرفيعة من النبلاء والأسرة الحاكمة، التي احتكرت في يدها كل المناصب الرسمية والأراضي الزراعية الخصبة، ومعها رجال الدين المشاركون بصورة خاصة في ملكية الأرض، كما تمتعوا بسلطة قوية في أجهزة الدولة ويدور أساسي في اختيار الملوك. وفي وسط هذه اللوحة المضطربة الألوان، كان اليهود المشتغلين بالربا والصيرفة، ترهقهم الضرائب الباهظة وتشد عليهم قبضة الاضطهاد الديني، فينقمون ويتآمرون.

هكذا كانت تبدو صورة المجتمع الاسباني تحت حكم الملوك القوط، بكل ما فيها من تناقضات سياسية واجتماعية ودينية، حيث يكمن المؤشر الطبيعي لانهايار هذه الدولة، وتعجل على تنفيذه رياح الأزمة السياسية، التي عصفت بالأسرة الحاكمة عشية الفتح الأموي. ففي تلك الأثناء كان ويتزا Witiza على عرش اسبانية، وهو الملك قبل الأخير من ملوكها، حيث وصفته بعض الروايات، بأنه كان ملكاً سيئاً مشغولاً بأموره الخاصة^(٢). ومن المعتقد أن الكنيسة كانت وراء هذه الحملة عليه، بسبب موقفه المتشدد من امتيازات رجال الدين وتدخلهم في شؤون الحكم، وسياسته المتسامحة مع أصحاب الأديان والمذاهب المخالفة لمذهب الدولة^(٣). وكان ذلك حافزاً لاستعداد الكنيسة والاطاحة به، بمساعدة رودريكو Rodrigo - أحد قواد الجيش - الذي نجح بصعوبة في إزاحته عن العرش والجلوس مكانه. غير أن ذلك لم يمه الأزمه السياسية في دولة القوط، لأن ولدي الملك السابق^(٤)،

(١) العبادي، المجلد من تاريخ الأندلس ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) يسميه العرب غيطشة.

(٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ١/٣٢.

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٤.

(٥) ليفا وسيزبوت، أخبار مجموعة ص ٨.

حملاً راية المعارضة ضد الملك الجديد، بمساعدة أسقف طليطلة، وبدعم من صغار رجال الدين المؤيدين لسياسة الملك السابق. فاستمر الوضع الداخلي في هذه الدولة ممزقاً تتجاذبه رياح الحرب الأهلية بين وقت وآخر، ويتفاقم فيه غضب الفئات المنهكة بالضرائب وبصنوف الاضطهاد والقهر.

مراحل الفتح العربي لاسبانية

في ذلك الوقت، حيث دولة القوط تحتاز أعظم المحن، كان العرب المسلمون على الضفة الأخرى من المجاز، مبتهجين بانتصارهم النهائي والسيطرة على جميع المغرب، بعد أطول حرب في تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية، كان من آثارها عسكرياً أنها أمنت الخط الدفاعي لجناح الدولة الأموية من الغرب، وقضت على مراكز النفوذ البيزنطي ومعها أسطورة التفوق في سلاح البحر. كما انها خلقت جيلاً من المقاتلين الذين خبروا كل صنوف القتال، فأصبحت الحرب لديهم احترافاً من الصعب أن يتخلوا عنه أو يركنوا إلى عمل آخر غيره. كانت تلك المشكلة من أصعب المشاكل التي ظهرت في أعقاب الفتح العربي للمغرب، دون أن يكون وارد في تلك الأثناء امتداد حركة التوسع إلى الجنوب والانتشار في مجاهل الصحراء في حرب مكلفة ليس وراءها طائل^(١)، مما جعل الاتجاه نحو الشمال هو الاتجاه المقبول والطبيعي. ومن ناحية ثانية فإن هنالك العامل الجغرافي لعب دوره الرئيسي في هذا المجال، وجعل من اسبانية أقرب إلى المغرب وطبيعته، من أوروبا التي تفصلها عنها جبال البرينيه العالية. كذلك لا يمكننا إهمال العامل التاريخي، بما يمثل من ظروف مشتركة ومتشابهة مرّ بها البلدان منذ أقدم العصور.

ومن هنا كان التوجه نحو اسبانية ضرورة حتمية، فرضتها سياسة التوسع، التي كانت طابع الدولة العام أثناء خلافة الوليد. ولا نستبعد أن تكون فكرة الفتح الأموي لأوروبا، مطروحة للمناقشة في بلاط الخليفة، ثم تبلورت بعد

سقوط طنجة المشرفة على اسبانية . وهكذا فإن الباعث السياسي هو المحرك الأول للعملية الجريئة التي قام بها العرب المسلمون بقيادة موسى وطارق . وإذا كانت هناك بواعث اقتصادية ، فهي تأتي مكملة وإضافية ، ولا يضير أن تكون كنوز طليطلة حسبا أشير ، قد أثار شهية المقاتلين العرب ونفخت فيهم الحماسة ، وهذا ما رَجَّح التحول إلى الشمال وأسقط فكرة التوغل في افريقية .

وفي هذا الاطار لا بد للباحث أن يجد أمامه شخصية يوليان الغامضة ، برغم الاخبار الكثيرة عنه . فالمصادر القديمة توحى بأنه وراء فتح الأندلس لاعتبارات شخصية ، وفي بعض الأحيان سياسية . ويلحق الغموض هوية هذا الرجل ، فيختلط الأمر على المؤرخ فيما إذا كان بيزنطياً يمثل آخر سيادة البيزنطيين في افريقية ، أم قوطياً يتبع مملكة القوط في اسبانية ، أم بربرياً يجسد سيادة البربر على أرضهم ، إلى آخر هذه الافتراضات التي تصل أحياناً إلى حد الطعن بوجوده ، واعتباره مجرد أسطورة من صنع المؤرخين .

بيد أن الدراسات التاريخية الحديثة بعد مقارنات دقيقة ، أمكنها التثبت من شخصيته وتحديد انتمائه البيزنطي^(١) ، حيث كان حاكماً شبه مستقل على الشريط الساحلي بين طنجة وسبتة ، متنهزاً ضعف السيادة البيزنطية هناك ، نتيجة للضغوط العسكرية من جانب العرب المسلمين . ويبدو أن يوليان كانت له علاقات ومصالح مع الحكم القوطي في اسبانية خاصة مع الملك ويتزا ، ولهذا سخط على انقلاب روذريق ووقف ضده ، مؤثراً التعاون مع فريق الملك السابق في محاولته استرداد العرش لأحد ابنه^(٢) . ونحن إذا سلمنا بهذه المعطيات وبدور يوليان في عملية الفتح ، وهو دور محسوس ، إلا أن حكاية فلورندا Florinda^(٣) ابنته ، ومحاوله الانتقام لشرفه الملوث من الملك

(١) مؤنس ، فجر الأندلس ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٣٩ .

(٣) نقول الرواية التاريخية إن يوليان أرسل ابنته الى بلاط الملك القوطي عل عادة الأسر النبيلة للتأديب =

القوطي، لا تعدو أن تكون سبباً واهياً حتى في حال اثباتها وهو أمر مشكوك فيه. على أن انتفاء أسطورة فلورندا لا يعني غياب دور يوليان في عملية الفتح الأموي لاسبانية، لأن اتصالاته مع خصوم الملك في طليطلة وحملهم على التعاون مع العرب، كان لها صداها النفسي المؤثر، حيث اعتقد هؤلاء أن دخول «حلفائهم» إلى اسبانية لن يكون أكثر من حملة تأديبية سرعان ما تنتهي لمصلحتهم. كما أن المعلومات الدقيقة عن أوضاع اسبانية ومشاكلها السياسية، فضلاً عن المساعدات المادية الهامة، كل ذلك أعطى ثماره في تسهيل عملية الفتح، التي كانت قد اختمرت آنذاك لدى القيادة الأموية في القيروان. ولاريب أن يوليان كان حريصاً من وراء ذلك على انقاذ رأسه، بعد أن أصبح الأمويون أسياد المنطقة بكاملها، فأراد التودد إليهم واكتساب ثقتهم، دون أن يكون لديه خيار آخر أقل صعوبة في ضوء الواقع الجديد.

وهكذا جرى الاتصال بين يوليان والعرب، وقد أصبحوا على أبواب معقله الأخير في سبته، عندما راسل في هذا الشأن والي طنجة^(١) طارق بن زياد. ويبدو أن طارقاً لم يفاجئه الموضوع، ولكنه لم يعط رأياً فيه قبل الرجوع إلى القيروان، حيث رحب القائد الطموح بالفكرة، واستهواه القيام بعملية جريئة تفوق كل العمليات الحربية التي انجزتها الدولة. غير أنه لم يكن متهوراً ولا مغامراً، بل كان ثاقب النظر يحسب لكل شيء حسابه الدقيق. فهو يدرك جيداً حجم العمل الخطير القادم عليه، ويؤثر لذلك دراسة الأمر عن كثب والاطلاع على تفاصيله، على الرغم من موافقة الخلافة التي شاطرته الموقف نفسه. وبالفعل جرت اتصالات مباشرة بين موسى ويوليان، وقيل إن اجتماعاً عُقد بينهما على متن إحدى السفن الراسية على الشاطئ^(٢)، وقف خلاله

= بآداب البلاط بين وصفات القصر، فرأها روذريق وكانت تتمتع بحظ وافر من الجمال فاعتدى عليها. أخبار مجموعة ص ٢٠. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤.

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٧٧.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٦.

موسى على أحوال إسبانية والخدمات التي يمكن أن يقدمها يولييان، قبل أن ينتقل إلى طنجة للإشراف على تنفيذ المهمة الكبرى.

وتجدر الإشارة إلى الدور الذي قامت به القاعدة البحرية في تونس تمهيداً لهذا العمل، مما يؤكد أن مشروع إسبانية لم يكن وليد ظروف سياسية طارئة، بل كانت ملامحه ظاهرة في المشروع التوسعي الذي أخذ موسى في تنفيذه قبل سنوات. ذلك أن تسابق التسلح بين الأمويين والبيزنطيين ومحاولة الفوز بمعركة التفوق البحري، أكسبت العرب ثقة بالنفس ودفعت بأهدافهم إلى مواقع جديدة، دون أن يفصل بين فكرة الفتح لإسبانية ونمو القوة العسكرية الأموية في البحر، لا سيما الحملات البحرية التي شنّها العرب من تونس، واستهدفت بعض الجزر القريبة من إسبانية (مايورقة)^(١)، في نفس الوقت الذي كان تمهري فيه مناقشة العبور إلى هذه البلاد مناقشة جدية.

وسرعان ما استكملت العمليات الاستطلاعية، التي قامت بها السفن الأموية في مهمة دقيقة، عهد بها إلى طريف بن مالك المعافري، حيث قام مع بضع مئات من الجند باستشكاف الطريق أمام العرب المسلمين (رمضان ٩١ هـ/تموز ٧١٠ م)^(٢). فعبر المضيق ونزل مع جنوده في جزيرة صغيرة تعرف باسم بالوماس Palomus، بالقرب من البلدة التي تحمل اليوم اسم جزيرة طريف Tarif. ويُعتقد بأنه اجتمع في هذا المكان، إلى جماعة من مؤيدي الملك السابق (ويتزا)، حيث كان يولييان ضابط الارتباط (حسب التعبير المعاصر) بين الطرفين. ومن هذا الموقع قام طريف ببعض العمليات العسكرية السريعة، في نطاق المهمة الموكولة إليه، وعاد إلى طنجة محققاً النجاح المطلوب. وتأتي أهمية هذه الحملة بأنها أول خطوة جدية على طريق

(١) لويس، القوى البحرية والتجارية ص ١٠٢.

(٢) أخبار مجموعة ص ٦.

العبور إلى إسبانية، الذي رسمه موسى بدقة وبراعة، فصلاً عن امتحانها الدور الذي كان يولييان يقوم به، ومدى إخلاصه في التعاون مع العرب المسلمين.

موقعة وادي لكّة: الفتح الكبير: بعد سنة أو أقل من حملة طريف، كان طارق بن زياد القائد الذي اختاره موسى لهذه المهمة، يأخذ طريقه إلى الشاطئ الإسباني (رجب ٩٢ / نيسان ٧١١). وكان طارق دائماً رجل المهمات الصعبة، منذ أن عرفته الجبهة الأفريقية مقاتلاً عنيداً وقائداً بارزاً. وكان اختيار بربري على رأس حملة جُلّ عناصرها من البربر أيضاً^(١). وهي سابقة تحدث لأول مرة في تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية - قراراً مقصوداً من أمير القيروان، بعد أن أوتيت ثمارها سياسته المرنة مع البربر، ودفعت هؤلاء إلى مشاركة العرب في أعمالهم العسكرية. وكان لهذه السياسة مردود إيجابي على الطرفين، حيث رأى موسى أهمية الاستفادة من طاقات البربر العسكرية واكتساب ولائهم، في الوقت الذي أخذ فيه هؤلاء يميلون إلى التعايش مع العرب، مقدّرين فيهم ذلك الدور الطليعي على الصعيدين الديني والسياسي.

غير أن موسى لم يشأ أن تكون للحملة سمة بربرية مطلقة، فأنشأ مجلساً قيادياً معظم عناصره من العرب^(٢)، كان له تأثير بارز في قرارات القيادة. فضلاً عن قائد آخر^(٣)، كان يمارس ما يشبه مهام «ضابط الارتباط» بين الخلافة والقيادة العامة. والواقع أن موسى أحسن الاختيار، عندما عين طارق بن زياد على رأس هذه الحملة، لما عُرف عنه من شجاعة ومهارة عالية في القتال، وغير ذلك من

(١) هناك خلاف حول عدد الجند في الحملة. فمن المؤرخين من يقول انه سار في سبعة آلاف أضيف إليهم خمسة. وآخرين من يقول انهم كانوا اثني عشر ألفاً منذ تحرك الحملة.

(٢) مثل عبد الملك المعافري وعلقمة اللخمي.

(٣) مغيث الرومي.

الصفات التي جذبت مومى إلى هذا القائد، بعد أن أدرك عمق نفسيته المصقولة بالتجربة والإيمان، فراهن عليه بطلاً لهذه المهمة الخطرة.

وهكذا عبر طارق المضيق الذي حمل اسمه حتى اليوم (جبل طارق Gibraltar)، على متن سفن أقلع بها مع جنوده من سبتة^(١)، معقل يوليان البيزنطي، الذي ساهم على ما يبدو بتقديم بعض السفن لهذه الغاية^(٢). غير أننا نشك في أن تكون عملية العبور قد اقتضت عليها، كما توحي بذلك معظم المصادر، لأن قاعدة تونس على الأرجح هي التي وفرت السفن اللازمة، ليس لتأمين الانتقال فقط، ولكن أيضاً لتأمين الخطوط الخلفية للحملة. على أن خدمات يوليان لم تكمن في تسهيل العبور إلى الأرض الإسبانية، بقدر ما كان هدفها تحقيق الانتصار للحملة الأموية، حيث كان لمعلوماته القيمة عن أوضاع مملكة القوط ومشاكل رودريق - الذي لم يكن آنذاك في عاصمته - وعن موقف معارضي الملك القوطي، تأثير كبير في النجاح الباهر الذي حققته الحملة. فليست مصادفة أن تتم هذه العملية، في وقت كان الملك القوطي منصرفاً إلى تأديب المتمردين من الباسك في الشمال، وعاصمته تعج بالمتأمرين عليه. وهنا تظهر قيمة الدور الخطير الذي قام به يوليان وجهوده في الوقوف على آخر أخبار الاسبان بالسرعة القصوى، وتوظيفها في خدمة الأمويين الذين تحركوا بدورهم في الوقت المناسب.

ولم يكد طارق يأخذ مواقعه عند أقدام الجبل حيث نزل بجنوده، حتى يادر إلى استكشاف المنطقة بواسطة حملات صغيرة، قبل أن يتخذ مع أصحابه قرار الزحف نحو الشمال. وكانت إحداها بقيادة عبد الملك بن أبي عامر (أحد القادة الكبار في الحملة)، اتخذت حذاء الساحل إلى الشمال الغربي واستولت على قرطاجنة^(٣) Cartaga وهي تعود إلى عهد القرطاجيين، ثم نزلت جنوباً باتجاه

(١) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٦.

الجزيرة الخضراء^(١) Algiercia ، الواقعة أمام جبل طارق، فسيطرت عليها أيضاً. وقيل إن هذه الجزيرة كانت من ممتلكات يوليان الذي سلمها بنفسه إلى طارق^(٢)، فتحولت بذلك إلى منطقة نفوذ للعرب المسلمين، وأول مراكزهم المحصنة في اسبانية.

وكان موسى يراقب باهتمام سير الحملة، ويتتبع أخبارها على الساحل الأفريقي. ومن المعتقد أنه أرسل قوات إضافية، في أعقاب النجاحات الأولى التي حققها طارق. وإذا صح ذلك، فإن فرصاً أفضل أعطيت لهذا الأخير في مواجهة الملك الاسباني، الذي فوجيء بوجود القوات الأموية في بلاده، وهو منهمك في قتال آخر في الشمال. بيد أنه لم يتهيب الأمر كثيراً، لاعتقاده أنها مجرد غزوة عابرة، لن تأخذ منه وقتاً أكثر من قمع تمرد الباسك. ولكن روفريق حين عاد إلى تقويم الخطر الأموي، صعبته المعلومات الجديدة عن تقدم طارق وصعوده باتجاه قرطبة، حيث عرج على طليطلة، مستنفرأ كل طاقات المملكة، بما فيها خصومه السياسيين، المنهكين في حبك المؤامرات ضده.

وفي تلك الأثناء كان طارق يحقق أولى انتصاراته العسكرية، حين تصدت له إحدى الفرق القوطية بقيادة بنثيو Bancio، فقتل عليها دون مشقة بالقرب من الجزيرة الخضراء. وسرعان ما تحرك بحملته شمالاً عبر أرض سهلة تتخللها المستنقعات، واستقر بهم المقام حول بحيرة لاخاندا Lago de Janda، حيث نهر يرباط الذي يخترق البحيرة. وعلى الضفة اليمنى لهذا النهر الصغير، أطل الملك القوطي بجيشه الضخم الذي وصفته المصادر العربية بأنه بلغ المائة ألف^(٣)، وإن كان واضحاً أن الرقم مبالغ فيه على عادة هذه المصادر في تقدير جيوش الأعداء، بحيث تعطيها أرقاماً خيالية بصفة عامة. فمن غير السهل على

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٩.

(٢) سيديو، تاريخ العرب العام ص ١٠٢.

(٣) أخبار مجموعة ص ٨.

دولة منهكة كإسبانية القوطية، توفير هذا العدد الكبير من الجند وفي ذلك الوقت بالذات، حيث طاقاتها مبعثرة وجبهتها في الداخل ممزقة ومتصارعة.

وفي وادي لكّة، عند نهر برباط الذي غلب عليه اسم الوادي، فعرف بها منذ ذلك التاريخ وأصبح «نهر وادي لكّة»، جرت معركة طاحنة، بدأت في مناوشات فردية على مدى سبعة أيام، وانتهت بهزيمة مدمرة للجيش الإسباني وفرار قائده الذي اختفى بعد ذلك، ولم يعرف شيء عنه إلا في الأساطير القومية^(١).

ولن يعيقنا البحث طويلاً عن أسباب الهزيمة النكراء التي منيت بها الدولة القوطية، بعد أن نخرتها الحرب الأهلية خلال السنوات السابقة، وشُغل حكامها بانقساماتهم وغرقوا في شؤونهم الخاصة، بعيداً عن الفئات الشعبية المرهقة بفساد النظام وضرائبه الثقيلة. وهكذا فإن ما جرى في وادي لكّة لم يعن لها شيء الكثير، بل على العكس من ذلك فقد سجلت موقفها اللامبالي من هذه الحرب إن لم نقل المتعاطف مع «المنقذ» الآتي من الجنوب. على أن الضربة الشديدة التي أخارت قوى الملك القوطي، تمثلت بانقسام جيشه والتحاق فريق من جماعة الملك السابق ويزتا بالحملة الأموية، تنفيذاً للمؤامرة المحبوكة ببراعة بين ولدي هذا الأخير ويوليان. وفي المقابل كان الجيش الأموي على أتمّ الانسجام، بعناصره المنضبطة وقيادته الجيدة، و«جهازه» المعلومات الذي وقف وراءه يوليان.

ولم يعد ممكناً تغيير سير التاريخ، فالقوط بدوا متعثرين وبدأ حكامهم مرتبكين، عاجزين عن اتخاذ قرار إزاء تلك النتائج المذهلة التي أسفرت عنها وادي لكّة. ولم يعد ممكناً كذلك، قيام أية محاولة جديدة على مستوى التصدي الذي قام به روزريق. فقد كانت هذه المعركة الباب الكبير الذي دخل منه العرب المسلمون إلى قلب إسبانية، ورسّخوا أقدامهم فيها خلال تلك القرون. ولكم كان موسى بن نصير معبراً في تقريره الذي أرسله إلى دمشق، واصفاً عظمة

(١) أخبار مجموعة ص ٩، ابن عذاري ج ٢ ص ١٠.

هذا الانتصار، بقوله أو بما نسب إليه: «إنها ليست الفتوح، ولكنها الحشر»^(١). لقد كان مصيباً في تصوراته إلى حد كبير، فالارتباك الذي أصاب مقاتلي القوط، والدعر الذي عم المملكة الاسبانية^(٢)، أتاحا لطارق أن يعمل بسرعة وأن لا يفقد أية فرصة للتقدم نحو المدن الكبيرة. وباستثناء معركة استجة Astigi^(٣) ضد فلول الجيش القوطي الذي قُضي عليه، لم يلق هذا القائد مقاومة ذات أهمية في مسيرته نحو الشمال. ثم بدأت حرب المدن، فتسقط قرطبة Gordoba الواقعة على نهر الوادي الكبير، ويدخلها مغيث الرومي في قوة كبيرة، بينما استحث قائد الحملة السير إلى طليطلة Toledo، عاصمة القوط، والمدينة المحصنة التي يقع فيها كبار رجالات الدولة ونبلائها، وتتجمع كنوز البلاط وذخائر الكنيسة، فسقطت دون مقاومة عنيفة^(٤) وهرب سكانها باستثناء جماعة الملك السابق، التي حظيت بتقدير الفاتحين ثمناً لمواقفها الإيجابية، وكذلك اليهود وهم أكثر المتجهين حينذاك بسقوط العاصمة وانهيار مملكة روضريق، فكانوا إلى جانب العرب المسلمين يقدمون لهم الخدمات العسكرية والمدنية. وهذا الدور كان نابغاً من موقف اليهود إزاء النظام القوطي، الذي أضّر كثيراً بمصالحهم التجارية والمصرفية، فكان هؤلاء حيث كان الفاتحون يتفدون مهماتهم على أكمل وجه.

ومن طليطلة، حيث ترك حامية عسكرية^(٥)، صعد طارق نحو الشمال الغربي، متعباً فلول الهاريين من العاصمة في منطقة عُرفت بوادي الحجارة Guada La Jara. ثم قطع الجبل الذي يليها ليصل أخيراً إلى المائدة كما تسميها المصادر العربية^(٦)، وهي مدينة صغيرة أدركها في نهاية العام تقريباً (خريف

(١) المقرئ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٥.

(٢) ابن القوطية، افتتاح الأندلس ص ٩.

(٣) أخبار مجموعة ص ٩.

(٤) المصدر نفسه ص ١٤ - ١٥.

(٥) أخبار مجموعة ص ١٤. ابن عذاري ج ٢ ص ١٢.

(٦) نفسه ص ١٤.

٧١٢/٩٣). بعد ذلك عاد إلى طليطلة ليدرس خطة المرحلة التالية من الفتح، في ضوء ما يستجد من تعليمات أمير القيروان. وهكذا في أقل من سنة واحدة، كانت السيادة الأموية تزرع أقدامها بثبات وعمق في الأرض الإسبانية، وتطيح بنظام القوطيين المتداعي.

وكان خروج طارق من طليطلة واستئناف العمليات العسكرية، مؤشراً إلى أن استقرار المسلمين في هذه البلاد لم يعد مثار جدل، على عكس ما انتظره حزب الملك الأسباني المخلوع، الذي كان لا يزال على اعتقاده بأن طارقاً سيعيد له العرش، ويعود من حيث أتى بعد الظفر بما يريد. ولكن هذا الحلم ما لبث أن تبدد، بعد أن تبلورت الأهداف التوسعية للحملة. ولم يجد ابنا ويتزا في نهاية الأمر، بدءاً من الرضوخ ومساومة الفاتحين، والاقتناع بنصيب من الأرض، وربما من الإدارة التي خيرا شؤونها.

ويبدو أن أخبار الانتصارات في إسبانية، وقد وقعت الموقع الحسن عند أمير القيروان، شجعت على الانتقال إلى تلك البلاد للوقوف شخصياً على أوضاعها ومراقبة سير العمليات الحربية عن كثب، خاصة بعد الانتشار العسكري الذي امتد في مختلف الجهات، وتدفق القوات الأموية الإضافية على إسبانية بعد سقوط طليطلة، مما دفع موسى لأن يكون على أرض المعركة ويتخذ قراراته الحاسمة في الوقت الملائم. ولم تكن هي انتفاضة حسد كما تشير الرواية العربية الساذجة^(١)، أو حالة غرور أعمت هذا الرجل حسب تعبير أحد المؤرخين المعاصرين^(٢)، الذي يرى فيه قائداً مغروراً وجشعاً، على الرغم من نفيه بأن يكون ذهابه إلى إسبانية مدفوعاً بهذا الشعور^(٣). والواقع أن الكتابات التاريخية أسهبت وأفاضت في هذا الموضوع، لا سيما وصفها القصصي للقاء الرجلين فيما بعد^(٤). ولا

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٠٧، ابن عذاري ج ٢ ص ١٦.

(٢) مؤنس، فجر الأندلس ص ٨٤.

(٣) المكان نفسه.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ - ٣٦. المراكشي، المعجب ص ٣٤. الضبي، بغية الملتمس ص ٨.

شك أنها أساءت كثيراً إلى موسى، كما أسىء إليه في أواخر حياته، حيث مات مضطهداً كغيره من كبار الفاتحين في تلك الفترة. ولعل هذا القائد العظيم يُظلم كثيراً عندما يتهم بالחסد أو الطمع، لأن تاريخه العسكري الطويل، لا سيما في المغرب التصق بإنجازات لا تحصى، سواء في اجتثاث مقاومة البربر العنيفة واستكمال أطول فتح في تاريخ العرب العسكري، أو في إرساء روح التلاحم بين العرب والبربر في إطار الإسلام، فتكون أعظم تجربة لذلك في حملة الأندلس. فإن يتلى أمير القيروان بالחסد أمام انتصارات حققها أحد رجاله الموثوقين، فذلك أمر لا مسوغ له، وهو العريق بأعجاده السياسية والعسكرية، وأن ينتقل كمسؤول أول وكقائد عام للجهة الغربية إلى إسبانية، حيث تدور رحى حرب خطط لها بنفسه وتتبع كل مراحلها وخطواتها، فهو أمر طبيعي ومتوقع^(١). فقد عهد إلى طارق - وهو الأثير عنده - بمهمة عسكرية لا تختلف عن مهمات غيرها إلا من حيث الحجم، كالتي تولاها هذا الأخير في طنجة أو في غيرها من بلاد المغرب، وفي كلتا الحالتين نفذ طارق طائعا وأمر سيده. ولو خالج موسى أي شعور بالارتياح إزاء قائده، لاستبدله بواحد من أبنائه الأربعة الذين برزوا إلى جانب طارق في حرب المغرب الأخيرة. ولو صح أن طارقاً استقل برأيه ونزع إلى التفرد، بعد انتصاره في وادي لكّة كما توحى بعض المراجع^(٢)، لما استمر في منصبه يمارس مهامه بصورة طبيعية. فعلى العكس من ذلك كانت انضباطية طارق أوضح خلاله العسكرية، تلك التي تجلّت مع ابني الملك ويثزا وإحالتهم على أمير القيروان، للاتفاق معه بشأن نصيبهما من الحملة، مما يعبر عن حالة الانسجام والتنسيق التي سادت بين القائدين.

لقد أدرك موسى على ما يبدو خطورة الانتشار الواسع لقواته في إسبانية،

(١) الضبي، بغية الملتبس «فذلك نسب الفتح الى موسى بن نصير لأن طارقاً من قبله ولأنه استزاد في

الفتح ما بقي حل طارق» ص ٨.

(٢) مؤنس، فجر الأندلس ص ٧٦.

دون تغطية عسكرية كافية، فأبحر بقوات جديدة ربما بلغت ثمانية عشر ألفاً^(١) (رمضان ٩٣ / حزيران ٧١٢). ولعل الحاجة الملحة استدعت الحضور بهذا العدد الكبير من الجند، بناء على تقرير من طارق، الذي شعر بضرورة تكثيف القوة المقاتلة في حملته^(٢). وفي الجزيرة الخضراء قام ببعض الإجراءات التنظيمية، حيث وزع المهمات على قواده وعقد اجتماعاً مع يوليán - الذي اتخذ من هذا المكان مقراً له - وناقش معه تطورات الحرب ونقويم النتائج الأخيرة لحملة طارق، والظروف المستجدة بعد دخول الحملة الثانية. ولعل يوليán زوّده بالمعلومات الجغرافية، عن الطريق الذي تقرر أن يسلكه بقواته وعن المعامل الهامة التي لا تزال خارج إطار سيادة العرب المسلمين^(٣). ومن هنا جاء تحرك الحملة الجديدة من الجزيرة الخضراء، عبر طريق آخر^(٤) يفضي إلى إشبيلية Sevilla إحدى أكبر مدن الأندلس.

ولقد أبرزت بعض هذه المصادر التاريخية، بأن اتخذ موسى هذا الاتجاه في غربي الأندلس، كان أنفة منه في السير وراء طارق وعلى طريقه^(٥). وهو تعليل غير واقعي، لأن الجزء الأكبر من إسبانية لم تصل إليه جيوش الأمويين، بعد أن اقتصر أعمال طارق على الأقليم المتوسط، بينما ظلت مناطق هامة في الغرب والشرق، فضلاً عن الجنوب الشرقي، غير محسومة من الناحية العسكرية. وهنا يكمن الدور الكبير، الذي كان على الحملة الجديدة أن تقوم به في إحكام السيطرة على هذه المناطق. فليس من المنطق أن يجتاز موسى الطريق المفتوح، حيث النفوذ للعرب المسلمين، إلا إذا صح الزعم بأن أمير القيروان قدم في مهمة تأديبية، لقمع قائده الذي خرج على الأوامر وتجاوز

(١) يقال إن عشرة آلاف منهم كانوا من العرب والباقيين من البربر. أخبار مجموعة ص ١٥.

(٢) Levi-Provençal: Hist. T1 P24

(٣)

(٤) العلوي، موسى بن نصير ص ٩٢.

(٥) أخبار مجموعة ص ١٥.

(٦) المكان نفسه.

التعليمات^(١) حسب الرواية التاريخية . ولكن موسى - ومن المفترض أنه لم يندفع بهذا الدافع - أثر السير في طريق لم يمر عليها أقدام عربية ، وهو القرار البديهي من وجهة النظر العسكرية . وهذا يجبرنا إلى مناقشة الزعم الآخر بأن «شراهة» موسى إلى الغنائم ، كانت دافعه الأهم لاجتياز مدن غنية تفوق قيمة وثراء المدن التي سقطت بيد طارق^(٢) . ولعل تهمة الشراهة ليس لها ما يسوغها ، خاصة عندما تُلصق بشخصية من نوع موسى بن نصير ، الحاكم المطلق على كل المغرب وبعض الأندلس في ذلك الحين ، حيث تعود إليه مباشرة كل غنائم طارق أو سواء من قواده دون ثمة مجال للنقاش .

استهل موسى عملياته الحربية ، بالسيطرة على مدينة شذونة Sedona (إلى الشمال الغربي من الجزيرة الخضراء) بعد مقاومة من أهلها^(٣) ، وانعطف شرقاً إلى قرمونة وهي قاعدة عسكرية محصنة ، فاستغرق حصارها وقتاً قبل أن تضع سلاحها وتسسلم^(٤) . ثم سار إلى اشبيلية المهدف الرئيسي في خطته وهي تقع على نهر الوادي الكبير Guadal Quivir شأن قرطبة ، وتوصف بأنها مدينة عريقة ، ذاعت شهرتها حتى قبل دولة القوط^(٥) . ولم تؤخذ اشبيلية بسهولة ، فقد قاومت بعنف حصار الأمويين الذي استمر بضعة شهور^(٦) ، دون أن ينجح موسى في أخذ المدينة إلا بعد مساعدات من الداخل ، حيث قام اليهود بدورهم المتفق عليه لمصلحة العرب . وكان نصيبهم المشاركة في حامية عسكرية أكثر عناصرها من البربر ، وذلك بعد القضاء على القوط وتطهير المدينة من جيوب المقاومة (٧١٣/٩٤) . وتابع موسى طريقه نحو ماردة Marida (على نهر وادي

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦ .

(٢) مؤنس ، فجر الأندلس ص ٧٦ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥ - ١٦ .

(٥) أخبار مجموعة ص ١٦ . الروض المطار ص ١٨ .

(٦)

آنة)، وكانت مدينة حصينة محاطة بالأسوار^(١)، مما أدى إلى فقدان الأمويين عدد غير قليل من القتل أثناء حصارها، ولكنها ما لبثت أن استسلمت بعد هجمات سريعة انتهت باختراق أسوارها وفتحها (شوال ٩٤ / حزيران ٧١٣)^(٢). وبعد سقوط ماردة نظم موسى حاميتها العسكرية من العرب والبربر، دون اللجوء إلى جاليتها اليهودية الكبيرة. وقد شعر موسى بعد سقوط هذه المدينة بأن الوقت حان لاتخاذ قرارات تنظيمية، بإعلان الحكم العربي والقوانين الإسلامية في المدن المفتوحة. وبعد قليل من الوقت غادرها منعطفاً إلى الشمال الشرقي نحو طليطلة، حيث استقر بها طارق منذ الشتاء الماضي. وفي الوقت نفسه بلغته أنباء ثورة في اشبيلية فأرسل ابنه عبد العزيز للقضاء عليها، وهي أول ردة فعل ضد الفتح، تقوم بها فلول القوط المهزومة، مستغلة ضعف الحماية الأموية. ولكن هذه المحاولة لقيت الفشل الذريع، عندما قضى عبد العزيز على الثورة وأعاد الأمور إلى نصابها^(٣). أما طارق بن زياد - وكان متبعاً لأخبار سيده - فما كاد يعلم باقترابه من طليطلة حتى غادر المدينة للترحيب به، فترز في وادي تاجة Tago والتقى بموسى أخيراً في طلبيرة Talavera^(٤)، على بعد سبعين ميلاً إلى الغرب من طليطلة^(٥).

ولن نعرض هنا لكتابات المؤرخين المسهبة بشأن اللقاء بين القائدين، وهي إجمالاً مكتوبة بلغة مسرحية تدور حول الخلاف بينهما وتأييب موسى لمولاه طارق، ربما ضرباً أو سجناً إلى آخر ما بلغه خيال المؤرخين^(٦). كذلك لن نعقب عليها لافتقارها إلى الروح الموضوعية، وقد جرت مناقشتها في

(١) الروض المطار ص ١٧٦.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٧.

. Levi Provençal Hist T I P 25

(٣) أخبار مجموعة ص ١٨.

. Op. Cit T I P 25

(٤) نفسه ١٨.

(٥) الروض المطار ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٦) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦.

مكان آخر من هذا البحث. على أن ما يتبادر إلى الذهن حول اللقاء الذي تم بين موسى وطارق، هو أن القائدين عقداً مجلساً حروبياً، لبحث الموقف العسكري العام ومناقشة المرحلة التالية من الفتح. وهذا ما جرى فعلاً عندما انفض المجلس، وقاد موسى حملة واحدة مع طارق نحو الشمال الشرقي وفق خطة مرسومة. وهنا تسقط ادعاءات المنافسة بين الرجلين^(١) التي كثر حولها الجدل، وتسود عليها فكرة التنسيق والتعاون. وعلى الأرجح أن موسى قضى شتاء (٧١٣ - ٧١٤) في طليطلة قبل استئناف مهماته، حيث أرسل من هناك تقريراً إلى دمشق، لوضع الخلافة في آخر تطورات الموقف في اسبانية^(٢). وكانت سرقسطة Zaragoza في إقليم اراغون Aragon أول عمل مشترك لهما، تلك المدينة الهامة التي سماها العرب «المدينة البيضاء»^(٣). قبل أن يفرق القائدان، ليروح موسى شرقاً إلى لاردة Larida وطركونة (على البحر المتوسط) وبعض المعاقل الأخرى باتجاه البرينييه. وهنا تختلف الآراء بشأن التوسع في هذه الجهات، فيذكر البعض أن برشلونة عاصمة الاقليم قد سقطت في يد موسى^(٤)، ولكن ليفي بروفنسال لم يُشر إلى ذلك، دون أن يستبعد عزم القائد الأموي على اقتحام هذه المدينة، لولا انتهاء المدّ التوسعي استجابة لقرار الخليفة^(٥). على أنه من المرجح أن قوات موسى لم تصل إليها، حيث تم فتحها في وقت لاحق. أما طارق فقد اجتاز وادي الأبرو Val de lebro إلى ليون Leon واستورقة (استورياس) Astorga، وتوغل في أقصى الشمال الغربي لمطاردة آخر فلول المقاومة القوطية، المتجمعة في جيليقية Galicia - وهي منطقة جبلية وعرة كانت تعرف ببلاد الصخر - بقيادة بلاي الذي اعتصم في أحد كهوفها ومعه نحو ثلاثمائة رجل وامرأة. وقد انزل بهم طارق ضربته الأخيرة في اسبانية معتقداً أنها

(١) ابن الأثير ج ١ ص ١٢٣.

Levi-Provençal Hist. T I. PP. 26 — 27

(٢)

(٣) يبدو أن الاسم مأخوذ من لون حجارتها البيضاء، الروض المطار ٩٦.

(٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٥٣.

Levi-Provençal. Hist. T I. P. 27

(٥)

كانت قاضية لن تقوم بعدها للأسبان قائمة^(١).

وفي تلك الأثناء كان «ضابط الارتباط» بين الخلافة وقيادة الأندلس مغيب الرومي، قد عاد من مهمة في دمشق يحمل أمراً من الوليد بوقف العمليات العسكرية في أوروبا (٧١٤/٩٥). ولا يستطيع أحد تفسير دوافع الخلافة إذا ما كانت نتيجة لإجراء خاص بالوليد، الذي أراد الوقوف مباشرة على إنجازاته في الأندلس في وقت ربما شعر باقترب نهايته؟ أم أن المسألة كانت أبعد من ذلك ولها ارتباط بسياسة الدولة، التي خشيت من انتشار المسلمين في بلاد بعيدة؟ ولعل هذا القرار كان في غير محله، وأضاع فرصة التاريخ التي لن تتكرر من أيدي العرب، باجتماع القارة الأوروبية. وكان آخر إجراء منحه موسى لنفسه - برغم إلحاح موفد الخليفة - التقدم في إقليم قشتالة Castilla لتأمين الحدود الشمالية للولاية الأموية الجديدة. غير أن ذلك لم يتحقق إلا بصورة جزئية، وظل هذا الإقليم وأقاليم أخرى في الشمال الغربي، نافذة للحركات القومية في إسبانية، ينطلق منها تيار «الاسترداد» مع تراجع النفوذ العربي والإسلامي وضعفه.

وهكذا أنجزت إحدى أضخم عمليات الفتح في الدولة الأموية في مدة لم تتجاوز الأربع سنوات^(٢)، استطاع خلالها موسى بن نصير وطارق بن زياد أن يرفعاً راية الحكم الأموي في القارة الأوروبية، التي بدأت همومها الإسلامية تأخذ طابعها الجدي منذ ذلك الحين، خاصة وأن طموح القادة الأمويين في هذا الإقليم لم يقف عند شبه الجزيرة الأيبيرية، بل كان هذا الطموح كثيراً ما يقفز وراء البرينييه التي تفصلها عن مملكة الفرنجة. وهناك تحت أقدام هذه الجبال، ربما تكون فكرة التوغل في أوروبا وتطويق الدولة البيزنطية، قد داعبت خيال القائد الأموي كما يشير ابن خلدون^(٣). ولكن ذلك يبقى في إطار الاستنتاج على

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩.

(٢) العدوي، موسى بن نصير ص ١٢١.

(٣) يقول ابن خلدون: وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخصص ما بينها من بلاد الأعاجم أمماً نصرانية مجاهداً مستلحاً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة. كتاب المعراج ٤ ص ١٧٤.

الرغم من أن تحقيقه في تلك الظروف لم يكن مستحيلاً، إلا أن الدولة اكتفت بهذا القدر من الفتح، وأمرت القائدين بوقف العمليات العسكرية في أوروبية والعودة إلى دمشق.

ومع بدء رحلة العودة (ذو القعدة ٩٥ / أيلول ٧١٤)، عرج موسى قليلاً من الوقت على طليطلة التي انتهى بريقها السياسي مع نهاية دولة القوط، وأجرى بما سمحت له الظروف بعض الترتيبات الإدارية، لإعطاء المدينة هويتها العربية الجديدة ونزع ثوبها القوطي القديم. ثم غادرها إلى قرطبة، فإشبيلية متخذاً إجراءات مشابهة، حيث اتفق على أن تكون عاصمة الولاية الأموية، في الوقت الذي انهمك فيه بإعداد موكب النصر، بما يليق وعظمة الإنجازات التي تمت على يديه. وقد أسهب المؤرخون في وصف هذا الموكب وفخامة مظهره وكثافة الجوارح والأسرى من القوط^(١)، إلى آخر ذلك بما لا يتوافق وإمكانات النقل في ذلك الحين، خاصة وأن رحلة العودة كانت برية عبر أفريقية ومصر.

وغادر موسى أخيراً إشبيلية، مصحوباً بطارق وعدد من القواد ومعهم الأسرى والكنوز، تاركاً لابنه عبد العزيز شؤون الحكم في إسبانية، على أن يساعده كـ «وزير»^(٢) حبيب بن أبي عبيدة أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهري. وفي الطريق كانت القيروان محطته الأولى، حيث كان ابنه الأكبر عبد الله يدير شؤونها بالنيابة عنه^(٣)، ومنها إلى مصر فالشام عبر فلسطين، حيث كان عمّال تلك الأقاليم يهرعون للترحيب بموكبه الظافر. ولعلها سابقة في تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية، انفرد فيها موسى بإعطاء انتصاراته في أفريقية وإسبانية هذا الصدى الكبير من الدعاية، الأمر الذي ينسجم ونزعه إلى الترف، وميله إلى مظاهر الفخامة. وقد بلغ أخيراً عاصمة الخلافة في مطلع سنة ٧١٥ م، في وقت

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٣.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٠٧.

كان «صديقه» الخليفة على عتبات الموت، حيث توفي بعد أربعين يوماً من دخول موكب النصر الأندلسي إلى دمشق.

وكان سوء الحظ بانتظاره مع مجيء سليمان بن عبد الملك، ذلك الخليفة المزاجي، الحاقد على أخيه الوليد وسياسته، وحتى رجالاته الذين عرفتهم الجبهات الحربية كأعظم القادة الأمويين دون سبب ذي قيمة. ذلك أن سليمان كان يحكم بعواطفه القبلية، مسخراً كل أجهزة الدولة في خدمة مزاجه المتقلب. كما القرارات الجدية التي يُمتدح من خلالها حكمه، كحملة القسطنطينية، لم تكن تتجاوز على الأرجح الإطار الشخصي، في محاولة منه لطمس منجزات الوليد العظيمة، وأن يكون له شرف الدخول إلى هذه المدينة التي امتنعت على الخلفاء السابقين.

ولعل موقف سليمان كان نابعاً من قناعة، بأن أخاه الوليد قد تأمر عليه لإبعاده عن ولاية العهد، حيث كان بطل المؤامرة الحجاج بن يوسف الثقفي، والي المشرق وأبرز شخصيات «الحزب» القيسي في ذلك الحين^(١). ومن هنا كانت متاعب هذا «الحزب»، ونكبة عدد من رجاله أثناء خلافة سليمان. وعلى الرغم من أن موسى بن نصير وهو من أقطاب الحزب اليمني^(٢)، لم يلق نهاية القادة القيسيين^(٣)، إلا أنه - وربما شفع فيه صديق سليمان وصديقه، يزيد بن المهلب^(٤) - أحد زعماء اليمنية الكبار - نال نصيبه الكافي من سياسة الخليفة الأموي، وانتهى به الأمر فقيراً منسياً في الشام^(٥). وفي غمرة البحث عن سبب مقنع لإبعاد هذا القائد الكبير واضطهاده، نرى في مقدمة الأسباب التي ذكرناها، خوف الخلافة من طموحه، بعدما ظهر من بوادر سياسته الناجحة في المغرب

(١) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٦١١.

(٢) ينسب المؤرخون إلى لحم أو بكر بن وائل. ابن عذاري ج ١ ص ٣٩.

(٣) قتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح بلاد وراء النهر ومحمد بن القاسم الثقفي، فاتح السند.

(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٣.

(٥) المكان نفسه.

واسبانية وسيطرة أبنائه على أجهزة الحكم هناك، لا سيما عبد العزيز أول حكام الولاية الجديدة، والمتأثر إلى حد كبير بشخصية والده القيادية، وبراعته في اكتساب ولاء الناس ومودتهم، دون أن ينجو بدوره من تأمر السلطة على حياته، فاغتيل في نفس السنة التي مات فيها أبوه فاتح الأندلس (٧١٨/٩٧)^(١). ومهما كان الأمر، فإنها النهاية شبه الطبيعية للقادة العظام صانعي الانتصارات المجيدة في ذلك الوقت، حيث انتهى دور موسى كما انتهت أدوار غيره، ممن كانت أعمالهم العسكرية في الغالب شراً عليهم وليس العكس، شأن طارق بن زياد الذي لقي هو الآخر على ما يبدو مصيراً لا يختلف كثيراً عن مصير موسى، حتى القائد مغيب الرومي الذي قيل إنه المتأمر عليهما، افتقده بلاط الخلافة وعاش حياة عادية في الأندلس^(٢).

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٣. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٥. دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص ٢٠٤.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٠. Levi-Provençal: Hist. T 1. P. 29

عصر الولاة الأمويين في الأندلس

عبد العزيز بن موسى واستكمال الفتح : استلم عبد العزيز إدارة البلاد المفتوحة في الأندلس بتكليف من والده موسى ، ثم أصبح أول حاكم عليها بعد المحنة التي عصفت بهذا الأخير وقضت على حياته السياسية . وكان عبد العزيز نموذجاً جيداً للوالي الناجح ، حيث رافق والده في كثير من الحملات العسكرية وتتبع ممارساته في الإدارة والحكم ، فورث عنه الشجاعة كسلا ورث المرونة والنظرة البعيدة في السياسة .

وكأنه الوالد قد ترك لابنه مهمات لا تخلو من الخطورة ، فتصدى لها بجدية وحزم ، وفي أولويتها استكمال العمليات الحربية في المناطق ، التي لم تكن قد أدركتها بعد جيوش موسى وطارق . وسرعان ما تحرك باتجاه الأقاليم الغربية من إسبانية ، أو ما يقصد حالياً بالبرتغال ، وإن كان بعض المؤرخين يعتقد بأن عبد العزيز ، قام في وقت سابق بحملة منفردة وفتح مدن هذا الإقليم . والواقع أن اعتبار هذه الحملة غير واضحة عملاً في المصادر العربية ، ولكن المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال^(١) ، يرى أن حملة الغرب تمت بعد استلام عبد العزيز شؤون الحكم في أسبانية العربية ، حيث نجح في

. Levi-Provençal: Hist. T I. P. 30

(١)

السيطرة على المدن الهامة في هذا الإقليم، مثل بابة Evora على مقربة من ليشبونة وشتترين Santaren على نهر تاجة Tago وقللمرية Coimbra قرب ساحل المحيط ، وأخيراً استورقة Astorga المجاورة لجلبقية^(١). وتوقف عبد العزيز عند حدود هذه المنطقة الصخرية ، لينعطف نحو الجنوب ، حيث لا زالت بعض المواقع الهامة خارج دائرة السيطرة الاموية . فبدأ بمالقة Malaga التي سقطت بدون مشقة ، ويعتقد أن الجالية اليهودية قد استولت على المدينة في وقت سابق وسلمتها لوالي الأندلس^(٢) . ثم صعد شمالاً وأخضع البيرة Elvira، ومنها إلى إقليم مرسية^(٣) Murcia في الشرق ، حيث كانت السيطرة العملية هناك لأحد الزعماء المحليين من القوط ، المواليين للملك الاسباني قبل الأخير، يعرف باسم تدمير Tedomira^(٤) وتصفه الكتابات التاريخية بأنه كان صديقاً للعرب ، إذ من المرجح أن يكون أحد أطراف القوى التي فاضت الأمويين بشأن الدخول الى اسبانية ، مع يوليان وبقية الحزب المناوئ لروذريق . ويقال إن تفاهماً جرى بينه وبين عبد العزيز ، على أن يبقى حاكماً لهذا الإقليم باسم العرب ، لقاء شروط مكتوبة وردت في وثيقة الاتفاق بين الطرفين^(٥) .

وباستسلام هذا الإقليم يكون القسم الجنوبي الشرقي من أسبانية ، قد آلت السيادة فيه إلى الأمويين ، شأن الأقاليم الأخرى . وهناك افتراض بأن قادة هؤلاء قاموا في تلك الفترة بحملات عسكرية ، إجتاحت طركونة في الشمال

. Levi-Provençal Hist. T 1. P. 30

(١)

. Op. Cit. P. 1, 31

(٢)

(٣) أنشئت مدينة تحمل هذا الاسم في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني.

(٤) مؤنس، فجر الأندلس ١١٢ .

(٥) جاء في كتاب الاتفاق: أن يسلم تدمير للعرب سبع قلاع، وأن لا يأوي عدواً ولا يخون أمناً ولا يكتنم خيراً علمه. وفرض عليه وعلى كل من أصحابه دينار كل سنة وأربعة أمداد قمع ومثلها شعير، بالإضافة إلى أربعة أفساط خل وقسط زيت وآخر عسل.

Levi-Provençal T 1, PP. 32 — 33.

عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٥٥ - ٥٦

حتى برشلونة عاصمة أراغوان، وبنيلونة Panpeluna عاصمة الباسك (البشكنس) في جبال البرينيه. وتكون بذلك عملية الفتح في أسبانية (التي سيغلب عليها الأندلس منذ ذلك الحين)، قد استكملت نهائياً في عهد عبد العزيز بن موسى (٧١٤-٧١٦م) دون أن يبقى خارج السيادة الأموية سوى بضعة جيوب، كان من السهل جداً تصفيتهما لو اتخذت الأمور مسارها الطبيعي في هذه الولاية، التي كان لها النصيب الوافر من المشاكل الداخلية، حيث أصبحت أبرز سماتها في وقت لاحق. ذلك أن عبد العزيز وقع ضحية إغتيال^(١) أعدته دمشق، يفترض أن له علاقة بموقف الخلافة من أبيه، والقضاء على طموح أسرته في تلك البلاد النائية. وأتهم والي الأندلس الذي تزوج من أرملة الملك القوطي رودريق (Egilona)^(٢) بأنه وقع تحت تأثير زوجته، بحيث أصابت طريقة حياته التي انعكست عليها سمات الملوك القوط. غير أن ذلك لا يعدو أن يكون أحد جوانب حملة الخلافة عليه، لاجئة إلى الطعن بإيمانه وخروجه على عادات العرب المسلمين، لتسويغ قتله دون أية ضجة. وكان اللجوء إلى التصفيات بهذا الأسلوب أمراً شائعاً في مجتمع ينعكس عليه الإسلام، كعامل من أبرز العوامل المؤثرة فيه. وهكذا انتهت حياة أول حكام الأندلس والشخصية الثالثة التي اقترنت بحركة الفتح في هذه البلاد. ولم يكن مقتله بهذه الطريقة، ليزيل الاسم البارز لأسرته في تاريخ المغرب وأسبانية، أو ليمر دون إثارة هزات واضطرابات عنيفة، ستجر ذيلها السلبية على الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية في دمشق.

الولاية الأموية بعد عبد العزيز

كان اغتيال عبد العزيز بن موسى (٧١٦م)، فاتحة عهد مضطرب في تاريخ

(١) ابن عبد الحكم، ص ٢١٣.

(٢) يذكر ابن عبد الحكم بأنها دابة ملك أهل الأندلس، ص ٢١٢. أما ابن عذاري فيذكر أنها امرأة رودريق واسمها إبله، ج ٢ ص ٢٣. راجع أيضاً:

Levi-Provençal: Hist. T I, P.33.

الولاية الأموية البعيدة على مدى اثنين وأربعين عاماً ، أبرز سماته عدم الاستقرار السياسي والتناقضات القبلية والعنصرية ، التي وجدت طريقها إلى الانفجار بعد فراغ السلطة من كبار المؤسسين ، صانعي تلك الانتصارات الباهرة . وقد جر ذلك الأندلس إلى منعطف خطير ، طرح مشكلة الحكم منذ وقت مبكر جداً ، حيث القوى السياسية النافذة هناك تشابكت أطرافها وتداخلت ، على نحو لم يجر في أية مقاطعة أموية أخرى ، مما جعل الأندلس تمثل ظاهرة خاصة وفريدة . ففي المشرق وبقية الأقطار كانت مشكلة الحكم محسومة لصالح العرب الحاكمين ، في الوقت الذي غلب الطابع الاجتماعي - الاقتصادي على المشكلات الأخرى ، سواء كانت ناتجة عن سوء إستعمال السلطة لدى بعض الولاة ، بفعل رؤية خاصة في الإدارة أو بفعل جنوح إلى الاستغلال وتسلط فئة على أخرى .

أما في الأندلس فكانت الأمور تأخذ اتجاهاً آخر ، وكانت المشكلة السياسية أعمق مشاكلها جذوراً ، حيث الأحزاب والتكتلات القبلية متعددة الانتماءات ، لا يجمع بينها سوى التنافس على الحكم . فالعرب كان بينهم من شارك في طلائع الحملات والمعارك الأولى ، وإن كانت نسبتهم العددية منخفضة ، إلا أنها ارتفعت مع حملة موسى بن نصير التي كان العنصر العربي هو الغالب عليها . يضاف إلى ذلك أن الانتصارات العظيمة وتحقيق السيطرة على بلاد عرف عنها الثراء ، كان سبباً في اجتذاب أعداد كبيرة من العرب من مختلف الاتجاهات . ولم تكن المشكلة القبلية مطروحة في ذلك الوقت ، لأن الجميع كانوا يقاتلون تحت راية واحدة ، وهي غالباً لا تطرح أثناء الحرب ، حتى إذا استقرت الأحوال انفجرت الصراعات وظهرت المحاور ، وهذا ما حدث فعلاً عندما أخذ كل والٍ يصطحب معه أو يستقدم إلى الأندلس جماعته من ذات الانتماء القبلي . وكان من الطبيعي أن تستفحل حرب القبائل في الولاية الجديدة ، يغذيها بشكل مباشر الولاة أنفسهم . ولو أن الصراع اتخذ بعداً قبلياً فحسب لربما أمكن تخفيف حدة الأزمة السياسية المستفحلة ، ولكن الصراع اتخذ

كذلك طابعاً إقليمياً تعدى كل أطر الصراعات التقليدية المعروفة . فالعرب الأوائل (المحليون) - وهم بواكير الجماعات التي جاءت مع الفتح أو في اثره مباشرة - استوطنوا الأندلس وأصبحوا من أهلها ، بعد أن استقروا في المدن الكبرى والسهول الزراعية الخصبة . وقد عاش هؤلاء في ترف وسعة ، وكانوا يتعلمون من جماعات العرب الأخرى الوافدة الى الأندلس ، خوفاً على مستواهم الحياتي المرتفع ، حيث كانت أخطرها بالنسبة للعرب المحليين ، الفئات الشامية التي فرضت نفسها إبان الحرب الأهلية بين العرب والبربر^(١) .

وامتد الصراع الداخلي ليشمل البربر أيضاً ، تلك الفئة التي شاركت بدور فعال في حروب الأندلس ، وكانت تمثل غالبية الحملة الأولى التي قادها طارق ، طارحة نفسها من هذا الموقع ، وليس من موقع التبعية للعرب . فإذا هم سكان الأرض الجلباء والمناطق الباردة في الشمال ، والعرب منتشرون على ضفاف الأنهار في شرقي الأندلس وجنوبها^(٢) . وتراكمت الأسباب وراء سحق البربر وحقدتهم على العرب الحاكمين ، فإذا لاحت فرصة مناسبة للثورة ابتهلوها ، وفجروا ما يضطرم في نفوسهم ضد السيادة العربية ، حتى وصل الأمر الى افتراق حلفاء الأمس والمقاتلين في خندق واحد ، والانهاء إلى جبهتين متناقضتين في الأهداف والمصالح .

هكذا كانت الملامح العامة للأندلس بعد مقتل عبد العزيز بن موسى ، حيث الاضطراب السياسي ، هو العنوان الرئيسي في هذه الولاية ، منعكساً هذا الوضع على جهاز الحكم ، الذي كان بدوره مضطرباً ونتيجة حتمية لتركيبه المجتمع ، ذات الخطوط المتوترة وغير المتجانسة . فخلال هذه المدة القصيرة التي امتدت حتى سقوط خلافة الأمويين ، مرّ في تاريخ الأندلس نحو عشرين من الولاة ، بعضهم لم يحتفظ بالحكم أكثر من أشهر قصيرة . والسبب في ذلك أنهم

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠ - ٣١ .

كانوا جزءاً من اللعبة السياسية في هذه البلاد ، فلم يستطع أحد منهم استيعابها واحتواء المتناقضات فيها ، بل كانوا أطرافاً مكشوفة في الصراع على الحكم ، كرؤساء قبائل في المقام الأول ، وذلك باستثناء الغافقي الذي كان على سد هذا الفراغ ، لو أتاحت له فرصة أطول في السلطة . غير أن الفوضى السياسية ليست كل عناوين هذا العهد ، فقد اتسع المجال أمام بعض الولاة للنهوض بأعمال قيمة في بدايات هذه المرحلة . ولا يستطيع الباحث أن يتجاهل تلك الحملات العسكرية الجريئة وراء البرينة ، برغم الظروف العصيبة ، تلك التي مثلت آخر خطوط المدّ التوسعي للعرب المسلمين في القارة الأوروبية .

فلدينا صورتان إذن لفترة الأربعين عاماً ، بين الفتح ودولة عبد الرحمن (الداخل) : الأولى بسليتها ، حيث اضطرت أزمة سياسية عنيفة ، لم تجد لها حلاً جذرياً مناسباً ، والثانية بإيجابياتها المتمثلة باختراق الجيوش الأموية ، لأول مرة جبال البرينة وانتشارها حتى اللوار في «فرنسا» .

التوسع في أوروبا (٩٩ - ١١٤ / ٧١٨ - ٧٣٢)

كان أول ولاية الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى ، أيوب بن حبيب اللخمي ، الذي يبدو أنه كان متورطاً في مقتل سلفه ، برغم صلة القرى بين الرجلين^(١) . وهو مدين بتعيينه على ما يبدو لقادة الجيش ، الذين نفّذوا مؤامرة الاغتيال^(٢) . وكانت أولى أعمال الوالي الجديد ، نقل العاصمة الادارية من أشبيلية ، معقل الوالي السابق ، إلى قرطبة المدينة الأكثر توسطاً في الأندلس ، حيث أخذ مجدها السياسي في التآلق منذ ذلك الحين ، حتى بلغ ذروته في عهد الخلافة ، خلافاً للوالي الذي سرعان ما انطفأ نجمه بعد ستة أشهر فقط من تعيينه ، لم يكد خلالها ينجز ترتيبات الادارة المنقولة . فاختار والي القيروان^(٣) - وقد كانت الأندلس تابعة له - أحد أعوانه وهو الحرّ بن عبد

(١) هو ابن اخت موسى بن نصير . ابن عبد الحكم ص ٢١٢ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) محمد بن يزيد . وكان سليمان قد عينه بعد عزل عبد الله بن موسى بن نصير . أخبار مجموعة ص ٢٢ .

الرحمن الثقفي ، الذي وصل الى قرطبة ومعه قوة عسكرية معظمها من اليمنيين ، على الرغم من قيسته ، حيث احتلت القبائل اليمنية منذ البدء ، مركز الثقل بين القوى المتصارعة في الأندلس . ويعتقد بعض المؤرخين أن الوالي الجديد ، لم يستبعد مجابهة أيوب بن حبيب الذي استمد قوته من الجيش ، فآثر أن يأتي مصحوباً بهذه القوة التي قُدِّرت بأربعمئة رجل^(١) . وقد يكون هذا الاعتقاد في محله ، إلا أن عدداً ضئيلاً من المقاتلين ، لم يكن قادراً على التصدي للوالي السابق المهيمن على الجيش ، إذا ما حاول التمرد على قرار أمير القيروان . ولا ريب أن الوالي الجديد كان حذراً في خطواته ، فلم يشأ الدخول منفرداً إلى بلاد تجتاز ظروفها غير عادية ، دون قوة ما ، تقف إلى جانبه ويشق بولائها لضمان نجاحه .

ولكن الحرّ الثقفي ، في ضوء ما تذكره المصادر ، لم يأت بعمل يستحق الاهتمام خلال الستين والثمانية أشهر التي قضاها في الحكم ، مقتصرة على إجراءات تقليدية أكثر ما تتعلق بأمور الضرائب وتنظيم رواتب الجنود . وفي عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي كان كما هو معروف ، نسيجاً وحده بين الخلفاء الأمويين ، خاصة في النظرة إلى علاقة السلطة بإدارات البلاد المفتوحة ، استبدل الحرّ بن عبد الرحمن ، بالسمح بن مالك الحولاني (رمضان ١٠٠ / آذار ٧١٩)^(٢) ، مستقلاً لأول مرة عن القيروان^(٣) ، حيث كانت حادثة ما قد وضعت هذا الرجل موضع الثقة من الخليفة^(٤) . فجاء إلى مركز عمله في قرطبة وهو مندفع حماسة ، لتقويم الأوضاع في هذه الولاية ، التي كان غموضها يزداد لدى خلفاء دمشق . وما لبث أن كتب تقريره الأول إلى الخليفة ، وقد حوى تفصيلاً عن طبيعة الأندلس وإمكاناتها ومشاكلها السياسية والاقتصادية .

Levi-Provençal: Hist. T 1, P 39.

(١) مؤنس ، فجر الأندلس ص ١٣٥ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٣ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦ .

(٤) المكان نفسه .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز لم يكن متحمساً لبقاء العرب المسلمين في الأندلس^(١) ، وإن إرساله السمح أحد رجاله المؤثوقين إليها كان ضمن هذا الهدف ، ولكن هذا الاعتقاد يسقطه السمح نفسه الذي كان رائد الحملات العسكرية التوسعية في أوروبا .

وإذا تخطينا الجانب العسكري في ولاية السمح بن مالك ، وهو جانب في غاية الأهمية سنأتي على ذكره بالتفصيل فيما بعد ، يمكننا القول أيضاً إنه كان رائداً في تنظيم جهاز الحكم على أسس جديدة ومتطورة ، وكانت سياسته الإصلاحية في الإدارة والاقتصاد والعمران ، نقطة تحول في تاريخ الأندلس ، بحيث أعطتها تلك الشخصية العربية المتميزة . ومن الأعمال البارزة التي أقترنت بالسمح ، إعادة بناء القنطرة الرومانية^(٢) على نهر الوادي الكبير ، التي امتدت كجسر بين الضفة الشمالية حيث العاصمة قرطبة ، وبين الضفة الجنوبية المعروفة بالربض^(٣) . ولكم كانت الأندلس الفتية ، بحاجة إلى جهود هذا الوالي الذي حكمها بمنطق إصلاحية وسياسة حازمة ، ولكن السمح لم يعش طويلاً في منصبه ، إذ قتل في إحدى الغزوات في فرنسا (غالة) (٧٢١/١٠٢)^(٤) .

بين استشهاد السمح في موقعة طلوثة Toulouse في أول محاولة جديدة لاخترق البرنية إلى أوروبا ، وبين استشهاد الغافقي قائد آخر هذه المحاولات وأكثرها شهرة ، مسافة سنوات عشر طبعت المرحلة بطابع جهادي خاص ، نستطيع أن نطلق عليها سنوات المدّ العربي الإسلامي في أوروبا . فقد بلغت الجيوش الأموية آخر انتشار لها في ذلك الحين ، ومن ثم أخذت تتراجع وتفقدها أنجزته وراء هذه الجبال . وكان عبد الرحمن الغافقي الذي قاد عملية الانسحاب ببراعة إثر هزيمة طلوثة ، الرجل البارز في الجيش والأوفر حظاً في خلافة

(١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٢٠٦ . ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٤ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦ .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦ .

السمح، بعد أن مارس فعلياً هذا المنصب نحو شهر من الزمن. غير أن السياسات القبلية أبعدته عن ولاية الأندلس، باختيار والي أفريقية (بشر بن صفوان الكلبي) أحد أقاربه الكلبيين، هو عنبة بن سحيم (٧٢٢/١٠٣)^(١). وكانت مهمته دقيقة إلى حد ما، حين جاء إلى قرطبة وعرب الأندلس خارجين من هزيمة قاسية، هي الأولى في تاريخهم العسكري الأوروبي، تاركة آثارها الواضحة على بنية السلطة القائمة على التوازن القبلي، فإذا الكلبيون يحتاجون الولاية ويقبضون على ناصيتها سحابة من الزمن، وفي المقابل كان القيسيون يتلاعب في نفوسهم الحقد بانتظار الفرصة المناسبة.

وعلى الرغم من أن سياسة القبيلة هي التي جاءت بعنبة إلى السلطة، فإنه عمل قدر المستطاع على خلق توازن مقبول بين العرب في الأندلس. ففي خلال السنوات الخمس التي قضاها في الحكم، أمضى أربعاً منها متفرغاً لشؤون الولاية وتنظيم إدارتها، بينما كرّس السنة الأخيرة للسياسة التوسعية متعقباً، آثار الوالي السابق ونهايته أيضاً، حيث لقي نفس المصير وفي ظروف متشابهة (٧٢٦/١٠٧)^(٢).

ومرت فترة من الجمود العسكري بعد مقتل عنبة، كانت حافلة بالآزمات الداخلية العنيفة وفقدان الاستقرار السياسي إلى حد كبير. ففي أقل من سبع سنوات تعاقب على الحكم سبعة من الولاة^(٣)، معظمهم فرضته العصبية القبلية، دون أن يتمكن أحدهم من الاحتفاظ بضعة شهور في منصبه. ولم يترك جل هؤلاء أثراً يذكر في تاريخ الأندلس، إذا استثنينا الهيثم بن عبيد الكلبي (٧٢٩ - ٧٣٠)، في جهوده المحدودة على الجبهة الخارجية، حيث قام

(١) أخبار مجموعة ص ٧٤.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٧.

(٣) عذرة بن عبد الله الفهري، يحيى بن سلمة الكلبي، حذيفة بن الأحوص القيسي، عثمان بن أبي نعمة الخنعمي، الهيثم بن عبيد الكلبي أو الكنازي، محمد بن عبد الله الأشجعي، عبد الرحمن الغافقي. أخبار مجموعة ص ٢٤. ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨.

بحملة عسكرية إلى بورغونية Borgone ، ولكن سياسته في الداخل كانت فاشلة وقائمة على التحدي والعصبية الضيقة . ولا نستغرب ذلك عندما نعرف أن الميثم فرض على ولاية الأندلس، إثر استلام القيسيين السلطة في القيروان بقيادة عبيدة بن الرحمن السلمي الشديد التعصب لقيسيته^(١) ، وامتداد تأثير هذه الحركة إلى الأندلس، فارضةً عليها سنوات من الحكم القيسي المتطرف ، وكذلك إذا استثنينا من هذه اللائحة عبد الرحمن الغافقي (١١٣- ١١٤/٧٣١-٧٣٢) ، ذلك القائد الكبير وأعظم ولاة الأندلس على الإطلاق . والواقع أن السياسة القبلية التي كان مصدرها غالباً القيروان ، تحكمت في أحداث الأندلس وانعكست على ما يجري فيها من تطورات محلية وخارجية . وقد عانى الغافقي ، الرجل البارز في الجيش والمرشح للولاية منذ مقتل السمع بن مالك ، من هذه السياسة التي وقفت عائقاً في طريقه إلى الحكم طوال هذه السنوات، حتى نجح أخيراً في تحقيق طموحه، حيث كان للجيش دور على الأرجح وراء تعيينه أو فرضه والياً على الأندلس.

والغافقي^(٢)، كان بلا شك طرازاً آخر بين الولاة العرب في الأندلس ، والرجل الوحيد الذي بدا قادراً حينذاك على تجسيد الصراعات الحزبية وتعبئة كل الأطراف في خدمة السلطة ، ومن ثم تجنيدها في مشاريع التوسع التي كان لها الأولوية . ففي خلال عام أو أقل قام بمنجزات تتطلب أعواماً طويلة ، حيث كانت سياسته القبلية الحكيمة أحد أهم أسباب النجاح الذي حققه في تلك الفترة ، فارضاً على الجميع إحترامه والالتزام بالطاعة له^(٣) . وبعبارة موجزة نستطيع القول إن الغافقي إجمعت في شخصيته مقدرة المسؤول المنظم المتحرر من عصبياته ، وشجاعة القائد الموهوب ، المتوهج اندفاعاً وحماسة . وإذا كان قد عُرف بصفاته الأخيرة ، فلأنها كانت الهاجس الذي كرس له كل الجهد ،

(١) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية من ١٣٤-١٣٥ . سالم، المغرب الكبير من ٢٩٦ .

(٢) ينسب إلى غافق إحدى القبائل اليمنية .

(٣) مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلس من ٢٩٣ .

قبل أن يتخلى الحظ عنه ، دون أن يجد من الوقت متسعاً لتحقيق ما يريد . فاستشهد في مطلع ولايته التي انتظرها طويلاً ، بعد أن بلغ ذروة التوسع في أوروبة واجتازت جيوشه وادي الرون ، الى عمق فرنسا حتى اللوار ، قبل أن يسقط أخيراً في بواتيه Poitiers أمام أول تكتل صليبي في تلك القارة .

إشتداد الصراع القبلي وثورة البربر (١١٤ - ١٢٤ هـ) :

كان لمعركة بواتيه صداها المؤثر في مختلف أرجاء الدولة الأموية ، مما حدا بالخليفة هشام بن عبد الملك أن يعيد النظر في سياسته الأندلسية ويعطيها جانباً من اهتمامه ، ولكن خلافة دمشق تورطت فعلاً بسياسة التعصب القبلي وغرقت فيها بكل مؤسساتها وأجهزتها ، حتى الخليفة نفسه وهو المعروف بأنه أكثر اعتدالاً في هذا المجال ، كان يضطر إلى المشاركة في مساومات ، يظن أنها ذات فائدة ، بينما هي في الواقع ليست أكثر من محاولات سطحية للتهدة ولتجميد الأوضاع .

ولندع الأندلس قليلاً مع عبد الملك بن قطن الفهري أحد غلاة القيسية ، الذي تولى الحكم بعد مقتل الغافقي^(١) ، لنتنقل إلى القيروان عاصمة المغرب باعتبارها المصدر الذي تتأثر به الأندلس وتتفاعل بما يستجد فيها من تغيرات الى حد كبير . ففي سنة ١١٤ هـ وفي الوقت نفسه الذي قضى فيه الغافقي ، كانت القيروان تشهد تغييرات إدارية هامة ، عندما أطاح الخليفة هشام بعاملها القيسي المتعصب عبيدة بن عبد الرحمن^(٢) الذي أذاق خصومه الكلبيين مرارة تعصبه الأعمى ، كما أذاق البربر لونا من سياسته الفتوية ، متأثراً بأسلوب الحجاج بن يوسف في العراق مع الموالي ، فيما يتعلق بالضرائب والاضطهاد والملاحقة والقتل ، الأمر الذي زرع بذرة النفور لدى البربر من الحكم الأموي ، وأخذت تستوعب الكثيرين منهم آراء متطرفة وثورية ، حيث قاد ذلك إلى انتفاضة البربر الشهيرة في المغرب ومن ثم الأندلس .

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦ .

وكان هشام بن عبد الملك يثق بوالي مصر عبيد الله بن الجحباب ، الذي عين على أفريقية والأندلس (ربيع الأول ١١٦)^(١) وأظهر ميلاً إلى تهدئة الأمور في ولايته وتقليص دائرة التشنج التي اتسعت في زمن سلفه . ولكن الوالي الجديد على الرغم من نجاحه في مصر ، إلا أن سياسته الأفريقية منيت بالفشل ، نتيجة الاختلاف البنيوي بين كل من الولايتين . فافق وهو المتعصب أيضاً لقيسيته ، في معالجة المشاكل الخطيرة في أفريقية ، والتي كان معظمها نتاج الفترة التي أمضاها سلفه في الحكم . وبدا ابن الجحباب رجلاً قصير النظر ، عندما اعتقد أن باستطاعته ضرب كل الحركات المعارضة في المغرب بجماعته من الحزب القيسي ، مما أدى إلى زيادة نفور البربر وابتعادهم ، في وقت كانت بذور الثورة تنفث في صفوفهم وتنذر بانفجار الوضع في المغرب . وامتدت سياسة التعصب لتتناول العرب من القبائل اليمنية وتشتد عليهم ، وتصل إلى الأندلس فتصيب كل من هو غير قيسي . ومن سلبات هذا الوالي أيضاً ، إفساح المجال أمام أبنائه لتولي مراكز هامة في إدارته^(٢) ، حيث كانوا مع بقية مساعديه من كبار الموظفين ، يمثلون شخصيته بكل نزعاتها خير تمثيل . وكانت الأندلس من نصيب أحد أعوانه عقبة بن الحجاج السلوي^(٣) ، الذي كان برغم انتمائه للحزب القيسي خلفاً للوالي القيسي أيضاً عبد الملك بن قطن الفهري ، يتصف بجديّة وموضوعية ، وبأن فيه من ملامح الغافقي ، لا سيما في نزعته الجهادية وميله إلى التوسع في أوروبة^(٤) . وقد ارتبط اسمه بإحدى الحملات الهامة في تاريخ العلاقات بين الأمويين والفرنجة ، الدولة المجاورة لهم خلف البرينية . ولكن عقبة كغيره من القادة لم يحالفه الحظ في مهمته ، عندما حلت بجيشه هزيمة قاسية ، بعد عدة هجمات على منطقة الرون ، ومحاولته رفع الحصار عن ناربون^(٥)

(١) ابن عبد الحكم ٢١٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٧ .

(٣) اخبار مجموعة ص ٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨ .

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩ .

(أربونة) التي كانت لا تزال تحت السيطرة الأموية . ولم يغب عن عقبة ذلك الموقع المحصن الذي لجأت اليه بقايا القوط في جيليقية^(١) ، فشن عليهم في وقت سابق حرباً ضارية بعثرت قواهم وشلت جهودهم لمدة طويلة من الزمن^(٢).

ويحيط الغموض بمصير عقبة ، بُعِدَ الهزيمة التي لقيتها جيوشه أمام شارل مارتل في سبتمانية Septemanie . وإذا كانت لا توجد إشارة ما إلى قتله في هذه المعركة ، فإن أصابع الاتهام تشير إلى عبد الملك بن قطن الفهري الذي قام بانقلاب في قرطبة واستلم الحكم (١٢١ هـ) ، ثم لجأ على الأرجح إلى تصفيته أو زجه في السجن ، مستعيداً السيطرة مرة ثانية على الحكم في الأندلس^(٣).

كانت ولاية عبد الملك بن قطن ، الطاعن في السن وفي التعصب ، حافلة بالأحداث الجسام والتطورات السياسية الخطيرة . ففيها تتجسد مأساة النظام الأموي بعصيانه التي تبناها الخلفاء ، منذ معاوية واعتماده في حساباته السياسية على تطاحن القبائل لابقائها ضعيفة حتى لا تقوى عليه ، مع تعاطف هادئ نحو الحزب اليميني ومصاهرته الكلبيين أقوى قبائل هذا الحزب . ولكن معاوية بدهائه الحاد ، كان يتقن جيداً لعبة التوازن بين الحزبين ، حيث كان على الرغم من اعتماده على اليمينيين واعطائهم الأولوية في مناصب الجيش والإدارة ، لا يتردد أحياناً في التعامل مع القيسيين من خلال الرؤية ذاتها ، حتى أن والي دمشق في عهده كان قيسياً هو الضحاك بن قيس الفهري ، دون أن ننسى ما كان لهذا المركز من أهمية خاصة ، بالمقارنة مع الأقاليم الشامية الأخرى . غير أن اللعبة تفقد قدرتها على الاستمرار بعد غيابه ، وتتحول الدولة تدريجياً إلى خط واحد هو الخط اليميني . فيزيد بن معاوية سخر كل أجهزة الحكم لمصلحة أخواله الكلبيين ، قبل أن يتخذ الصراع القبلي أبعاده الخطيرة بعد موته وتنازل ابنه معاوية . فقد شغل

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) أخبار مجموعة ص ٢٩ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠ .

منصب الخلافة في دمشق وساد الخلاف بين الأمويين وقتاً ، قبل أن يوحّدوا موقفهم من مرشح للخلافة ، ولكن دون أن يفقدوا دعم القبائل اليمنية حتى في أحلك الظروف . وفي المقابل كانت القيسية تقف بكل ثقلها مع عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في مكة . وفي مرج راهط انفجر الصراع في معركة ضارية ، انتهت بهزيمة ساحقة للقيسين ، الذين فقدوا عدداً من كبار زعمائهم على رأسهم الضحاك^(١) .

وهكذا خسر ابن الزبير الرهان على حلفائه القيسيين ، في الوقت الذي حفظ الخليفة الأموي الجديد مروان بن الحكم مشاعر الودّ والتقدير للقبائل اليمنية وللكلبيين بصورة خاصة . وأصبح هذا الشعور ديناً على عاتق الخلفاء المروانيين الذين مالوا عموماً إلى جانب الحزب اليمني ، باستثناء يزيد بن عبد الملك القيسي النزعة ، وابنه الوليد الذي دفع حياته ثمناً لتعصبه ، وكذلك مال إلى القيسية آخر الخلفاء الأمويين مروان الثاني . ولم يتحرر من سياسة الارتئان القبلي هذا ، سوى الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي كان له مفهومه الخاص في الحكم والقضايا الأساسية الأخرى في الدولة .

لقد تطورت الدولة الأموية في سياستها القبلية ، دون أن تقدر أبعادها المستقبلية على مؤسسات الحكم . ونفشت بذرة العصبية في مختلف الأقاليم ، دون أن تتمكن من كبح جماحها ، أو يستطيع الخليفة حينذاك (هشام بن عبد الملك) آخر الكبار الذين عرفتهم دولة الأمويين ، أن يوقف هذا النزف برغم جهوده المخلصة . فهو أيضاً متأثر بهذه العصبية ولكن باعتدال ، وكل ما فعله هذا الخليفة ، لم يؤد إلى أكثر من تجميد الأوضاع وتأخير عملية السقوط لهذه الدولة بضعة أعوام فقط .

وكانت الأندلس الصورة المشوهة لنظام الأمويين هذا ، حيث انصبت فيها كل تناقضاته ومختلف مشاكله ، ولم يكن عبد الملك بن قطن الحجازي العتيق ،

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٧١ - ٧٤ .

يحفظ كثيراً من المودة لخلافة الشام ، لهذا فإن حركته الانقلابية كانت موجهة ضد السلطة الأموية ، في وقت كانت الضربات تنهال عليها من كل صوب ، لا سيما في الولاية الأفريقية ، بحيث لا نستطيع أن ننفي عن هذه الحركة ، بعدها الاستقلالي في هذه الظروف العصية بالذات . ولكن والي الأندلس برغم تقدمه في السن كانت تعوزه الخبرة السياسية والمقدرة على اصطناع الفئات الأخرى الساخطة على الحكم العربي بصورة عامة ، مثبتاً بذلك جهله السياسي ، الذي تحكم في موقفه من الدولة الأموية ، ومن الفئات غير القيسية سواء من اليمنين أم البربر .

وإذا كان الحكم الأموي في المشرق قد استطاع أو كاد ، حسم مشاكل الصراع الاجتماعي والقبلي في محيط غير متعدد الجنسيات نسبياً ، فالصورة تختلف في ولايتي المغرب والأندلس ، حيث تتكاثر الشعوب والقبائل وتنوع الأهواء والمصالح . فإذا كان للعرب هنا السيادة المطلقة ، فذلك يعني للبربر فقدان الاستقلالية القبلية والفردية . ففي عهد موسى بن نصير تحالف البربر والعرب في صورة متكافئة لتحقيق أهداف عسكرية واضحة ، على عكس ما ساد هذه العلاقات بين الطرفين فيما بعد ، من اختلال وابتعاد كل منهما عن الآخر .

ثورة البربر في المغرب (٧٤٠/١٢٢)

تمتد جذور ثورة البربر في المغرب إلى خلافة يزيد بن عبد الملك ، أول خليفة أموي يعلن تأييده الصريح والمطلق للحزب القيسي ، خلافاً لمن سبقه من الخلفاء الذين اكتفوا بالتعاطف الضمني والتأييد المبطن في مواقفهم من الأحزاب القبلية ، التي كانت حتى هذا - الخليفة - تتجه لمصلحة «الحزب» اليمني . أما يزيد الذي ارتبط بمصاهرة مع أسرة الحجاج بن يوسف الزعيم القيسي الشهير ، فقد تخطى كل الحدود في تعصبه للقيسية . فاختار كل مساعديه من كبار الموظفين وحكام الولايات من الحزب القيسي ، بينما اضطهد اليمنيين ولاحق

زعماءهم^(١). ولعل الحزب القيسي كان أكثر جنوحاً إلى التطرف^(٢) من الحزب اليميني ، لأسباب تتعلق بالبيئة والحياة الاجتماعية والاقتصادية ، حيث كان أكثر تحرراً من تقاليده القبلية ، بعد إدراكه مفهوم الدولة والعلاقات السياسية في وقت متقدم على الحزب القيسي ، الذي لم يخرج من دائرة نظام القبلية إلى نظام الدولة إلا في إطار الإسلام . وهذه العزلة السياسية التي عاشها عرب الشمال ، بالمقارنة مع انفتاح العرب الجنوبيين ، كانت تتحكم في ذهنية القيسي المغلقة وتقف وراء تعصبه الشديد للعنصر العربي ، دون أن نلغي من هذه الأسباب بقاء القيسية خارج الحكم طوال الخلافة الأموية ، باستثناء حالات محدودة وعابرة .

ومن ولاية يزيد بن عبد الملك الذين تشبّعوا بهذه الرواسب القديمة ، يزيد بن أبي مسلم أحد تلامذة المدرسة الحجاجية، المعروفة بخطها العنصري والفئوي، حيث عمل زمناً في خدمة الحجاج، مساعداً له وأميناً لـ^(٣) سره وتشرّب أنكاره وذهنيته في السلطة مما يرجّح اختيار الخليفة له، والياً على المغرب (١٠١ / ٧٢٠). وتحدثنا المصادر التاريخية عن ممارسات يزيد بن أبي مسلم، وهي لا تعدو أن تكون مسخاً لممارسات الحجاج مع ميل إلى المبالغة. فكان البربر أكثر الناس تضرراً من سياسته^(٤)، كما كان الموالي الفرس متضررين من سياسة سيده الحجاج في العراق. ولئن استطاع هذا الأخير، الخروج سالماً من الثورات العديدة التي استهدفت رأسه أولاً، فإن يزيد بن أبي مسلم ما لبث أن دفع حساب أخطائه وسقط قتيلًا على عتبة المسجد (١٠٢ / ٧٢١). وتناقلت الأخبار هذا الحادث إلى بلاط

(١) راجع ثورة يزيد بن ملهب. ابن الأثير ج ٤ ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢) دوزي، تاريخ مسلمي إسبانية ص ١٣٩.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢١٣.

(٤) تقول المصادر إن يزيداً كان يأخذ الجزية من البربر والمسلمين ويرسم اسم حرسه على أيديهم لتمييزهم عن بقية الناس. ابن عبد الحكم ص ٢١٤. ابن عذاري ج ١ ص ٤٨.

الخليفة في دمشق، فارتعدت فرائضه وتنصل من أعمال واليه المقتول^(١). ولكي يقرن القول بالفعل، لجأ إلى تعيين يعني من الأسرة الكلبية خلفاً له على المغرب هو بشار بن صفوان^(٢).

ولكن سياسة العداء نحو البربر لم تتوقف عند تغيير الوالي، بل استمرت تأخذ اتجاهاً تصاعدياً يوماً بعد آخر. ولعل أبرز أخطاء بشار بن صفوان بالإضافة إلى معاداته للبربر واضطهادهم، كانت حملته على جماعة موسى بن نصير - حيث بقي لهم موطئ قدم في المغرب ومودة في قلوب البربر، تعود جذورها إلى سياسة التعايش التي كان موسى من روادها الأوائل - التي كان من ضحاياها عبد الله بن موسى والي القيروان الأسبق وعدد من أنصاره^(٣). وعلى الرغم من تحدره من قبيلة يمنية عريقة، فإن بشار بن صفوان كان يتمتع بمقدرة على استغلال المواقف لمصلحته، حيث كان ولاؤه الرئيسي لها. فهو قيسي الهوى في عهد يزيد بن عبد الملك، لا يخالف له أمراً ولو كان على حساب قبيلته، ثم يعود إلى يمينته في عهد هشام ذي الاتجاه اليمني. ولعل دوزي أصاب الموضوعية في وصفه هذا الرجل وأقرانه الانتهازيين حين قال: «إن بشراً الكلي خير من يمثل رجال هذا الفريق الحريصين على ما بيدهم من الوظائف، مدفوعين إلى خدمة مولاهم - يميناً كان أم قيسياً - فأخذ عددهم يزداد شيئاً فشيئاً كلما فسدت الأخلاق وكلما تغلب الطمع والرغبة في جمع المال على حب القبيلة في نفوسهم»^(٤). هذا وقد مات بشار بن صفوان (٧٢٧/١٠٩)^(٥) دون أن يترك أثراً وراءه، سوى نقمة البربر وحقدهم الكبير.

وتولى أمر المغرب قيسي متطرف هو عبدة بن عبد الرحمن السلمي^(٦)،

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٥.

(٣) المكان نفسه.

(٤) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٣٩.

(٥) ابن عبد الحكم ص ٢١٦.

(٦) المصدر نفسه ص ٢١٧.

الذي تبلورت معه مرحلة عصية في العلاقات بين العرب والبربر ، وأخذت الثغرة تتسع بين الطرفين ، في وقت أعاد فيه ذكريات الصراع المسلح بين الطرفين الذي ساد قبل نصف قرن من الزمن . ففي خلال أربعة أعوام أو أكثر قضاهما في ولاية المغرب كان السيف ينظره هو العلاج الوحيد لتسوية المشاكل معهم ، ولإجبارهم على التزام السكينة . ولكن ردة الفعل لم تكن كما اشتهدى الوالى ، حيث ساد التملعل وعمت النقمة فى صفوف البربر ولاحت تباشير التحرك تلوح فى الأفق . عندها أدرك السلمى خطأ سياسته وشعر بالمأزق الحرج الذى وجد نفسه فيه ، دون أن ينقذه سوى الاستعفاء فى اللحظة المناسبة^(١) ، مغادراً القيروان إلى الشرق وظلّ يزيد بن أبى مسلم^(٢) يلاحقه .

ومرت فترة قصيرة تولى خلالها عقبة بن قدامة شؤون المغرب بتكليف من الوالى المستعفى^(٣) ، قبل أن يرسل الخليفة هشام واليه على مصر عبيد الله بن الحبحاب (٧٣٤/١١٦) ، مع الإبقاء على مركزه فى الأخيرة^(٤) ، وهى صلاحيات واسعة لم يسبق لأحد أن تقلدها فى ذلك الوقت . وكان عبيد الله كما يبدو حائزاً على ثقة الخليفة رغم افتراقهما فى الهوى القبلى ، إذ إن سياسته فى مصر نالت إعجاب هشام ونزلت منه منزل التقدير . ولكن والى القيروان الجديد ، وقد قبض بيده على نفوذ تجاوز طموحه بكثير ، أطلق لقيسيته العنان وأوقع نفسه فى أخطاء فادحة بدافع من عصبية ، التى استهدفت ليس فقط اليمىنيين ، بل صبّت كل حقدها الموتور على قبائل البربر^(٥) ، دون أن يحفظ تجربة من التجارب التى كان على معرفة تامة بها .

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ .

(٢) قتله البربر سنة ١٠٢ هـ . ابن عبد الحكم ص ٢١٤ .

(٣) عقبة بن قدامة التجيبي . ابن عبد الحكم ص ٢١٧ .

(٤) المكان نفسه .

(٥) اعتبر عبيد الله أن البربر فى المسلمين أو عبيد لهم . النويرى ، نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤ .

دوزى ، تاريخ مسلمى إسبانية ص ١٤٣-١٤٥ .

وفي تلك الأثناء وعلى جبهة البربر ، كانت فكرة الثورة تأخذ طريقها إلى النضج ، كلما اشتدت عليهم وطأة الحاكم الجديد وأبنائه وأعوانه^(١) . غير أننا نقع في سذاجة التعليل ، إذا اعتبرنا أن سياسة القمع العنصرية التي التزم بها ابن الحبحاب وأسلافه من الولاة المترمتين ، كانت المحرك المباشر لثورة البربر . فهناك ظلال اجتماعية أورثتها هذه السياسة وخلقت هوة عميقة وفروقات شاسعة ، حيث كان على البربر أن يغطوا دائماً طلبات الحكام الشرهة ، الذين كانوا بدورهم لا يبتغون سوى رضى الخلافة عبر تزويدها بالأموال^(٢) . فانعكس ذلك على أوضاع البربر ، بعد استلاب الجزء الأكبر من مواردهم الحياتية وتدني مستواهم الاجتماعي إلى حد كبير^(٣) . حدث هذا الاختلال الاقتصادي في وقت كانت أفكار من نوع جديد ، يقوم بتصديرها الخوارج من الاباضيين والصفرين^(٤) ، وتشق طريقها بين صفوف المسحوقين من البربر . فاستهوت نظرياتهم الجريئة الفقراء منهم ، لا سيما نظرية الحكم التي تبيح لذوي الكفاءة أن يتقلدوا الخلافة ، بصرف النظر عن العنصر الذي ينتمون إليه . وهي تخالف طبعاً المبدأ السائد في المغرب ، الذي مثل فيه العرب فئة حاکمة واستبد بعض ولاتهم بالأمر . وغالباً ما تجد الأفكار المتطرفة أرضاً خصبة في مثل تلك الظروف ، حيث وجد البربر متنفساً من خلالهما يعبرون عن سخطهم على سياسة الولاة في المغرب .

وهكذا في مدة لا تتجاوز الخمس سنوات ، قام الخوارج بـ « انقلابهم » الجريء في المغرب ، بعدما زرعوا الأرض بأفكارهم الثورية ومذهبهم

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٤٤ .

(٤) انتشر المذهب الاباضي في القسم الشمالي من المغرب الأقصى والأوسط . بينما انتشر المذهب الصفري وهو مذهب متطرف نوعاً ما في القسم الجنوبي من المغرب الأقصى . سالم ، المغرب الكبير ص ٣٠١ .

المتطرف^(١). وقد تحرك هؤلاء الخوارج بذكاء، مستفيدين من تجاربهم العديدة والفاشلة في المشرق، ومتهزين فرصة تاريخية في وقت كانت عوامل النعمة قد ملأت نفوس البربر، على طغيان الحكم القيسي الذي بلغ مداه في ولاية عبيد الله بن الحبحاب^(٢).

وبعد أن هبّ الخوارج المناخ المناسب للشوكة، انفجر الموقف أخيراً في طنجة. وكان حاكمها عمر بن عبد الله المرادي^(٣)، خير منفذ لسياسة سيده الاقتصادية، وربما كان أكثر تشدداً منه في هذا السبيل. وصادف آنذاك أن حملة بحرية ومعها قسم كبير من الجيش، قد أرسلت لشن غزوة على صقلية^(٤) (٧٣٩/١٢٢) بقيادة حبيب بن أبي عبيدة، فإذا المناسبة أفضل للتحرك وتحديد ساعة الصفر^(٥). وكانت طنجة بموقعها المتطرف وكذلك إقليم السويس في المغرب الأقصى، ملتقى الناقمين على السلطة وتجمع الدعاة الخوارج، الذين تمكنوا من التحرك عبر ظروف أفضل بكثير من ظروف المغرب الأوسط، حيث المراقبة شديدة وشرطة الوالي المتطهر منبهة تنشر وراءها الأرهاب.

وكانت طليعة الثورة من قبائل زناتة، لا سيما مكناسة وبرغواطة ومطقرة^(٦)، وعلى رأسها زعيم القبيلة الأخير ميسرة المطغري أو المدغري^(٧) من البربر البتر. ويبدو أن ميسرة كان على جانب من الثقافة الدينية التي اكتسبها في القيروان، قبل أن يتشرب الأفكار الصقرية ويتحمس لها. ولم يكن يضيره أن يعمل سقاء في مطلع حياته أو أن يكون فقيراً معدماً كما تصفه المصادر

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢١٧.

(٤) ابن عذاري ج ١ ص ٥١.

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢.

(٦) ابن عبد الحكم ص ٢١٨، حرركات، تاريخ المغرب ص ٢٥-٢٦، ابن عذاري ج ١ ص ٥٢.

(٧) المكان نفسه.

العربية^(١) ، حيث كان من الذكاء وقوة الشخصية الى الحد الذي جعله يستقطب جانباً عريضاً من البربر الذين اعترفوا به أميراً ، أو خليفة^(٢) . وقد ضاعف من أحقاد زعيم البربر بشكل خاص ، أنه في محاولات سابقة لم يوفر جهداً من أجل تسوية الأمور مع السلطات الأموية . فلما فشل مع والي القيروان ذهب إلى دمشق، لطرح مشكلته مع الخليفة هشام ولمعرفة رأيه في سياسة عماله في المغرب . ولكن هذا الأخير رفض مقابله ، ومما جعل نغمته تشتد على الحكم الأموي ويتحفز للثورة عليه، متجهاً بأنظاره إلى طنجة حيث كانت بواوير النخبة ظاهرة جليلة ، يؤجج نارها بصورة غير مباشرة حاكمها المرادي .

كانت الثورة قد اختمرت واستكملت خيولها، عندما قام ميسرة ومعه عدد هائل من البربر المتطرفين بالهجوم على طنجة ، حيث كانت دعوته قد امتدت إليها وتفشت بين سكانها في وقت سابق . وبسرعة نجح الثوار في إحكام قبضتهم على المدينة وقتل المرادي^(٣) ، ومن ثم القيام بترتيبات استهدفت مظاهر السيادة العربية، وتعيين أحد رجال ميسرة (عبد الأعلى بن جريج) حاكماً عليها . ويصفه ابن عبد الحكم بأنه من بقايا البيزنطيين هناك، كان قد دخل في خدمة موسى بن نصير^(٤) وعاش في طنجة، إلى أن جذبه الثورة فانضم إليها . ثم تابع ميسرة طريقه إلى إقليم السوس ، وكانت الأوضاع لا تختلف عن طنجة من مختلف الجوانب ، فتكررت العملية ذاتها في السوس وقتل عامل الاقليم اسماعيل بن عبيد الله أحد أبناء والي المغرب^(٥) .

وفي القيروان ارتاع الوالي لهذه الأخبار واستبد به الغضب الشديد على مقتل ابنه وأحد أعوانه . ولم يكن في موقع يُحَسِّدُ عليه لأن قسماً كبيراً من الجيش كان

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٥٢ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢ .

(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٨ .

(٥) المكان نفسه .

يقوم بمهمة حربية في البحر المتوسط ، ولأن ما تبقى من قواته في المغرب ، لا تستطيع وحدها المجابهة مع قوات ميسرة الكثيفة ، خاصة بعد النكبة التي تعرض لها العرب في المغرب الأقصى ، وأدت إلى تدمير قوتهم العسكرية في هذه المنطقة . وأدرك والي القيروان حراجة الموقف، فأرسل إلى حبيب بن أبي عبيدة يستحثه على العودة ، وفي نفس الوقت كان قد أعد حملة عسكرية بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري لقمع الثورة في طنجة^(١) . وعلى الرغم من المبادرة السريعة التي اتخذها والي القيروان ، فإن التكافؤ كان مفقوداً بعد وصول الحملة الأموية إلى وادي شلف بالقرب من طنجة ، حيث هرع إليها ميسرة بقواته وألحق بها هزيمة ساحقة ، أودت بمعظم عناصرها بمن فيهم قائدها خالد بن أبي حبيب^(٢) . وتعرف هذه الموقعة في التاريخ بغزوة الأشراف^(٣) ، تعبيراً عن التضحية الجماعية التي نُكب بها العرب المسلمون (٧٤١/١٢٣) . أما حبيب بن عبيدة فإنه على الأرجح لم يشارك في هذه الموقعة، لوصوله في وقت متأخر، بعدما حال تأخره دون ذلك، مما جعله يتوقف في مكانه بانتظار امدادات كافية^(٤) .

ولقد أسفرت هذه الحادثة عن نتائج في غاية الخطورة، كان لها صداها المؤثر في بلاط الخلافة الأموية، حيث انتفض الخليفة هشام و«غضب غضبه الشهيرة»^(٥)، كما ارتعدت فرائص عبيد الله بن الحبحاب الذي أدرك أن نهايته السياسية باتت وشيكة . ولكي يوجد تسويغاً لما حدث ، اتهم جماعة من العرب اليمنيين بزعمارة والي تلمسان (موسى بن أبي خالد)، بأنهم وراء تحريض البربر، فانتقم منهم شر انتقام^(٦) وزاده حرجاً ما نقلته الأخبار عن انقلاب عبد الملك بن قطن ضد عامله

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٨ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) المكان نفسه .

(٤) ابن عذاري ج ١ ص ٥٣ .

(٥) «والله لأغضبن لهم غصبة عربية ولا بعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي» القول المنسوب

لهشام . ابن عذاري ج ١ ص ٥٤ .

(٦) ابن عبد الحكم ص ٢١٨ .

على الأندلس عقبة بن الحجاج^(١)، في محاولة لم تخل من بُعد استقلالي في تلك الظروف الصعبة . أما على جبهة البربر فقد شهدت طنجة انقلاباً أطاح بزعامة ميسرة بعداتهامة بالجنوح إلى الاستبداد، والخروج على الخط السياسي الذي التزمت به الثورة . وكان قائد الانقلاب خارجياً متطرفاً هو خالد بن حميد الزناتي^(٢)، الذي دخلت ثورة البربر في عهده مرحلة جديدة، كان على الأمويين أن يبذلوا مزيداً من الجهد لوقف خطرهما .

وفي دمشق وعت الخلافة خطأ الثقة التي منحتها لعبيد الله بن الحبحاب، المسؤول المباشر عن تردي الأوضاع في المغرب، فصدر قرار بعزله وتعيين كلثوم بن عياض القشيري^(٣) (جمادي الآخرة ١٢٣)، الذي لم يختلف كثيراً عن الوالي السابق من حيث تطرفه القيسي، ولكنه يحمل بالإضافة إلى ذلك شعوراً إقليسياً، من خلال عصبية الشامية، التي كانت وراء النفور من القائد «المغربي» حبيب بن أبي عبيدة^(٤) . وكانت المهمة الرئيسية التي أقيمت على كاهل الوالي الجديد، هي القضاء على ثورة البربر بأي ثمن . فجاء على رأس جيش كبير، قُدّرت المصادر العربية بثلاثين ألفاً، غالبيتهم المطلقة من المقاتلين الشاميين^(٥) . أي أنهم أرسلوا من جيش الخلافة الرئيسي، وهو دليل على تهيب هشام خطورة الموقف في الولاية الإفريقية بصورة عامة . وفي نفس الوقت خشي الخليفة أن لا يكون في مقدور واليه المسنّ تحمل أعباء القيادة بكفاءة مطلوبة، فأرسل معه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، الذي كان قائد المقدمة في الحملة^(٦) . ويبدو أن عوامل سياسية تدخلت في اختيار والي المغرب الجديد،

(١) ابن عداد ج ٢ ص ٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٤ .

(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٩ .

(٥) للمصدر نفسه ص ٢١٨ . أخبار مجموعة ص ٣ .

(٦) ابن عبد الحكم ص ٢١٩ .

بحيث فرضته التوازنات القبلية، وليست الكفاءة القيادية التي تتطلب مواصفات وشروط لم تتوفر كثيراً فيه.

ولقد أراد كلثوم بن عياض اختصار الطريق إلى المهمة المكلف بها، فلم يعرج على عاصمته، بل عين عليها نائباً هو عبد الرحمن بن عقبة الغفاري^(١)، متابعاً سيره بقواته التي تعززت كثيراً باتجاه طنجة. غير أن الجبهة الأموية لم تكن موحدة الاتجاه، وما لبثت الخلافات أن استحكمت فيها منذرة بأزمة خطيرة. ذلك أن طغيان الجند الشامي في حملة كلثوم، طرح مشكلة إقليمية بين العرب الشاميين والعرب الأفارقة، الذين تأقلموا في المغرب واعتبروا أنفسهم مواطنين من أهل البلاد كان من نتائجها الأولى، اختلاف قائدهم حبيب بن أبي عبيدة مع بلج بن بشر وتأزم العلاقة بين الطرفين^(٢).

وهكذا سارت الحملة الأموية بجناحيها الشامي والإفريقي، لإخضاع ثورة البربر في طنجة، دون أن تغيب الحساسيات حتى في أحلك الظروف، مما جعلها متعثرة فاقدة التنظيم برغم كثافة العدد. وسرعان ما ظهرت النتائج السلبية عند قرية بقدورة الواقعة على نهر سبو (سيبية)^(٣)، حين احتدمت معركة ضارية بين البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي وبين العرب بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، أسفرت عن هزيمة كبرى للجيش الأموي ومقتل قائده مع عدد من مساعديه، بينهم زعيم الأفارقة حبيب بن أبي عبيدة الفهري^(٤). بينما نجح بلج بفرقة من الجند تقدر بسبعة آلاف واعتصم في ثغر سبتة^(٥) على ساحل المتوسط. فكانت خسارة العرب جسيمة، فاقت هزيمتهم في موقعة الاشراف، حيث فقدوا أكثر من نصف قواتهم بين قتيل بين قتيلاً وأسير، كما كانت فرصة نادرة أضاعوها

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٩. ابن عذاري ج ١ ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠. ابن عذاري ج ١ ص ٥٥.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠.

(٤) للمكان نفسه.

(٥) ابن عذاري ج ١ ص ٥٥.

من أيديهم، نتيجة لغياب الانسجام بين عناصرهم المقاتلة وافتقارها إلى التنظيم والموقف الموحد.

وبذلك انتزع البربر زمام الموقف من أيدي العرب، وانتشرت قواتهم في مختلف أنحاء المغرب. فطاردت قوات من بربر طنجة بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري^(١) فلول العرب المعتصمين في سبتة، وفرضت عليهم حصاراً شديداً. ولكن بلج ثبت في الدفاع عن موقعه، دون أن يتمكن البربر من اختراق الحصار ودون أن يتجح بدوره في الإفلات منه. فبقي الوضع مجمداً حتى لاحت للعرب فرصة الدخول إلى الأندلس، بعد قليل من الوقت. كما هاجمت قوات أخرى بقيادة عكاشة بن أيوب النفزاوي في عملية جريئة أقليم الزاب مهددة القيروان. وكانت خطة البربر تستهدف القضاء نهائياً على السيادة العربية في المغرب، ولكن هذه الخطة لم يكتب لها النجاح، برغم الانتصارات الباهرة التي حققوها ضد الجيوش الأموية. ذلك أن هشام بن عبد الملك، وهو في آخر أيامه آنذاك، كان شديد الاهتمام بقضية المغرب التي غدت شغله الشاغل، حيث أعد حملة جديدة انتقاماً من المقاتلين المحترفين، وأرسلها إلى أفريقية بقيادة واليه على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي، بعد دراسة شاملة لدقائق الوضع على الجبهة. ووصل القائد الجديد إلى القيروان (١٢٤ هـ)^(٢) وتحرك على جناح السرعة، حيث خدمته الظروف بتوزيع البربر قواتهم إلى عدة مهمات. فهناك قسم رئيسي من الجيش في الزاب، وقسم آخر في طنجة، عدا بعض القوات الأخرى المبعثرة في عدد من المدن والمواقع. فاشتبك مع جيش الزاب بقيادة عكاشة النفزاوي عند (القرن)^(٣). في معركة طاحنة خسر البربر فيها عدداً كبيراً من قواتهم، بينما تمكن الأخير من الهرب، لينضم في وقت لاحق إلى الهواري في حصار القيروان.

وبعد هذا الانتصار الكبير عاد حنظلة إلى القيروان لحمايتها من هجوم

(١) أخبار مجموعة ص ٣٣. أنظر دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا ص ١٥٢.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٢-٢٢٣.

مفاجيء، خاصة من جانب عبد الواحد الهواري زعيم البربر في طنجة. والواقع أن سرعة الضربة التي أنزلها حنظلة بجيش عكاشة، قد فاجأت البربر إلى حد كبير. ذلك أنهم اعتقدوا بعد هزيمة سبو، أنه سيمضي وقت أطول قبل أن يستعيد العرب أنفاسهم ويستأنفوا القتال، لهذا أربكتهم المفاجأة وأثقلت خطواتهم، في وقت كان الهواري بجيش كثيف يأخذ طريقه إلى القيروان ويعسكر بجوارها^(١).

ولم يكن أمام العرب المعتصمين في هذه المدينة إلا الصمود والصبر، ولم يدخل اليأس إلى قلوبهم لأن معركة «القرن» تركت صداها الطيب على معنويات المقاتلين. وكانت شخصية حنظلة القيادية تمارس دورها الرئيسي في عملية الصمود، بعد استنفاره كل طاقات المدينة من أجل الحرب، دون أن يخيب العرب هذه المرة جهود قائدهم، ولا آمال خليفتهم الذي كان يتحرق شوقاً لأبناء المارك في المغرب. غير أن الأخير لم يتمتع على الأرجح بسماع أخبار النصر، لأن هشاماً كان قد فارق الحياة (٧٤٣/١٢٥)، بينما كان الدفاع مستميتاً عن القيروان، ونجح الأمويون ليس في صد الهجوم فقط، ولكن في إنزال ضربة من أشد الضربات بالبربر.

وبانتصار العرب في القيروان ومقتل قادة البربر في المغرب، انتهت تلك الثورة الدامية بعد سنوات ثلاث من المعارك الطاحنة، وعاد المغرب بكامله إلى دائرة النفوذ الأموي. ولكن الصفحة لم تنطو نهائياً، فالثورة امتدت إلى الأندلس، بعد أن وجدت ظروفها المناسبة هناك، ومات هشام بن عبد الملك آخر الخلفاء القادرين على تهدئة الأوضاع، التي ساءت كثيراً في عهد خليفته الوليد الثاني وغيره من الخلفاء الذين انعكست سياستهم الارتجالية على كل مؤسسات الدولة وأساءت إليها كثيراً في ذلك الحين. فقد جاء النصر الأموي صعباً، بعد أن سبقته هزائم قاسية، دون أن يعني ذلك سوى أن مواقع النفوذ الأموي في المغرب

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٥٢.

أخذت في الاهتزاز، ومن ثم العجز عن استعادة أوضاعها السابقة في ظل السلطة المركزية المتراجعة. وسيكون من أبرز نتائج هذه الثورة في الأعوام اللاحقة، أن المغرب أخذ يمنح فعلاً إلى الخروج من دائرة هذه السلطة، ليكون السباق في هذا المضمار، عندما شهد قيام دويلات مستقلة في وقت مبكر من الدولة العباسية.

ثورة البربر في الأندلس كانت الأندلس مرتبطة عضوياً بولاية المغرب ، ومعنية بكل ما يجري على أرضها من أحداث وتطورات . فهناك ظروف سياسية واحدة أوجدت تشابهاً كبيراً بين الاقليمين ، تبدأ بعمليات الفتح وتنتهي بالصراعات القبلية والعنصرية العنيفة . وبعبارة موجزة فإن الأندلس ليست أقلية تابعة لإدارة المغرب فقط ، وإنما هي جزء من تاريخه السياسي والاجتماعي في ذلك الوقت ، تتأثر به وينعكس عليها بجميع مشاكله وأحداثه .

وفي تلك الأثناء انتقلت عدوى الثورة من المغرب إلى الأندلس وانتشرت بصورة خاصة في الجهات الشمالية ، حيث مناطق استقرار البربر ، فأعلنوها مناطق نفوذ لهم باستثناء مدينة سرقسطة التي كانت السيطرة فيها للعرب^(١) . وتأخذ الثورة هنا طابعاً اجتماعياً قريب الشبه بطابع الثورة في المغرب ولكن أكثر حدة ، حيث الأوضاع الاقتصادية البائسة لعبت دورها في انفجار عوامل السخط ، دون أن تغفل الدور التحريضي البارز الذي قام به دعاة الخوارج في صفوف بربر المغرب . أما في الأندلس فكانت ثورة البربر تحمل ملامحها الاجتماعية ، تحت تأثير الظروف الاقتصادي والمناخي غير الملائم في مواطن تجمعاتهم السكنية ، وتتفجر سياسياً بشحنات الغضب على نظام شاركوا في إرساء بنيانه وكانوا الطلائع الأولى على أرضه .

ولقد أحسن بربر الأندلس توقيت ثورتهم ، حيث السلطة المحلية في ضياع وتمزق ، تحت حكم القيسي العجوز والمتفرد بالأمر عبد الملك بن قطن الفهري .

(١) انظر دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٥٨ .

فلا سلطة لوالي المغرب المثقل بشجون ولايته التبعة، ولا الخليفة الضعيف (الوليد الثاني) في دمشق، يعتيه ما يجري في الأندلس. ونستطيع القول إن هذه الأخيرة، جنحت عن دائرة الحكم المركزي بصورة فعلية بعد موت هشام، وكان عليها أن تعالج مشاكلها المستعصية بنفسها.

وكانت أولى هذه المشاكل، انتفاضة البربر في شمالي الأندلس كما سبق أن أشرنا. وإذا كنا نمتلك من تفاصيل هذه الحركة ما يتعلق بأبعادها السياسية والاجتماعية، إلا أن غموضاً يحيط بها من الناحية التنظيمية على وجه الخصوص. فليس هنالك ما يشير بوضوح إلى شخصية قائد الثورة وانتبائه الفكرية، وهل كان متأثراً بالتيار الخوارجي الذي سبق لثورة المغرب أن تأثرت به، أم أن دوافعه تحكمت فيها ظروف محلية خاصة؟ ففي «أخبار مجموعة» اسم غامض لزعيم بربر الأندلس يعتقد أنه (ابن هدين)^(١)، وفي «افتتاح الأندلس» اسم آخر لزعيم هو (زقطنق) الذي قاد البربر في معركة شدونة^(٢). وفي «البيان المغرب» إشارة إلى رجل زناتي يقود الثورة في هذه الأخيرة^(٣). ولعل الحركة تولت أمرها عدة قيادات، نسقت مواقفها ضمن هدف واحد وهو القضاء على السلطة العربية في الأندلس، بعد تحرك جيوش ثلاثة في وقت واحد نحو اتجاهات محددة. ويتجاهل دوزي اسم قائد الثورة، ربما لافتقاده المعطيات الكافية، لأن ما ذكره في هذا السبيل اقتصر على معاصر لطارق بن زياد يدعى «منوسة»، كان قد ثار على العرب في وقت سابق، مدفوعاً بالنقمة على السياسة الفتوية التي كان يمارسها هؤلاء مع إخوانه البربر. وقد أورد دوزي هذه الحادثة ليعطي ثورة البربر في الأندلس أبعادها الخاصة بها، كشورة لها جذور اجتماعية بعيدة^(٤).

والواقع أن الدعوة إلى الثورة في الأندلس، استقطبت جموعاً ضخمة تدفقت

(١) أخبار مجموعة ص ٣٩.

(٢) ابن القوطية ص ٣١.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٣١.

(٤) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٥٨.

من المناطق الشمالية (ماردة، قورية، كلبيرة)^(١)، وانتظمت في ثلاثة جيوش مهمتها الهجوم على المراكز العربية الرئيسية وفق خطة مدروسة^(٢): الأول مستهدفاً طليطلة والثاني قرطبة، أما الثالث فكان عليه أن يتوغل جنوباً باتجاه الجزيرة الخضراء، لتنسيق الجهود مع بربر المغرب من جهة، وفرض حصار على المساعدات العربية ومنع الاتصال مع عرب المغرب، لا سيما الشاميين المحاصرين في سبتة، من جهة ثانية.

كانت خطة ذكية بدون شك، أدركت كل مواطن الضعف في الولاية الأندلسية وعملت على استغلالها، متهزة كل الفرص التي كانت حتى ذلك الحين تخدم مصلحة أي تحرك منظم يمتلك من القوة حظاً ما، لأن حكومة قرطبة كانت مضطربة، لا يظهر لها من الأمور سوى ما تراه بمنظارها الضيق. فإذا أحست أن خطراً اقترب منها - يفترض أن لا يكون ساقطاً من حسابها - فوجئت وارتعبت، وتصلى إليها العجز للمخطر بما لديه من قوات، أظهرت المصادمات الأولى أنها غير كافية، وشعر آنذاك بخطورة وضع تجاهله حينذاك، بالانصراف إلى مقارعاته القبلية التي كانت شغله الدائب.

ولنعد قليلاً إلى الوراء لمتابعة أخبار القائد الأموي بلج بن بشر المعتصم في سبتة، منذ أن لحقت الهزيمة بجيش عمه في معركة سيو. فقد مرت أيام عصيبة على هذا القائد وجنوده السبعة آلاف المحاصرين من كل الجهات ما عدا البحر، حيث كان أشد ألوان الحصار فتكاً بهم هو الحصار الاقتصادي. فحاولوا عبثاً الحصول على مساعدات غذائية من الأندلس، وقيل إن عبد الرحمن بن حبيب - ابن زعيم عرب الأفاقة الذي قتل في المعركة المذكورة وفر مع بلج إلى سبتة - قد عبر المضيق إلى الأندلس وقابل عبد الملك بن قطن، موغراً صدره إزاء

(١) أخبار مجموعة ص ٣٩-٤٠.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠-٣١.

الشاميين^(١) منذ الخلافات التي نشبت بين والده وبين كلثوم بن عياض، قائد الحملة الشامية، التي سبق أن أشرنا إليها.

ولم يكن عبد الملك بن قطن بحاجة إلى أحد يستشير حقه ضد الشاميين، فهي مسألة لا تحتاج إلى نقاش بالنسبة إليه، عندما رفض بإصرار كل نداءات بلج لم يد المساعدة إليه، والقى جانباً كل شروط القائد الشامي واستعداده لأي حل يرتأيه وإلى الأندلس، مقابل تخليصه من برائث الجوع والموت^(٢). حتى أن عربياً من بني لحم^(٣) استفزته حالة هؤلاء الشاميين، فأمدهم سراً بكمية من الدقيق، إلا أنه دفع حياته ثمناً لهذه البادرة^(٤)، والواقع أن عبد الملك بن قطن كان أسير عصبية المتطرفة، وتتجاذبه الشكوك في نوايا بلج وصحبه من الشاميين الذين يشكلون جبهة متماسكة، ويملكون تجربة هامة في القتال.

وفي وقت كاد اليأس أن يستحوذ على تفكير هؤلاء ويلغي كل آمالهم في الحياة، إذا بالطريق إلى الأندلس تصبح ممهدة بعد انفجار ثورة البربر في الأندلس، والهزائم المتلاحقة التي نزلت بجيوش عبد الملك بن قطن، لاسيما وأن الضغط على قرطبة مركز الحكم الأموي، كان يتزايد مع إحتشاد البربر حولها. فالدعوة إذن لم تأت للشاميين من أجل الاستقرار في الأندلس والتعايش مع عربها المخضرمين، بل كانت دعوة للحرب فقط، وهي مشروطة بمغادرة البلاد فور القضاء على ثورة البربر^(٥). وعلى الرغم من ذلك لم تجد جماعة سبتة بداً من الاستجابة لشروط والي الأندلس، لأن بغيتها الوحيدة كانت في تحرير نفسها من مأزق الحصار المميت.

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠.

(٣) عبد الرحمن بن زياد اللخمي. أخبار مجموعة ص ٣٨.

(٤) المكان نفسه.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠.

وبسرعة حملت السفن بلج ورفاقه الى الجزيرة الخضراء ، لنجدة عرب الأندلس في حربهم مع البربر . وعلى الرغم من قلة عددهم - وهم سبعة آلاف^(١) كما ذكرنا - إلا أن تجربة سبتة كانت عظيمة الفائدة بالنسبة إليهم ، حيث صهرت خبرتهم العسكرية وحولتهم إلى نخبة من المقاتلين الأشداء ، ولكن عبد الملك بن قطن لم يتخل عن حذره نحوهم ، عندما عقد معهم اتفاقاً مكتوباً ، على أن يغادروا الأندلس بعد انتهاء مهمتهم إلى أي بلد يختارونه في المشرق . وحتى لا يكون الاتفاق حبراً على ورق ، فرض على كل فرقة تسليم عشرة رجال منها كرهائن ، يحتفظ بها في إحدى الجزر حتى يضمن تنفيذ هذه الشروط^(٢) .

وهكذا تعزز الموقف العربي بتوحيد الجهود بين غرب الشام وعرب الأندلس تحت قيادة واحدة ، في وقت كان الجميع مندفعين بإخلاص إلى القتال بعدما دوهوا بانتشار ثورة البربر ذلك الانتشار الواسع . وكانت الجولة الأولى التي فرضت عليهم مع الجيش الثالث ، لمنع استيلائه على الجزيرة الخضراء والحوؤل دون قيام اتصالات مع بربر المغرب . ووقعت معركة في شذونة تجلّت فيها روح التعاون والتنسيق في صفوف العرب ، حيث أنزلوا بالبربر هزيمة مدمرة^(٣) ، أضاعت عليهم كل الآمال في تحقيق عون خارجي لثورتهم ، بينما خرج الشاميون من المعركة بروح عالية ، بعد أن أظهروا من الشجاعة ما يثير الإعجاب^(٤) .

وكانت قرطبة حينذاك تصد بياس هجمات البربر المتكررة ، حيث أحكم الجيش الثاني حصاره حول المدينة . فتحرك عبد الملك بن قطن على جناح السرعة ووراءه العرب الشاميون لانقاذ عاصمته المنهكة ، دون أن يجد صعوبة في إنجاح مهمته وإنزال ضربة جديدة بالبربر . فتمزق الجيش الثاني شراً تمزيقاً ، وجنحت فلول منه باتجاه طليطلة حيث الموقع الأخير الذي يجاربون عليه . وكان

(١) جاء في البيان المغرب أن عددهم عشرة آلاف ج ١ ص ٣١ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٨-٣٩ . ابن عذاري ج ٢ ص ٣١ .

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٣١ .

(٤) المكان نفسه .

جيشهم الأول سبأفاً إلى محاصرة المدينة وإذاقتها شهوراً من الشدة دون أن ينال منها . وفي تلك الاثناء كانت القوات العربية الموحدة تتابع مهماتها في القضاء على ما تبقى من جيوب الثورة . فبعد معركة قرطبة ، تابعت المسير نحو طليطلة ، والتفت بالثوار على مقربة منها في وادي السليط Wadi Salit ، عند رافد صغير لنهر التاج (تاجة)^(١) . فجرت معركة طاحنة أظهر الشاميون خلالها مهارتهم العسكرية التي ظهرت في المعركتين السابقتين ، وما لبثوا أن حققوا النصر هذه المرة أيضاً وسحقوا ثورة البربر^(٢) ، مقدمين للعرب الحاكمين في الأندلس خدمة جليلة (مطلع سنة ١٢٤ هـ ومنتصف سنة ٧٤١ م) .

غياب السلطة المركزية (١٢٤ - ١٣٨ / ٧٤٢ - ٧٥٦) مرت الأزمة الصعبة بسلام وسُحقت الثورة ، قبل أن تأخذ حجم جارمها في المغرب ، وتقوقع البربر في مزارعهم يلودون بالصمت ، وفوق رؤوسهم سيوف العرب مسلطة ، لا تفك تهديدهم وتلاحق تحركاتهم . وإذا بشيخ المجاعة يطل برأسه بعد بضع سنوات ، فلا العرب اهتموا بالأرض ، ولا البربر ثابروا عليها ، حيث استهوتهم الثورة طمعاً بتحسين أوضاعهم ، وإذا بالفشل قد لحق بهم ، أخذوا يتواكبون في جماعات متلاحقة ، قافلين بالعودة الى المغرب .

ولكن هوم الأندلس لم تقف حدودها عند غياب البربر عن لعبة التنافس على السلطة ، لأن الكرة انتقلت إلى أيدي العرب ، يعيشون بها أو تعبث بهم حتى الاستنزاف . فهواجس الحاكم العجوز عبد الملك بن قطن لم تكن مجرد خواطر سوداء في غير مكانها ، عندما ظن الظنون بجماعة بلج الشاميين ورفض استقبالهم على أرض الأندلس ، إلا بعد أن شعر بالمأزق يسد عليه كل النوافذ ، ولا يجد مناصاً من اتخاذ هذا القرار وهو كاره له في أعماقه .

وحدث ما كان متوقعاً ، فلا الشروط المكتوبة ولا الرهائن والمواثيق غيرت

. Levi-Provençal: Hist 1, 36.

(١)

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٠ . ابن عذاري ج ٢ ص ٣١ .

ما بنفوس الشاميين ، الذين استطاب لهم البقاء في هذه البلاد التي كان لهم الدور الكبير في انقاذها ، وأصموا آذانهم أمام إلحاح عبد الملك عليهم بالعودة . وفعلت الحساسيات فعلها لدى الفريقين ، حيث الكراهية متبادلة والحقد متوارث عموم . وحالت عقد الحاكم المترسبة فيه دون اتخاذ قرار حكيم بوقف الجدل ومنع الصدام الحتمي ، بينما تكتل الزعماء المحليون بدورهم حول عبد الملك ، رافضين التعايش مع هؤلاء «الدخلاء» .

وكان لا بد من حسم الموقف ، فانتفض الشاميون بسرعة وهاجموا قصر الإمارة في قرطبة^(١) ، حيث اعتقلوا حاكمها التسعيني عبد الملك وأجلسوا زعيمهم بلج مكانه . وكانت الضربة سريعة إلى درجة أنها أفقدت توازن جماعة الحاكم المخلوع ، فولّوا هارين وكان على رأسهم أمية وقطن ابنا عبد الملك ، إذ لجأ الأول إلى سرقسطة والآخر إلى ماردة^(٢) . وبينما التزم أبوهما الصمت في دار له بقرطبة ، سعى ولداه إلى استقطاب الأنصار والمؤيدين للانتقام من بلج ، فوجدا استجابة عند حاكم اربونة Narbonne عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الزعيم الأفريقي الذي كان لا يزال مع جماعته في الأندلس ، وهو المعروف بخصومته العنيفة لبلج كما مرّ معنا . وقد عمل هذا الأخير في خدمة عبد الملك بن قطن ، حتى قيام خصمه بانقلاب في قرطبة ، ففرّ مع الفارين من أنصار الحاكم المخلوع . وأصبحت سرقسطة مركز استقطاب لجماعة عبد الملك بن قطن ومن واكلها من عرب الأندلس ، المتأثرين بعصبيتهم الإقليمية ، شاعرين بعمق الخطر الذي يستهدف كيانهم المرتبط أساساً مع تاريخ هذه البلاد . وإذا بأجواء الحرب الساخنة تلوح في الأفق ، ويزيد في تسعيرها غياب السلطة المركزية التي كانت تعيش بدورها حالة من الجمود السياسي في أواخر عهد هشام بن عبد الملك ، حيث تفاقم الصراع في الولايات الأموية لا سيما البعيدة منها مفقداً الخلافة بريقها المركزي ونفوذها السياسي ، مما جعل

(١) أخبار مجموعة ص ٤١ .

(٢) المكان نفسه .

الخليفة بعد هشام، وكأنه حاكم لولاية الشام فقط ، قانع بهذا الجزء اليسير من المسؤولية .

وكانت الأندلس الولاية الأشد تأثراً بانحيار منصب الخلافة ، وما جرى فيها آنذاك لم يكن غير صورة مكررة لما كان يجري في دمشق . فهناك تكتلان بكل ما تعنيه هذه الكلمة، تكتل الشاميين الذين سيطروا على الحكم وحشدوا طاقاتهم في قرطبة بزعامه بلج ، وتكتل الأندلسيين في سرقسطة بزعامه أمية وقطن ابني عبد الملك، ومعهما عدد من الزعماء المحليين وحدثت بينهم المصلحة السياسية ضد التكتل الأول . وكان هؤلاء أكثر عدداً بطبيعة الحال ، حيث قدّرت قوتهم النهائية التي شاركت في المعركة بأربعين ألفاً^(١) ، في الوقت الذي لم يتمكن الشاميون من اضافة سوى بضعة آلاف على قوتهم الأساسية التي عبروا بها من سبته^(٢) . ولذلك لم يكن في مصلحة هؤلاء الذين أسكوا بزمام السلطة ، الاندفاع في حرب ليست مضمونة النتائج . فالإختلال كان واضحاً بين القوتين ، فضلاً عن عزوف حاكم قرطبة الشامي عن ركوب هذا المركب الخشن ، حيث كان أكثر جماعته اعتدالاً وأقلهم جنوحاً نحو العصبية .

ولكن ما حدث في ذلك الوقت - في «جزيرة أم حكيم»^(٣) معتقل الرهائن الشاميين - فجّر الموقف في قرطبة، حيث كان الشرارة التي ألهمت نيران الحرب . ففي أعقاب سيطرة عرب الشام على الحكم ، تعرض هؤلاء المعتقلون لاضطهاد شديد بأمر من حاكم الجزيرة الخضراء أذاقهم طعم الموت ، حتى إذا تسلم بلج بن بشر زمام الأمر وأنقذهم مما هم فيه ، كان أحدهم قد فارق الحياة . وهو كما تصفه المصادر من أحفاد غساسنة الشام^(٤) ويتمتع على ما يبدو بمكانة

(١) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٦٢ . جاء في «أخبار مجموعة» أن قوات عبد الرحمن بن علقمة وحدها بلغت مائة ألف ولا شك انه رقم غير دقيق . أخبار مجموعة ص ٤٣ .

(٢) قدرت قوات الشاميين بأثني عشر ألفاً . أخبار مجموعة ص ٤٣

(٣) على مقربة من الجزيرة الخضراء . ابن عذارى ج ٢ ص ٣٢ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٤١ .

عالية بين قومه ، يستدل على ذلك من حالة الغضب التي أطاحت بعقول أصحابه الشاميين الذين حملوا عبد الملك بن قطن مسؤولية موته تحت التعذيب . وعبثاً حاول زعيمهم بلج أن يلجم غضبهم الجامح ولكن دون جدوى ، مدرِكاً ببعد نظرته ، أن الشاميين محاطون بحصار من العداء والكراهية ، وأن أي تدبير انفعالي لا مسوِّغ له ، لأنه سيختصر حتماً المسافة إلى الحرب وهذا ما كان يَخْشاه ويؤثر الابتعاد عنه وهو لم يثبت أقدامه بعد في الحكم .

غير أن الهوة كانت عميقة بين موضوعية الحاكم الحريص على مكتسباته ، وبين جماعته المحتاجين بلوثة العصبية ، مما أدى الى انتصار فريق المتطرفين الذين هاجموا عبد الملك بن قطن في داره وقتلوه ، حيث كان الانتقام وحشياً^(١) ، دون أي اعتبار لشيخوخته أو لانتماؤه العربي . وهكذا تورط بلج في جريمة لم يشأ تحمّل تبعاتها ، ولكنه غلب على أمره وكان عليه تسديد حساب ذلك التصرف الأرعن ، الذي ارتكبه أصحابه دونما تقدير للنتائج التي ستسفر عنه .

وكما توقع بلج ، فقد كان لهذه الحادثة صداها المؤلم في الأندلس ، عندما الهبت الحقد في نفوس ابني الفهري والمتحالفين معها ، وكان أشدهم انفعالاً ، أو تظاهراً به ، عبد الرحمن بن حبيب الذي كان يتريص الفرص ليكون له دوره الذي يطمح اليه ، فإذا بخصمه اللدود (بلج) يتزعزع منه هذا الدور ويتربع على كرسي الامارة . وما لبثت طلائع المتحالفين أن أخذت طريقها الى قرطبة للقضاء على حكم الشاميين ، وكانت تتألف من قوات أمية وقطن ومعهما قوة من البربر ، جمعها الحقد ضد الشاميين أصحاب السلطة ، وقوات عبد الرحمن بن حبيب من العرب الأفارقة ، فضلاً عن قوات عبد الرحمن بن علقمة اللخمي حاكم أربونة ، التي كانت حجر الرخى في الجيش المهاجم ، لكثافة عددها من جهة ، ولشجاعة قائدها وفروسيته^(٢) التي عُرف بها من جهة ثانية . ولوششنا

(١) أخبار مجموعة ص ٤٢ . ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٣ .

تحديداً أكثر لوجدنا أن المتحالفين هؤلاء لم يجمع بينهم شعور العداء ضد الدخلاء الشاميين فقط ، بل كان لكل طرف من هذه الأطراف الثلاثة طموحه الخفي لأن يكون المرشح المطلوب بعد انتحام المعركة .

واحتدم القتال ضارياً بين الفريقين (شوال ١٢٤ / آب ٧٤٢) في نواحي قرطبة^(١) ، وأظهر الشاميون من البسالة ما أظهره في المعارك السابقة ضد البربر ، فكان صمودهم بطولياً وكانت المفاجأة أن التفوق العددي لم يكن له تأثير كبير على سير المعركة ، وكذلك هجمات عبد الرحمن اللخمي العتيقة أظهرت فشلها في اختراق صفوف الشاميين الثابتة^(٢) . وعندما شعر هذا الأخير بأنه غير قادر على اجتذاب الأضواء وأن يكون فارس المعركة المجلي ، بما يترتب على ذلك من نتائج سياسية ، ركز هجماته نحو قائد الشاميين مصمماً على قتله ، لاعتقاده أن ذلك يؤدي إلى ارتباك أعدائه وهزيمتهم . وتقد ما صمم عليه في عملية انتحارية أدت إلى تدهور الشاميين ، وأوصلته إلى خصمه وإصابته بعدة طعنات ، ولكن قائد سلاح الفرسان الشامي^(٣) التفت عليه ، فاضطر إلى الهرب والنجاة بنفسه مكشياً بالمهمة التي أنجزها . وانهى الأمر بهزيمة المتحالفين من عرب الأندلس ، تاركين وراءهم أشلاء آلاف من القتلى^(٤) ، بينما لم تتجاوز خسارة الشاميين الألف قتيل ، ولكن خسارتهم الجسيمة كانت في قائدهم بلج الذي مات بعد قليل متأثراً بجراحه^(٥) .

وعاد الشاميون إلى قرطبة ظافرين من دون أميرهم ، فاخترأوا واحداً منهم هو ثعلبة بن سلامة العاملي^(٦) (اليميني) حاكماً على الأندلس خلفاً لبلج . وقد

(١) جرت المعركة في موضع يقال له (أقوة برطورة) Aqua Partaraz .

أخبار مجموعة ص ٤٣ ، Levi-Provençal: Hist 1, 47 .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) هو الحصين بن الدجن العجلي قائد قوات قنشرين . أخبار مجموعة ص ٤٣ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢ .

(٦) أحد كبار قادة الشاميين بعد بلج . ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢ .

سار ثعلبة بالأمور سيراً حسناً ، تساعده على ذلك شخصية حازمة واعتدال في الرأي ، ولكن نفوذه كان محدوداً لا يتعدى عاصمته إلى المناطق الجنوبية ، بينما ظل الخارجون وأصحاب النفوذ منتشرين إلى الشمال من قرطبة ، دون أن تحدث الهزيمة التي حلت بهم أي تغيير في المواقف ، مما أدى إلى استمرار كل فريق شاهراً سلاحه في وجه الآخر بانتظار الجولة الحاسمة .

وما لبثت حشود المتحالفين من عرب الأندلس أن أنقضت مجدداً نحو قرطبة ، في محاولة جديدة لاستعادة السلطة من أيدي الشامين . وخرج ثعلبة ، وقد فرضت عليه الحرب ، ليصطدم في معركة حامية (بالقرب من ماردة) ^(١) مع العرب الأندلسيين استمرت أياماً عصيبة ، حقق قائد الشامين بداية انتصار سريع ، ولكنه عاد فانهزم ، وانسحب بقواته إلى مدينة ماردة Merida ، وأرسل في الوقت نفسه إلى نائبه في قرطبة أن يوافيه بقوات إضافية لرفع الحصار عن قواته . ولعبت الظروف دوراً إلى جانب عرب الشام ، حيث صادف عيد الأضحى وهم محصورون في ماردة ، فحين وصلت حملة قرطبة تعززت أوضاعهم وبدوا أكثر استعداداً للقتال ، بينما كان في المقابل عرب الأندلس وحلفائهم من البربر مبهجين بالنصر وبالعيد معاً . ففاجأهم الشاميون بهجوم جريء ، أفقدهم مبادرة التحرك (٧٤٣/١٢٥) ، حيث كانت مذبحة رهينة دفع فيها الأندلسيون ثمناً باهظاً من القتل والأسرى . وتجلت قساوة الشامين هذه المرة، دون أن يتورعوا عن استرقاق أسراهم بمن فيهم النساء والأطفال ، كسابقة لم تحدث من قبل في صفوف العرب المسلمين ^(٢) .

ومرة أخرى لم يتحسن الموقف المأساوي في الأندلس ، فالحاكم الشامي تورط في حرب الاستنزاف بين العرب وقبوع معتكفاً في قصره . أما جماعته وقد أسكرتهم لعبة الدم وأنعمتهم الأسلاب ، فقدوا بدورهم القدرة على التصرف

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٥ . راجع دوزي ، تاريخ مسلمي إسبانية ص ١٦٤ .

واهتزت قرطبة تحت أقدامهم تعاني الفوضى ويسودها الارهاب . وفي غمار ذلك كان لا بد من البحث عن مخرج ما يزيح شبح المحنة الأسود ، وإذا بفريق لم يتلوث بالدماء دفعته نزعة واقعية معتدلة إلى القيام بهذا الدور . المسؤول^(١) . فيتندب وفداً إلى القيروان لوضع واليها حنظلة بن صفوان في أجواء الحرب الأهلية التي تهيمن على الأندلس ، ويناشده العمل على إنقاذ البلاد من محتتها الدموية . فيسارع حنظلة إلى تعيين شخصية كلبية من أقربائه بعد استمزاز رأي الخليفة هشام ، الذي كان شديد الاهتمام بما يجري على أرض تلك الولاية من أحداث ، لم يستطع بنفوذ الخلافة المتقلص أن يحد من استفحالها . وكان أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي - الحاكم المعين - على صلة قديمة وعلاقة ودية مع الخليفة ، منذ أن عمل في المغرب في عهد واليها القيسي عبدة السلمي ، حيث نال كثيراً من الأذى على يده مرسلًا حينذاك إلى هشام قصيدة ألحح فيها إلى ما أصابه من اضطهاد السوالي ، ومنبهاً إلى أخطار سياسته القوية المتزمتة^(٢) . ونمت علاقة ثقة حينذاك بين هشام وأبي الخطار ، جعلت هذا الأخير الرجل المناسب والمطلوب في نطاق البحث عن حاكم معتدل وبعيد النظر .

وما لبث أبو الخطار أن دخل قرطبة (رجب ١٢٥ / أيار ٧٤٣)^(٣) ، قبيل وفاة هشام بأشهر قليلة . وكان دخوله مفاجأة لم يتظرها الكثيرون ، ممن كانوا مستفيدين من الفوضى ويتطلعون من خلالها إلى السلطة . غير أنه لم يصادف متاعباً تذكر في الاستيلاء على الحكم ، بعد أن غلب الرأي المائل إلى السلام والتوق إلى إنهاء تلك المحنة ، في وقت كانت القوى الأسبانية في معاقل الشمال تجد فرصتها الذهبية في هذا الاستنزاف الذاتي ، وتعد نفوذها إلى الجنوب على

(١) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(٢) راجع ابن القوطية ص ١٨ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٣ .

حساب العرب^(١) . فالشاميون خضعوا للأمر الواقع ، ولم يحدوا مانعاً من الاعتراف بولاية أبي الخطار لاعتبارات سياسية وقبلية ، فهو شامي مثلهم لهذا رحبوا به ، كما أن زعماءهم اقتنعوا أخيراً أن الطريق إلى حكم الأندلس ليست مفروشة بالورد ، وقد آن لهم أن يفسحوا المجال لغيرهم ، بعدما فشلوا في تحقيق الاستقرار وتحميد الصراع الدموي العنيف . والأندلسيون كان عليهم أن يدعوا بدورهم لأي حاكم يرفع عنهم كابوس الشاميين المتطغلين ، كمطلب أساسي ومبدئي بالنسبة اليهم ، فرحبوا بدورهم بالوالي الجديد من هذا المنطلق .

كانت بداية جيدة لولاية أبي الخطار ، حيث أذعن له الجميع واعترفوا به . وكانت أولى قراراته إعلان العفو العام عن كل أسرى الحرب ، وهي خطوة ابتهج لها عرب الأندلس ، لا تقل عنها بهجتهم بالقرار التالي الذي قضى بتوزيع الشاميين على عدد من المدن والقرى^(٢) ، في محاولة لبعثرة طاقاتهم ، بعد أن كانت قوتهم الأساسية تكمن في تلاحمهم كتلة واحدة . كما أبعد بعض الزعماء الذين أدينوا بالتحريض على الحرب الأهلية ، وفي طليعتهم زعيم العرب الأفارقة عبد الرحمن بن حبيب ، الذي أمر بالعودة إلى أفريقية ومعه ثعلبة بن سلامة الحاكم السابق للأندلس^(٣) . واستثنى أمية وقطن ابنا عبد الملك الحاكم الأسبق من النفي ، بعدما أظهرهم من الاستعداد للتعاون مع السلطة ، فأعطيت لهما مسؤوليات إدارية في الشمال ، وبذلك عادت الأمور تأخذ طابعها الاعتيادي من الهدوء والاستقرار^(٤) ، بعد أن استقطبت شخصية الوالي الجديد ثقة الأطراف المتصارعة . وكان مؤملاً ففتح صفحة جديدة في الأندلس ، وأن تأخذ عجلة

(١) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ١٦٤ .

(٢) قام أبو الخطار باخراج الشاميين من قرطبة وتوزيعهم على اشيلية والبيرة وبلبة وشذونة والجزيرة . . . أخبار مجموعة ص ٤٦ . ابن عذاري ج ٢ ص ٣٣ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٣ . عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٤٦ .

الحياة طريقها إلى الازدهار والانتعاش الاقتصادي ، مستمدة حيويتها من جدية أبي الخطار وسياسته الحكيمة . ولكن ذلك الاستقرار كان مجرد محطة قصيرة وعابرة ، بقيت ما بقي الحاكم اليمني متحرراً من عقده العصبية ، حتى إذا طغت الغريزة على العقل انتسفت الجهود الإيجابية وضاعت الإصلاحات هباء ، وكأن الأندلس وهي بؤرة العصبية في ذلك الحين ، تلوث كل وافد إليها وتستدرجه إلى ركوب الموجة ، مهما بلغ منه التجرد والاعتدال .

وكان هذا شأن أبي الخطار الذي جاء إلى الأندلس ، لينقذها من مهاوي الصراعات الحزبية والاقليمية ، فإذا به لفترة وجيزة يخلع ثوب الاعتدال ليأخذ موقفاً له بين الأطراف المتنازعة . وكان مؤشر ذلك كما يروي المؤرخون ، أن حادثة ما قلبت سياسة الحاكم وغيّرت أفكاره التي استهل بها ولايته في الأندلس . ذلك أنه فُجع بمقتل يمني من أصدقائه المقربين (سعيد بن جواس) ، واتهم القيسيين من عرب الشام بأنهم وراء الحادثة^(١) . فغلت مراحل الحقد في رأس الوالي الذي فقد السيطرة على أعصابه وجمحت جذور العصبية في نفسه ، وكانت خفية حتى ذلك الحين ، لتصب نعمة الغضب على القيسية . وتحملت هذه بمرارة ما أصابها حيث نشئت قواها بعد افتقاد السلطة ، بينما الوالي الذي انفجرت فيه العصبية اليمنية لا ينفك ماضياً في التطرف ، لاغياً كل إصلاحياته بلحظة غضب شديد . حتى كانت حادثة ثانية عندما اختلف إليه رجلان متخاصمان (قيسي ويمني) ليحكم بينهما ، فإذا عواطف أبي الخطار وقوانينه مسخرة كلها لمصلحة الأخير . أما القيسي فلم يجد غير زعيمه ملاذاً يلتجئ إليه ، فذهب إلى الصميل بن حاتم أحد شيوخ الحزب القيسي^(٢) ، والرجل البارز فيه بعد موت بلج بن بشر .

(١) راجع القاضي ، بقية المتنص ص ٢٦١ ، وقد ورد رثاء لأبي الخطار في صديقه :

فليت ابن جواس يخبر أنني سميت به سعي امرئ غير غافل
قتلت به سمعين يحسب أنهم جذوع نخيل صرعت بالمسائل

(٢) يتسب الصميل إلى قبيلة كلاب وهو حفيد شمر بن ذي الجوشن أحد المشاركين بقتل الحسين في *

ولما جاء الصميل لمقابلة الوالي في قصره لم يكن اللقاء ودياً ، حيث كان هذا الأخير جافياً إلى أبعد الحدود ، بعد اتهامه بمحاباة اليميني على حساب نده القيسي . وتطورت الملاسنة بين الرجلين إلى حد قيام أبي الخطار بشتن الشيخ القيسي وطرده ، وقيل ضربه^(١) . فخرج الصميل من مجلس الوالي كائماً غيظه وفي رأسه صورة واحدة هي الانتقام . وكانت شخصية هذا الرجل في الواقع مثيرة إلى حد كبير ، فهو مجموعة أمزجة مختلفة في شخص واحد ، تحركه الغرائز ما استطاعت وتتلاعب به الانفعالات ما شاء لها ، إلا أنه في النهاية فارس شجاع ، كريم حتى التبذير^(٢) ، وهي صفات تقرب حاملها كثيراً من الناس . . . وهنا كانت تكمن قوة الصميل التي خشىها أبو الخطار وأراد تحطيمها .

وأخذت اجتماعات الصميل واتصالاته بآركان الحزب القيسي تتكرر ، ضارباً حولها نطاقاً من السرية حتى لا يفاجئه الوالي اليميني بضربة قاضية ، منتهزاً قلة أنصاره القيسيين وبعثرتهم ، ولم يدع فرصة تمر دون استثمارها لتقوية مركزه ، بما في ذلك الاتصال بزعماء يمينيين ، لاحظ فتور العلاقة بينهم وبين القبيلة الكلية المستأثرة بالنفوذ والسلطان . ومن هؤلاء ثوابة بن سلامة الجذامي الذي تكتل مع الصميل ، بعد أن أخذ وعداً منه بالولاية إذا ما كتب لها الانتصار . وهنا تسقط الروابط القبلية وصلات الدم ، تحت تأثير المصالح الموحدة للتيارات المتناقضة . ولا شك أن اختيار مرشح يميني للولاية ، يدل على ذكاء الصميل وبُعد نظراته في العمل على تحييد القبائل وعدم نفورها ، بالابقاء على السلطة في يدها ، ومن ثم حصر المعركة مع أبي الخطار بصورة خاصة .

وإذا كان الصميل قد سُهل عليه اجتذاب بعض الشخصيات اليمينية

= كربلاء . وكان أبوه قد فر من ملاحقة المختار الثقفي إلى قسرين ، قبل أن يتنقل منها الصميل إلى الأندلس مع بلج بن بشر . أخبار مجموعة ص ٥٦ . ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤ .

(١) أخبار مجموعة ص ٥٦ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) دوزي ، تاريخ مسلمي إسبانية ص ١٦٩ .

الساخطة على طغيان الكلبيين، فإن الجبهة القيسية لم تكن موحدة وخالية من المشاكل، حيث احتاج إلى بعض الوقت لاقتناع من لم يقتنع بزعامته. وكانت العقبة الأخيرة في الموقف الغامض الذي أحاط بشيخ عطفان في إستجة، أبي العطاء، وهو من المنافسين للصميل في زعامة الحزب القيسي. ولعله بحكم ثقافته ومكانته العالية كزعيم لقبيلة كبيرة، رأى في نفسه كفاءة قيادية أكثر من الصميل، الأمي المتغطرس والمزاجي العبي^(١). ولكن الصميل لا يتردد في الذهاب بنفسه إلى استجة، والتفاهم مع ندّه الشيخ الغطفاني أبي العطاء، منقذاً الجبهة القيسية من الانقسام.

وهكذا تحولت الورقة الرابعة إلى يد الصميل وحلفائه، وكانت شذونة Sidona المركز الذي تنادى الثوار للاجتماع فيه واتخاذ القرار الحاسم (رجب ١٢٧ / نيسان ٧٤٥). غير أن أبا الخطار لم يكن في معزل عن نشاط القيسيين، بل كان مستعداً للأمر حين خرج من عاصمته قبل مدهمة قوات الصميل. وما لبث الاشتباك أن وقع بالقرب من شذونة، في نفس المكان تقريباً الذي جرى فيه المزيد من المعارك، سواء بين العرب والاسبان أم بينهم وبين البربر أم بين بعضهم البعض. ولم تكن النتيجة في صالح أبي الخطار كما اعتقد، حيث جاء إلى المعركة بروح عالية، فالهزيمة حلت به وأركن للفرار والمعركة لم يمض منها غير نزر يسير^(٢). ولكن رجال الصميل ساروا في أعقابه وألقوا القبض عليه وحملوه إلى قرطبة، التي أصبحت تحت سيطرتهم والحكم فيها لثوابة اليميني حسب الاتفاق السابق. بيد أن أبا الخطار لم يملك طويلاً في سجنه، فسرعان ما تسربت قوة من المسلحين الكلبيين^(٣) ليلاً إلى قرطبة وأنقذته من سجنه في عملية متقنة وسريعة.

(١) ابن القوطية ص ٧١، وقد جاء أن الصميل رجل خريدمن عليها لا يكاد يبيت ليلة إلا سكران.

(٢) أخبار مجموعة ص ٥٧. Levi-Provençal: Hist. I, 50.

(٣) قدر عددهم بثلاثين من الفرسان ومائتين من المشاة بقيادة عبد الرحمن بن نعيم أو (حسان) الكلبي أخبار مجموعة ص ٥٧.

وفي خلال سنة تقريباً وهي المدة التي قضها ثوابة في الحكم (توفي في مطلع ١٢٩ / أيلول ٧٤٦)^(١)، شهدت الأندلس هدوءاً نسبياً لم تعكره سوى محاولة أبي الخطار استرداد ولايته، فشن هجوماً على قرطبة ولكنه لم يسفر عن أي اشتباك مع القيسيين. ولقد كان للصميل دوره الذكي في إبطال المعركة وتخاذل اليمنيين عن نصرة قائدهم، الذي وجد عبث الاستمرار في المعركة بعد انسلال معظم رجاله مع الفجر^(٢). وعدا هذه المحاولة لم يحدث ما يخرق صفاء الأجواء النسبي، لأن الحزب اليميني عزف عن إثارة المتاعب في وجه السلطة ورضي بحظه منها، أن يكون أحد رجاله في الواجهة فقط. أما القيسية فقد عاشت في تلك السنة أبهج أيامها منذ دخولها إلى الأندلس، بعد أن استحوذت فعلياً على شؤون الحكم وأمسكت بيدها كل مقدراته. وإذا بالهجة تعم أكثر بشعور القيسية انها ملكت الأرض، فالحكم في المغرب انتقل أيضاً إليها وتربّع عبد الرحمن بن حبيب زعيم العرب الأفارقة على سدة الولاية، إثر انقلابه على حنظلة بن صفوان^(٣)، وفي دمشق عاصمة الخلافة برغم بُعد العلاقة بينها وبين قرطبة، إلا أن استيلاء مروان الثاني في ثورة قيسية، كان له من التأثير أيضاً على اتجاه الحكم في كل الولايات ومنها الأندلس. ولكن إلى متى يستمر الحزب القيسي يمارس الفرع الذي خانته كثيراً وهو بعيد عن السلطة؟ ففي غمرة النشوة القصوى التي لم تتعد السنة الواحدة، مات ثوابة تاركاً وراءه أزمة سياسية عنيفة جرّت البلاد معها إلى الكارثة أو «الفتنة العظمى» حسب تعبير أحد المؤرخين^(٤).

ومن جديد عادت قرطبة إلى غليانها السياسي، ترتعي في أحضان الحرب الأهلية، ويتنافس على منصب الامارة فيها المتنافسون. فالوالي الغائب جاء

(١) أخبار مجموعة ص ٥٧.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٥.

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٦٠.

(٤) أخبار مجموعة ص ٥٩.

من يطالب بحق ورائته من مبدأ ضمان الاستمرارية لبني جذام في الحكم، وكان ابنه الأكبر عمرو بن ثوابة^(١) أول المرشحين لهذا المنصب. وما لبث جذامي آخر هو يحيى بن حريث أن طرح نفسه من خلال هذا المبدأ أيضاً، تندافعه موجة من الكراهية لتكتل القيسيين من أهل الشام الذين لا يزالون القوة الرئيسية والفاعلة. ولكن أين الصميل، الرجل القوي في قرطبة من هذا التسابق على عرش الامارة؟ فالمناسبة تتكرر أمامه للقفز إلى واجهة السلطة بدون مشقة أو عناء، ولكنه مرة أخرى يعزف عن ذلك ويبقى في المكان الذي اختاره لنفسه. ولعل الصميل كان ميالاً إلى ممارسة لعبة الحكم من وراء «الكواليس»، بما يتلاءم وشخصيته المزاجية، المتمردة على القواعد والاجتماعيات وشتى القيود. ولا ندري إذا كان الصميل قد تجاوز بتفكيره تلك المعطيات إلى تقويم أشمل لهذه المسألة، إذ لم يرَ ما يشجعه على اقتحام واجهة الحكم في تلك الظروف حيث يحترق المحترقون. من هنا كان البحث مرة أخرى عن مرشح في نفس حجم الوالي السابق، إن لم يكن أكثر ضعفاً، لتبقى يده الأداة الخفية التي تسوس الأمور وتحرك المقادير.

وما لبث الصميل أن وجد ضالته في رجل، أبرز سماته السورع ووقار هاديء ينسجم مع سنواته الستين، وأصاله اجتماعية تتمتع بتقدير خاص، كونه حفيداً لعقبة بن نافع رائد الفتوحات المنظمة في المغرب، كان ذلك يوسف بن الرحمن الفهري^(٢)، الذي وقع عليه اختيار الصميل لولاية الأندلس. فتم تعيينه دون مشقة، ونُصّب في (جمادي الأول ١٢٩/كانون الثاني ٧٤٧)، مدعوماً من تكتل القيسيين ورجلهم القوي. بيد أن تثبيت هذا التعيين كان بحاجة إلى دعم الأطراف الأخرى، التي كان لها مرشحوها أيضاً، ولم تستغ بسهولة هذا الاجراء الذي خطف منها ما اعتبرته من حقوقها الشرعية. ولكن الصميل بذكائه استطاع أن يجرّ خصومه اليمنيين إلى مساومات كان لها حظ

(١) أخبار مجموعة ص ٥٧.

(٢) المكان نفسه. بغية الملتصص ص ١٢.

من النجاح، حيث أدت إلى تكريس خلافاتهم السياسية التي انفجرت بعد موت ثوابة زعيمهم السابق وانتهت إلى إضعافهم، في وقت كانوا يمثلون القوة الأكثر كثافة في الأندلس. فابن حريث، أشد زعماء اليمينيين تطرفاً، وبصورة خاصة في علاقاته مع القيسيين من عرب الشام، اختصر طموحه السياسي بولاية صغيرة في مقاطعة رِيّة Reijo إلى الجنوب من قرطبة^(١)، نزل فيها مع جماعته الأردنيين^(٢). أما المنافس الآخر من جذام، فلم يكن له على ما يبدو شأواً ابن حريث، فسقط اسمه من حلبة المساومات، ولاذ بالصمت بعد أن أدرك كغيره من الزعماء اليمينيين، أن الصميل يعرف جيداً ماذا يريد، وفي يده دون غيرها مفتاح الحكم في الأندلس.

وهكذا صعد يوسف الفهري إلى عرش الامارة في قرطبة بفضل حليفه الصميل، الذي مهد له الصعوبات ورؤّض الخصوم، ليحكم زهاء عشر سنوات، وهي أطول مدة قضاها حاكم خلال تلك الفترة القلقة التي سميها عصر الولاة. أي أن الفهري عاصر سقوط الخلافة الأموية التي كانت منخورة بالمرض يوم رفعه الصميل إلى السلطة، حتى مجيء عبد الرحمن (الداخل) وتأسيسه امارة أموية مستقلة في الأندلس بعد استلام العباسيين زمام السلطة في الإسلام. فولاية الفهري تمثل إذن مرحلة انتقالية، من حكم القوضى المرتبط اسماً بالمركزية الأموية في دمشق، وبين الاستقرار السياسي في ظل دولة مستقلة أموية الطابع، تلك التي أعطت الأندلس شخصيتها الحضارية المميزة وبريقها العالمي في العصور الوسطى.

ولكن الحاكم الهاديء، كانت أمامه جولات أخرى، في معركة تثبيت المنصب الذي سعى إليه وجاءه بالمصادفة. فإذا الاحتفاظ به دون الصعوبات، وإذا بشخصيته تتأقلم تدريجياً في ظل المناخ السياسي المشحون بالأحداث،

. Voir: Levi-Provençal I, 51.

(١) الروض المطار ص ٧٩.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٧.

فيكتسب التجربة ومعها الشهية إلى السلطة، فتستهويه وتبدأ معركته المتشعبة الطويلة، حيث كانت طلائعها مع ذات الخصم الذي قبض ثمن ابتعاده عن إحدى المقاطعات قبل أن يتخذ قراراً بعزله^(١). وكان لهذا دلالة واضحة أن الحكم بات قيسياً محضاً، ليس فيه محل للخصوم اليمينيين، خاصة إذا كان يحيى بن حريث المعروف بعدائه لأهل الحكم في قرطبة. ولا بد أن نلمس بصمات الصميل على هذا القرار، حيث كان يبادل الزعيم اليميني حقداً أشد وكرهية أعمق. غير أن الانفعالات العصبية لم تكن وحدها وراء ذلك، فالصميل وجد في شخصية ابن حريث تحدياً لزعامته، إن لم نقل خطراً عليها، لأن «ريّة» التي اعترفت بالسلطة القيسية، كان يخشى أن تتحول إلى قاعدة لنشاط الحزب اليميني واستقطاب زعمائه للانقضاض على قرطبة. ولم يكن ذلك مستبعداً لأن يحيى بن حريث سرعان ما تمرد على القرار، حتى بدا وكأنه متأهب للحرب. فاتصل بالوالي الأسبق أبي الخطار زعيم الكلبية، وجرى تنسيق بينهما أدى إلى تحالف أكبر قوتين في الحزب اليميني وهما: جذام وكلب، وذلك بعد تنازل أبي الخطار لحليفه الجذامي عن زعامة الحزب تحت ضغط التفوق العددي في القبيلة الأولى^(٢).

وهكذا نشبت الحرب مجدداً، وفوجئ الصميل زعيم القيسية باتحاد الفرعين الكبيرين في الحزب اليميني، وكان لا يزال يلعب ورقة الخلاف بينهما، لتعديل التفاوت العددي بين «حزبه» و«حزب» خصومه، ولكن ظاهرة ما خففت من الاختلال في موازين القوى، هي أن الاستجابة للحرب كانت جزئية واقتصرت على قبائل الجنوب^(٣) دون الشمال، حيث لليمنيين قوة ذات شأن. ولعل هؤلاء أنفوا ذلك الصراع الطويل الذي أنهك العرب وفرق جهودهم، فأثروا الابتعاد هذه المرة، مبعدين الفرصة أمام ابن حريث لتحقيق

(١) أخبار مجموعة ص ٥٨.

(٢) المكان نفسه، ابن عذاري ج ٢ ص ٣٦.

(٣) مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٣٠.

طموحه في الحكم. ولكن ذلك لم يمنع الحرب حيث خاض غمارها الحزب اليمني بزعميه ابن حريث وأبي الخطار، المتفقين في العداء للصميل والحدق على قيسية الشام الحاكمة. وفي شقندة Secunda^(١) الواقعة أمام قرطبة على الضفة الشمالية لوادي النهر الكبير^(٢)، نشبت المعركة بين الطرفين (٧٤٧/١٣٠) في أجواء مشحونة بالتوتر والحماصة. وقد خرق أسلوبها نظام الحرب التقليدي عند العرب، بعد أن تحول إلى مشاجرة اختلطت فيها كل أنواع الأسلحة والقتال حتى البدائية منها^(٣). فالقوى المتصارعة كانت متكافئة نوعاً ما، مع تفوق بسيط في صفوف اليمنيين. لهذا ظلت الصورة غامضة لبعض الوقت، دون أن يتحقق حسم لأحد من الفريقين. ولكن الصميل زعيم القيسيين كان يحتفظ دائماً بالمبادرات في جعبته يتخذها في الوقت المناسب، فإذا ما شعر بأن القوة في يده غير كافية لتحقيق نصر سريع، لجأ إلى الاستفادة من كل الطاقات في قرطبة وتعبئة قدراتها القتالية، حيث أضاف إلى جيشه نحو أربعمئة رجل من العمال والحرفيين، لم تكن لهم من خبرة الحرب إلا القليل ومن السلاح إلا وسائله البدائية^(٤). وهي مبادرة لا تخلو من الطرافة في ذلك الوقت، حيث كانت للحرب تقاليد العسكارية الصارمة، ولكنها استطاعت حسم المعركة، بعد أن اجتاحت هؤلاء المجندون طليعة الصفوف وليس في رؤوسهم غير فكرة القتل. فدب الذعر في قوات اليمنيين المنهكة وضاعت بهم السبل بعد أن خسروا من الضحايا الكثير، بينما أسر زعيمها اليمنية ابن حريث وأبو الخطار وقتلا على الفور^(٥).

وبعد انجلاء المعركة وعودة الظافرين إلى قرطبة، لم يكن الفصل الأخير

. Levi-Provençal Hist. 151

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٧.

(٢) الروض المطار ص ١٠٤، أخبار مجموعة ص ٥٩.

(٣) جاء في أخبار مجموعة: تداعوا إلى البراز فتنازلوا وتضاربوا بالسيف حتى تقطعت ثم تقايضوا بالأيدي والشعور حتى أعيأ بعضهم بعضاً. ص ٥٩.

(٤) أخبار مجموعة ص ٦٠.

(٥) المكان نفسه.

منها قد استكمل بعد. فقد جمع الصميل بقية الأسرى في كنيسة قديمة وأعمل في رقابهم السيف، وكأنه لم يرو عطشه من الدماء. حتى إذا قتل نحو السبعين تصدى له غاضباً أبو العطاء (شيخ غطفان)^(١)، فلم يشأ الصميل استفرز حليفه القوي، فأغمد السيف وأوقف القتل.

ومرة أخرى صدم الحزب اليميني في حرب الصراع على الحكم في الأندلس، بعد الضربة التي نزلت به في شقنطة. ولكن متاعب الحكم القيسي لم تتوقف عند هزيمة اليمينيين، فهناك مشاكل عديدة تحتاج إلى حلول حاسمة وسريعة، وفي طلبيتها تلك المعركة الخفية داخل الحزب القيسي الحاكم بين الوالي الضعيف يوسف (الفهري) وبين شريكه القوي (الصميل). وكان لا بد لهذه المعركة أن تنفجر في أي وقت، خاصة وأن الأول برغم طبيعته الهادئة، رفض أن يكون نسخة مكررة عن ثوابة الوالي السابق، وبدأ يتململ من هذا الارتهان لزعيم القيسية الشامية ووصايته الثقيلة. ولكن الصميل تحاشى الصدام مع الرجل الذي أتى به إلى سدة الولاية، ولا زال باستطاعته أن يطيح به متى شاء، كونه القوة الفاعلة والمؤثرة في السلطة. ففاجأ يوسف الفهري بقبوله العرض الذي قدمه هذا الأخير إليه، بأن يكون حاكماً على مدينة سرقسطة الغنية (٧٥٠/١٣٢)، فخرج إليها طائعاً ومعه أنصاره ورجاله^(٢). ويعتقد المؤرخون أن وراء ذلك قهراً آخر لليمينيين، لأن المدينة التي ارتضاها ولاية له، كان سوادها الأعظم منهم^(٣). وقد يكون ذلك التصور واقعياً ومقبولاً، حين يكون الأمر متعلقاً بشخصية مزاجية وذات شراسة واحتمال للحقد كشخصية الصميل، الذي لم يكن يعرف الاعتدال مطلقاً في علاقاته العامة والخاصة. غير أن بعض الدلالات لا بد أن يكون لها محل، في محاولة تحليل

(١) أخبار مجموعة ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٢-٦٣. ابن عذاري ج ٢ ص ٣٧.

(٣) جاء في أخبار مجموعة: وكان الثغر لليمن فأراد أن يذلهم. ص ٦٣، دوزي، تاريخ مسلمي إسبانية ص ١٧٧، مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٣٣.

الأسباب التي دفعت الصميل للقبول بما أقدم عليه . لقد كانت سرقسطة أو «المدينة البيضاء» عاصمة الاقليم الشرقي وواحدة من أهم مدن الأندلس وأكثرها خصوبة وثراء^(١) ، في الوقت الذي عصفت بالبلاد مجاعة رهيبة وموجة عامة من القحط^(٢) . وقد ألمحنا سابقاً إلى أسباب هذه المجاعة، التي كانت محصلة لسنوات طويلة من الفوضى والحروب الأهلية، مما أدى إلى إهمال الزراعة والعناية بالأرض . ففرقت قرطبة بسيول الجائعين الذين جاءوا يبحثون عن الفئات في عاصمة الولاية، وشغل الحاكم بتوفير المستطاع من الغذاء، دون أن تكون له قدرة الحل الجذري لهذه الأزمة التي طالت بضعة أعوام . ولم تجد الأفواج الجائعة سبيلاً غير سبيل الهرب والهجرة إلى الجنوب لتستقر في المغرب . في تلك الأثناء كانت سرقسطة مدينة الصميل تنعم بحظ من الاكتفاء الاقتصادي وتجذب الجائعين من كل صوب، فيغدق عليهم حاكمها بسخاء، غير مميز بين هوية قيسي أو يعني، حيث الجوع أذاب عنده الفوارق الحزبية وقضى على أحقاد العصبية المجذرة في أعماقه . وهذه الحادثة لا بد أن تعطي صورة أخرى للصميل، هي صورة الإنسان المتحرر من عقده المترسبة والمتحفز للخير والإغاثة . ومن خلال ذلك فإن الاعتقاد الأصح أن يريق الزعامة والجاه^(٣)، هو الذي خطف أنظاره إلى المدينة الغنية، وليس فقط الاعتبار القبلية المتحكمة فيه، حتى أن «دوزي» الذي زعم أن الصميل إنما ذهب إلى هذه المدينة الأهلة باليمنيين لإرضاء أحقاده ضد هؤلاء، يعود في نفس الوقت إلى التركيز على عامل الخير في شخصية الصميل وتناسيه الانفعالات العصبية . وقد اعتمد «دوزي» على تحليل خاص في إظهار ازدواجية الرجل التي فيها من الخير كما فيها من الشر^(٤) . والواقع أننا نميل إلى المبالغة

(١) الروض المعمار ص ٩٦-٩٧ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٦١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٤) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٧٧ .

إذا اعتقدنا مع هذا المؤرخ وغيره بأن الصميل، لم يكن يعنيه من شرف السياسة والحكم سوى الجموح باتجاه غزائره القبلية، لأن سرقسطة لم تشهد في تلك الفترة أي لون من ألوان العقاب الجماعي أو الفردي ضد سكانها اليمنيين. فالدلالات على عكس ذلك تشير إلى أن العلاقة بين الحاكم القيسي وبين هؤلاء كانت غير عدائية إذا لم نقل ودية، بعد أن عوّل الصميل الذكي على احتوائهم واكتساب محبتهم وأن تكون مدينته المترفة التي ابتعد عنها شبح المجاعة، أهم مراكز الاستقطاب وأكثر المدن تألفاً في الأندلس، حيث يتهافت أمام بابه أصحاب الحاجات ويتغنى بكرمه المادحون، فتستهويه عظمة الأمير الفارس «ويزداد سؤدداً» كما جاء في «الأخبار المجموعة».^(٣)

وعلى خلاف سرقسطة المترفة، كانت قرطبة البائسة غارقة بهمومها الاقتصادية ومشاكلها السياسية، لا يكاد واليها الذي انفرد بتقرير مصيرها يخلد إلى الراحة قسماً من الوقت. فقد أثبتت الأيام أن حجمه السياسي لم يكن في مستوى المرحلة الدقيقة، وأنه لا زال بامسّ الحاجة إلى قدرات الرجل الذي أوصله إلى السلطة. ولكن ذلك لا يعني أن الفهري كان قابعاً في قصره منصرفاً عن الاهتمام بشؤون إمارته، فهو لم يعدم وسيلة من أجل التصدي لهذه الأخطار التي أحاطت به من كل جانب. وكانت جهوده المخلصة عبر الفترات الخاطفة من الهدوء، تعكس سياسته الإصلاحية التي تناولت الجهاز الإداري وتحريره من الفساد المترسب، ليس فقط في العاصمة وإنما في جميع الأقاليم التابعة لها. وفي محاولة للحد من حركات التمرد التي كانت تتخذ مسارحها غالباً في المقاطعات البعيدة، أعاد النظر في التقسيمات الإدارية باتجاه تقوية النظام المركزي في قرطبة. وكان حريصاً على أن تكون هذه الأخيرة مستوعبة لكل شؤون الولاية، ولديها الاداة التنفيذية التي تحقق لها هذه المكانة المنشودة. ومن هنا تناولت إصلاحاته أيضاً الجيش، فأولاه كثيراً من

(١) أخبار مجموعة من ٦٣.

الاهتمام، لاتخاذ دوره المطلوب في قمع الحركات الداخلية، وحماية الثغور الشمالية من هجمات الاسبان التي أخذت تضغط على تلك المنطقة بصورة متكررة^(١).

ولكن إصلاحات الفهري لم تأت في وقتها المناسب، لأن الوالي القيسي كان غير قادر على انتزاع الدور الأول في الحزب الذي ينتمي إليه، فكيف بالزعامة الشاملة والفعلية للأندلس الخاصة بالمشاكل المستعصية، حتى هو نفسه كان يشعر بضعفه وانصراف الناس عن قصره، فلا يكاد يكون أكثر من مجرد حاكم عادي لمدينة عادية^(٢). وما لبثت همومه اليمينية أن عادت إليه، حين تحرك خصومه مستغلين اعتماد الصميل عدوهم الألد عن قرطبة. وإذا بمعطيات جديدة تقلب موازين القوى في تلك الفترة، بقيام تحالف غير متوقع بين قائد قرشي الأصل من الحزب القيسي وبين فريق من القبائل اليمينية المعارضة، التي كانت لا تزال أكثر كثافة، كما أن موقعها من الحكم القيسي بات معروفاً، ولكنها أثرت الاخلاذ إلى السكينة بعد الضربات المؤلمة التي حلت بها على يد الصميل. وكان وراء الانقلاب السياسي رجل عسكري عمل قائداً للجيش في حملات الشمال قبل أن يعزله الفهري، نتيجة حساسيات بينهما، يدعى عامر بن عمرو القرشي^(٣) قائد الحامية في قرطبة. فهذا الأخير كان يشعر بقوته إلى جانب الوالي الضعيف، فتطلع إلى أن يحل مكانه، ومن جانب شعر الفهري بالخطر الذي يمثله عامر في قيادة الجيش فأبعده عنها.

وكان عامر يدرك صعوبة اقناع الحزب القيسي بزعامته، حيث الصميل لا زال يستقطبها وينفرد بها، ففكر باللجوء إلى اليمينيين الساخطين ولعب ورقهم في مناجزة «الحزب» الحاكم. فهو مضري^(٤) إذن من أقطاب السلطة في قرطبة،

(١) عنان، دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) أخبار مجموعة ص ٦٣-٦٤.

(٣) أخبار مجموعة ص ٦٣. دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٧٨.

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢.

وليس يمينياً كما أشار أحد المؤرخين المعاصرين^(١). ولا ندري كيف بنى اعتقاده على يمنية عامر، مع أن المصدر الذي اعتمد عليه يؤكد الانتهاء المشار إليه، دون أن تكفي الإشارة إلى أن عامراً «ساءه ما صنع يوسف بأهل اليمن»^(٢)، على حد تعبير صاحب المصدر، بأن يكون يمينياً، حيث كان من الصعوبة، وصول يعني في تلك الظروف إلى قيادة الجيش، في ظل حكم قيسي متعصب.

ولقد كان عامر الطموح يسعى بكل وسائله المبتكرة لوضع قدمه في السلطة، فبدأ بإنشاء قلعة محصنة إلى الغرب من قرطبة على أرض عُرفت باسمه (قناة عامر)^(٣)، لتكون مركزاً لتجمع الأنصار والحلفاء. وأخذت أجهزته تشيخ أن الخليفة العباسي المنصور، قد بعث إليه عهداً بولاية الأندلس (كانت الخلافة قد انتقلت للعباسيين)، ويواصل اتصالاته مع الفئات المعارضة لا سيما اليمنية^(٤). وكان مطلعاً في نفس الوقت على إمكانات الفهري المحدودة، من خلال معرفته الوثيقة في السابق بكل خفايا القصر، وبراعة جواسيسه المتنبئين في أروقتهم يمدونه بأخبار الأخبار. ولكن الفهري لم يكن معدوم الذكاء أو الملاحظة، فما كاد يشعر بتحركات عامر المريية، حتى أطلع الصميل عليها، فنصحته بتدبير شرك له وقتله، أو المماطلة في الوقت حتى يأتي إليه^(٥). ولعل عامراً شعر بأن فرص النجاح غير ميسورة تماماً في هذه الوسط القيسي حيث أقام معسكره^(٦)، فخشي من تطويق الصميل له في قرطبة إذا ما قُدِّر له انتزاعها من الفهري، متهيئاً عواقب ذلك^(٧) ولما نسي بعد

(١) مؤنس، فجر الاسلام ص ٢٣٦.

(٢) أخبار مجموعة ص ٦٣.

(٣) المكان نفسه.

(٤) أخبار مجموعة ص ٦٤.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه.

(٧) ابن عثاري ج ٢ ص ٤٢.

انتقامات الصميل ومجزرة الكنيسة. فصرف النظر عن مهاجمة قرطبة، واتخذ الطريق إلى سرقسطة اليمنية السكان لاستفراد الصميل، القوة الفعلية التي تقف أمام طموحه. وكان عامر قد مهّد لذلك ببعض المكاسب السياسية من موقعه في القلعة، حيث انضمت إليه يمنية اشبيلية وجماعة من بربر الشمال، كما عقد تحالفاً مع زعيم قيسي من كلاب في سرقسطة يمتّ إليه بصلة من القرى هو الحجاب بن رواحة^(١)، وكان على غراره يعدّ لانقلاب ضد الصميل، معتمداً على الأكثرية اليمنية في المدينة. فاتفق الحليفان على مهاجمة سرقسطة وأوقعا الهزيمة بقوات الصميل وفرضاً على المدينة حصاراً شديداً (١٣٦ - ١٣٧/٧٥٣ - ٧٥٤). وكانت تلك أول محنة تحلّ بالصميل الذي استبدّ به الغضب، في الوقت الذي بدأت الثورة تجتذب المزيد من اليمنيين والبربر^(٢)، بينما يتحرج موقف الصميل كثيراً ويزداد خوفاً على مصيره.

ولكن الصميل برغم خطورة الموقف، لا يفقد شجاعته وقدرته على التصرف. وإذا كان صنيعته الفهري قد خيّب أمله بالمساعدة، مسوّغاً ذلك بظروف اقتصادية صعبة أورثتها أعوام المجاعة، فهو يعرف جيداً أن والي قرطبة لا يكتفٍ له من المودة الكثير، وأنه لا بد سعيد بالمازق الذي يمر به للإفلات من وصايته الثقيلة، إلا أنه لم يوفر جهداً في استنفار كل الطاقات القيسية، بما له من موهبة خاصة في تحريك العواطف وشحنها عند الحاجة. وما لبثت نفسه أن اطمانت عندما جاءت الأخبار عن تحرك القيسيين نحو مدينته، وفي طلبعتهم حليفه القوي عبيد الله بن علي الكلابي^(٣). وأثناء الطريق لم يكونوا جميعاً في نفس المستوى من الحماسة، خاصة جماعة غطفان التي كانت مشتتة المواقف، بسبب افتقارها إلى الزعامة القوية بعد موت

(٥) أخبار مجموعة ص ٦٤، ابن عذارى ج ٢ ص ٤٢.

(١) أخبار مجموعة ص ٦٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٥، ابن عذارى ج ٢ ص ٤٢.

أبي العطاء^(١)، غير أنهم في طليطلة وكانت على ما يبدو نقطة التجمع للمقاتلين من القيسية، تخلّوا عن ثوب التردد وغلبتهم الحماسة بعد الأخبار المقلقة عن الصميل، والتأموا في جيش واحد عهدوا بقيادته إلى ابن شهاب شيخ بني عامر^(٢) حيث كان وراء هذا الاختيار الرجل الأقوى في الحملة عبيد الله الكلابي، حين رأى تقاعساً من جانب ابن شهاب، فحرص على إرضائه بالقيادة.

وهكذا نجح الصميل في استنهاض القوى القيسية، ولم يذخر جهداً للاستفادة من كل الظروف، حتى أجهزته الدعائية لم تسكت أمام زعم خصومه بأنهم يمثلون الخلافة العباسية، فشطت تضرب على وتر الولاء الأموي، وإن كان رمزياً لعدة سنوات مضت، فهو الولاء الوحيد ولا مكان لغيره لدى الصميل. وتحدثنا المصادر^(٣) عن وجود عدد من رجالات الأمويين في هذه الحملة، يُعتقد أن عبد الرحمن بن معاوية، الهارب آنذاك من بطش العباسيين، قد أرسلهم إلى الأندلس للاتصال بالصميل الزعيم القيسي، ذي النزعة الأموية المجترة. وبعد سبعة أشهر من الحصار الصعب، وصلت الحملة القيسية إلى أسوار سرقسطة (٧٥٥/١٣٧)، وما كادت تلمحها القوات المتحالفة حتى شعرت بالجزع، ورفعت الحصار عن المدينة منصرفة دون أي اشتباك. ولكن الزعيم القيسي (الصميل) برغم خروجه سالماً من تلك المحنة، فإن زعامته السياسية التي هيمنت لعشر سنوات خلّت على الأندلس لم تخرج سالمة، حيث تضاعف حجمه أمام ضغط الأحداث المستجدة التي انتشرت هذه البلاد لأول مرة من خضم الفوضى، أبرز سماتها في عصر الولاة.

الخطر الأموي على أوروبا

كان استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق وهو على عتبة جبال البرينيّة

(١) أخبار مجموعة ص ٦٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٩.

الفاصلة بين اسبانية وبين الغال (غالة La Gaule) ^(١) التي عُرفت حينذاك بمملكة الفرنجة ^(٢)، قد جمّد حركة الفتح التي كان القائد الأموي كما يبدو مصمماً على المضي بها وراء الجبال. وسواء أراد تحقيق مشروعه العسكري الكبير - كما يعتقد بعض المؤرخين - في اجتياح القارة الأوروبية والوصول إلى ضفاف البوسفور، حيث القسطنطينية ^(٣)، أم أنه أراد تأمين الخطوط الدفاعية لآماراته الجديدة من الشرق والشمال، فإن هذا القائد بما تمتع به من عبقرية عسكرية كان مستمراً في تقدمه وانتصاراته حتى دعوة الخلافة له بالتوقف. على أن ثمة حقيقة يجب إدراكها، أن الحدود الشمالية لاسبانية القديمة لم تكن تنتهي عند البريني، بل كانت تقفز وراءها لتمتد حتى الشمال الشرقي من إقليم سبتمانية الفرنسية Septimanie ^(٤). لهذا كان على موسى أن يأخذ لنفسه مزيداً من الوقت حتى يستكمل أعماله التوسعية في هذه المنطقة، قبل الامتثال للأوامر المشددة التي حملها مغيث الرومي. ولكن الفرصة الكافية لم تنح له من أجل تحقيق هذا الهدف، فتوقفت جيوشه عند برشلونة في تقدمها الأخير، حتى إن سقوط هذه المدينة في يده ليس أمراً مؤكداً ^(٥)، لأن الاعتقاد السائد أن توغل العربي في هذه الجهات تمّ في وقت لاحق على يد عبد العزيز بن موسى (أول ولاة الأندلس) أو بعده بقليل.

ولم يكن غياب القيادات العسكرية، صانعة الانتصارات الباهرة في اسبانية، يؤدي بالضرورة إلى تجميد الطموح الأموي وراء البريني في قلب مملكة الفرنجة المجاورة. فعلى العكس من ذلك كانت الظروف ملائمة

Levi-Provençal Hist. 1, 54

(١)

(٢) الاسم مشتق من FRANCE أحد زعمهم، ومن هذه الكلمة اشتق الاسم المتداول حالياً (فرنسا).

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٤، سبديو تاريخ العرب الصام ص ١٦٦. لين بول، العرب في اسبانية ص ٤٧. العبادي، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٤٧.

(٤)

Levi-Provençal Hist. 1, 55

(٥)

Ibid. 1, 55.

للمضي في المخطط التوسعي، ولم يكن من سبب - كما يشير أحد المؤرخين - يدعو العرب إلى التوقف عند هذا الحد^(١). كذلك فإن ممارسات القواد العرب في الأندلس لم تكن تابعة من قرارات الخليفة، بقدر ما ارتبطت بحتميات الواقع الجديد الذي فرض ظروفاً ربما لا يدركها الخليفة الأموي في عاصمته البعيدة. ولكن أمراً لا يمكن تجاهله في معرض المناقشة لرأي الدولة في اجتياح القارة الأوروبية، خاصة بعد موت الوليد بن عبد الملك (٧١٦/٩٦)^(٢)، إن الخلفاء الأمويين كان عليهم أن يعطوا وقتاً أكثر للشؤون الداخلية التي بدا أنها لم تكن على مستوى متكافئ مع السياسة التوسعية، مما أغرق الدولة في هموم ومشاكل ما بعد الفتوحات، تعود طبعاً إلى اعتماد سياسة الحلول المؤقتة، دون الالتفات إلى وضع برامج مستقبلية لحماية انتصاراتها من الضياع.

وللباحث هنا أن يتساءل فيما لو أُتيحت الفرصة لموسى بن نصير، أن يتابع عملياته العسكرية بعد وصوله إلى إقليم اراغون في الشمال الشرقي من اسبانية، إذا كانت فرنسا ستصمد أمام جيوشه أم أنها ستلاقي مصير دولة القوط؟ سؤال لا يمكن الإجابة عليه بصورة قاطعة، ولكن الناظر إلى أوضاع تلك الدولة المجاورة في تلك الفترة، لا يجد كثيراً من الاختلاف بينها وبين اسبانية القوطية عشية فتح العرب لها. فالغاليون أو الفرنجة سكان تلك المنطقة الواسعة، الممتدة بين اللوار غرباً وبين ألمانيا الحالية شرقاً، هم في الأصل كالقوط الغربيين إحدى الموجات الجرمانية التي اجتاحت امبراطورية الرومان وأسست دولة بزعامة كلوفيلس Clovis، من الأسرة الميروفنجية، وذلك في أواخر القرن الخامس الميلادي. وإلى هذا الأخير يعود الفضل في انتشار المسيحية بين أتباعه الوثنيين، حيث بات من أثقل الأعباء على أحفادهم، حماية أوروبا المسيحية من هجمات العرب المسلمين وصدد الأخطار عنها.

(١) لين بول، العرب في اسبانية ص ٢٧.

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٧.

ولكن النظام الميروفنجي وهو في طبيعته نظام اقطاعي متخلف، كان عاجزاً عن تثبيت أقدامه وممارسة دوره التاريخي المطلوب. وكان أسوأ ما فيه مبدأ الوراثة في السلطة الملكية^(١) التي توزعت بين أبناء الملك، حيث تجزأت الدولة في وقت لاحق إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أوستراسيا Austrasia، نوستريا Naustria، برغندية Bargundia، عدا الاقطاعات الصغيرة الأخرى التابعة لها. وكثيراً ما جرّ ذلك إلى صراع على النفوذ بين الأخوة المتناحرين وظهرت زعامات اقطاعية جديدة تابعة لهم، ما لبثت أن انتزعت لنفسها السلطة الفعلية واحتكرت كافة المسؤوليات، بينما انهارت سلطة الملوك بصورة تامة. وكل ما تبقى لهؤلاء من هيبة الحكم، انتقل تدريجياً إلى محافظي القصر Maires du Palais من الأمراء الاقطاعيين، الذين دخلوا بدورهم حلبة الصراع على السلطة، حتى إذا أطلّ القرن السابع أصبح هذا المنصب (محافظ القصر)، يتخذ أهمية سياسية كبرى بعد أن كان منصباً ينحصر في تشريفات البلاط وخدمة الملوك.

وفي مثل هذه الظروف التي مرّت بها دولة الفرنجة، كان العرب بقيادة موسى بن نصير يطرُقون أبوابها ويتحفّزون للوثوب عليها. ومن المؤكد أن قرار التوقف العسكري، أتاح لدولة الفرنجة أن تعي أبعاد الطموح العربي الإسلامي في غزو القارة الأوروبية، وأن تدرس بدقة كافة الاحتمالات للمواجهة الحتمية التي فرضتها هذه التغيرات المفاجئة في خارطة المنطقة. ولا نعجب حينذاك عن سماع اصلاحات جذرية في نظام الحكم الميروفنجي، عندما قام أحد الارستقراطيين من أسرة هرستال (بيّان Pepin de Herstal)^(٢) في أوستراسيا، أكبر أقاليم المملكة الميروفنجية La Monarchie Merovingienne، بأول خطوة جريئة في عملية استعادة الأجزاء المبعثرة من دولة كلوفيس المنهارة، وذلك بعد سنة واحدة من رجوع موسى إلى المشرق. فبعد تسميته محافظاً للقصر

(١) عاشور، أوروبية في العصور الوسطى ص ١٨٨.

(٢) Levi-Provençal: Hist, 55.

(٢)

بدعم من الكنيسة والأمراء الاقطاعيين، تحول بَيَّان إلى الرجل النافذ والشخصية الأقوى في بلاد الفرنجة، التي أصبحت موحدة تحت حكمه لأول مرة منذ انقسامها^(١).

وكان لابد أن تتخذ العلاقات بين الأمويين والفرنجة، إتجاهاً خاصاً منذ ذلك الحين، حيث قَدَّر لَبَّان أن يضع لبنة السياسة المستقبلية لدولته مع جيرانها الأعداء، وأن يكون مؤسس أسرة ملكية في وقت لاحق هي الأسرة الكارولنجية، التي ساهمت بنصيب رئيسي في شحن التحركات الصليبية في الغرب، وفي مجابهة المد العربي الاسلامي الذي بلغ مداه في مطلع القرن الثامن الميلادي. وإذا كان بَيَّان بعد موته (٧١٤م) نهاية^(٢)، قد ترك فراغاً في السلطة امتد نحو خمسة أعوام، بسبب اختيار حفيده (تحت ضغط ظروف خاصة) لوراثته في محافظة القصر، فإن ابنه المبعد شارل Charls الذي كان يعرف باسم كارل Karlo^(٣) أو (قارلة) حسب التعبير العربي، تمكن من حسم الأزمة لمصلحته، وأصبح الرجل القوي في مملكة الفرنجة، حيث صارت له سلطة مطلقة على كل ولاياتها. وسيكون لمحافظة القصر الجديد، اسم بارز في سجلات الحروب المقدسة، التي خاضتها أوروبية ضد أعدائها المسلمين.

وهكذا فإن مجيء شارل إلى السلطة في تلك الظروف، كان حدثاً غير عادي في تاريخ العلاقات بين أسبانية العربية وبين الدولة الفرنجية، التي كان ملوكها الميروفنجيون لا يحفظون من السلطة الملكية غير ألقابها. ولم يكن من المستطاع أمام هذه الدولة المتداعية، أن تجتاز عقدة الخطر الذي اقترب من أبوابها قبل مجيء بَيَّان وابنه شارل. ذلك أن عرب الأندلس كما أشرنا لم توقف سيرهم قرارات الخلافة وإبعاد قادة الفتح، فهناك ضرورات أمنية اقتضتها الظروف

(١) عنان، دولة الاسلام في الأندلس ج ١/ ص ٧٥.

Levi-Provençal: Hist. 1.55

(٢)

Levi-Provençal, Ibid.

(٣)

لحماية حدودهم الشمالية الشرقية، فضلاً عن الطموح الكبير إلى اجتياز ذلك الحاجز الجبلي والتوغل في «الأرض الكبيرة» Grande terre^(١)، مبشرين بالمعتقد الذي يحملون.

والواقع أن المصادر العربية لا تذكر لنا أي نشاط جدي في مضمار السياسة التوسعية، حتى السماح بن مالك الخولاني (الوالي الرابع في الأندلس)^(٢)، لأن الولاة الذين سبقوه اقتصرَت أعمالهم على استكمال السيطرة على أسبانية وإجراء بعض الإصلاحات الإدارية، وإن كان هنالك من ينسب إلى الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي غزوات خاطفة في جنوب فرنسا^(٣)، ولكن ذلك يحتاج إلى تأكيد، خاصة وأن جميع المصادر تجاهلت ذلك باستثناء أحد المؤرخين الأسبان^(٤). فقد جاء السماح إلى الأندلس (١٠٠/٧٢٠)، في نفس العام تقريباً الذي ارتقى فيه شارل منصب محافظ القصر. وكان هذا الوالي قائداً شجاعاً، لم يتردد بعد استلام مهماته في المضي بأول حملة عسكرية ذات طابع توسعي إلى ما وراء البرينييه. فاجتاح إقليم سبتمانيه في جنوب فرنسا، بما فيه المدينة المهمة أربونة^(٥)، ذات الموقع الاستراتيجي الفريد على ساحل المتوسط، التي أصبحت منذ ذلك الوقت تحت سيطرة العرب المسلمين التامة، ومركزاً حيوياً تتجه منه العمليات الحربية نحو برغندية وأكيتانية التي كان يحكمها رجل عديد هو الدوق أوديس Eudes^(٦). وتابع السماح تقدمه الظافر حتى أسوار طلوثة Toulouse عاصمة الأقليم وضرب حولها الحصار. ولكن تطوراً معاكساً أوقف تصعيد الزحف الأموي وردّ قوات السماح عن أسوار المدينة، في أعقاب هجوم مفاجيء قام به أوديس، تبعته معركة عنيفة إستبسل فيها العرب المسلمون، الذين حلت بهم الهزيمة وافتقدوا

Levi-Provençal: Hist I, 56-57

(١)

(٢) سبقه إلى الحكم عبد العزيز بن موسى وأيوب بن حبيب اللخمي والحر بن عبد الرحمن الثقفي.

(٣) مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٤٤.

(٤) ايزيدور الباجي. راجع مؤنس ص ٢٤٤.

Levi-Provençal Hist. I, 58.

(٥)

.Ibid. I, 58

(٦) من أسرة كلوفيس

قائدهم السمع (١٠ تموز ٧٢١م)^(١). ولم يكن من السهل تفادي النتيجة التي وقعت، وذلك لاختلال التوازن العسكري بين القوتين، كما أن مقتل السمع أثناء المعركة قضى نهائياً على معنويات المقاتلين وبعثر صفوفهم، دون أن يستطيع عبد الرحمن الغافقي - نائب القائد - أن يفعل شيئاً، سوى تنظيم الانسحاب وإنقاذ البقية الباقية من الجيش المهزوم والتراجع بهم إلى أربونة ومنها إلى الأندلس.

لم يُكتب للغافقي، الذي سيكون اسمه بعد وقت قصير من أكثر الأسماء شهرة في تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، أن يكون خليفة السمع في القيادة، لأن والي أفريقية^(٢)، المسؤول إدارياً عن الأندلس، ما لبث أن عين قريبة عنبسة بن سحيم الكلبي والياً عليها. فجهل إلى قرطبة (١٠٢ / ٧٢٤) ليتسلم مهامه من الغافقي، الذي كان يدير شؤونها بالنيابة منذ مقتل السمع. وبعد أعوام أريجة قضاها الوالي الجديد في تنظيم ولايته وتهتة مشاكلها الداخلية التي أسفرت عن تعيينه، عبر مع جيوشه البرية، لاستئناف النشاط التوسعي في غالة (٧٢٥ / ١٠٥)^(٣). وكان عنبسة برغم الاعتبارات التي فرضته والياً على الأندلس على غرار سلفه، ميّالاً إلى الحرب وذا نزعة جهادية واضحة. غير أنه تضافى إلى حد ما الطريق الذي اتخذته سلفه، مُركّزاً اهتمامه على سبتمانية، حيث بدأ بـ قرقسونة Carcassonne (جنوب غربي أربونة) التي استسلمت له بعد حصار قصير. ثم نيم Nîmes (إلى الشرق منها) دون مقاومة تذكر^(٤)، مما أتاح له التحرك في وادي الرون Vallée du Rhône والسيطرة عليها بأقل قدر من الجهد والخسائر. على أن هذه الانتصارات محاطة بشيء من التشويش لدى بعض المؤرخين الأوروبيين، الذين تحدثوا عن أعمال إنتقامية

Levi-Provençal, Hist 1,58

(١)

(٢) يشرى صفوان الكلبي.

Levi-Provençal Hist. 1,58.

(٣)

Levi-Provençal, Ibid 1.58-59

(٤)

وانتهاك للمقدسات في مدن الرون، قام بها العرب المسلمون أثناء إخضاعهم لها. ولكن هذا الاتهام لمسقطه نفي الأوروبيين أنفسهم، الذين أشادوا بروح الاعتدال لدى العرب أثناء فتوحاتهم، حيث كانت أبرز سماتهم الانسانية^(١). ثم تقدم عنبسة نحو برغندية قاطعاً نهر الساون La Saône إلى اوتان Autun في أعالي الرون (آب ٧٢٥)^(٢)، حتى أن بعض المؤرخين يشير إلى تغلغله حتى سانس Sans، الواقعة على مسافة ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من باريس^(٣).

ويفضل هذه الاتجازات المذهلة التي لم تستغرق سوى قليل من الوقت، بسط العرب نفوذهم على جنوبي فرنسا، حتى أن أوديس زعيم أكتانية لم يجد مفرأ من التودد إلى القائد الأموي الظافر^(٤). ولكن التصعيد الحربي يكتب له التوقف مرة أخرى، وتصاب جهود عنبسة بانتكاسه عظمى غير متوقعة، حيث يلاقي مصير القائد السابق، ولكن في ظل ظروف محاطة بالغموض. فلعله لقي حتفه أثناء إحدى المعارك، أو تعرض لكمين قضى عليه في طريق العودة إلى عاصمته^(٥). وعلى الرغم من جراءة المحاولة التي قام بها هذا القائد الشجاع واختراقه أبعد مسافة وصل إليها قائد عربي في قلب أوروبا، فإن أعماله العسكرية هذه كانت أقرب إلى المحاولة منها إلى الفتح المنظم، حيث إننا لم نلاحظ أية إجراءات خاصة، متماشية مع توسع العرب في هذه الجهات. فكانت تتساقط أمامه المدن ولا يلبث أن يتأخرها، دون حامية عسكرية أو ترتيب ما يشير إلى هدفه في الاستقرار بهذه المدينة أو تلك. ولهذا فقد خسر الأمويون بعد مقتل عنبسة، منجزات على جانتب كبير من الأهمية، وتراجعوا إلى قاعدتهم الوحيدة الباقية في فرنسا (اربونة).

(١) سيدبو، تاريخ العرب العام ص ٢٢٧.

(٢)

Levi-Provencal, Hist. 1, 59

(٣) مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٤٧.

(٤) عتار، دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ٧٨.

(٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٨٢.

وفي قرطبة تنحصر جهود السلطة الأموية في نطاق محلي، حيث كان التوقف عند اختيار خلف لعنبة من أبرز مشاكل تلك الفترة، التي امتدت نحو خمس سنوات تعاقب خلالها على الحكم خمسة من الولاة^(١). ومن البديهي أن تتجمد كل نشاطات التوسع خلال أزمة سياسية كهذه، كانت التيارات الحزبية وأهواء الولاة في أفريقية تزيد حدة واشتعالا. وعلى ذلك لم تشهد الجبهة مع دولة الفرنجة أي تحرك عسكري ملحوظ، سوى محاولة قام بها الهيثم بن عبيد الكلاهي آخر هؤلاء الخمسة في برغندية الجنوبية، حتى إذا جاء عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي^(٢) إلى الأمانة (٧٣٠/١١٢)، بعد أن أبعدته التيارات القبلية نحو عثر سنوات عن المنصب، الذي كان أكثر الذين سبقوه جدارة لحمل مسؤولياته، تحركت شرايين الحكم المتعثر بمشاكله الداخلية، ولاحق فرصة جديدة ملحة لاجتياح أوروبا بخطة منظمة وروح متوثبة عالية. والغافقي طراز آخر من القادة الأمويين، وتصفه الروايات بأنه على درجة كبيرة من الشجاعة والكفاءة العسكرية. والواقع أن المتتبع لحياة هذا القائد برغم ضالة المعلومات، لابد أن تستهويه تلك الشخصية المنصوفة في الجهاد والترفعة عن الحساسيات الذاتية. فمنذ أن سطع نجمه بعد انسحابه بقلوب جيش السمح لم نسمع ما يحدّث تلك الصورة النقية التي التصقت به، ووضعت لها بواتيه لمسائها الأخيرة، برغم المشاحنات القبلية التي اجتاحت يومذاك الأندلس، دون أن يكون لطرف ما أي حظ في اجتذابه أو إخراجه عن وقاره السياسي والعسكري.

وهكذا فإن الغافقي حسب المؤشرات تلك، كان في انتظار هذه المناسبة بصبر وشوق، وكان مندفعاً لتكون فرنسا المحطة الثانية للعرب المسلمين في أوروبا بعد إسبانية، ليس بحملة عادية أو جامعة، ولكن ببرنامج مرسوم وخطة ذكية. ولقد دلّت على ذلك الأعدادات السريعة وكشافة الجند في حملته

(١) هم: عذرة بن عبد الله الفهري. يحيى بن سلمة الكلبي، عثمان بن أبي نعة الخثعمي، حذيفة بن الأحوص القيسي، الهيثم بن عبيد الكلاهي. أخبار مجموعة ص ٢٤.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٤-٢٥.

الضخمة^(١)، التي بادر إلى تشكيلها وعبر بها عمر الرونسسفال Roncesvalles في البرينيه^(٢)، وهدفه أولاً تحطيم قوة أكيثانية وإخضاع أوديس (٧٣٢/١١٤). أي أن الغافقي صعد مباشرة نحو هذا الأقليم، مهملًا الطريق التقليدي إلى سبثمانية، حيث سار القواد الآخرون. وبسرعة أخذت المدن تساقط أمامه في أكيثانية. . فبعد القضاء على المقاومة في آرل Arlatum الواقعة على مصب نهر ردونة دخلت جيوشه تولوز (طلوشة) وبوردو (بردال) Bordeaux أكبر مدن الأقليم، قبل أن يتصدى له الدوق وهو في طريقه إلى تور Tours، حيث دير سان مارتان St. Martin الشهير. وهناك على ضفاف الدوردوني Dordogne، أحد روافد نهر الجارون Garonne^(٣)، جرت معركة عنيفة بين الغافقي ودوق أكيثانية، هُزم فيها هذا الأخير وتحطم جيشه شر تحطيم. ولكن الدوق تمكن من النجاة بنفسه والانسحاب إلى الشمال، ملتجئاً لدى محافظة القصر شارل، الذي كان أقوى شخصيات مملكة الفرنجة في ذلك الحين. أما الغافقي فقد تابع هجماته السريعة، وتقدم شمالاً إلى بواتيه Poitiers، لتنتشر قواته في السهل الخصيب الممتد بينها وبين تور، على الضفة اليسرى لنهر اللوار Loire. وكان لهذه المدينة شهرة خاصة في الثراء المحيط بكنائسها، خاصة سان مارتان الأنفة الذكر، فاجتاحها الغافقي بجيوشه حيث نفّاث الكنوز^(٤) التي تسهب في وصفها المصادر الأوروبية.

غير أن ما حدث بعد هذه الانتصارات الساطعة التي استغرقت أشهراً قليلة، لم يكن في مصلحة سياسة التوسع في أوروبا. فالسيادة الأموية قدّر لها أن

(١) تزعم المصادر الأوروبية أن عدد القتلى في الحملة بلغ أربعمئة ألف، ولكن هذا الرقم كما هو واضح يظل مجرد رقم خيالي في مجال المقارنة مع الإمكانيات المتوفرة في ذلك الزمن. وربما كان العدد لا يتجاوز الخمسين ألفاً، وهو يقترب من الرقم الوارد في الروايات العربية، راجع مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٦٣.

Voir: Levi-Provençal 1.60

(٢)

Levi-Provençal, Op. Cit 1.60-61

(٣)

Ibid.

(٤)

تقف عند مدينة تور في أقصى امتداد منظم إلى عمق فرنسا، وقدّر للطموح الأموي في اجتياح القارة الأوروبية، أن يصبح مجرد حلم قصير بلغ ذروته وانتهى عند هذا الحد. ذلك أن أوديس بعد فراره إلى بلاط شارل وضع الفرنجة أمام الكارثة المرتقبة التي تهدد وجودهم، إذا لم يبادر الأخير في التصدي للزحف العربي الإسلامي بقيادة الغافقي^(١).

وكان من حسن حظ الفرنجة، بل من حسن حظ أوروبا أن يكون شارل حينذاك على رأس السلطة الفعلية في هذه الدولة. فهو على جانب كبير من الشجاعة والثقة بالنفس، فضلاً عن ذلك أنه وجد الفرصة الذهبية لتوحيد كل أقاليم الدولة تحت سيطرته المطلقة، لا سيما دوقية أكييتانية الواسعة التي نزع فيها أوديس نحو الاستقلال^(٢)، حتى إذا جاء هذا الأخير يستغيث به، لم يجد ما يحمله على التردد أو تجاهل ذلك الخطر الذي داهم أبواب دولته. وهكذا بادر شارل إلى القيام بعملية التصدي، التي وضعت فيها أوروبا كل آمالها، حاشداً لها أقصى ما عنده من طاقات^(٣). وكانت الملامح الصليبية ظاهرة بوضوح على جيشه الضخم، بعناصره التي لم تقتصر على الفرنجة وحدهم، بل تعدتهم إلى شعوب أوروبية أخرى^(٤).

وتحركات هذه القوة الهائلة نحو اللوار، حيث بلغت أنباء حشود القوات العربية هناك. ولكن الغافقي كان قد تراجع إلى سهول بواتيه لانتخاذ مواقعه فيها، بعد أن وصلته معلومات عن كثافة الجيش الفرنسي. بيد أن تحركات هذا الأخير برغم كثافته كانت سريعة، وما لبث شارل أن دفع به جنوباً ليدرك مقدمة الجيش الأموي، عند طريق روماني يفضي إلى بلدة شاتلرو Chatelleraut،

Levi-Provençal, Hist. 1, 161

(١)

(٢) راجع مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٦٧.

Levi-Provençal, Hist 1, 161.

(٣)

(٤) المان وبلغار... مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٦٧.

الواقعة على نحو عشرين كيلو متراً من مدينة بواتيه Poitiers^(١). وكان واضحاً أن الجيش الفرنسي مؤهل بما لديه من إمكانيات لاكتساب الحرب، حيث كفاءة القيادة وضخامة العدد، بالإضافة إلى الشعور بالخطر على المصير. فظهر هذا الجيش كتلة واحدة، قليلاً ما تؤثر فيه خطط الأمويين العسكرية، التي تعتمد أساساً على الهجمات الحاطفة والسريعة. ولا يعني ذلك أن جيش الغافقي لم يكن مؤهلاً في هذا الإطار من المستوى القتالي الجيد، بل كانت لديه طاقات غير قليلة تهيء له سبل الانتصار، حيث القيادة الفذة والجند المحترفون، والعوامل النفسية المشجعة، التي ولّدتها موجة الانتصارات الباهرة في أكيثانية والوار. ولكن هذا الجيش لم يكن يخلو من بعض نقاط الضعف، التي كان من الصعب تفاديا أو علاجها بتلك السهولة. فالمسافات البعيدة، الفاصلة بين القوات الأموية وبين قواعدهما التي يمكن أن تغذيها بالامدادات، كانت من أبرز هذه النقاط. هذا إذا وضعنا في الاعتبار أن الغافقي، حشد النسبة القصوى من قوات الأندلس في حملته إلى أكيثانية. ومعنى ذلك أن قاعدته في قرطبة، كانت غير قادرة على إمداده بالمزيد منها، إذا تجاوزنا بعد المسافة بين هذه الأخيرة وبين معسكره في حقول بواتيه، فكيف للقواعد العسكرية الأخرى كالقيروان والفسطاط ودمشق أن تلمي حاجاته في هذا المجال؟ أما نقطة الضعف التالية، فكانت تكمن في الانسجام المتور بين عناصره المقاتلة، فهذا الجيش كان في كل الظروف نتاج المجتمع الأندلسي، المتخور بالعصبيات الحزبية، فالمقاتلون من البربر إفتقدوا ذلك الاندفاع المتهور الذي تجلّى في معارك الفتح في أسبانية، حيث كانت بذور النعمة على التسلط العربي تأخذ طريقها إلى نفوسهم، وإذا كان ذلك لم يتعدّ إطار الحساسيات ولم يصل إلى المجاهرة بالنعمة، فلا سبيل إلى إهمال ذلك التنافس المكبوت بين الفريقين، أو تجاوز تلك التناقضات في المواقف. صحيح أن الغافقي استطاع بشخصيته القوية المتحررة من رواسب العصبية، أن

Levi-Provençal: Hist. 1, 61-62.

(١)

يستقطب هذا العدد الكبير من المقاتلين، وأن يمتص حساسيتهم إلى حد كبير، إلا أن الثغرة التي أصابت حينذاك إنسجام الجيش، هي أن البربر بغالبيتهم لم يتحمسوا كثيراً للمعركة، وتطلّعوا إلى حسنات الانسحاب بما حملوه من الغنائم، أكثر من سلبات الصمود وخسارة كل شيء^(١).

ولكن الغافقي ومعه النخبة المقاتلة من العرب، لم يعرض فكرة الانسحاب في معرض المناقشة، لأن ذلك يعني الاستهانة بكل الانجازات العظيمة التي تحققت في فرنسا والعودة إلى نقطة البدء. ولو أن هذه الحملة كانت مجرد غزوة تستهدف إرضاء شهوات الجند بالغنائم فقط، لكانت فكرة الانسحاب راقية له وتخلّى عن تلك المدن والأقاليم التي سقطت في يده، ولكنه آثر أن يمضي في المعركة حتى النهاية، دون أن يفقد الايمان باكتسابها وتثبيت رايات العرب المسلمين في قلب فرنسا.

ودارت المعركة الحالدة بين الغافقي وشارل (أواخر شعبان ١١٤/ تشرين الأول ٧٣٢)، التي حقق الأمويون خلالها إنتصارات أولية، ولكن النتيجة الحاسمة أسفرت عن هزيمة مدمرة لهم، وسقوط قائدهم بعد قتال بطولي. وقد سميت هذه المعركة في المصادر العربية بـ «بلاط الشهداء»^(٢)، حيث للتسمية علاقة على الأرجح بالمكان الذي كان اطلاقاً لقصر قديم. فكلمة بلاط هنا مرادفة للقصر، وليس لاشتقاق آخر بمعنى الطريق «المبلط» أو المرصوف^(٣).

وكانت معركة «البلاط» في غاية الأهمية، حيث ظلت لها أصداء خاصة في تاريخ العلاقات بين العرب والأوروبيين، وحوّلها محور الصراع العسكري والعقائدي بين الطرفين خلال الأجيال اللاحقة. وإذا اعتبرت خسارة العرب المسلمين جسيمة في معركة بواتييه Poitiers، بعد أن قضت على تصميمهم في اجتياح

(١) عنان، دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ١٠٠.

(٢) فتح الطيب ج ٢ ص ٥٦.

(٣) راجع مؤنس، الأندلس ص ٢٧١. يحمل المكان حالياً اسم «موسيه لاباتاي».

القارة الأوروبية واقتناعهم بما وصلت إليه أيديهم من مواقع على السفوح الشمالية لجبال البرنيه، فإن نتائجها في الطرف الآخر كانت منعطفاً تاريخياً على قدر كبير من الأهمية. فقد تمّ إنقاذ أوروبا المسيحية إلى الأبد من خطر الإسلام على يد شارل محافظ القصر في مملكة الفرنجة، الذي استحق عن جدارة لقب «المطرقة» (التي سحقته قوة العرب المسلمين في فرنسا)، وهو الاسم الذي أطلقه عليه البابا غريغوري الثالث، فأصبح يُعرف بشارل مارتل Charls Martel، بما يحمله ذلك من ملامح صليبية ظاهرة. ولئن جنت كتب المؤرخين في الغرب إلى تضخيم التصورات حول مستقبل القارة الأوروبية، إذا ما كتب لبواتيه أن تنتهي إلى غير ما انتهت إليه، فإن كثيراً من تصوراتهم قد تبدو واقعية وفي محلها إلى حدّ كبير. ذلك أن المدّ العربي الاسلامي في أوروبا المسيحية، قد وصل إلى ذروته في معركة بواتيه، ولم يكن هنالك من سبب يدعو العرب إلى التوقف لو حالهم النجاس، حيث الدلالات كلها كانت تشير إلى إصرارهم على المضي في الخطوة التوسعية إلى النهاية.

ولنا أن نتساءل كما يتساءل كثير من الكتاب الأوروبيين عن مصير قارتهم، اليوم لو كان حظ الغافقي في بواتيه كحظ سلفه طارق في وادي لكة. ولعل أدق إجابة في هذا المجال ما قاله أحدهم: «إن بواتيه أنقذت آباءنا الانكليز وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال روما وأخرت إستعباد القسطنطينية، وشدّت بأزر المسيحية وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفشل»^(١).

وإذا كانت هذه الكلمات تصيب الحقيقة بكل جوانبها، فإن أصدق ما فيها تحسيد الواقع العربي في أوروبا، بما فيه من تمزّق وخلافات ستؤثر أبداً تأثير في الصراع العربي - الأوروبي الذي أخذ منحى تراجعياً منذ ذلك الحين. فبعد ثلاث سنوات من هزيمة بواتيه، أرغم العرب على الانسحاب من أفينيون

Avignon^(١)، تحت ضغط الهجمات التي قام بها شارل مارتل. ثم أعقبت ذلك سلسلة من الهزائم على يد خلفائه الكارولنجيين، ستجعل من العسير جداً على العرب المسلمين التوغل بعد ذلك وراء البريني^(٢). فقد نُكِب هؤلاء خلال السنوات التالية بالواقع المرير الذي أوجده التكوين غير المتجانس للمجتمع الجديد في الأندلس، والذي تألف من مجموعات متنافرة من النواحي القبلية والعنصرية. وكما هو معروف فإن الهزائم تعكس ظلالها السلبية على بنية المجتمع في الداخل، وتضجّر للصراعات بين مختلف الفئات التي تجدد في ضعف الحكم ثغرة تتسلل منها إلى مصالحها الخاصة. وزاد في ذلك أن دولة الأمويين في المشرق، بدأت تعيش أحلك أيامها في ذلك الحين، حيث الخلافات الحزبية التي انجرّ إليها خلفاؤها، أغرقت الدولة وولاياتها في أجواء التطاحن السياسي، ولم تعد قادرة على الخروج من هذه الدوامة التي أودت بها آخر الأمر. وكان حال الأندلس لا يختلف عن حال الولايات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ولكن أمراضها السياسية كانت أشد فتكاً، ومأساتها كانت فريدة الطابع، ليس لها ما يماثلها في مكان آخر.

وهكذا أصبحت المراهنة على اتخاذ مبادرات توسعية جديدة في أوروبا، أمراً يحيط به الكثير من الشك. وإذا كان قد تمّ المحافظة حيناً على بعض مكتسباتهم فيما وراء السفوح الشمالية لجبال البريني لا سيما أربونة التي ظلت لفترة ما، قاعدة الغزوات الأموية في وادي الرون، فإن موجة الحرب المنظمة أخذت في الانحسار لتتحول إلى نظام تقليدي يشبه كثيراً نظام الصوائف الذي عرفته الحروب الأموية - البيزنطية. فقد أحاط بالتحركات العسكرية في تلك الفترة شيء من الغموض، والمعلومات التي في متناولنا عنها تكاد تقتصر على المصادر الأوروبية، وتأتي في طليعتها بُعَيْد هزيمة البلاط تلك الغزوة التي قام بها حاكم

(١) إلى الشمال الشرقي من Norbonne وقد لمع اسمها فيما بعد عندها أصبحت لفترة ما مركزاً للبابوية راجع Levi-Provençal. Hist. 1, 65 سيديو: تاريخ العرب العام ١٧.

Levi-Provençal. Ibid. 1-25

(٢)

أربونة يوسف بن عبد الرحمن (٧٣٤م)^(١) في وادي الرون، وتقدمه في إقليم البروفانس Provence حتى أعالي الوادي في ديورانس Durance. ويبدو - حسب هذه المصادر - أنه توغل الأمويين في هذه المنطقة إستمروا نحو أربع سنوات، قبل أن يقفلوا عائدين إلى قاعدتهم الأخيرة (أربونة)^(٢). ومن المعتقد أن تراجعهم جاء في أعقاب هجوم معاكس قام به شارل مارتل، الذي كان منهمكاً حينذاك بإعادة الترتيبات العسكرية في الأقاليم المستعادة من الأمويين وتحسين وضعها الدفاعي، ومن ثم القيام بمحاولة لحصار قاعدتهم السالفة الذكر. ولكن والي الأندلس أرسل فرقة لانقاذ المدينة، ما لبثت أن اصطدمت مع الفرنجة في معركة عند Berre وهو مجرى ماء صغير إلى الجنوب من أربونة^(٣)، إلا أنها منيت بالهزيمة (٧٣٧م). فعاد شارل إلى حصار هذه الأخيرة، التي دافعت على نفسها بشراسة وباطلت المحاولة، مما اضطره إلى الانسحاب، تاركاً هذه المهمة لمناسبة أخرى، وهو مقتنع بأن خطر العرب المسلمين - رغم بقائهم في هذه القاعدة - فقد الكثير من جديته القديمة.

ولعل آخر تلك المحاولات الأموية لغزو أوروبية، حدثت في ولاية عقبة بن الحجاج السلولي^(٤)، وهو فيه من ألمعية القواد الكبار، لما اتسم به من ميل جهادي وإصرار على مواصلة السياسة التوسعية. ففي خلال السنوات الست التي قضاها في الحكم، لم يتخل عن هذا الاتجاه الذي كان له حظ ما من النجاح. وكانت أهم عملياته العسكرية، في أقاليم برغندية والبروفانس والدوفينييه Dauphiné (٧٣٩م)^(٥). ولكن هذه الجهود كانت عديمة الفائدة، ولم

(١) لا يشير ليفي بروفنسال إلى قبيلته، بينما يعتقد مؤنس أنه يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي سزول إليه ولاية الأندلس فيما بعد.

Levi-Provençal. Hist 1,65

(٢) فجر الأندلس ص ٢٧٨

Levi-Provençal 1,65

(٣)

(٤) أخبار مجموعة ص ٢٥.

(٥) الإقليم الذي تقع فيه مدينة غرينوبل Grénoble إلى الجنوب الشرقي من فرنسا.

تصب أي تغيير جذري في الموقع الأموي وراء البريني، حيث كان شارل يترصد باهتمام أخبار هذا القائد، وما لبث أن أرسل في إثره أخاه (شلدبران) Childebrand أحد البارزين بين قواده، واستنفر من جديد كل طاقات حلفائه الأوروبيين^(١)، في إجراء يشبه إلى حد كبير، ما جرى بعيد انتصارات الغافقي السابقة، بعد أن عزم شارل على وضع حد لهجومه العربية الإسلامية والقضاء على كل أثر لأعدائه في غالة.

وفي خضم هذه الأحداث يضيغ اسم عقبة، فلا نكاد نتلمس طرفاً واضحاً لنهايته بعد غزواته الأنفة الذكر. فقد غاب عن المسرح السياسي في قرطبة بتدبير - على الأرجح - من عبد الملك بن قطن الذي قام بانقلاب عليه واستولى على السلطة. وبوفاة السلوي، تنطوي آخر الصفحات المثيرة في علاقات اسبانية العربية مع أوروبا، ذلك أن خليفته المعروف بعصبيته المتطرفة، ومن جاء بعده من الولاة كانوا أعجز من أن يحافظوا على تراث موسى وطارق والغافقي وبقيّة القواد الكبار. فقد تبذرت تلك المساحات الواسعة التي خضعت للعرب المسلمين في فرنسا، ولم تعد لهم غير رقعة صغيرة ظلوا متمسكين فيها حيناً من الزمن هي أربونة Narbonne التي صمدت أمام هجمات شارل العنيفة^(٢). وكان هذا الأخير قد أصبح أقوى شخصية في أوروبا، بعد انتصاره على العرب المسلمين وعلى القبائل الوثنية وراء الراين. ولم يعد «بطل المسيحية» ومنقذها في الغرب يقف وراء الملك بلباس محافظ القصر، بل كان هو الملك الفعلي بنظر الفرنجة، ولو لم يتخذ اللقب بصورة رسمية. وسرعان ما حالته الظروف حين مات الملك الميروفنجي (تيودوريك الرابع)، فأمسك بيده كل أطراف السلطة وجمّد منصب الملك، ليتاح له أو لأبنائه أن يكونوا ملوك المستقبل.

وظلت أربونة (قاعدة الأمويين في سبتمانية) ثغرة في دولة شارل، وأحبطت

(١) مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٨١.

Levi. Provençal. Hist 1, 64-65

(٢)

كل محاولاته التي استهدفت ما لديها من تحصينات قوية وموقع بحري ممتاز، يسهل لها عمليات المساعدة، حيث كان الأمويون يرون فيها محطة طموحهم الأخير لاستعادة ما فقدوه في فرنسا. ولكن هذه المدينة كان عليها أن تلقي أخيراً سلاحها على يد خليفة شارل وابنه بيّان القصير Pepin le Bref (٧٥١/١٣٣)، بعد أربع سنوات من الدفاع المستميت. وكان ذلك ائذان للعرب، بأن أحلامهم التوسعية في أوروبا وراء البرينية مكتوب عليها الفشل، مقتنعين منذ سقوط أربونة بالانصراف إلى أسبانية ومعالجة شؤونها الداخلية. وهي لم تكن بعيدة عن الخطر في مطلق الأحوال، لأن أوروبا في عهد خلفاء شارل من الأسرة الكارلونية، لم تعد تمارس ذلك الدور الدفاعي ضد غزوات العرب المسلمين، وإنما انتقلت إلى الهجوم على أسبانية نفسها، معلنة حرب «الاسترداد» المقدسة التي أخذت بداية طابعها الجدي منذ عهد شارلمان. وكان على أسبانية العربية أن تغرق في الدفاع عن نفسها بدأب وصبر، وسط هذه التيارات المعادية والمحيطة بها من كل الجهات.

البَابُ الثَّانِي

دَوْلَةُ الْأُمَوِيِّينَ الْمُسْتَقِلَّةَ فِي الْأَنْدَلُسِ

١ - الإمارة

٢ - الخلافة .

٣ - الدولة العامرية .

الإمارة عبد الرحمن الأول "الرائد"

... عبد الرحمن بن معاوية الذي تخلص بكيدة من سنن الأسنة وظبابة السيوف، يعبر القفر ويركب البحر، حتى دخل بلداً أعجمياً فمصر الأمصار وجند الأجناد وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه.

أبو جعفر المنصور

(أخبار مجموعة ١١٨ - ١١٩).

دور التأسيس (١٣٨ - ١٧٢ / ٧٥٦ - ٨٨٧)

... وانهارت خلافة الأمويين وهي لا تكاد تبلغ منتصف الطريق إلى مجدها الأثيل، أو تجتني سوى النذر من ثمرات الجهود التي رافقت ظهورها ونشأتها. فالدولة التي أقامت صرحها على السيف، متجاوزة في كثير من الأحيان الذهنية التي انعكست على ممارسات الأوائل من الخلفاء، المتشددون حتى العنف في تأثيرهم الإسلامي العميق، كان عليها منذ تأسيسها ومنذ أن اختط معاوية ركائزها «المكافيلية»، أن تتأرجح في عباب التيارات المتناقضة وليدة هذا الأسلوب السفيناني، الذي أصبح عرفاً يتبناه الخلفاء الأمويون من الأباء إلى الأحفاد. وكان واضحاً - كقاعدة لا تتغير لا في المكان ولا في الزمان - أن الدولة التي تبني شهرتها على أسماء ملوكها ولا تأخذ بمفهوم الحكم في إطار المؤسسة

الدائمة، المنفصلة تماماً عن الأشخاص، لا بد أن تتأقلم عضوياً مع المترعين على عرشها، تعاني نقائصهم وتضعف بعضهم، ثم تغيب مع غيابهم. ولعل دولة الأمويين كانت أكثر الدول شذوذاً في التاريخ عن القواعد العامة للسلطة، بحيث أنها لم تتحرر إلا قليلاً من نظام القبيلة التقليدي، مع تأثيرات خارجية طفيفة لا تلامس مطلقاً الجوهر. فالدولة بكل أجهزتها كانت مسخرة لفئة محدودة في المجتمع وهي الأقلية في كل الظروف، متجاهلة الفئات العريضة التي كان ينبغي أن تتناولها اهتمامات الدولة من قريب أو بعيد، ولا تدفعها كرهاً إلى معاداتها وجبك المؤمرات ضدها، بعد أن فقدت أبسط الحقوق في هذا المجتمع. ولا نشك مطلقاً من خلال هذه المعطيات أن جوهر المشكلة كان اجتماعياً، أساسه شعور الأكثرية بالحرمان الاقتصادي ومعاناتها صنوف الاضطهاد والملاحقة والقمع، جاءت كلها محصلة لذلك الاختلال، بين ضخامة الدولة وطاقتها البشرية الهائلة، وبين ضعف الأجهزة الإدارية وعدم نموها مع نمو الدولة المضطربة. وبدأ التقصير واضحاً في هذا المجال بالذات، بعد أن ظلت قدرة العرب التقنية محدودة، وعاجزة أحياناً عن الاحتفاظ بالمنجزات العسكرية الهامة^(١)، حيث تجلّت هذه الثغرة بصورة خاصة في سياسة التوسع وراء البرية.

ولو شئنا الإحاطة بالعوامل التي أدت إلى انهيار دولة الأمويين في غير أوانها الطبيعي، لما أعيانا البحث طويلاً عن إدراك تلك الظروف التي فجرت الغضب الاجتماعي في شتى الأقاليم، لا سيما التي حلت عليها نقمة الخلفاء وعانت اضطهاد الولاة. ونظرة أفقية عابرة إلى الأوضاع السياسية العامة في هذه الدولة، حتى في دور القوة كما يسميه المؤرخون^(٢)، نلاحظ تلك الصورة القائمة التي عكست محتوى النظام الأموي، وكشفت أبرز الأخطاء فيه. فلم تكن السلطة المركزية حينذاك موجودة بصورة فعلية، إلا في العاصمة والأقاليم المجاورة لها.

(١) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ٦٢.

(٢) بيضون، زكار، تاريخ العرب السياسي ص ١٤٩ وما بعدها.

وكان الكلبيون - أقوى فروع الحزب اليمني المؤيد للنظام - يشكلون مع بني أمية أرقى «الارستقراطيات» العربية المترفة، بينما الأقاليم الأخرى تزداد المهوة معها، وهي تؤدي من شقائها ثمن الرفاهية في دمشق. فإذا أخذنا الحجاز مثلاً، الذي انبثقت منه تيارات التغيير الجذري في العقلية العربية، فقلبت رأساً على عقب، لوجدناه معتكفاً يعيش في العزلة منذ قيام الدولة الأموية. ولقد تقبل الحجاز مكرباً عزله السياسية، وحذفه من واجهة الأحداث إلى غياهب النسيان، فإذا لاحت فرصة، ثار على واقعه ورفع راية العصيان وشعار التصحيح. ولو كان قائد الثورة الحجازية، أكثر جرأة في طرح المشكلات الاجتماعية، وانفتاحاً على فئات المتذمرين المهقنين بضرائب الولاة^(١)، لانفتح أمامه باب السلطة على مصراعيه وأصبحت الخلافة «زبيرية» قاعدتها مرة أخرى في الحجاز.

وإذا انتقلنا إلى العراق ومعه المشرق الإسلامي، لوجدنا نموذجاً آخر لفشل السياسة الأموية التي كانت لها ملامعها المنفردة في هذا الاقليم. فالعراق اختارته الظروف كي يكون مركز المعارضة الأول في دولة الأمويين، انطلاقاً من طبيعته البشرية والتيارات المختلفة التي انعكست عليه، وجعلت منه الأرض الخصبة للتحرك الثوري الدائم. فهذا الاقليم الذي قدّر له استيعاب أغلبية ضخمة من غير العرب أو من عناصر امبراطورية الفرس المنهارة، كان أسبق الأقاليم إلى التأثر برواسب الأفكار المتوارثة ذات البعد الاجتماعي، والمستمدة من تلك الحركات الإصلاحية في هذه الامبراطورية التي شهدتها منذ زمن ليس ببعيد. ولم يكن مدهشاً أن تكون الكوفة، إحدى المعسكرات الجديدة في دولة الإسلام، أول من يثور على واقع الظلم وتتصدى للوالي المستأثر مع بطانته بالأرض وما عليها^(٢)، في مطلع العقد الرابع من عمر هذه الدولة. وقدّر للعراق أيضاً أن يرتبط فترة ما بخلافة آخر الراشدين علي، وهي على قصرها واضطرابها لم تعدم

(١) راجع ضياء الدين الريس، الخراج في الدولة الإسلامية ص ٢٠٨ وما بعدها.

(٢) هو سعيد بن العاص والي الكوفة في عهد عثمان، وكانت له عبارته الشهيرة «هذا السواد قطين لفريش» الطبري ج ٥ ص ٨٨.

متغيرات تركت بصماتها الواضحة على المجتمع العراقي ، لتعطيه شخصيته الخاصة ومكانته الشاذة في الدولة الأموية .

فالعراق إذن كان العضو المريض في جسم دولة الأمويين ، ومنه راجت الأفكار الثورية ، وعلى أرضه انتشرت «خلايا» المعارضة السياسية تتوسل لها فرصاً للتحرك . فهناك «الحزب» الشيعي أخطر هذه الأحزاب وأثقلها وطأة على النظام ، وهناك «حزب» الخوارج المتسلح بمنطق الرفض لكل مظاهر الواقع ، والطامح إلى تغيير شامل في مفهوم الحكم وبعض أطراف العقيدة^(١) . أما «الحزب» الأخير فلم تكن له شخصيته المستقلة ، بل كان أقرب إلى التكتل منه إلى الحزب ، وهو الذي يضم الموالي ، حيث المدلول اللغوي لهذه التسمية يقصد به كما هو معروف ، الذين دخلوا في دائرة الحكم العربي الإسلامي ، وتحديدأ تلك الفئات العريضة من الفرس التي التحمت أكثر من غيرها بالواقع الجديد ، وتقبلت الإسلام بعقلية منفتحة وروح إيجابية . ويعود التصاق هذا التكتل الضخم مبدئياً بالحزب الشيعي لاعتبارات ، تأتي في طليعتها السياسة الاقتصادية التي انتهجها علي في العراق ، مركز استقطاب الموالي ، ومن ناحية أخرى فلإن الإحساس المشترك بالمعاناة بين الموالي وبين «الحزب» الشيعي ، أدى إلى ارتباطهم المصيري بهذا الأخير وتعاطفهم مع زعمائه . ولكن الموالي كانوا بفعل انسحاقهم اقتصادياً ، أكثر الفئات في المجتمع العراقي^(٢) تجاوباً مع الحركات الثورية المعادية للأمويين بصرف النظر عن خطتها العقائدي أو السياسي . فسواء كان ابن الزبير أو كان المختار أو ابن الأشعث ، فهم وراء كل رافع لراية الثورة على الواقع وإن كانت الشعارات براقية ، أو خالية من المحتوى الاجتماعي في بعض الأحيان .

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ٥٦ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٢٥٥ .

(٢) بلغت ذروة ذلك في عهد الحجاج بن يوسف . راجع الخربوطلي ، العراق في ظل الحكم الأموي ص ١٦٨ .

وهكذا فإن غضبة الموالي الفرس، لم تختلف كثيراً عن غضبة الموالي البربر في المغرب أو في الأندلس، مع فارق واحد هو أن البربر كانوا أكثر جرأة في التصدي المباشر لقضاياهم المصيرية، دون التستر تحت أجنحة الحركات الأخرى، حيث القبضة الحديدية التي أحكمتها السلطة في العراق، لم يكن مايمثلها في أي مكان آخر. ولكن الموالي لن يظل بهم الزمن، وقد صهرتهم التجارب، حتى يأخذوا بأيديهم زمام المبادرة ويقرروا ماذا يريدون. ولا يلبث أن يتجلى ذلك في الثورة الكبرى، التي أطاحت بدولة الأمويين نهائياً في الشرق وأقامت صرحاً جديداً للأسرة العباسية في بغداد. وإذا كانت قيادة الثورة عربية والخلافة من بعدها قرشية، دون مغالفة للأعراف السائدة، فإن الثورة اختمرت في الكوفة^(١) حيث الأغلبية من الموالي الساخطين، قبل أن تنتقل إلى مرو (خراسان)، لتأخذ طريقها إلى التنفيذ^(٢) على يد فارسي كان الرجل الثاني في الدعوة، هو أبو مسلم الخراساني، من موالي الكوفة. وتدفع التأييد للدعوة من جانب الموالي هناك، الذين أذاقتهم عصابات الولاة الأمويين من الاضطهاد الكثير، وتاقوا إلى تحسين أوضاعهم المعيشية وتحرير أنفسهم من أعباء الضرائب الثقيلة، واجدين في شعارات الدعوة العباسية، لا سيما المتعلقة بالمساواة، بريقاً جذاباً يحمل إليهم الوعد بغد أفضل.

وكان وراء النجاحات التي أدركتها الثورة - سواء في استقطاب المسحوقين من الموالي، وامتصاص نعمتهم بشعاراتها الإصلاحية، أم في استغلال التناقضات القبلية والسياسية في صفوف العرب - جهاز تنظيمي على جانب كبير من الدقة والبراعة، على نحو لم تكتشفه الدولة الأموية إلا بعد سنوات عديدة، برغم ضخامة هذا الجهاز وانتشار أتباعه ومندوبيه في مختلف الأقاليم الشرقية من الدولة.

وفي سنة (١٢٩/٧٤٧) أعلن الخراساني الثورة في مرو، بالاتفاق مع زعيم

(١) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ٧٠.

(٢) فاروق عمر، طبيعة الثورة العباسية ص ١٥٣.

الدعوة المقيم في الشام (الحميمة). فأزال الحكم الأموي في خراسان، وانهزم الأنصار نحو الغرب لينقضوا على جيش الوالي الأموي (ابن هبيرة) عند شاطئ الفرات^(١). ثم تستسلم حامية الكوفة وتفتح المدينة الساخطة على الحكم الأموي أبوابها للثورة، ويدخلها الزعماء العباسيون ومعهم «الوزير الفارسي» أبو سلمة الخلال. وهناك جرت عملية البيعة لأبي العباس^(٢)، الذي أصبح زعيم الدولة بعد مقتل أخيه إبراهيم في دمشق على يد الخليفة الأموي. وفي الوقت نفسه كانت قوات الثورة العباسية تأخذ طريقها إلى الشام بعد سقوط العراق وعلى رأسها عم الخليفة المعلن عبد الله بن علي، فيلحق بمروان الثاني عند الزاب. وكان حينذاك في مهمة حربية في الجزيرة - فأذهله المفاجأة ولكنه لم يفقد القدرة على التصرف، بل وكان في منتهى الشجاعة حين خاض معركة عنيفة مع القائد العباسي لمدة عشرة أيام، كادت تنتهي لمصلحته لولا أن أخطأ التقدير في توزيع قواته، فأصيب بهزيمة قضت على كل آمال الخلافة الأموية في التصدي للمد العباسي الجارف، حيث كانت معركة الزاب الضربة الأخيرة التي قضت عليها بصورة نهائية^(٣).

وتعرض «الحزب» الأموي وأتباعه في الشام لهجمة شرسة من القائد العباسي المنتصر، الذي أراد اجتثاث الأسرة الأموية من الوجود. فكانت تلك المجزرة الشهيرة عند أبي فطرس^(٤)، التي توجت أحقاد العباسيين بالقضاء على بقية الناجين من هذه الأسرة في معركة الزاب الفاصلة. ولكن واحداً كان على موعد مع الحظ - الذي تخلى عن أخيه -^(٥) لم تدركه سيوف العباسيين، واستطاع أن ينجو بنفسه ومعه ابنه الصغير (سليمان) وخادمه المخلص (بدر). وبعد لأي

(١) معركة الفلوجة، راجع طبيعة الثورة العباسية ص ٢٠٧.

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٢٨.

(٣) جمادى الآخرة (سنة ١٣٢/كانون الثاني ٧٥٠) الطبري ج ٩ ص ١٣٠.

(٤) نهر قرب الرملة في فلسطين حيث قتل عبد الله بن علي اثنين وسبعين من الأمويين كانوا قد

استأنوا له. الطبري ج ٩ ص ١٣٧. أخبار مجموعة ص ٤٨-٤٩.

(٥) يحيى بن معاوية أخبار مجموعة ص ٤٨.

حملته الطريق إلى المغرب، حيث كانت السيطرة لحاكم شبه مستقل هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري، الذي عرفته أحداث أفريقية والأندلس شخصية طموحة لا تخلد إلى هدوء، حتى انتهى به الأمر حاكماً على المغرب إثر انقلاب قام به ضد حنظلة بن صفوان الكلبي. فاستقر الأموي الهارب هناك بين أحواله من قبيلة نفزة البربرية^(١)، ملتقطاً أنفاسه إلى حين، ليقرر بعدها أي طريق يفضي إليه.

كان ذلك عبد الرحمن بن معاوية، حفيد الخليفة الأسبق هشام بن عبد الملك، شاباً متمكناً بالعافية مشعاً بالذكاء، طموحاً بلا حدود، وتلك صفات تؤهل حاملها لجسام المسؤوليات. وهذا ما حصل لذلك الطريد الذي نجا بأعجوبة من القتل، فهو لم يفر من أجل السلامة فقط كأي شخص عادي، وإنما تحركت فيه أحلام السلطة ونازعته شهوة الملك. وما كانت ولاية المغرب على بعدها عن مركز الحكم العباسي لتكفي طموحه الكبير، حتى لو أراد ذلك ما كان بالأمر اليسير، لأن هذه الولاية التي نالت حينذاك بعض الاستقلال، لم تكن مؤهلة للقبول بهذا المخامر الشاب، ولم يكن حاكمها الفهري يستسيغ وجود منافسين له في مكان ناضل كثيراً قبل الوصول إليه، خاصة إذا كانوا متحدرين من أسرة ملكية. وتجلي هذا الشعور العدائي بتصفية اثنين من الأمويين^(٢)، كانا قد لجأ إلى المغرب شأن عبد الرحمن، فما كان من هذا الأخير إلا أن تجنب الظهور واختفى حين ما في الظلام حتى ينجلي الموقف.

مضت أربع سنوات والأمير الأموي يتنقل بين قبائل البربر في المغربين الأقصى والأوسط، دون أن يثير غباراً وراء تنقلاته الخفية. وكانت الأندلس على مقربة منه تمزقها الحرب الأهلية في ذلك الوقت - كما أسلفنا - وكان من العسير جداً الاتفاق على زعيم واحد يلثم حوله الجميع، فتوجه عبد الرحمن بطموحه إلى هذا الاقليم حيث كانت أخباره المثيرة تصل إليه تباعاً، واجداً فيه الفرصة الأكثر ملاءمة

(١) العبادي، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٦٠.

(٢) هما ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨.

من المغرب. وفي نهاية (١٣٦ / منتصف ٧٥٤) كان مرافقه بدر يشق طريقه عبر المضيق إلى الأندلس في مهمة سرية^(١)، للإطلاع على الأجواء السياسية هناك ودراسة السبل التي تمهد العبور لسيده، واتخاذ ركائز في هذا الأقليم، حيث الفرص كثيرة والمتخاصمون ليس فيهم من له صفات القيادة أو مواهب الحكم.

كانت أولى مهمات بدر بعد أن وصل إلى ساحل البيرة Elvira، الاتصال بأنصار الأسرة الأموية وهم في معظمهم من بقايا الفرقة الشامية التي حوصرت في سبتة إبان ثورة البربر، قبل انتقالها إلى الأندلس بقيادة بلج بن بشر في أعقاب محاولات مستميتة مع واليها «الحجازي» المتصلب عبد الملك بن قطن^(٢). فأرسل بدر إلى اثنين من زعمائهم برغبته في الاجتماع إليهما^(٣)، في الوقت الذي كانت فيه رسالة سيده المكتوبة بعبارات أنيقة تمهد الطريق إلى لقاء إيجابى. وفي الاجتماع المتفق عليه أسهب بدر في عرض مأساة الأمويين والكارثة المفجعة التي حلت بهم، كما عرض المطاردة الصعبة التي عاناها سيده الأموي حتى أدرك النجاة بأعجوبة، دون أن ينسى التركيز على الموضوع الأساسي من المهمة، مشيداً بصفات عبد الرحمن ومؤهلاته كحفيد هشام، ومقدرته على رد الاعتبار لجماعته الأمويين إذا ما اتبحت له فرص المساعدة. وكان اللقاء ودياً إلى حد كبير، ولم يتردد الزعيمان الشاميان من البدء فوراً بالعمل على تنفيذ رغبة الأمير المرواتي، فاتصلا بحليف لهما من جند قنسرين (يوسف بن بخت)^(٤)، فراقبت له الفكرة وضم جهوده إلى زعيمى الجند الشامى. فأتاح ذلك نجاحاً أولياً لمهمة بدر، حين أسفرت اتصالاته عن قيام نواة لفريق مؤيد للأمير القابع في سبتة.

ولعلنا نذكر أن السلطة الفعلية في الأندلس يومذاك كانت في قبضة

Levi-Provençal: Hist. 1.99

(١)

Levi-Provençal Ibid. 1.98

(٢)

(٣) هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبيد الله بن خالد. أخبار مجموعة ص ٧٥. ابن

عذارى ج ٢ ص ٤١.

(٤) أخبار مجموعة ص ٦٩.

الصميل، الذي جاء بيوسف بن عبد الرحمن الفهري إلى الإمارة ليكون ستاراً يخفي وراءه شخصيته القوية ويسوس الأمور كما يريد، ولكن يوسف كان يتملص من هذا الوضع ويتوق إلى تحرير نفسه من وصاية الصميل. وما لبثت العلاقات - كما رأينا - أن فترت بين الرجلين، خاصة إبان المحنة التي وجد الصميل نفسه فيها، وهو محاصر في سرقسطة بقوة ضئيلة، دون أن يلبى الفهري نداء المساعدة. ولكن الصميل يخرج سالماً بعد استنفاره كل القوى القيسية الخليفة، دون أن يسعف الحظ حاكم قرطبة بالتخلص منه، إلا أن خروجه كان مرتين للذين أنقذوه، فلم يعد الرجل القوي منذ ذلك الحين. وفي تلك الأثناء كانت الاتصالات ناشطة في أوساط «الحزب» الشامي وحلفائه من الذين استهوتهم زعامة الأمير الأموي وتلمسوا بها طريق الخلاص من فوضى الحروب الأهلية، التي استنفدت كل طاقاتهم البشرية والمادية دوغما طائلاً، أو من الذين فقدوا فرصهم السياسية في غمار هذه الأحداث، فحذفتهم الخصومات إلى هامش الحياة لينتظروا أدواراً جديدة ربما تتاح لهم مرة أخرى.

وفي هذه الأثناء اعتقد الزعيم الشامي أبو عثمان، المحاور الرئيسي حتى ذلك الحين لعبد الرحمن بن معاوية، أن صداقته مع الصميل ستفتح له آفاقاً واسعة في المهمة التي تبنى تنفيذها في الأندلس. ولكن الصميل لم يتحمس كثيراً لهذا الأمر، ولعله شغل تفكيره حينذاك بشريكه في الحكم يوسف الفهري وموقفه المتخاذل إبان محنته في سرقسطة، طالباً من صاحبه بعض الوقت قبل إعطاء رأيه الأخير^(١). ذلك أن الصميل لم يكن محاوراً سهلاً يفصح عن مخبوء شعوره بهذه السرعة، حتى لو كان الطرف الآخر صديقاً حميماً، فكيف إذا كانت المسألة موضوع الحوار، مصيرية تتناول مستقبله السياسي؟ فهو لا زال برغم كل شيء الرجل النافذ والمهيمن على السلطة، وهو يفضل في كل الحالات استمرار الوضع الراهن، على أن يكون رجلاً عادياً وربما غامض المصير في ظل شخصية كعبد الرحمن لا يملك من مقومات منافستها إلا القليل.

(١) أخبار مجموعة ص ٧٠.

وإذ فشلت المحاولة مع الصميل، توجه فريق الأمير الأموي إلى «الحزب» المعارض من القبائل اليمنية وهو لا زال يستأثر بالكثافة البشرية في الأندلس، ويتخذ مواقفه العدائية الثابتة من الحكم القيسي الموزع بين الصميل والفهري. ولم تكن هنالك عوائق في الاتصال بهذا «الحزب»، المرتبط عضوياً بالأسرة المروانية منذ أن استعاد مؤسسها الخلافة في مرج راهط حتى خلافة هشام بن عبد الملك، حيث يُدعى الآن لحفيده بإمارة الأندلس. وكانت بداية طيبة عندما استجاب اليمنيون للفكرة وتحمسوا لها (وكان معظمهم من زعماء الحنم ويحصب وجذام)^(١)، فضلاً عن تأييد أحد الزعماء القيسيين^(٢) من خصوم الصميل. والواقع أنه لم يكن هناك ما يدفع الحزب اليمني إلى التردد في القبول بهذا العرض، ففيه الفرصة التاريخية للتحرر من قيود القيسيين الثقيلة، الذين أذاقوهم الموت والهوان في شقندة وغيرها من الهزائم.

أما عن الصميل فعلى الأرجح أنه ظل على رأيه الرافض بشأن الأمير الأموي، دون أن تفعل معه شيئاً محاولات الزعماء الشاميين من أنصار هذا الأخير، وقيل إنه في لحظة انتشاء تحت وطأة الخمر وافق على دعوة عبد الرحمن^(٣)، ولكن ذلك كان مجرد حديث عابر. إن صرح زعمه - لم يلبث أن تبدد وبقي الصميل رهين قناعاته الثابتة. ومن المؤكد أن أبا عثمان حليف الأمير الأموي كان في منتهى الذكاء مع صديقه الزعيم القيسي، فهو لم يشأ تجاهله مع مغبة ذلك، في اتصالاته المستهدفة دعوة عبد الرحمن إلى الأندلس. بيد أن الزعيم الشامي لم يعد بأمر الحاجة إلى موافقة الصميل، بعد الانتصار السياسي الذي حققه بالاتفاق مع «الحزب» اليمني. وبات يمتلك من المعطيات ما يشجعه

(١) كانت الاستجابة بصورة خاصة في غرب الأندلس. ومن أبرز الذين انضموا للأمير الأموي أبو الصباح اليحصي وعلقمة بن غيات اللخمي وزيد بن عمرو الجذامي.

(٢) الحصين بن الدجن العقيلي.

(٣) ابن عذاري، ج ٢ ص ٤٥.

على دعوة عبد الرحمن، خاصة وأن الظروف بدت مواتية إلى حد ما، في وقت غاب فيه عن عاصمة الإمارة كل من الحاكمين (الصميل والفهري) في مهمة حربية إلى الشمال^(١). وكان على بدر أن يضع سيده في الأجواء المشجعة للموقف السياسي هناك. حيث لاحت بشائر الفرصة التاريخية أمام عبد الرحمن الذي ضاقت بطموحه رمال الشاطئ الأفريقي وهو يذرعهما تسكعاً في انتظار الخبر الموعود. وسرعان ما قفز بذلك الطموح إلى الضفة الأخرى من المضيق، لينزل ضيفاً على أبي عثمان الذي كان يستقبله في قرية طرش Torrox^(٢) على ساحل البيرة (ربيع الآخر ١٣٨ / أيلول ٧٥٥). ومضى خبر وصوله كالبرق والتّم حوله الأنصار يتدافعون وراء بعضهم، مأخوذين بشخصيته القوية وجراته النادرة، بعد أن وجدوا فيه طرازاً جديداً في الزعامة السياسية.

ولندع عبد الرحمن يغرس في الأرض الأسبانية قواعد سلطانه بثبات وعزم، ونلاحق أخبار الصميل والفهري في مطاردتهما ثوار سرقسطة من اليمينيين والبربر بزعامة عامر والحبّاب. فقد جرت مفاوضات بين جيش السلطة وبين الثوار الذين تردّدوا في اتخاذ قرار الحرب، بعد تقلص قوتهم وانخفاض عدد المقاتلين بينهم بالمقارنة مع الجيش الآخر. ومن جهته قبل الصميل القائد الفعلي لهذا الجيش بالمهادنة، شرط تسليم قادة الثوار الثلاثة عامر ووهب ابنه والحبّاب، ويبدو أنهم كانوا على ثقة بالفهري دون أن يخامرهم أدنى شك على مصيرهم، فسلموا أنفسهم إليه حيث أودعوا السجن^(٣).

وفي تلك الأثناء كان الباسك (البشكنس) سكان البريتيه، قد أعلنوا عصيانهم أيضاً في بنبلونة Panpulonga^(٤)، فارتأى الصميل - وقد وجدها فرصة

(١) راجع حوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٩٤.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٦.

(٣) أخبار مجموعة ص ٧٦.

(٤)

مناسبة للتخلص من خصومه - إرسال حملة عسكرية^(١) لتأديب التمردين، على أن تضم القواد الأسرى. واستجاب يوسف لرغبات الصميل طامعاً، غير أن القاء هذه الفرقة الصغيرة في شعاب البرينية الوعرة، كان ضرباً من المغامرة والاستخفاف. فلم تلبث أن ارتدت مذعورة بعد اشتباك سريع مع عصابات البشكنس، فاقدة قائدها وعدداً آخر من القتل، ولكن كان من الناجين الذي عادوا إلى سرقسطة عامر والحباب على خلاف ما انتهى الصميل، الذي كان قد اتخذ بشأنها القرار الأخير، عندما أمر بإعدامها دون تردد. ومرة أخرى يجد الفهري نفسه في مأزق الموافقة^(٢)، ولكن على حساب ضميره التعب، المثقل بجرائم حليفه المفروض عليه.

بهذه النفسية المنقبضة، تلقى يوسف الفهري أخباراً من زوجته في قرطبة، عن تحركات الأمير الأموي في منطقة البيرة^(٣)، فازداد انقباضاً ودخل هلعاً على الصميل الذي لا يزال تحت تأثير نشوة الانتقام من خصمه اللدودين. فظهر كعادته غير منفعل رغم خطورة النبأ، ولكنه في نفس الوقت لم يتأخر في التصرف واتخاذ القرار الحاسم: «فإما قتلناه وإما شردناه»^(٤). هكذا كان رأيه في الأمر وقد بت به سريعاً، ولكن الصميل نسي أن ثقته الكبيرة في نفسه قد تخونه هذه المرة، بعدما أوشكت تتخلل عنه وهو محاصر في سرقسطة. ولعله غاب عن باله أيضاً أن عشرة أعوام من الحرب والقتل، كافية لتحطيم القدرات المادية والمعنوية على كل الجبهات، فما بالنا بالجبهة الرئيسية التي كان يجرها الصميل وراء قراراته المزاجية، فإذا بها أشدّ تعباً وإذا بالجنود مرهقون ملولون.

وشاءت الظروف أن تلعب دورها لمصلحة الأمير الأموي، فلا القوة

(١) كانت الحملة بقيادة سليمان بن شهاب، أخبار مجموعة ص ٧٦.

(٢) أخبار مجموعة ص ٧٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه ص ٧٨.

العسكرية في يد السلطة جديدة بالقتال في حرب مضمونة، ولا الطبيعة سهلت عمليات التحرك والمواصلات بعد شتاء قارس وأمطار غزيرة غير مألوفة^(١).

وفي طريق العودة بهذا العدد الضئيل من المقاتلين إلى قرطبة، ظهرت بوادر الوهن في موقف يوسف الفهري، عندما أبدى استعداداه لمفاوضة الأمير الأموي بعد أن تنهى إلى أسماعه - ضمن مخطط دعائي هادف ومركز - أنه لا ينبغي من دخوله سوى الأمان والابتعاد عن ملاحقة العباسيين، فدخل في روع الفهري صحة هذا الزعم، ومضى في تفاوله إلى حد الاستعداد لإصهاره^(٢)، موفداً ثلاثة من كبار الحزب القيسي^(٣) يحملون أفكار سيدهم إلى طرش Torrox، حيث معسكر الأمير الأموي. وفي الطريق أظهر عناصر الوفد ذكاء لم يتوفر لسيدهم المتفائل، فتوقفوا حيناً في «أرش» على أطراف منطقة رية Reio السفلى، إلى الجنوب من قرطبة^(٤). وهناك أودعوا أحماهم من الأموال والهدايا النفيسة، قبل أن يتابعوا المسير إلى معسكر الأمير، فيكون تسليمها إليه مرهوناً بالموافقة على شروط الفهري^(٥).

وفي معسكر عبد الرحمن كانت الحركة ناشطة، من تجمعات للجند إلى وفود مبايعة، و«الحزب» اليميني سيد الموقف يعيش لحظات ما قبل الانتقام. وإذا كانت مبادرة قرطبة التي حملها الوفد القيسي قد لقيت الموقع الحسن لدى عبد الرحمن، لرؤيته لها من جانب واحد فقط هو اكتساب الوقت وإعطاء مهمته فرصاً أفضل، فإن «الحزب» اليميني كان يرى غير هذا الموقف ويستعجل معركة الانتقام بكل ما تعني إليه. ومن الواضح أن شبح الصميل مائل بمكره وراء هذه

(١) أخبار مجموعة ص ٧٩، لين بول، العرب في إسبانية ص ٥٤.

(٢) عرض عليه الزواج من ابنة الصغرى (أم موسى) وكانت أرملة قطن ابن الحاكم الأسبق. أخبار مجموعة ص ٧٩.

(٣) عبيد بن علي، خالد بن زيد، عيسى بن عبد الرحمن. المكان نفسه.

(٤) أخبار مجموعة ص ٨٠. الروض المطار ص ٧٩.

(٥) المكان نفسه.

المحاولة الاستدرجية، التي خبر الحزب اليمني مثيلاتها منذ زمن غير قصير. فإن صدقت نوايا الفهري، فمن الغباء عدم التشكيك بطوية الصميل، الذي يمتلك قدرة عجيبة على إخفاء ما يريد. وكان لا بد أن تتعرض المفاوضات، بعد أن فشل الوفد في الوصول إلى الغاية المطلوبة. وقيل إن تلاًساً^(١) وقع بين المتحدث باسم الوفد (خالد بن زيد) وبين أبي عثمان عبيد الله مساعد عبد الرحمن وزعيم طرش، أدى إلى مثل هذه النتيجة. غير أن ذلك لا يعدو أن يكون سبباً جانبياً لا قيمة له، في التأثير على مجرى المفاوضات التي كانت محاطة منذ البدء بأسوار الفشل.

وهكذا انتهت محاولة الفهري الساذجة إلى الإخفاق، ليكون بديلها الحرب، ومثلها كانت محاولة الصميل الذي اعتقد أنه بإعطاء الأمير الأموي قطاعين من الجند^(٢)، ينهي الأزمة ويحلم هذا الأخير على الرضى. ويدو أن الصميل، كان لا يزال غير مأخوذ بحجم الخطر الذي بدأ يقتحم جذور سلطته الممتدة لعشر سنوات خلت. ولم يشأ أن يتخل عن ثقته بنفسه التي أصبحت مظهراً من المكابرة، كلما شعر بأن الظروف لم تعد كما في الماضي، وأن رياح التغيير العاتية متجهة من الجنوب.

ومع بداية الربيع (٧٥٦/١٣٨)، كانت طلائع الجيش الذي التف حول عبد الرحمن، تغادر معسكره إلى أرشدونة^(٣) Archidona، وقد بلغت نحو ألفي فارس، حيث كانت أول مدينة تجهز بتأييدها العلني للأمير الأموي^(٤). وخرج منها ليلقى الترحاب في المدن الأخرى ويستقطب أجنادها (جند فلسطين في شذونة وجند حمص في أشبيلية)^(٥)، حتى أدرك الضفة الجنوبية من نهر الوادي

(١) أخبار مجموعة ص ٨١، ابن عذاري ج ٢ ص ٤٦.

(٢) جند الأردن ودمشق، ابن عذاري ج ٢ ص ٤٦ - ٤٧.

(٣)

Levi-Provençal, Hist 1.103

(٤) قاعدة أقليم (رية) Reiyo أخبار مجموعة ص ٨٥.

(٥) دوزي، تاريخ مسلمي إسبانية ٢١٠.

الكبير في حركة سريعة لبلوغ قرطبة، وذلك بعد أن وصلته معلومات عن خروج الفهري والصميل باتجاه أشبيلية لمقاومة زحفه. وكانت مبادرة ذكية من عبد الرحمن، الذي لم يشأ انتظار خصومه في أشبيلية، بل غادرها فوراً إلى قرطبة الفارغة تقريباً من قوتها الدفاعية، في عملية مداهمة سريعة نفذها تحت ستار الليل. فاضطرب الصميل والفهري لحظة الأمير وقد وقفا على أسرارها^(١)، وتراجعا مضطربين، ليكونا طرف السباق الآخر في الوصول إلى العاصمة. وهكذا امتد الجيشان على ضفة النهر، إلى الشمال عسكر جيش الصميل والفهري في المصاراة^(٢) Musara، وإلى الجنوب اتخذ عبد الرحمن معسكره في بابش^(٣). ومضت أيام يراقب أحدهما الآخر، وقرطبة عن كتب تراقب بدورها من يكون له الحظ في امتلاكها والسيطرة من خلالها على الأندلس. وفي الثالث عشر من أيار ٧٥٦/ التاسع من ذي الحجة ١٣٨ عشية عيد الأضحى^(٤)، دعا عبد الرحمن إلى مجلس حربي قبل أن يحسم الأمر، فإذا بأركانهم يجمعون على القتال رافضين لأي حل آخر، برغم أن المهمة لم تخل من المخاطرة. لقد كانت محاولة من القائد لامتحان كفاءة المقاتلين معه: «إن يكن فيكم جنوح إلى السلم فاعلموني»^(٥)، فلا يجحد غير الجنوح إلى الحرب والاندفاع نحو القتال. ولكن القائد البارع لا يحتاج إلى الشجاعة فقط، بل يجب أن يتمتع بذهن وقاد لاختطاف كل الفرص التي تساعد على تحقيق النصر. وإذا كان عبد الرحمن قد أوهم خصمه الفهري برغبته في المصالحة كمظهر من مظاهر الخدعة، فإن ذلك جازئ في الحرب ولا يتنافى مع أخلاقيات الفروسية كما هي بنظر بعض المؤرخين^(٦). وهي لم تكن أكثر من عملية استدراج لخصمه، كان أولى أن لا يقع في شركها لو كان يملك التقدير الجيد لقوة الأمير الأموي.

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦.

(٢) المكان نفسه

(٤) أخبار مجموعة ص ٨٧.

(٥) المكان نفسه.

(٦) لين بول، العرب في إسبانية ص ٥٤.

وفي صباح اليوم التالي، كانت الظروف مؤاتية للهجوم، ولم يكن النهر في هذا الوقت، وقد انخفضت مياهه، يعيق الهجوم الذي قرره عبد الرحمن ذلك اليوم. وبسرعة تحولت المعركة إلى المصاراة معسكر الفهري ورفيقه الصميل. وبنفس السرعة تمزق جيش الولاية المنهارة^(١) وألقى الفهري بقدمية، رغم الشيوخوخة، للريح ولاذ بطليطلة، بينما الصميل وقد سقط كل غروره في المعركة، أخذ طريق الحرب إلى جيان (إلى الشمال من غرناطة). ودخل عبد الرحمن قرطبة بعد القضاء على أسطورة الصميل، الذي طبع البلاد هذه السنوات بطابعه المزاجي وأغرقها في جحيم الاضطرابات، لتنتقل على الأندلس إشراقة أمل تمدها بحياة هادئة وتغذي شرايينها بدم جديد.

وإذا كانت المصاراة قد فتحت أبواب الحظ أمام الأمير الأموي الشاب، ليحتل عرش الإمارة في قرطبة، فإن الطريق إلى ذلك كان طويلاً وشاقاً. فهذا الرجل الذي سيعرف بـ «الداخل» في صفحات التاريخ، عبر إلى الأندلس مغامراً، لا يملك من الأعوان إلا القليل ومن السلاح غير الطموح والجرأة، ولذلك كان عليه منذ أن اقتحم قرطبة ظافراً، أن يبني لإمارته جهازاً بشرياً مطلق الولاء له على الصعيدين السياسي والعسكري. ومن هنا كان تركيزه الأساسي على الجيش، كونه الدعامة الأولى لتكريس حكمه وإعطائه الهيبة المفقودة في عصر الولاة. أما نواة هذا الجيش، فكانت تلك الفئة التي أوصلته إلى قرطبة حيث هو، ولكن في إطار خطة منظمة استصفي خلالها العناصر المخلصة واستبعد الانتهازيين المشكوك بولائهم. ولكي يكون أكثر حذراً نحو الأجهزة المحيطة به، والحذر طبيعته على كل حال، أعلن أن الأندلس مشرعة الأبواب أمام الملاحقين من الحكم العباسي. فتدفق الثقات منهم حيث وجدوا الأمان المنشود، ووجد فيهم الصخرة التي يتكئ عليها وسط هذا العباب. وكانت لديه الفرصة الطيبة لبدء عهداً جديداً بكل ملامحه، وهو السياسي الذكي والمتحرر من

(١) أخبار مجموعة ص ٨٩-٩٠.

عقد التعصب إلى حد كبير. واقترون ذلك بأفعاله حين فشل الحزب اليميني في استدراجه لإشباع رغباته الانتقامية، وأصر على عدم التعرض لجماعة المصاراة لا سيما عائلة الوالي المهزوم، وهي ممارسة جديدة لم تكن مألوفة في حروب الأندلس الداخلية^(١). لقد أراد عبد الرحمن إعلان عهد جديد بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وذلك لا يتم كما رأى إلا بالقضاء على رواسب التعصب وانتزاع عوامل البغضاء من المجتمع الأندلسي، الذي أراده متلاحماً وأن يكون هو الحاكم لجميع فئاته وليس لفئة واحدة.

فهنالك إذن عدة قضايا لا بد من معالجتها، مع الانتقال إلى دار الإمارة^(٢). الأولى كانت تنظيمية بحتة تتناول إصلاح الإدارة وتوحيد المجتمع الممزق وخلق جيش جديد تذوب فيه التناقضات القبلية، وقد أعطى هذا الأخير الأولوية الأولى في بناء الدولة كما سبق أن أشرنا. والثانية كانت داخلية أيضاً وهي مطاردة فلول الحاكم السابق الذي اعتصم في طليطلة، حيث كان يحكمها باسمه أحد الفهرين من أقاربه (هشام بن عروة الفهري)^(٣). ومن هناك اتصل بالصميل، الذي لم يعترف بعد بالهزيمة، وكان بدوره يخطط للعودة مجدداً إلى السلطة بمساعدة حزبه القيسي. أما الثالثة فهي خارجية تتمثل بعلاقته مع الخلافة العباسية، صاحبة النفوذ المبدئي في الأندلس، باعتبار أن ممتلكات دولة الأمويين الزائلة آلت إليها، ولا بد أن تحدد موقفها عاجلاً أم آجلاً من حركة الأمير الأموي الشاب الذي أفلت من سيفها. وهناك قضية أخيرة وهي العلاقة مع المسيحيين الفرنجة والأسبان، غير أنها لم تكن مطروحة حتى ذلك الحين بالحاح، فالخطر الحقيقي كان عملياً في المقام الأول وعباسياً في المقام الثاني.

وهكذا فإن سيادة عبد الرحمن بعد معركة المصاراة، لم تكن أبعد من قرطبة

(١) أخبار مجموعة ص ٩٠.

(٢)

(٣) أخبار مجموعة ص ٩٢.

وبعض المدن القليلة الأخرى التي أعلنت تأييدها واعترفت بأمارته، بينما الجزء الأكبر من الأندلس لا زال في قبضة القيسيين أو في موقف المتردد الذي لم يته بعد إلى اقتناع نهائي بشأن المتغيرات المستجدة. وما لبث الفهري الذي كان لا يزال متعلقاً بأمل العودة إلى الإمارة، أن تحرك مع أنصاره القيسيين إلى جيان لموافاة الصميل، الذي كان قد استنفر حلفاءه وحشدهم من مختلف المعسكرات الموالية له حتى ذلك الوقت، حيث كانت جيان على ما يبدو ترتبط بولاء خاص نحو الصميل، لذلك اختارها مركزاً لثورته المضادة. وتعزز هذا المركز بوصول الفهري وجماعته، حيث قام الاثنان بهجوم على حامية المدينة، وكان قائدها (الحصين بن الدجن)^(١) أول زعيم قيسي من عرب الأندلس يقف إلى جانب عبد الرحمن، يوم كانت دولته مجرد مشروع لم يخرج إلى النور، قبل تعيينه في وقت لاحق حاكماً على جيان^(٢). وبعد الثام القيسيين فيها من جماعة الصميل والفهري، أرغم الحصين على الانسحاب دون أي اشتباك^(٣)، لتصبح السيادة التامة في هذه المدينة إلى الزعيمين القيسيين، كما أرغم قائد الحامية^(٤) في البيرة على الفرار منها إلى الجبال المجاورة، تحت ضغط هذه الحركة.

ولم يعد من مجال للاستهانة بقوة الفهري وحليفه، والتهديد الذي يستهدف عاصمة الإمارة الغضة. فبادر عبد الرحمن إلى التحرك نحو معقل الثائرين في البيرة، قبل أن تضغط عليه عوامل أخرى من الخطر لم تغب عن باله، وقبل أن تتسع دائرة التمرد القيسي كلما ازداد اقتراباً من العاصمة. ولعل الزعيمين القيسيين راهنا على خروجه لاستعادة المدينة، فمكاد عبد الرحمن يغادر قرطبة، بعد أن عين مساعده أبا عثمان^(٥) قائداً لحاميتها، حتى تحرك من البيرة أحد أبناء

(١) أخبار مجموعة ص ٩٢.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) جابر بن العلاء بن شهاب، أخبار مجموعة ص ٩٢.

(٥) أخبار مجموعة ص ٩٢.

الفهري (أبو زيد) نحو قرطبة، متحاشياً سلوك الطريق نفسه المتوقع أن يفد منه الأمير الأموي. وكانت الخطة متقنة إلى حد ما، فحامية المدينة ضعيفة وغير قادرة على المقاومة الجدية، ولم يكن بدّ من الاستسلام ودخول أبي زيد إلى دار الإمارة واعتقال قائد الحامية أبي عثمان. ولكن القائد الفهري لم يمكث طويلاً هناك لخوفه من مدهامة عبد الرحمن له، وهو لم يكن على مسافة بعيدة كثيراً عن قرطبة. وتناهى إلى هذا الأخير ما صنعه الفهري الابن في عاصمته من انتهاك حرمة القصر وتصفيد لمعاونه الأثير^(١)، فاستبد به الغضب ولكنه لم يعدّل خطته، بل تابع سيره إلى البيرة حيث الخطر الحقيقي، حتى إذا بلغ قرية صغيرة تسمى أرملة Armilla^(٢)، على مقربة من معسكر القيسيين، غاب فجأة شيخ الحرب وحلت مكانه مفاوضات سلمية، بعد تقدير الصميل بأن الحظ سيخونه مرة أخرى وذلك لافتقاد التوازن بينه وبين خصمه القوي. فانتهى الأمر إلى الإنفاق بين الطرفين (٧٥٧/١٤٠)^(٣)، تعهد فيه الأمير الحاكم بأن يمنح خصومه العفو وعدم التعرض لأسرهم أو ممتلكاتهم بسوء، مع اشتراط واحد أن يأخذ معه إلى قرطبة اثنين من أبناء يوسف الفهري كرهيتين لضمان حسن النوايا لدى الطرف الآخر^(٤). كما عاد معه الزعيمان القيسيان يوسف والصميل ليكونا تحت مراقبته، بعد ارقضاض المقاتلين كل في سبيله^(٥). وكان عبد الرحمن وفياً لما تعهد بتنفيذه، فلم يخرج في تعامله مع خصومه عن الخط العام الذي رسمه لسياسته، في تقريب المسافة بين التيارات المختلفة إلى أقصى حدود التقارب.

ودخلت سياسة الوفاق إلى قلوب الناس التي أدمتها مسلسلات الحروب الطويلة، فأن لها أن تأخذ قسطها من الاستقرار بعد أن حُرمت طويلاً هادئي

(١) أخبار مجموعة ص ٩٢-٩٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٣.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه ص ٩٤.

(٥) المصدر نفسه ص ٩٥.

العيش. ولكن لوثة الزعامة تطارد الفهري المعجوز، فيتململ من واقعه الذي لم يألفه منذ زمن بعيد ويرفض هذا النمط من الحياة، برغم إغداق الأمير عليه ما يوفر له سبل العيش الكريم والمقام الذي يليق به كحاكم سابق. وفجأة يفتقده البيت الذي أنزل فيه بعد عام من ثورته الأخيرة (٧٥٨/١٤١)، ويجري البحث عنه، فإذا هو في ماردة Marida^(١)، مدفوعاً إلى محاولة جديدة، تحت تحريض عدد من أنصاره المقامرين. ومن هناك - لأول مرة دون الصميل - يخوض معركة النهاية مع الرجل الذي سحب من تحته كرسي الإمارة. وتشير المصادر إلى أن تأييداً كبيراً لقيه في هذه المدينة وجوارها، قبل أن ينتهي إلى محاصرة اشبيلية^(٢)، ويناجز من هناك أمير قرطبة الأموي. وكانت ردة الفعل لدى هذا الأخير عنيفة جداً، فنار الحبر اختفأ الفهري وخرقه لشروط المعاهدة. وانعكست حالته النفسية بعيد ذلك على قراراته السريعة، بقتل ابني يوسف المرتنين لديه، والتضييق على الصميل لانهامه بأن له طرفاً في حركة الفهري، فألقاه في السجن^(٣)، ليرى ما بشأنه بعد الفراغ من رفيقه الذي كظم له في صدره كل الغيظ.

وكان الفهري حينذاك قد تخلص عن حصار اشبيلية، ليمضي مباشرة إلى قرطبة. فهو لم يشأ تبديد الوقت - حسب اعتقاده - في حصار مدينة ليس في حاميتها إلا القليل من الجند^(٤). ولكن هذه المدينة قدّر لها أن تمارس دورها الخطير في إحباط عصيان الفهري، حيث أتيح لحاكمها^(٥)، وهو أموي من أسرة عبد الرحمن، أن يستقبل قوات جديدة^(٦) بعيد ارتفاع الحصار عنها، وأن يضع الفهري المعجوز بين فكي الذئب. فسار في أعقابها، في وقت كان عبد الرحمن

(١) أخبار مجموعة ص ٩٦.

(٢) جاء في أخبار مجموعة أن ما يزيد على عشرين ألفاً قد اجتمعوا إلى الفهري ص ٩٦-٩٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٩٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٩٧.

(٥) عبد الملك بن عمر الرواني المصدر نفسه ص ٩٦.

(٦) عبد الله بن عبد الملك، أخبار مجموعة ص ٨٧، Levi-Provençal 1, 108.

يتنظرو في مكان غير بعيد عن العاصمة (برج أسامة)^(١). فاضطرب يوسف حين رأى الغبار يرتفع وراء فرسان حاكم أشبيلية الرواني وتساقلت قدماءه، ولم يجرؤ على متابعة الطريق إلى قرطبة. ثم انكفأ إلى الورااء للتخلص من مطاردة الرواني، وكان واثقاً من النصر لتفوق جيشه، قبل أن يتفرغ إلى جيش قرطبة الرئيسي، وحتى لا يقع فريسة للجيشين معاً. غير أن المعركة اقتضت على مشهد استعراض قصير من الفروسية، انتهى بفرار الجيش الفهري الكثيف العدد وتبعثره في عدة اتجاهات، دون أن تكون مقدمة الجيش الذي قاده عبد الرحمن قد ابتعدت كثيراً عن قرطبة. ولعل افتقاد القيسيين لتلك الفرص العديدة كان من أسبابه، الإنهاك الشديد الذي أصاب عناصرهم القتالية خلال فترة طويلة مشحونة بالحروب المتواصلة. فكانوا يتجرون إليها طائعين أو كارهين، وكانت مصائرهم معلقة بيد رجلين: أحدهما (الصميل) مزاجي غامض، والآخر (الفهري) مريض بالسلطة لم يملك منها سوى الاسم، ولكنها متفقان في النزعة إلى الحكم، غير عابئين بأهواله ولا بالدماء المهرقة على عبياته. إنه مفهوم «الحزب» القيسي للسلطة، الحزب المضطهد في أغلب مراحل الخلافة الأموية، حيث يبقى أسير ذهنيته العصبية المغلقة، ويعيش على الدوام ذكريات «مرج راهط» رمز الصراع على النفوذ ضد القبائل اليمنية.

وعاد الفهري يبحث عن مأمن يتوارى فيه، فلم يجد غير طليطلة التي اعتاد الهروب إليها، دون أن يكتب له بلوغ غايته هذه المرة. وإذا هو على مشارفها، وصلت أخباره إلى أحد رجال الأمير الأموي^(٢) وهو في قرية مجاورة، فطارده مع جماعة مسلحة وتمكن من قتله، وذلك على مسافة أميال قليلة من المدينة، وأرسل رأسه إلى الأمير في قرطبة، الذي كان هو الآخر يقضي على الصميل خنقاً، ويقوم بتصفية من هادنهم من رجال الحكم السابق (٧٥٩/١٤٢ - ٧٦٠) (٣).

(١) أخبار مجموعة ص ٩٧.

(٢) عبد الله بن عمر الأنصاري، المصدر نفسه ص ٩٩.

(٣)

وتكررت عملية قطع الرؤوس، وأخذت سياسة الحاكم الجديد تصطبغ بلون الدم، بعد أن عزف عن خطه السياسي الذي بدأ به مسيرته في الأندلس. فقد أدرك أن إمارته السابحة في محيط من الخصوم والعداوات، لن يكتب لها البقاء وسيفه في الغمد لا يتحرك، فاستل هذا السيف وقليلًا ما أعاده، وإن أسرف في القتل فقد وُجد من المؤرخين من سَوَّغ له ذلك كسبيل لا مفر منه. ذلك أن الأخطار التي داهمت منذ أن عبر إلى السلطة في قرطبة، كانت أقوى بكثير من أن يحمل ثقلها رجل واحد، مهما بلغت به القدرة والشجاعة، فكان على الأمير الأموي أن يثبت في وجه العواصف ولا يلين.

وما كاد يلتقط أنفاسه بعد مصرع الفهري والصميل ويقضي على أخطر عدوين في الداخل، حتى وجد أن الانتقال من مرحلة السلطة المحلية في قرطبة إلى السيادة الكاملة على الأندلس، ما زال يحاط بالألغام، وإن سنوات أخرى شاقة تنتظره قبل أن يبلغ الهدف الذي يريد. فبعد هدوء لم يتجاوز العام كثيراً منذ القضاء على ثورة القيسيين الأخيرة، أعلن الثورة في طليطلة أحد زعماء القيسية من الفرع الفهري نفسه، هو هشام بن عروة^(١)، حيث كانت المدينة رغم تعيين حاكم لها، تعج بالانصار الفهريين وفئات أخرى من الحزب القيسي. ويبدو أن هشاماً حاول الاستفادة من الظروف السياسية، في وقت بدأت خلافة العباسيين تتجه بأنظارها إلى الأندلس، بعد أن ظلت وحدها خارج دائرة نفوذ الخلافة. ولكن أمير قرطبة الأموي، كان يُحسّن دائماً توقيت المعارك مع خصومه، ويكون لمعامل المفاجأة المحل الأول فيها. فما كادت أخبار طليطلة تنتهي إليه حتى كان الأمير يشق نحوها الطريق، ويأخذ الفهري المتمرد على حين غرة، فلا يجد الأخير غير الاستسلام مفرأ، وعرض الصلح على الأمير مقابل رهينة من أولاده^(٢). وقبل عبد الرحمن ذلك دون مناقشة، حيث كان يستعجل العودة إلى قرطبة في تلك الأجواء المنذرة بشيء ما تعده الخلافة العباسية، فكان عليه أن

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١: ورد اسم أبيه في عدة أشكال أخرى (غزرة وعذرة وعبد ربه).

(٢) المكان نفسه.

يتربقب الأمور بحيلة وحذر. ولكن الثائر الفهري لا يقنع بالمغامرة الفاشلة التي أجهضت في طليطلة ودفع ثمنها ارتهان أحد أبنائه، فارتكب بعد رجوع الأمير إلى قرطبة غلطة يوسف الفهري زعيم أسرته المقتول، حيث عاد إلى عصيانه دون أن يأبه للتجربة المرة. وبفس السرعة، إنكفاً عبد الرحمن إلى طليطلة لينهي حساب الفهري العنيد، فحاصر مجدداً المدينة وأعدم الابن الرهينة، وقيل إنه قذف رأسه المقطوع بمنجنيق إليها^(١). ولكن اشتداد القلق بشأن التحركات العباسية، دعاه إلى عدم الإطالة في الحصار، والإنسحاب إلى قرطبة دون أن ينال من الثائر المعتصم في طليطلة.

وكانت انتفاضات أخرى في وجه عبد الرحمن قد شهدتها الأندلس في ذلك الحين، كتلك التي انفجرت في اشبيلية حيث انتهت إليها فلول القيسيين بعد مقتل يوسف الفهري، وأعلنت الثورة ضد أمير قرطبة. ولحققتها بعد حين ثورة أخرى، ولكنها بزعامة اليمينيين هذه المرة^(٢)، فكان ذلك بداية الافتراق بين هؤلاء وبين الأمير الأموي. غير أن خلافه مع الحزب اليميني، الذي ربما اعتقد أن باستطاعته احتواء هذا الأمير وتسخيره لمصلحته السياسية والقبلية، لم يكن له تأثير كبير على موقع الأمير الذي استطاع خلال السنوات القليلة الماضية إنشاء قوة ذاتية، كانت تملك القدرة على إحباط كل الحركات المحلية. كذلك وضع في حسابه أن معارضة الحزبين القيسي واليميني لنظامه لن يؤدي، ضمن أجواء العداء المستحكمة بينهما، إلى أي نوع من أنواع التحالف الجدي ضد قرطبة، تلك هي نقطة الضعف التي استفاد منها عبد الرحمن وأحسن استغلالها إلى حد كبير.

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١.

(٢) كانت الثورة بزعامة القاسم بن يوسف أحد زعماء طليطلة القيسيين ورزق بن النعمان زعيم الجزيرة الخضراء وهو قيسي أيضاً، كما قامت ثورة في اشبيلية بقيادة زعيم اليمينية عبد الغافر اليماني.

راجع عنان، دولة الإسلام في الأندلس ص ١٦.

غير أن رياح الخطر المقلقة لا تهب فقط على أمير قرطبة من الداخل، حيث استوعب كل التيارات فيها، ولكن هبوبها الشديد يأتي من بغداد عاصمة الخلافة العباسية. فهناك القوة العظمى - إذا توفرت الظروف - التي يمكن أن تطيح به وتنسف كل جهوده. وكان في بغداد يومذاك أخطر الخلفاء العباسيين قاطبة وأشدّهم دهاءً وعناداً في تسويق الوسيلة من أجل الغاية، دون أن يعبأ بالمثاليات في السياسة أو يهتم بالعلاقات الخاصة^(١). إنه الخليفة «المنصور» الذي اعتبر أن حسابه مع «الداخل» قد حان وقته، بعد أن أنجز تصفية خصومه السياسيين في المشرق^(٢). ولكن المهمة - مع تحفّز المنصور لها - كانت عسيرة إلى حد كبير، فخصمه الأموي كان يتمتع بحصانة البعد الجغرافي عن مركز الخلافة، التي ابتعدت بدورها إلى الشرق، إلا أن الخليفة الذي تخلّص من رجل الثورة العباسية الخطير أبي مسلم الخراساني، بطريقة مبتكرة وفريدة^(٣)، لم يعدم وسيلة في أخذ الأمير الأموي المتمرد^(٤) على خلافة بغداد بالشدة نفسها. فاتصل سراً بأحد الزعماء العرب وكان قائداً لحامية باجة Beja^(٥)، هو العلاء بن مغيث اليحصبي، من قبيلة جذام اليمنية^(٦)، من أجل تصفية خصمه البعيد (٧٦٣/١٤٦). وكانت مهمته دقيقة للغاية، وهي لا تختلف كثيراً في إطارها السياسي عن المهمة التي كان بطلها أبو مسلم في خراسان عشية سقوط الدولة الأموية، من حيث تركيزه على حزب الأغلبية من اليمنيين الذين بدأوا يضيّقون بـ «الداخل» بعد أن خذلهم في تحقيق ما يريدون من السيادة. كما أن العلاء، لم يكن بانزوائه في تلك المدينة البعيدة، لئلا يشكوك أحد في تحركاته التأميرية، لقلب

(١) أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون ج ١ ص ٩٢-٩٣.

(٢) راجع فاروق عمر، العباسيون الأوائل ج ١ ص ١٧٨ وما بعدها.

(٣) عصر المأمون ج ١ ص ٩٨-٩٩.

(٤)

(٥) إلى الجنوب الغربي من الأندلس (في البرتغال حالياً).

(٦) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٣.

النظام الأموي في الأندلس والجلوس على كرسي الإمارة باسم العباسيين، وهو الثمن الذي وُعد به^(١).

وبعد نحو عام من الانصالات الخفية، مع اليمينين بصورة خاصة، ارتفعت الأعلام السوداء^(٢) في باجة معلنة الثورة على أمير قرطبة (١٤٧ هـ). فكان الفهريون (الحزب القيسي) وهم أكثر المتضررين من الحكم الجديد، أول من تعاطف مع ثورة العلاء، الذي غادر منطقة باجة وهي تضطرم بالثورة، واتجه نحو اشبيلية، لتصبح مركز الثوار اليمينيين ومن اجتمع اليهم من الفهريين، موجدة بينهم العدواة المشتركة للأمير الأموي. وكانت هذه المدينة منذ افتتاح الأندلس، تحتل دائماً دور المنافس لقرطبة، حيث ساعدها موقعها الوسطي على أن تكون مسرحاً لمعظم الحركات الثورية التي شهدتها هذه البلاد.

وكان عبد الرحمن قد عاد لتوه من طليطلة، حيث كانت بدورها مسرحاً آخر لثورة قيسية بزعامة الفهريين كما سبقت الإشارة. فما كادت تصله أخبار العلاء - ولم يكن بعيداً عن مراقبته قبل ذلك - حتى أمر مساعده بدر بالخروج إلى شذونة، التي انضمت في وقت سابق إلى العلاء^(٣)، لاستدراج الثوار إلى معركة جانبية يكون خلالها الأمير الأموي قد أنجز ترتيباته وانقضّ عليهم من الخلف. ونجح بدر في مهمته نسبياً، فأخضع المدينة وعقد صلحاً مع قائدها المتمرد^(٤)، ولكن من دون صدام مع جيش الثورة الرئيسي، تاركاً هذه المهمة لسيده. وكان الأخير قد غادر قرطبة بمن جمعه من مقاتلين أشداء، أعدّهم لهذه العملية الخطيرة، غير أن كثافتهم لم تصل إلى مستوى الثوار المتفوقين في العدد، مما اضطره إلى التراجع أمامهم إلى قرمونة Carmona، إحدى المدن الحصينة الواقعة إلى الشرق من اشبيلية^(٥)، حيث بقي محاصراً نحو الشهرين، تضغط

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٤.

(٢) شعار الثورة العباسية. أخبار مجموعة ص ١٠٢.

(٣) المكان نفسه.

(٤) غياث بن علقمة، أخبار مجموعة ص ١٠٢.

(٥) الروض المعطار ص ١٥٨.

عليه هجمات العلاء العنيفة والمتكررة. وكانت غنة قاسية، لم يتعرض لثلثها الأمير الأموي منذ قيام دولته في الأندلس وكذلك جنوده الذين عانوا الكثير، ولكن دون أن بدعهم يفقدون الشجاعة أو يستسلمون إلى اليأس. وهنا تظهر موهبة القائد الفذ في أصعب المحن، محتفظاً بأعصابه الفولاذية ومالكاً حدة الرؤية وسرعة المبادرة. فيقرر أخيراً ساعة الحسم، بعد أن وضع جنوده في جو العملية «الانتحارية» التي آن أوان تنفيذها^(١) والخروج من الحصار. فإذا بالمدينة يفتح بابها فجأة على سبعمئة رجل، على رأسهم عبد الرحمن، متدفقين كسيل مجنون، لا يرون أمامهم سوى لمعة السيوف، ويمزقون الثوار شر تمزيق^(٢)، ويقتلون العلاء الذي أدرسته سيوف الأمويين بالقرب من اشبيلية، وهو يحاول الفرار ومعه عدد كبير من أصحابه^(٣).

ولكن «المسرحية» لم تنته بانتهاه البطل، الذي اختارته الدولة العباسية لانتزاع الأندلس من الأمويين وادخالها في عصمتها. فثمة فصل مثير لا يخلو رغم المأساة من طرافة وسخرية، تفتق عنه ذهن الأمير الوقاد، عندما أمر بجمع رؤوس القتلى من البارزين في الثورة المجهضة وبينهم العلاء بن مغيث، وتعليق بطاقة في أذن كل منها تحمل اسم المقتول وإرسالها في كيس، ثم طرحه ليلاً في إحدى طرقات القيروان^(٤)، حتى إذا وصل الخبر إلى مسامع المنصور، ذهل من جرأة الأمير الأموي وصرخ بعد أن بلغ به الغضب حداً: «الحمد لله الذي جعل بيني وبين هذا الشيطان بحرأه»^(٥)، حسب الرواية التاريخية. وسواء تفوّه المنصور بهذه العبارة، أم أنها من صنع المؤرخين، فلا شك أن العملية كانت أكثر ابتكاراً من عمليات المنصور وتفوقاً عليها، منقلباً عليه ما خطط له. وكانت طريقة قطع

(١) راجع دوزي، تاريخ مسلمي إسبانية ص ٢٢٢.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠٣.

(٣) المكان نفسه.

(٤) أخبار مجموعة ص ١٠٣، كانت ولاية إفريقية قد آلت إلى الدولة العباسية.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٣ - ٥٥.

الرؤوس وارسالها إلى الخلفاء، معروفة في عهد الأمويين، غير أنها كانت رؤوس الأعداء المهزومين وليس العكس. ولعل حادثة العلاء المأساوية قد أفهمت الخليفة العباسي العنيد، أن أمير الأندلس الأموي طراز آخر من الرجال، ليس من السهولة أخذه. وكانت هذه التجربة كافية - بالنسبة إليه على الأقل - لأن يطوي مشروع الأندلس ويقنع بالمحاولة الأولى، فلا يعود إلى تكرارها. ويظفر منه الأمير الأموي حسب ما يذكره ابن الخطيب، باللقب الذي غلب عليه، وهو «صقر قریش» تقديراً منه لكفاءة خصمه وشجاعته النادرة^(١).

وبانتهاه عبد الرحمن من تصفية جيوب الانقلاب العباسي في الأندلس، بادر إلى ارسال معاونه (بدر) على رأس قوة إلى طليطلة للقضاء على ثورة الفهريين فيها. ولم تكن المهمة صعبة هذه المرة، حيث كان لدى السلطة من القوة ومن الوقت ما يجعلانها تسحق الثورة في غاية السهولة، وتحمل زعيمها الفهري على الاستسلام، ليلقى مع أصحابه في قرطبة المصير المنتظر، الذي لم يعد مصير غيره ينتظر هؤلاء المتمردين^(٢).

ومضى شريط العصيان دون توقف، وعاد اليمينيون المتحفزون دائماً إلى أن تكون السلطة في يدهم، إلى إضرام نار الثورة في مدينة لبلبة^(٣) Liebla (٧٦٦/٤٩)، بعد سنتين من انقلابهم الفاشل الذي قاموا به تحت غطاء التأييد العباسي، وذلك بزعامة سعيد اليحصبي الملقب بالمطري^(٤). وكانت اشبيلية كعادتها المحطة المباشرة للثورة، فاستولى عليها المطري وطرد حاكمها المرواني عبد الملك بن عمر، الذي لم يستطع بحاميته المتواضعة ردّ الثائر عن مدينته. فخرج منها طالباً الامدادات من قرطبة. بينما غادر المطري اشبيلية إلى قلعة^(٥)

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٩. أخبار مجموعة ص ١١٨.

(٢) قتلوا وصلبوا بأمر من عبد الرحمن، أخبار مجموعة ص ١٠٥.

(٣) تقع في غرب الأندلس، الروض المعمار ص ١٦٨، أخبار مجموعة ص ١٠٥.

(٤) أخبار مجموعة ص ١٠٥.

(٥) قلعة رغو، المكان نفسه.

مجاورة لها واتخذها معسكراً يعتصم فيه . وفي تلك الأثناء كان حاكم شذونة قد انتهز المناسبة وخلع سيادة قرطبة، فجاء عبد الرحمن لإحباط ثورة المطرّي واستعادة اشبيلية، حيث لم يصمد هذا الأخير طويلاً، وما لبث أن سقط في معركة عنيفة انتهت بسحق الثورة ومقتل قائدها، لينضم رأسه إلى مجموعة الرؤوس المقطوعة التي أصبحت تقليداً متبعاً في ذلك الحين. وعلى الرغم من تدرج الرؤوس، لا تتوقف الحركات المعادية لحكم الأمير الأموي الشاب، حيث الجشع إلى السلطة كان يتلغ الخوف من العقاب. فتنة يمني آخر ويحصي^(١) أيضاً يدعى أبو الصباح، يشق عصا الطاعة في نفس السنة التي ثار فيها قريه المطرّي. وكانت اشبيلية مسرحاً لهذه الثورة وسبباً لها في نفس الوقت، تلك المدينة التي ارتبط اسمها بأبي الصباح الذي كان حاكماً عليها^(٢)، قبل أن يعزله عبد الرحمن ويعين قريه المرواني مكانه. ولعلنا نذكر موقف أبي الصباح المؤيد للحاكم الأموي، منذ أن قديم إلى الأندلس، لذلك لم يغفر للأخير هذا القرار قثار عليه. ولا بد أن يكون عزل الأمير الأموي لحليفه أبي الصباح مظهرًا من مظاهر عدم الثقة والتشكيك بإخلاص عرب الأندلس بصورة عامة واليمنيين على الأخص، إذ لم يطل الوقت حتى اكتشف عبد الرحمن أبعاد تحالفهم الانتهازي معه. وكانت الشكوك قد أحاطت بالحليف اليمني السابق منذ موقعة المصارة، مما حمل عبد الرحمن على النفور من سلوكه وعدم التعاون معه في وقت لاحق^(٣).

والواقع أن أبا الصباح كزعيم يمني بارز، كان أكبر حجماً من قريه (المطرّي) وأشد خطراً منه، تساعده على ذلك شجاعة وقوة بدنية نادرة. وكان مركزه القوي وراء تردد عبد الرحمن في مجابهته، قبل أن تنهيا له فرصة مناسبة. غير أن هذا الواقع لم يطل كثيراً لأن الأمير الأموي كان يمتلك دائماً المبادرة الذكية والسريعة، عازماً على التخلص من خصمه بطريقة جديدة وسهلة، حين أخذ

(١) يحيى اليحصبي، أخبار مجموعة ص ١٠٥، Levi-Provençal: Hist 1.111.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠٥.

(٣) ابن القوطية ص ٣٠، فتح الطيب ج ٢ ص ٦٦.

يراوغه ويستحثه على القدوم إلى قرطبة ليلقاه على السعة والترحاب، موحياً له بأن العلاقة الحميمة بينهما ثابتة راسخة. وبعد لأي استجاب الزعيم اليميني لدعوة الأمير، ولكن دون أن يتخلى عن شكوكه بما ينتظره وراء هذه الزيارة، عندما اصطحب أربعمائة من فرسانه كإجراء احتياطي^(١). غير أن الحذر والاحتراز، لم يمنعه من الانزلاق أخيراً إلى الموقف الذي تمناه عبد الرحمن بفارغ الصبر. فما كاد يدخل إليه وكان وحيداً، بعد أن ظلّ فرسانه خارج القصر، حتى انقض عليه بكل حقه، ملتصقاً بطريقة الخليفة المنصور مع أبي مسلم الخراساني، حيث تخلص من زعيم خطير، دون أدنى ضجة وبأقل الجهد^(٢).

هل انتهى ذلك المسلسل الدموي من حركات التمرد في إمارة عبد الرحمن، بالقضاء على عصيان أبي الصباح؟ أم أن فصولاً أخرى تنتظر دورها فوق هذا المسرح الساخن؟. ذلك أن قدر هذه الأرض منذ أن ارتبطت بالسيادة العربية، أن تنبت الثورات المحمومة وتستسقي أنهر الدماء وتغرق بجنون الحقد حتى الإفناء. فلم تمر سوى أعوام ثلاثة على آخر ثورة يمنية - وكان عبد الرحمن قد حقق نجاحاً في تطويع القبائل العربية من الحزبين، بعد اعترافها بالفشل والهزيمة - دخل البربر دائرة الصراع على السلطة، لأول مرة منذ الضربة الأليمة التي نزلت بهم في معركة طليطلة (٧٤١ م)، قبل نحو ربع قرن تقريباً. فأعلنوا الثورة على نظام قرطبة الأموي (١٥٢ هـ) في مقاطعة (شتبرية)^(٣) Santaver أو Santebria اسمها الحالي، وهي تقع إلى الشرق من وادي الحجارة في إقليم أراغون^(٤). ومن المعروف أن أغلبية من قبائل البربر، كانت تقيم في هذه النواحي الشمالية، خاصة مكناسة التي تصدرت الثورة، وكان منها القائل

(١) أخبار مجموعة ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) قيل أن عبد الرحمن أراد قتل أبي الصباح بيده ولكنه اكتشف أنه أكثر قوة منه فاستعان بحرمه الذين انقضوا عليه بالخناجر. أخبار مجموعة ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) وردت ستمرية في الروض المعطار ص ١٤٤.

(٤) الروض المعطار ص ١١٤.

(شكيا) Shakaya^(١) الذي تحيطه الروايات التاريخية بإطار من الشعوذة والمراوغة. وكان قد عرف معلماً للصبيان وبثقافته القرآنية، قبل أن يستغل ذلك لأهدافه الشخصية، فيزعم أنه فاطمي من أسرة النبي. وغلب عليه هذا الاسم بين جماعته البسطاء الذين أقنعوا بزعمه وأصبح «الفاطمي» اسمه المتداول^(٢). فبعد استيلائه على شنتبرية هجم على ماردة والمدن الأخرى الواقعة إلى الغرب منها^(٣)، ومد سيطرته جنوباً حتى نهر تاجة Tago. وتناهت أخبار ثورة الفاطمي إلى مسامع الأمير الأموي في قرطبة، فأرسل أحد قواده^(٤) لقمعها، ولكنه تراجع مهزوماً، مما دفعه إلى القيام بنفسه لإيقاف هذه الحركة الخطيرة واجتياح تلك المناطق التي حملت لواء العصيان، مطارداً الفاطمي المزعوم. غير أن الأمور مع هذا الأخير لا تسير في اتجاه الحسم، وذلك لتغلغله في شعاب تلك المنطقة ووديانها الوعرة، وللحاجة الملحة أن يكون في عاصمته، بعد أن وصله تقرير من مساعده بدر، بأن ثورة أخرى قد انفجرت في أشبيلية تحت شعار الشار لأبي الصباح^(٥). فعاد إلى قرطبة في الوقت الذي غادرها بدر لمتابعة القتال، ولكنه فشل أيضاً في النيل من الفاطمي وجماعته المحصنين في تلك المنطقة الصعبة. فاستأنف المهمة قائد آخر (عبيد الله بن عثمان) كان أسوأ حظاً من سلفه، حيث أوقع به الفاطمي هزيمة كادت تقضي عليه (١٥٥ هـ).

ولم يجد عبد الرحمن بدأً من العودة بنفسه لقمع ثورة شنتبرية، بعد فشل قواده في تحقيق ذلك، وكان قد انتهى من ثورة أشبيلية^(٦)، فجاء بقوة كبيرة، ولكن دون أن يحمل مناوراته التي برع فيها، مستهدفاً تمزيق وحدة البربر في الوقت الذي يشن عليهم الحرب. وقد حالفه النجاح عندما اجتذب أحد

(١) Levi — Provençal Hist 1.111 أخبار مجموعة ص ١٠٧.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٠٧.

(٣) قورية ومدلين. أخبار مجموعة ص ١٠٧ : 1.113 Levi — Provençal Hist.

(٤) سليمان بن عثمان.

(٥) قامت الثورة بقيادة حيوة بن ملامس الحضرمي وعبد الغافر الجحفي. أخبار مجموعة ص ١٠٧.

(٦) أخبار مجموعة ص ١٠٨.

زعمائهم (هلال الميديوني)^(١)، ليضعه في موضع النُدُّ للفاطمي، بعد أن وعده بولاية شنتيرية. ولكن الظروف - رغم ذلك - حالت مرة ثانية دون إخماد ثورة البربر، بسبب هجوم الأمير في قرطبة. والواقع أن التأثير الفاطمي كان على جانب من المهارة القيادية وإتقان لـ «حرب العصابات»، بحيث كان يتحاشى الصدام المباشر مع قوات السلطة، مؤثراً استعمال الهجمات السريعة ثم الاختفاء في كهوف الجبال. وظل الفاطمي بثورته الخطيرة هاجس الإمارة الأموية في الأندلس حتى سنة (٧٧٦/١٦٠)، عندما تفرغت لقتاله حملة عسكرية ضخمة بقيادة عبيد الله بن عثمان وتمام بن علقمة، ونجحت أخيراً في سحق حركته بعد تدبير اغتيال متقن للفاطمي، كان لها من النتائج السلبية على جماعته ما أرادت، منهيةً بذلك أخطر ثورة في تاريخ الأندلس حتى ذلك الحين^(٢).

العلاقات مع الإسبان بعد إخماد ثورة شنتيرية التي كلفت عشر سنوات من الكفاح والحملات المتواصلة، كان الأمير الأموي عبد الرحمن قد سلخ من حياته الأندلسية أكثر من عشرين عاماً (٧٥٥ - ٧٧٦) في حروب داخلية، لم تدع له من الفرص إلا قليلها للاهتمام بشؤون ما يتخطى هذه الدائرة، وما يتطلبه بناء دولة فتية خارجة من بين وميض السيف، حتى غدت الحرب صفته الأولى، تُفرض عليه وتطبعه بالقسوة والعنف، والتشكيك بكل الناس حتى أقرب المخلصين. وإذا كانت الثورات الداخلية التي استهدفتها من عرب الأندلس بمختلف انتماءاتهم القبلية، قد أخذت من وقته هذه السنوات الطويلة، حتى فاز بالتحدي وانتزع النصر من خصومه المحليين، فإن الثمن كان باهظاً لم يتناول فقط سياسته الإصلاحية التي اختصر منها الكثير، ولكنه انعكس بشكل خاص على السياسة الخارجية التي لقيت الإهمال، مما أتيح لأعدائه المجاورين من بقايا الدولة القوطية، الذين اعتصموا في المناطق الصخرية في الشمال الغربي من إسبانية، أن يصنعوا من هناك نواة الفكرة الوطنية لاستعادة الأرض وتحريرها من

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) أخبار مجموعة ص ١١١.

العرب المسلمين. فإذا بهم قوة تأخذ طريقها إلى النمو في زحمة التطاحن السياسي بين العرب، وتزداد توسعاً على حساب حكومة قرطبة الأموية المنهكة.

وكانت مملكة أستورياس أو أستورقة المجاورة لجليقية، أخطر هذه التجمعات الإسبانية المناوئة للعرب، وكان ملكها فرويلة ^(١) Fruela معاصراً لعبد الرحمن الأول، ويوصف بأنه قوي الشكيمة ورائد سياسة التوسع الجدية في تلك المنطقة. ولا يستبعد أن يكون فرويلة قد قام بسلسلة من الهجمات في المنطقة الشمالية الغربية، لا سيما في كورونيا ^(٢) Coruna، حيث ينفرد المؤرخون الأوروبيون بالإسهاب في وصف هذه الهجمات وما نتج عنها من خسائر جسيمة في صفوف العرب المسلمين، وربما كان الأمير عمر أحد أبناء عبد الرحمن، بين آلاف القتلى حسب تعبيرهم ^(٣). ولكن المستغرب أن لا تشير مصادر العرب إلى هذه الحادثة التي تبدو عرضة للشك، بينما أشارت إلى حملة تأديبية أرسلها الأمير الأموي إلى أستورياس وانتدب لقيادتها مساعده بدر (١٥٠ / ٧٦٧)، أي قبل عام واحد من قيام ثورة الفاطمي في شنتيرية. فتوغلت في هذه المناطق حتى ألبه Alava وحقت قدراً من النجاح، بفرض السيادة العربية عليها وإلزام سكانها بدفع الضرائب المطلوبة ^(٤).

ويبدو أن حملة بدر كانت ذات أثر بعيد على العلاقة بين إمارة قرطبة ومملكة أستورياس، التي لم تجد فائدة من مقاومة حكم الأمير القوي، القادر على التحرك بسرعة وسحق الحركات المعارضة. كما كانت كافية لإبعاد هذه المملكة عن مواجهة العرب وتوقيف نشاطها التوسعي إلى حين. فسادت فترة خيم فيها السلام على الدولتين الأموية والإسبانية، لا سيما في عهد الملوك الثلاثة

(١) Levi-Provençal, 1.115

(٢) Ibid.

(٣) Op. Cit. 1.115-116.

(٤) Op. Cit. 1.116

الذين تعاقبوا على الثانية خلال العشرين عاماً بعد موت فرويلة^(١). وبلغ الأمر بالعرب إلى حد التدخل في شؤون المملكة الخاصة وخلافاتها على العرش، حيث يدين أحد هؤلاء الملوك (Mauregato) للإمارة الأموية بوصوله إلى الحكم.

ومن البديهي أن النشاط المسيحي الأسباني، لم يكن قد وصل بعد إلى المرحلة التي تؤهله بأن يكون خطراً على حكم العرب المسلمين في عهد عبد الرحمن الأول. فقد كانت هنالك محاولات تتعثر وتُستعاد دون كلل، فترسم لاسبان طريق التحرر وتحمل أمامهم مشعل الاسترداد، الذي كان يزداد سطوعاً، كلما انطفأت شمعة في قرية عربية هناك عبر تلك القرون الطويلة.

العلاقة مع شارلمان من المصادفات المثيرة في تاريخ العلاقات بين الأندلس وبين مملكة الفرنجة، ذلك الند الأوروبي الرئيسي للعرب المسلمين، أن يتقلد زمام الأمر في كل منها وبصورة متكررة تقريباً، رجلان تجمع بينهما كل مواصفات الزعامة السياسية، وتلك الحماسة الملتهبة في الدفاع عن الوجود وعن العقيدة. فكما أحبط مارتل مشاريع الغافقي في أوروبا ووقف كالجدار الحديدي أمام اكتساح العرب لفرنسا، قُدر لعبد الرحمن الداخل أن يناجزه من لا تقل قدراته عن شارل المطرقة، وهو حفيده شارلمان Charlemagne، أعظم شخصيات الأسرة الكارولنجية، الذي أخذ الحكم من أبيه بَيَّان القصير (٧٧١ م)^(٢)، أول محافظ للقصر يتخذ اللقب الملكي، كما أخذ عنه تلك العلاقة الودية مع الكنيسة التي حفظت بإعجاب، مواقف الكارولنجيين في إنقاذ المسيحية من خطر الإسلام في أوروبا، وكذلك جهودهم التبشيرية بين قبائل السكسون وغيرهم من الوثنيين. ولقد أفادت هذه العلاقة شارلمان بوجه خاص، فاستثمرها في تحقيق أهدافه السياسية في السيطرة على أوروبا ومحاولة بعث الأمبراطورية الرومانية الزائلة من جديد. ومن هنا كانت حملاته في إيطاليا حيث مهد الأمبراطورية،

(١) هم أورليو Aureleo، سلو Selo، موريفاتو Mauregato، Levi — Provençal, Hist 1. 117

(٢) عاشور، أوروبا في العصور الوسطى ص ٢٩١.

والقضاء على اللومباردين أصحاب النفوذ هناك، دون أن ننسى مشاعر العداوة التي أظهرها ضد العرب المسلمين في اسبانية والمجاهرة بوجوب طردهم منها، وهي جهود وظفها أخيراً في بلوغ الهدف الذي يتطلع إليه منذ صعود نجمه السياسي، بأنه الحامي للبابوية والمدافع عن اسمها، دون أن نجد هذه الأخيرة ما يمنعها من الاعتراف بفضله ومباركته امبراطوراً رومانياً «مقدساً» في وقت لاحق (٨٠٠ م).

ولا بد من الاعتراف أن دولة الفرنجة في عهد شارلمان أصبحت حينذاك القوة الرئيسية للمسيحية، خاصة بعد انهيار العلاقة بين البابوية وبين الامبراطورية البيزنطية التي تمادت في ابتعادها عن الخط البابوي في ذلك الحين. وهذا الموقع الذي أكسبه شارلمان لدولته، اقترن بالتزامات كان لا بد أن يؤديها للبابوية، التي كان أشد ما يثيرها نحو القوة العربية الإسلامية في عهد عبد الرحمن الأول، بعد النجاح الباهر ضد كافة المؤامرات التي تربصت به.

واقترن اسم شارلمان في تاريخ اسبانية الأموية وفي التاريخ الصليبي العام، بالحملة الشهيرة التي اخترق بها البربنية إلى سرقسطة^(١). وهي تكتسب أهميتها من جانبين: الأول أوروبي مسيحي، كونها أول مبادرة هجومية قام بها الكارولنجيون ضد العرب، بعد سلسلة الحملات العسكرية التي قام بها هؤلاء إلى عمق فرنسا واقتربهم من عاصمتها الحالية، والثاني دولي حيث يرى فيها المؤرخون لا سيما في الغرب، تأمراً بين دولتين حليفيتين: الكارولنجية والعباسية، أو على وجه التحديد بين شارلمان والمنصور. ولعل هذا الجانب الأخير بحاجة إلى معطيات أكثر دقة للأخذ به، ولا زال عرضة للتشكيك حتى من بعض الكتاب الأوروبيين. ذلك أن أصحاب هذا الرأي بنوا اقتناعهم على ما أصاب حركة العلاء بن مغيث التي كان وراءها المنصور من فشل ذريع، والحق الذي نازع

Levi — Provençal, Hist 1. 118 (١)

هذا الأخير ضد الأمير الأموي، فمهد ذلك بنظرهم لتلك العلاقة الحميمة والمصلحية بين الدولتين العباسية والكارولنجية^(١).

ومهما كانت الدوافع، فإن شارلمان لم يكن متلهفاً لأي تحالف أو اتفاق مع الخلافة العباسية بشأن إمارة الأمويين في الأندلس، بعد أن جاءته الفرصة على طبق ذهبي للقيام بحملته تلك، موفرة له البابوية الدعم المادي والمعنوي، وعاقدة الآمال الكبيرة لاسترداد هذه البلاد من أيدي المسلمين. ففي سنة (١٦١ / ٧٧٨)، امتدت المؤامرات المستهدفة نظام عبد الرحمن إلى الشمال، لتتخذ مسرحاً جديداً لها في سرقسطة، عندما قام تحالف سياسي بين اثنين من زعماء العرب وهما سليمان بن يقطان الكلبي المعروف بالأعرابي^(٢) والحسين بن يحيى الأنصاري، بالإضافة إلى ثالث هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري^(٣)، الذي غلب عليه لقب الصقلي^(٤)، لاختلاف ملاعجه عن العرب واقترايه من الصقالية المتميزين بلونهم الأشقر وعيونهم الزرق. فهذا الأخير وإن كان صلة مع الحليفين المذكورين لا سيما الأعرابي، إلا أن دوره في المؤامرة التي كان بطلها لم يكن على جانب من الوضوح. ومن المؤرخين من يعتقد بأن الصقلي كان صلة الوصل بين بغداد والأعرابي، موحياً بأن عملية جديدة دبرها المنصور بالاتفاق مع شارلمان^(٥)، مع العلم أن الخليفة العباسي كان قد مات في وقت سابق على هذه الأحداث^(٦). والتفسير المعطى لهذا الاعتقاد أن الصقلي كان قد استعان بقوات مسلحة من أفريقية، عبر بها إلى الشاطئ قرب مرسية، حيث اتصل بالأعرابي وفقاً للخطة المدبّرة. ولا نكاد في الواقع نلمح فيما روته

(١) دايفز، شارلمان ص ٩٥.

(٢) يبدو أنه كان حاكماً على سرقسطة في حوالي سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م. أخبار مجموعة ص ١١٠.

(٣) هو من المؤكد غير عبد الرحمن بن حبيب الذي انتهى حاكماً على المغرب وقتل سنة ١٣٨. تاريخ خليفة بن خياط ج ٢ ص ٦٧٩.

(٤) ورد (السفلاهي) في أخبار مجموعة ص ١١٠.

(٥) العبادي، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٦٩.

(٦) توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ. خليفة بن خياط ج ٢ ص ٦٦٧.

المصادر، ما يحملنا على الأخذ بهذا الرأي، لافتقاره إلى المادة الواضحة والمنسجمة. فقد جاء في «الأخبار المجموعة» أن الصقلي أعلن ثورته ضد أمير قرطبة في تدمير واتصل بالأعرابي في هذا السبيل ولكن دون أي اتفاق، حتى أن الخلاف وقع بين الرجلين وتطور إلى اشتباك مسلح، انتهى بهزيمة الصقلي حسب المصدر نفسه^(١). ومن المرجح أن لا يكون الصقلي هذا غير دعوى من الدعاة المتحليين لدور ما تحت ستار الخلافة العباسية، من أجل إعطاء تحركه السياسي صبغة شرعية وحمل الناس على الإلتفاف حوله. ولكنه كما هو واضح لقي الفشل، لأن العباسيين أوقفوا اهتمامهم بالأندلس منذ حملة المغيث لاعتبارات عدة، في طليعتها أن دولتهم وقد غمرتها مشاكل سياسية لا تخلو من الخطورة، كانت بحاجة إلى حلول سريعة ربما كان الاهتمام بها أوجب من الأندلس البعيدة. ففضية الصقلي إذن منفصلة عن الحلف الذي جمع بين الأعرابي والأنصاري في الشمال وانتهى إلى الثورة في تدمير، حيث قضى عليه الأمير الأموي وأرسل من اغتاله في وقت لاحق^(٢).

أما في الشمال فإن الثورة كانت قد انفجرت منذ سنة (٧٧٤/١٥٧) وبدأت تأخذ بعداً تآمرياً خطيراً، حين عمد الحليفان إلى الاتصال بالملك الكارولنجي شارلمان والاتفاق معه على غزو الإمارة الأموية في اسبانية، في وقت لم يكن عبد الرحمن قد انتهى من ثورة البربر بقيادة الفاطمي. ولا يوجد تفسير لهذا الاتجاه الخياني في التعاون مع أشد الأعداء كراهية للوجود العربي الإسلامي، سوى اعتقاد هذين الرجلين بأن طموح كل منهما متعارض مع ذلك الحاكم القوي، الذي أراح من طريقه كل ذوي النفوذ والسلطة من زعماء العرب في الأندلس، كذلك الاعتقاد بأن القوة الوحيدة التي تضمن استمرارهما في مواجهة الحاكم الأموي، تلك القوة المجاورة والمثلة بشارلمان، المتحفّز بدوره لاهتبال أية فرصة من أجل القيام بدوره التاريخي. وقصة الحليفين مهما ظهر من استغراب لتصرفهما

(١) أخبار مجموعة ص ١١٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١١٠ - ١١١.

المنحرف والمحزن في وقت معاً، قد تبدو شاذة إلى حد كبير، حيث تنهار أمام لومة السلطة حواجز المبادئ وأسوار المثاليات، وهي قصة لها مثيلاتها في التاريخ الأندلسي دون أن تتقيد بحدود المكان أو الزمان.

ومن غير المستبعد أن تكون هزيمة القائد (ثعلبة بن عبيد الجذامي) الذي أرسله الأمير الأموي لقمع ثورة الشمال، قد عجّلت بالخليفتين الشائرين إلى التوجه نحو شارلمان، بعدما تعقدت الأمور ووصلت العلاقة بينهما وبين قرطبة إلى المأزق. ومن الواضح أن الأعرابي كان بطل هذا الدور حيث قام شخصياً ومعه القائد الأسير^(١)، بمقابلة الملك الكارولنجي في مدينة بادربون Paderbon (٧٧٧/١٦٠)^(٢)، والاتفاق معه على حملة عسكرية يقودها شارلمان ضد الإمارة الأموية، على أن يمهّد لها الأعرابي وحليفه الآخر^(٣).

رحب شارلمان بالعرض، وكانت ظروفه العسكرية حينذاك مؤاتية، فأخذ في إعداد حملة أراد لها أن تكون من أضخم الحملات، ليتاح له تحقيق ما يحول برأسه من تشامخ إلى العظمة. أما الأعرابي فعاد أدراجه إلى مدينته حاملاً أخباره المفرحة واعتقاده الساذج بأن أمير قرطبة الأموي بات على عتبات النهاية، وأن حليفه الكارولنجي سيعبّد له طريق السلطة في الأندلس فيسلكها آمناً مطمئناً تحت ظلاله.

وفي صيف (٧٧٨ م) قام شارلمان بحملته الضخمة إلى شمالي إسبانية، مخترقاً البرينيّة في طريقه إلى سرقسطة، تنفيذاً لاتفاقه مع الأعرابي، وفي ظنه أن المدينة الشائرة ستبادر إلى فتح أبوابها أمام «الحليف» القادم من وراء الجبال. ولكن سلسلة المفاجآت بدأت تكرر حلقاتها تباعاً، منذ اقترابه من أسوار هذه

(١) اصطحب معه القائد الأموي الأسير تأكيداً على صدق تعاونه مع الملك الكارولنجي. أخبار مجموعة ص ١١٣.

(٢) يقول دوزي إن تقليداً عاماً اتبعه شارلمان. فكان يعقد مؤتمراً سنوياً في هذه المدينة لمناقشة القضايا الدينية والعسكرية. تاريخ مسلمي إسبانية ص ٢٢٨.

(٣) لين بول، العرب في إسبانية ص ٢٩.

المدينة. فقد تهبب المتآمرون فداحة الخطأ الذي وقعوا فيه، ورفض حاكمها بالنيابة (الأنصاري)، أن يمضي بعيداً في الخط التآمري الذي جرّه إليه الأعرابي، فأغلق أبواب المدينة في وجه شارلمان وصمم على المقاومة. ولعل ضغط الحامية في سرقسطة، كان وراء عدول الأنصاري عن موقفه المنحرف، خاصة وأن المتغيرات تلك لم تصب هذا المعسكر فقط، بل امتدت إلى بطل المؤامرة لتنتزع منه ولديه اللذين رفضا دور الأب (الأعرابي) وانقلبا عليه. وهكذا بقي هذا الأخير المتآمر الأوحده، دون أن يكون لدوره فائدة تذكر بعدما ارفض عنه الجميع^(١).

وساعدت الظروف الأمير الأموي عبد الرحمن، على التخلص من هذه المحنة بأقل التكاليف. ذلك أن شارلمان المصدوم بالتطورات المفاجئة عند أسوار سرقسطة، اضطر إلى الانسحاب نهائياً ليس عن المدينة ولكن عن اسبانية أيضاً. فقد صعقته مفاجأة أخرى بما ورد إليه من معلومات في ذلك الحين، عن تمرد القبائل السكسونية في منطقة الراين واقتراحهم من كولون^(٢)، في ظل فراغ عسكري أحدثه غيابه بالأكثرية من جيوشه، حيث أقلقته كثيراً أن تذهب جهوده السابقة أدراج الرياح. ومن منطق الاعتقاد أن المعركة في الراين كانت أوجب من أسبانية، حيث انقلبت الحسابات وتشابكت الأوراق بعد استبسال سرقسطة^(٣)، يصمم على الانسحاب والعودة إلى بلاده، حاملاً فشله وملقياً بالمسؤولية على عاتق الأعرابي الخائن، وربما صاباً غضبه على بنبلونة Pampelune عاصمة البشكنس^(٤). ولا يوجد اتفاق على نكبة تلك المدينة وسكانها، الذين تجمعهم مسيحية المعتقد إلى شارلمان، فدوزي^(٥) يلمح فقط إلى

(١) دابيز، شارلمان ص ١٠١. عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ١٧٦.

(٢) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ٢٣٠.

(٣) أخبار مجموعة ص ١٣.

(٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ١٧٦. Levi — Prevençal, Hist 1, 124.

(٥) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ٢٣٠.

العداوة المتأصلة بين هؤلاء وبين الفرنجة، من دون أن يشير إلى أسبابها، بينما يعتقد آخرون^(١)، أن شارلمان استهدف إنشاء قاعدة عسكرية تتيح له العودة إلى اسبانية، مرتثياً بنبلونة الواقعة في البريتيه. بيد أنه من الجائز أن يكون تدمير هذه الأخيرة، مجرد محاولة لتسويق الكارثة التي حلت بقوات شارلمان على يد البشكنس، وذلك بإعطائها بُعداً انتقامياً لما جرى في مدينتهم.

ذلك أن شارلمان بُعيد انسحابه عن سرقسطة وعودته إلى بلاده، عابراً البوابة الرئيسية في البريتيه أو ما يعرف بالرونسفال Roncesvalles^(٢)، وهو أحد الممرات القديمة في الطرف الغربي من الجبال، وأثناء اجتيازه تلك الشعاب الضيقة بجيشه المتناقل البطيء، لصعوبة الطريق وكثافة العدد، صعبته المفاجأة الثالثة المذهلة عندما دبر البشكنس كميناً استهدف مؤخرة جيشه، حيث كانت المسافة بعيدة بينها وبين المقدمة بسبب طبيعة المر، فقفضوا عليها ولم ينبج منها إلا القليل. ولعل دافع هذه الجماعات الجبلية التي احترفت الغزو، لم يكن أبعد من استلاب ما يقع في أيديها من الذخائر والمتاع التي تحتل مكانها عادة في المؤخرة.

على أن هنالك من يشكك في انفراد البشكنس بهذا العمل الجريء، ويعتقد أن وراءه تديباً عربياً أعده الأمير الأموي، حتى أن بعض مصادرنا التاريخية تفسح دوراً هاماً في هذه العملية لابني الأعرابي، اللذين شاركوا في الدفاع عن سرقسطة^(٣)، بينما المصادر الأوروبية تكاد تعطي الدور الأساسي للعرب، معتمدة على إيماءات وردت في الأنتسودة التي ظهرت في وقت متأخر، واصفةً مصرع رولان Roland، أحد أقرب القواد للملك الكارولنجي، بأسلوب ملحمي تمجيدي لشارلمان بطل المسيحية، بحيث أنها حوّلت الهزيمة إلى انتصار معنوي

(١) حنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ١٧٦.

(٢) يسميها الأديسي (باب شيزورة). نزهة المشتاق ص ٦٥.

(٣) هما: مطروح وعيشون. ابن الأثير ج ٦ ص ٥.

رائع على العرب المسلمين، كما ألحقت الأنشودة^(١). وقد راجت هذه الفكرة خلال القرون التالية للحادثة، لإعطاء مصرع رولان خلفية صليبية وما يرافقها من تعبئة للأوروبيين ضد العرب والحث على طردهم.

لقد أصابت حادثة الرونسفال بدون شك، الكبرياء العسكري لشارلمان بطعنة كبيرة وأضرّت بمشاريعه الإمبراطورية التي كان يعمل لها بنشاط جَمٍّ، وكانت أقصر الطرق إليها بنظره هي طريق إسبانية. فانصرف منذ ذلك الحين إلى إقامة شريط دفاعي ومراكز محصنة على الحدود، لمراقبة تحركات العرب المسلمين. وبذلك انطوى حلمه التوسعي المطبوع بسمات صليبية نحو الغرب، حيث كانت تلك الحملة تجرّبه الوحيدة، عندما وجد نفسه غارقاً في همومه السكسونية ومضطراً إلى موادة الأمير الأموي. ونسمع في هذا المجال عن اتصالات بين الملك والأمير ربما اقتربت من المصاهرة^(٢)، إلا أنها أخبار غير مؤكدة. وكانت أولى ثمرات هذه العلاقة الجديدة، الإفراج عن القائد الأسير ثعلبة الذي ارتهنه الأعرابي في بلاط الفرنجة. ومن المرجح أن الرجلين شعرا بحاجتهما للانصراف عن الحروب الخارجية إلى الاهتمام بشؤون ملحة في الداخل، حيث كان ذلك في مصلحة النظام الأموي في إسبانية.

وبهذا المصير الذي آلت إليه حملة شارلمان، تكون أول محاولة منظمة لطرد العرب المسلمين من إسبانية قد كتب لها الفشل، دون أن تحدث أي نوع من التغيير في خارطة المنطقة حتى سنة ٨٠١ م، عندما سقطت برشلونة في يد لويس ابن الملك الكارولنجي. ولكن هذه الحملة استغلت فيما بعد لتحريك الشعور الصليبي في أوروبا على أوسع نطاق، مجسداً في أنشودة رولان *Chanson du Roland*، القائد الأسير عند سيده الذي سقط في كمين البشكنس. فأصبحت على كل لسان يتغنى بها الشعراء الجوّالون، ويضيفون إليها أخباراً تدخل في عالم

(١) Levi — Provençal. Hist 1, 125 — 126

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥.

الأساطير أكثر من الواقع. ومع الزمن ظهر رولان للأوروبيين، كأحد الرموز المقدسة في تاريخ العلاقات بينهم وبين العرب، تتمثل فيها بنظرهم أسمى مراحل التضحية والاستشهاد من أجل العقيدة.

بعد تراجع شارلمان بقواته الضخمة إلى بلاده، كان باستطاعة الأمير الأموي أن يغادر عاصمته إلى الشمال، بعد أن قضى على ثورة الفاطمي. فانصرف إلى سرقسطة - مسرح التآمر عليه - (٧٨١/١٦٤)، وكانت تطورات على جانب من الأهمية قد سبقته إليها، حيث انكشفت الأدوار واشتبك المتآمرون. فإذا بكبيرهم الأعرابي الذي افلت بعد كمين الرونسسفال، يسقط قتيلاً بتدبير من حليفه السابق الأنصاري^(١). وقد اعتقد هذا الأخير أن الأمور آلت لمصلحته وأنه استقل بحكم المدينة، ولكن أحلامه تبخرت مع اقتراب عبد الرحمن من أسوار سرقسطة، حتى إذا شارفها انضم إليه ابن الأعرابي المقتول (عيشون)، فأحس الأنصاري بعدم جدوى المقاومة بعد ضغط الحصار عليه وطلب الاستسلام. ولكنه عاد بعد وقت تتنازع روااسب الكراهية للأمير الأموي فأعلن العصيان مجدداً، غير أنه اصطدم بالفشل حتى مع جماعته الذين تحالفوا مع عبد الرحمن ضده، لينتهي إلى أسوأ ما انتهى إليه حليفه المتآمر الآخر الأعرابي (٨٧٢/١٦٦)^(٢).

وهكذا كان قدر الأمير الأموي الذي دخل الأندلس وهو في عنفوان الشباب، متسلقاً مع طموحه الكبير درجات السلطة، أن يواجه هذه التحديات قبل أن يرتقي أعلاها ويتربع مطمئناً على سدة الإمارة. ولعله من غير المبالغة القول أن معركة التحدي التي تصدى لها وخرج منها كهلاً يصطبغ رأسه بالشيب، لم يكن من السير على أحد الخروج منها سالماً وظافراً بالنصر، دون أن تكون له خصائص هذا الأمير الفذ، الذي لاحقته المؤامرات أكثر من ثلاثين

(١) دوزي، تاريخ مسلمي أسبانية ص ٢٣١.

Levi-Provençal, Hist. I. 126

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣١.

عاماً من غير أن تنال من إرادته الفولاذية شيئاً، حتى كاد يختلط نضال تلك السنوات الطويلة، بلمحات من الخيال والأسطورة.

السياسة الإصلاحية بعد تلك السنوات المشحونة بالأعاصير والاضطرابات الداخلية، التي لم تؤثر في عزيمة الأمير الأموي الصلب الإرادة الثابت الجأش، آن لنا تقديمه خارج دائرة العنف الذي كان سمة عصره البارز. فقد تساءل عن دوره في السياسة الجهادية، التي لمع فيها بعض عباقرة القواد في عصر الولاة؟ وعن دوره في تنظيم الحكم وتطوير الإدارة والإنشاءات العمرانية؟ إلى آخر ذلك من جوانب طغت عليها أخبار المعارك وضاعت في زحمة المؤامرات العديدة. وربما كان الجواب على ذلك سريعاً بالقول: وهل بقي للأمير وقت ما لمعالجة شؤون غير الحرب؟ وأي سبيل لمن اختارته المغامرة بطلاً لها والنصقت به، أن يهدأ أو يستكين؟. ولكن الجواب يبقى ناقصاً إذا سلّمنا بهذه الصورة النهائية لعصر عبد الرحمن الداخل، لأن الثلاثين عاماً التي قضاها سيداً مطلقاً لقرطبة، لم تعدم فترات من الهدوء، عندما يعود السيف لغمده إلى حين، تخللنها أعمال لا يمكن للباحث أن يتجاهلها أو يحذفها من الطريق. ويعجب في نفس الوقت للقدرة العجيبة التي كان يحتزنها هذا الرجل ويستخّرها في شتى المجالات، فكيف لو أعطي الفرصة كاملة في التفرغ لبناء دولته خارج إطار الدسائس، لينهض بها قوة المداميك راسخة في الأرض؟ وهل كان لمستقبلها شأن غير ذلك الشأن؟ إن علم ذلك في بطون الغيب، ولكن مؤرخ الأندلس ابن حيان قد يأتي على بعض الجواب بقوله: «أقام للملك آتته وأخذ للسلطان عدته»^(١)، في وصفه لشخصية عبد الرحمن الإدارية الساطعة. ولعل هذه الكلمات كافية لإبراز ما عنده من طاقات إصلاحية، ترقى بدون شك إلى مستوى ما تمتع به من مواهب عسكرية وسياسية.

وإذا كانت جلّ طاقات الأمير، قد ابتلعتها مؤامرات المتشاجرين على النفوذ

(١) راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٥٥.

والسلطان، بما فيها العزوف مكرهاً عن مراقبة الأسبان في أقاصي الشمال، حيث أتيح لهم أن يتنفسوا قليلاً وينصرفوا إلى تنظيم أمورهم في مأمن من الضربات العنيفة^(١)، فإن طاقات أخرى وضعها الأمير الأموي في خدمة آلة الحكم على حد تعبير المؤرخ السالف الذكر.

ومن البديهي أن أعظم إنجازاته، هي خلق دولة موحدة تتمتع بأجهزة مدنية وعسكرية لأول مرة في تاريخ أسبانية العربية، بعد أن ظلت لأربعين سنة خلت تفتقد مفهوم الدولة وعنصر الوحدة السياسية، حتى انتهى بها الأمر عشية وصول عبد الرحمن إلى أن يتقاسم الحكم فيها اثنان، أحدهما له السلطة الفعلية والآخر يمتلك منها الاسم والجاه فقط^(٢). فكان له الفضل في توحيدها جغرافياً وسياسياً، وتطويع الزعامات العربية التي كانت وراء هذا التمزيق والقضاء على طموحاتها، بضربه دون رحمة كل مظاهر الجشع عن الحكم المركزي في قرطبة^(٣).

وكانت الأداة الرئيسية التي حققت له هذه الإنجازات العظيمة، جيشاً مطواعاً كثيف العدد، قال عنه المقرئ إنه بلغ المائة ألف^(٤)، معظمهم من البربر (المغرب) والصقالبة Esclave^(٥) (جنوب أوروبا). وهؤلاء كان يؤتى بهم كأرقاء، ويدخلون صغاراً إلى الجيش لتأهيلهم بعد وقت، حسب مشيئة الأمير والذويان

(١) اقتصرتم أعماله الجهادية على غزوة الشكنس في أعقاب استيلائه على سرقسطة. (دوري ص ٢٣١) وعدا ذلك كان مضطراً إلى اتباع سياسة معتدلة مع الأسبان في الشمال، نلجها في المعاهدة التي منح بموجبها الأمان للقسطنطين. عنان، ج ١ ص ١٩٩.

(٢) عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب ص ٦٠.

(٣) ريسلر، الحضارة العربية ص ١٤٩.

(٤) نفح الطيب ج ٢ ص ٢٤.

(٥) المقصود بالصقالبة في الكتب العربية، سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي امتدت أراضيها من بحر قزوين إلى البحر الأدرياتي. على أن كلمة Esclave (صقلب) فرنسية قديمة ومعناها عبد أو رقيق، وهي التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامة. أحمد مختار العبادي، الصقالبة في اسبانيا ص ٨ وما بعدها.

في الولاء له والتضحية في سبيله . وهو تقليد عرف طريقه إلى العديد من الدول في العصور الوسطى وحتى في مطلع العصر الحديث، كما شاع الاعتماد على الصقالة في الأندلس، في عهد عبد الرحمن بصورة خاصة . وعدا هذا الجيش النظامي الذي قهر به كل حركات التآمر الداخلية، كانت هنالك أداة عسكرية أخرى مهمتها حماية الإمارة في قرطبة أو ما يسمى «بالحرس الخاص»، وهي مؤلفة من أربعين ألفاً حسب إشارة المؤرخ نفسه^(١) . ولعل هذه الأرقام خاضعة للشك لأن المقرئ، كغيره من المؤرخين التقليديين، كانت إحصاءاته تنجح إلى المبالغة وتعوزها الدقة . فمن الجائز أن يكون حرس الأمير أقل من هذا الرقم بكثير وكذلك جيشه، وإن كان هذا الأخير من الكثافة على الأرجح بحيث تحول إلى قوة ضاربة سريعة التحرك وقادرة على توزيع نفسها في عدة اتجاهات .

وتعدت هذه الاهتمامات إلى مجال آخر هو الإدارة، التي كان لها حظ من التطوير تناول كل مؤسساتها بشكل عام . وعلى الرغم من تأثيرها الشديد بالنظام الإداري في عاصمة الخلافة الأموية، فقد احتاجت إلى كثير من التعديل بعدما وصلت إلى درك من الفوضى في عهد الولاة، فضلاً عن ضرورة تلازمها مع الوضع الجديد للأندلس كإمارة مستقلة . فكانت إصلاحات عبد الرحمن تصب في هذا الاتجاه، لإخراج هذا الإقليم من دائرة الولاية الضيقة المتعثرة بمشاكلها المستديرة، إلى إطار الدولة المتطورة المحصنة بالقوانين وهيبة النظام .

ونحن لا نملك تفاصيل دقيقة عن جهاز الإدارة في عهد عبد الرحمن الأول، وذلك لاختفائها من معظم المصادر التي انصبَّ اهتمامها في المقام الأول على معالجة الأحداث السياسية، دون الالتفات حتى ببعض الاشارات إلى هذه الناحية^(٢) . بيد أننا لا نعدم استشفافاً لبعض الملامح فيما بين الكلمات، فضلاً

(١) نقح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٢)

عن مصادر أخرى أولت هذا الجانب شيئاً من الاهتمام، ولكن بعبارات عامة جداً على نحو ما فعل المؤرخ ابن حيان^(١).

ولعل أول ما يستلفت الانتباه أن عبد الرحمن الأول، بعد نجاحه في إقامة ذلك الصرح الأموي في الأندلس، متحدياً حتى الاشتباك المسلح الخلافة العباسية المتوترة ضد أسرته، لم يلجأ إلى تحديها في اللقب الخلافي، لا زهداً بما يعتبره أحد حقوقه كحفيد لهشام بن عبد الملك، وإنما تهيئاً من خطورة هذه المبادرة، في وقت كان يلهث لقهر الظروف وإتمام سيطرته على جميع المدن والأقاليم الأندلسية. ولعله لم يكن في ذهنه بعيداً - لو كانت التحديات أقل مما هي عليه - عن اتخاذ هذا القرار وإعلان استرداد الخلافة الأموية من الأندلس. فاكتمى إذن بحدود ما يفرضه الواقع العام، دون أن يحدث تغييراً ما في هذا الاتجاه، سوى طغيان كلمة «الأمير» على «الوالي» في التعبير عن الحاكم في قرطبة، التي ظلت بدورها العاصمة السياسية للبلاد. والتسمية لم تكن جديدة تماماً في الأندلس، فكثيراً ما حملها الولاة السابقون، كما حمل مركز الحكم في قرطبة اسم «دار الإمارة»^(٢). غير أن الكلمة اتسمت بمدلول خاص في عهد عبد الرحمن وخلفائه، المتحدرين من أسرة ملكية، فانتخدت بعداً مميزاً في هذا العهد اختلف إلى حد كبير عن العهد السابق.

وكانت السلطة محصورة كلها في يد الأمير، فهو المسؤول السياسي الأول وهو كذلك القائد العام للجيش، وإليه يعود البت في كل القضايا لا سيما المصيرية. ولا يخلو الأمر من مستشارين، كانوا يقفون إلى جانبه ويقومون بأعباء ليست بعيدة عن الخطورة. غير أننا لا نلمح بين سطور الكتابات التي اهتمت بهذه الناحية، أي ذكر لكبير المستشارين أو المستشار الأول الذي يمارس صلاحيات

(١) أورد المقرئ على لسان ابن حيان قوله: إن عبد الرحمن الأول «دون الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية وجدد الأجناد وأوثق الأوتاد فأقام للملك آتة وأخذ للسلطان عدته» نفع الطيب ج ١ ص ١٥٥.

Levi — Provençal. Hist I, 134

(٢)

رئيس الوزراء في الوقت الحالي، حيث ظهر فيها بعد تحت اسم الحاجب أو الوزير^(١). والواقع أن عبد الرحمن كان يستكشف عن اتخاذ وزير بالمعنى الحقيقي، يشاركه القرارات أو يطلعه عليها، لأن طبيعته الحذرة التي صنعتها أجواء الدسائس والمؤامرات، جعلته لا يأمن إلى أحد من مساعديه، حتى إذا كان خادمه الأمين بدر أو مستشاره الناصح أبا عثمان^(٢)، اللذين مهدا له الطريق إلى الأندلس وبعث الدولة الأموية هناك.

وهكذا تحولت حكومته المركزية إلى أداة مطواعة في قبضته، مسخرة لخدمة أهدافه السياسية، ومنها تمتد السلطة المطلقة على بقية الأندلس، التي توزعت بدورها إلى عدة مقاطعات (محافظات) إدارية أو «كور» حسب التعبير المتداول في ذلك الوقت. وكان يتولى شؤون كل منها حاكم باسم الأمير، يتخذ مركزه في أكبر مدن المقاطعة (الكورة). أما إدارتها فهي صورة مصغرة لحكومة قرطبة، من حيث صلاحيات الحاكم والجهاز الإداري والحامية العسكرية، المحتشدة فيها عناصر البربر الصقالبة وعناصر أخرى مختلفة^(٣).

وفي وسط هذه الإجراءات سطعت قرطبة بما يليق بها كعاصمة لدولة مستقلة، تستقطب الاهتمام وتعج بالحركة الدائمة. فقد أراد لها الأمير أن تكون مدينة متألقة تحطف بريق دمشق الأموية أو بغداد العباسية، وإن كانت أكثر تأثراً بالثانية فيما يتعلق بطراز البناء وهندسة البيوت، فضلاً عن الأنواع نفسها من الأشجار التي أخذت طريقها من الشرق، لتشمخ في جنبات العاصمة وترتفع بين دورها. كذلك فإن السنوات الشاقة، لم تنتزع من هذا الأمير حسه الفني المرهف وذوقه الرفيع، فبقيت عاصمة الإمارة تحفظ له زمناً ذلك السور^(٤) المتين

Levi — Provençal 1, 130

(١)

(٢) نفع الطيب: ج ٢ ص ٦٨ لين بول، العرب في اسبانيا ص ٨٥ أحمد الشعراوي، الأمويون أمراء الأندلس الأوائل ص ١٠٨.

(٣) Levi — Provençal: Hist 1 — 130

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣.

وتلك الإنشاءات العظيمة، سواء منها العامة المتمثلة بقنوات الماء العذب والحدائق الخضراء، والمسجد الكبير الذي يدين بتأسيسه له^(١) حيث لا زال حتى اليوم الأعظم بين مساجد العالم، بعد أن استكمل عظمته في عهد الخليفة الناصر والحاجب المنصور، متلمسين جميعاً ذات الطراز الهندسي تقريباً الظاهر في مسجد الوليد بدمشق، أم في الإنشاءات الخاصة التي توجها قصره المنيف على سفح إحدى التلال في قرطبة، المعروف بـ «الرصافة» التي لا زالت حتى اليوم إسماء لقرية في ضواحي المدينة Ruzafa^(٢). ومن الواضح أن عبد الرحمن كان متأثراً بأجواء هشام بن عبد الملك جده، الذي كان قد سبقه بنحو نصف قرن (١١٠ هـ) إلى إنشاء قصر ريفي في بادية الشام، أطلق عليه نفس الإسم وعرف برصافة هشام^(٣). وكان هذا القصر الذي انتشرت حوله الأشجار الباسقة، مسكن الأمير، يلتجئ إليه بعد ساعات العمل الشاقة. ومن ناحية أخرى فقد هجر دار الإمارة القديم الذي اتخذته الولاة مركزاً لهم في السابق، والذي كان مقر الحاكم في أيام القوط، حيث لم يعد متناسباً مع عظمة المدينة، فاستبدله بقصر جديد للإمارة، في المكان المجاور للمسجد الكبير من الجنوب على ضفة الوادي الكبير^(٤).

ولم يشأ في كل هذه الانجازات أن يتخلل عن ذوقه الشرقي الذي حمله من قلب البادية الشامية، حتى النخلة السامقة مؤنسة الصحراء في وحشتها لم يطق عنها بعداً، حيث أمر باستحضار شتلات نصبها أمام عينيه، ليبقى ظل الأرض التي أكره أيما إكراه على الخروج منها، غير مفارق له وقائم في وجدانه. ويشدد عليه حينئذ الشرقي فينفجر شعراً صافياً يدخل برقته إلى أعماق النفس، فلا

(١) انشئ قبل عامين من وفاة عبد الرحمن الأول (١٧٠ هـ) راجع: المعجل في تاريخ الأندلس للمعادي ص ٧٢.

(٢) مختار المعادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٣١٨.

(٣) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

يغادرها إلا وهي منقبضة شاردة، كشرود عبد الرحمن إلى باديته. ولعل العجب يأخذ منا مأخذاً عندما نتعرف على هذا الرجل خارج معمعان الحرب، فنجد له مكاناً آخر في محارب الشعراء. وليس العجب أن يكون له محل هناك، فكثير من الملوك والحكام كانت لهم الشهرة في هذا المجال، بحكم طبيعة العصر الذي جعل من الشعر مذياع الدولة في ذلك الحين وأرقى الفنون فيها على الإطلاق. ولكن الملفت للنظر أن تختبئ وراء هذا الأمير الدموي، شاعرية جذابة ومعها أسلوب رقيق، فيه من المعاناة والشفافية، ما بينه وبين شخصية الأمير وطبعه الجاف مسافة واضحة^(١).

(١) من شعر عبد الرحمن الوجداني تلك الأبيات التي يتحرق بها شوقاً إلى الشرق:

أيها الراكب الميمم أرضي	أقر من بعضي السلام لبغضي
إن جسمي كما علمت بأرض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قفى الله بالفراق علينا	فمضى باجتماعنا سوف يقضي

ومن قوله لصديق يمتنّ عليه بأنه لولاه لما وصل إلى الملك:

لا يلق عمن علينا قائل	ولولاي ما ملك الأنام الداخل
سمدي وحزني والمهند والقنا	ومفادئ بلفت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب	نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم الا يغفلوا	ايروم تدبير البرية غافل؟
ويقول قوم سمده لا عقله	خير السعادة ما سماها العاقل

غير أن أرق شعره ذلك الذي توجه به إلى نخلة في قصره ييشها كوامن همومه وحنينه إلى بلاده الأولى:

تسبت لنا بين الرصافة نخلة	تساءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التقرب والنوى	وطول ابتعادي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فمثلك في الأقصاء والمتأى مثلي
سقتك غواذي المزن من صوبها الذي	يسح ويستمرى السماكين بالوسل

راجع أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٠. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٤١-٤٢، احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ٩١-٩٢.

خلفاء عبد الرحمن

هشام الأول: الرضا (١٧٢ - ١٨٠ / ٧٨٩ - ٧٩٦)

بعد سنوات نافث على الثلاثين، أدركت الشيخوخة عبد الرحمن الأول قبل أن يصل إليها ويحين الأوان. فلم يكن مؤسس دولة الأمويين المستقلة في الأندلس قد تجاوز الرابعة والخمسين من عمره عندما غاب عن المسرح السياسي في قرطبة (١٧٢ هـ)^(١)، تاركاً وراءه الفراغ التقليدي الذي يشغره عادة باختفاء غير العاديين من عمالقة الحكم. وتلك معضلة النظام الوراثي، فلا يكاد الابن، المعقودة له ولاية العهد يعبر إلى السلطة، إلا ويكون للفوضى وراءه محل، حيث يندر مرور أزمة من هذا النوع في التاريخ الإسلامي، دون أن تجر ذيولاً وصراعات. ولعل التجربة نفسها، ولكن بتناقض أكثر بروزاً، مرت في مطلع الخلافة الأموية، بين الأب المؤسس معاوية وبين ولي العهد يزيد، الذي لم يستطع أن يرث شيئاً من صفات أبيه، وكاد أن يضيّع بقراراته المتسرّعة ما شاهده الأب خلال سنوات عديدة.

وفي قرطبة فشل عبد الرحمن الذي كان جباراً في التصدي لكل المشاكل، في أن يجد حلاً جذرياً لمشكلة ولاية العهد، ومات على الأرجح دون التوصل إلى قرار حاسم لها. فقد وقع في مأزق الاختيار والمفاضلة بين

(١) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص ١٠-١١.

سليمان البكر - الذي اصطحبه من الشام وكان طفلاً أثناء هروبه الشهير، ثم انتهى حاكماً على طليطلة - وبين ابنه الآخر هشام الذي وُلد في الأندلس من أم إسبانية وتولى شؤون ماردة قبيل وفاته^(١). ويبدو أنه كان ميالاً إلى أن تكون الإمارة من بعده لهشام، مخترقاً حاجز السن الذي يؤهلها لسليمان، ربما بتأثير ضغوط عائلية، أو لأنه وجد في هشام الرصين المطبوع على الورع والتقوى^(٢)، أكثر تأهيلاً لاحتلال مكانه. وقد ظهر هذا الاتجاه في وقت سابق، عندما كان «الداخل» يدفع بابنه إلى مهمات لم تكن من السهولة بمكان. فقد ثبت لها بشجاعة استحوذت على إعجاب الأب، لا سيما المهمة الأخيرة في ماردة، التي كانت على جانب من الخطورة.

... وفاز هشام بالإمارة من دون أخيه الذي غضب وسخط (٧٨٨/١٧٢)^(٣)، ولم يدعه ينعم بهدوء الحكم، رافضاً الاعتراف به رغم جهود الأمير الجديد في التردد إليه ومحاولة تقريبه منه. فسليمان كان يرى أن حقه «المغتصب» يجب أن يعود إليه، لذلك اعتكف في مدينته بعض لوقت، قبل أن يعلن العصيان على أخيه ويهدد بالزحف إلى قرطبة. وما لبث أن جاءه الدعم من الأخ الثالث، الذي لعبت برأسه كذلك خمرة السلطة وانحاز إلى سليمان في طليطلة. ولكن الأمير هشام رغم مزاجه الهادئ وانطباعه على السلام^(٤)، فإنه لا يتردد في استعمال العنف عند الضرورة، حتى ولو كان المتمرد أخاً له. فسار إلى طليطلة لقمع حركة الأخوين (سليمان وعبد الله الذي غلب عليه اسم البلنسي)^(٥)، ولما تمض بعد شهور سبعة على إمارته.

(١) يشير ابن الخطيب إلى أن الداخل طلب من ابنه الثالث عبد الله بقوله: من سبق اليك من أخوتك فابراً إليه بالخاتم، فقدم هشام قبل سليمان فلقبه عبد الله وسلم إليه امرته وأدخله القصر. أعمال الأعلام ص ١١.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢.

(٣) كان هشام في الثلاثين عندما تولى الإمارة.

(٤) Voir: Levi — Provençal: Hist. 1. 139.

(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ١١.

ولم يطل الأمر حتى استسلم الأمير المتمرد، بعد هزيمته في طلطيلة ومن ثم فراره إلى مرسية، خاضعاً للأمر الواقع ومستجيباً لشروط هشام فيما بعد بالنفي إلى خارج البلاد مع أخيه البلنسي، مقابل مبلغ كبير من المال. فغادر الأندلس (٧٩١/١٧٤) وانتهى به المطاف في المغرب، حيث عاش رديحاً من الزمن، قبل أن يتقل إلى طنجة ويعبر إلى الأندلس في مطلع إمارة «الحكم»^(١).

ولم تكن ثورة الأخ المُبعد عن الإمارة كل هموم الأمير الجديد، فما لبثت أحداث الشمال التي كان لها محل بارز في إمارة أبيه أن عادت إلى الانفجار، وحمل رايتها مجدداً مطروح بن سليمان في سرقسطة^(٢) وسعيد بن الحسين الأنصاري في طرطوشة Tortosa^(٣) (٧٨٨/١٧٢ - ٧٨٩). وهي لا تعدو أن تكون إحدى الحركات الاستقلالية التي اعتمدت أساساً على «الحزب» اليمني، ولكنها كانت أقل حجماً بكثير من الثورة السابقة التي قضى عليها «الداخل»، حيث نجح هشام في تطويقها وقتل زعمائها دون مشقة^(٤).

وهكذا فإن عهد هشام الأول كان انعكاساً لشخصيته المسالمة النازعة إلى الحوار، حيث قُدِّر للأندلس أن تنعم في ظله ببعض فترات الهدوء التي فقدتها منذ زمن بعيد. ذلك أن حوادث العنف التي أطلَّت برأسها بُعيد استلامه الحكم، لم تكن من الخطورة إلى درجة تحرم البلاد هذا المناخ الهادئ، الذي كان في كل الأحوال من ثمرات الأعمال المرتبطة بسلفه. فتور البربر التي تزعمها الفاطمي في شتيرة واستمرت عشرة أعوام تناجز إمارة قرطبة وتوقع بجيوشها الهزائم، اختلفت عنها كثيراً ثورة البربر في عهد هشام التي

(١) ابن عذاري، ج ٢ ص ٦٤ - ٦٥، ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص ١١.

(٢) كان أبوه (الأعرابي) قد تواطأ مع شارلمان لغزو الأندلس كما مر معنا.

(٣) كان قد التجأ إليها في وقت سابق بعد مصرع أبيه (الأنصاري) في سرقسطة، Levi — Provençal, Hist. 1, 141.

(٤) تولى قمع الثورة أحد قواد هشام وهو عبيد الله بن عثمان العذري، ترصيع الأخبار ص ٢٦ وما بعدها.

نشبت في رُنْدَة Ronda في الجنوب (١٧٨/٧٩٥)^(١) وعاشت في المدن المجاورة، رافضة الخضوع لأمير قرطبة قبل أن يقضي عليها بشدة وعنف.

وعدا ذلك فإن مسيرة السلام في عهد الأمير تابعت خطها المطمئن، دون أن يعرَّكَ صفاءها متمرد أو عابث^(٢)، حيث احتوى الأمير بمزاجه الهادئ كل الزعامات القبلية التي أذعنّت له كل الإذعان. غير أن هشاماً لم يستسلم للدعة فوق وثير الأرائك في قصور الإمارة، ولكنه امتاز بحس جهادي كان دافعه لتحقيق ما لم يتح لأبيه تحقيقه، وذلك بتأديب الإمارات الاسبانية المجاورة. ولكنه اختلف عن سلفه الذي كان يقود المعارك بنفسه، بينما هو لم يكن بطبعه ذلك الرجل العسكري، فأرسل عدة حملات على رأسها قادة معروفون^(٣) إلى استورياس أهم معاقل الاسبان في ذلك الحين. ففي سنة ٧٩١/١٧٥ اتجهت حملة ضخمة إلى البة Alva في وادي الأبرو حتى منطقة القلاع القديمة Gastilla Vieja التي عُرفت بقشتالة، ثم تحولت لاحقاً إلى معقل آخر خطير من معاقل الاسبان في الشمال^(٤)، فأنزلت بجماعة الملك برمندو Vermundo خليفة الفونسو الأول هزيمة عنيفة. وفي نفس الوقت كانت حملة ثانية تتوغل نحو الغرب لتصيب قوات الملك حيث كان يقودها بنفسه، فينكفئ إلى معاقله مهزوماً ومتكبداً عدداً كبيراً من القتلى^(٥).

وتتابعت الحملات التأديبية إلى قلاع الاسبان، فأرسلت حملة ثالثة في العام التالي (٧٩٢/١٧٦)، وكانت أستورياس قد فقدت ملكها واعتلى خليفته الفونسو الثاني العرش، وهو المعروف لدى العرب بالاذفونش. وعلى الرغم

(١) تقع مدينة «رندة» في إقليم تاكرنة إلى الغرب من مدينة مالقة. الروض المطار ص ٧٩.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٤.

(٣) من هؤلاء القادة: عبيد الله بن عثمان - يوسف بن بخت - عبد الملك بن مغيث، ابن عذاري ج ٢ ص ٦٦.

Levi — Provençal, Hist. 1, 143

(٤)

O.P. Cit. 1, 143

(٥)

من النجاحات الأولى التي حققتها هذه الحملة التي وصلت حتى أفيديو Oviedo العاصمة الجديدة^(١)، إلا أن الاستورقين داهموا الجيش الأموي أثناء عودته وشتوا جنوده، ولكن القائد نفسه، وهو وزير هشام في نفس الوقت (عبد الملك بن مغيث)، عاد بعد قليل بحملة انتقامية، فهزم الفونسو الثاني الذي كاد أن يقع أسيراً، لولا فراره إلى إحدى القلاع البعيدة في الشمال، بعد سقوط حصنه في وادي نالون Nalon والتزامه الصمت بعدها مدة طويلة^(٢). وكانت هذه آخر حملات هشام التي سُميت بالصوائف، تيمناً بالحملات الأموية في آسيا الصغرى، ولأنها كانت تتم بصورة تقليدية في أوائل الصيف من كل عام، تحبباً لبرد الشتاء في هذه المناطق الجبلية النائية.

ولم تقتصر النشاطات الحربية لهشام الأول على استورقة، بل كانت جيوشه تتحرك على جبهة أخرى إلى الشرق بقيادة وزيره عبد الملك بن مغيث وتخترق البرينييه إلى إقليم سبتمانية في جنوب فرنسا. وتشير المصادر العربية^(٣) إلى أن أربونة التي كانت تابعة قبيل ذلك لولاية الأندلس سقطت في يد عبد الملك، في وقت كان حاكم اكيثانية (لويس) في إيطاليا^(٤)، بينما أبوه (شارلمان) يحارب السكسون في المانية (الراين). وحين تقدمت القوات الأموية باتجاه قرقشونة، لأول مرة منذ هزيمتها في بلاط الشهداء (٧٣٢ م)، تصدى لها دوق تولوز، عند نهر أوربيو (أوربييه) Orbieu بالقرب من بلدة Vil-le daigne^(٥)، غير أن كارثة جسيمة حلت بالجيش الفرنجي الذي خسر عدداً كبيراً من القتلى والأسرى الذين اقتيدوا بالآلاف إلى قرطبة^(٦). ولهذه الحملة

Levi — Provençal, His. 1, 143

(١)

(٢) راجع ابن عذاري ج ١ ص ٥٨، ابن خلدون ج ٦ ص ٤٥.

Levi — Provençal Hist: 1, 144

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٥٨، ابن الأثير ج ٦ ص ٤٥.

Levi — Provençal: Hist. 1, 145

(٤)

(٥) بين أربونة وقرقشونة، O.P. cit. عنان: ج ١ ص ٢٢٧.

Levi — Provençal Hist. 1, 145

(٦)

مكانة هامة في تاريخ العلاقات العسكرية بين الإمارة الأموية وجارتها مملكة الفرنجة، حيث صنفها المصادر العربية على أنها أشهر الحملات وراء حاجز البرنيه. بيد أنها لا توضع في خانة الخطة التوسعية المتوقفة منذ عصر الولاة، فهي مجرد حملة تقليدية استهدفت التعبير عن قوة النظام الأموي في قرطبة، الذي خرج سالماً من كل المؤامرات الداخلية والخارجية، واشباع رغبات الجند القتالية بعد إلفة بينهم وبين الحرب طوال تلك السنين، بما تحمله لهم هذه الكلمة من اغراءات خاصة في بلاد الفرنجة.

وما لبثت هذه الحملات أن توقفت بموت هشام (٧٩٦/١٨٠)^(١)، بعد سنوات ثمان من الحكم الهادي نسبياً، افتقدته الأندلس في مرحلة بناء الصرح الأموي هناك، بجهود الأمير المؤسس عبد الرحمن الأول. وعلى الرغم من قلة المدة الزمنية التي قضاهما فوق عرش الإمارة، فإن عصر هشام كان مطبوعاً بطابع خاص، ارتسمت عليه بصمات الرجل الإداري ذي الخلفية الدينية المتحكمة في كل ممارساته. فكان من البديهي أن يحيط نفسه بجمهرة من المتفقهين، الذين هم الطليعة المثقفة في ذلك العصر. وغالباً ما كانت قراراته متأثرة بهم، كالإجراء الذي اتخذته بتعميم اللغة العربية في معاهد غير المسلمين، وهو أول إجراء مدرّوس يعالج مشكلة السكان الخاضعين للدولة، في اتجاه نحو تحقيق التآلف بين عناصر السكان المختلفة في المجتمع الواحد. ومن مظاهر هذا التأثير حسب ما جاء في «الأخبار المجموعة»^(٢) اهتمامه بالمساجد ودأبه على أن تكون ملتقى أهل العلم والتقاة، فكان يُغدق كثيراً من أموال الدولة في هذا السبيل. ولا ننسى الجناح البارز الذي أضافه إلى المسجد الكبير في قرطبة، وترميم الجسر (القنطرة) الذي اختل بفعل السيول وذلك بُعيد الحملة الشهيرة إلى سبتمانية^(٣).

(١) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص ١٤.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠ - ١٢١.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢١٥.٦٨ P. Marçais, l'architecture Musulman d'occident.

ولعل أوثق ما يلتصق بهذا الأمير المتدين، الغالب عليه اسم (الرضا)^(١)، ذلك التحول المذهبي الذي شهدته الأندلس في أيامه، بشيوع مذهب مالك^(٢) أحد أئمة المدينة. وكان الأمير شديد الإعجاب به، حيث أطلع على أخباره بواسطة الفقيه أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن اللخمي، أول المتحولين إلى مذهب من عرب الأندلس وذلك في مطلع إمارة هشام^(٣)، وفقه آخر من أصل بربري^(٤) سيكون له دور خطير في سياسة قرطبة بعيد ذلك هو يحيى الليثي، بالإضافة إلى آخرين تتلمذوا على إمام المدينة وعادوا متشربين أفكاره وحاملين إعجاباً مبادلاً بسلوك أميرهم هشام وثناء عليه من الإمام^(٥). وجدير بالذكر أن المدينة عاشت على هامش الحياة السياسية، منذ انتقال الخلافة إلى الأسرة الأموية في دمشق، لا سيما بعد إخفاق ثورة ابن الزبير، وأجبرت على ملء ذلك الفراغ بشؤون أدبية وفنية كان لها منها المركز المرموق والشهرة الدائمة. ولكن المدينة ومنافستها مكة أيضاً، استقطبتا ما هو غير الموسيقى والشعر، أعني به العلوم الدينية، حيث كان للأولى بوجه خاص مركز الصدارة في هذا المجال. ومن الذين امتدت شهرتهم ليس فقط في الحجاز وإنما في أقاصي العالم الإسلامي، هو مالك بن أنس الذي عاش طوال حياته في المدينة ومات فيها قبل عام واحد من وفاة الأمير هشام (١٧٩/٧٩٦).

وهكذا شاع المذهب المالكي في الأندلس، بعد أن استهوى أميرها هشام (الرضا) ومن حوله الفقهاء ورواد الأحاديث، متخليين عن الأوزاعية^(٦) التي

(١) كان يلقب بهشام الرضا، ابن الأثير ج ٦ ص ٤٦، ابن عذاري ج ٢ ص ٦٢.

(٢) مالك بن أنس من أصحاب المذاهب المعروفة في الإسلام. وكان معاصراً لهشام الرضا. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٥.

(٣) جاء في افتتاح الأندلس لابن القوطية أن الغازي بن قيس أول من أدخل موطاً ابن مالك وذلك في عهد عبد الرحمن الأول. ص ٥٨.

(٤) من قبيلة مصوفة.

(٥) أخبار مجموعة ١٢٠.

(٦) نسبة إلى الأوزاعي، أحد أئمة الشام المتوفى سنة (٧٧٤/١٥٧). نفع الطيب ج ٢ ص ١٥٨.

كانت المذهب الرسمي حتى ذلك الحين. وهناك من يعزو سبب هذا التحول في المذهب، إلى غير الاعجاب المتبادل بين الأمير والإمام الذي كان واسطته الفقهاء من تلاميذ هذا الأخير. ذلك أن تآلفاً في الموقف السياسي إزاء الخلافة العباسية الحنيفة المذهب^(١)، جمع بين مالك الذي كان حاملاً على العباسيين^(٢) وبين هشام أمير الدولة الأموية المستقلة في الأندلس. فقرار التحول إلى المالكية إذن، حمل بُعداً سياسياً فيه تكريس إضافي للشخصية المستقلة لهذه الدولة، رائدة الانفصال عن السيادة المركزية في بغداد.

وإذا كانت المالكية المتشددة في محاربة الانحراف البدعي، قد جعلت من الأندلس وحدة مذهبية متماسكة وصل تأثيرها حتى الجانب الآخر من الساحل الأفريقي، لتستقر في المغرب أيضاً، إلا أنها لم تخل من سلبيات كادت تصيب نظام الحكم وتطيح بخليفة هشام. فقد انتشرت على يد تلك العصابة من الفقهاء، المستحوذة بشكل أو بآخر على أفكار الأمير المتدين، الذي أطلق لها المجال الفسيح، لتحتل نفوذاً زاد عن حجمها وفاق الدور المطلوب منها. ولم تلبث بُعَيْدَ موت هشام أن ظهرت كـ «أرستقراطية» دينية مثقفة على حد تعبير ليفي بروفنسال^(٣)، لها مكانتها الاجتماعية المرتفعة ولها نفوذها المتزايد في الدولة الذي بدأ يتعارض مع نفوذ الأمير الحاكم.

الحكم الأول (الربضي) ١٨٠ - ٢٠٦/٧٩٦ - ٨٢١

كان الحكم في السادسة والعشرين^(٤) حين ارتقى الإمارة، دون أن تصادفه مشكلة ما في أسرته، رغم أنه لم يكن الأكبر بين اخوانه^(٥). ولكن

(١) نسبة إلى أبي حنيفة من أئمة العراق.

(٢) تجلّى موقف مالك من الدولة العباسية في تعاطفه مع ثورة العلويين بقيادة النفس الزكية (١٤٥ هـ)، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١ ص ٨٤.

(٣)

Levi - Provençal: Hist - I, 149.

(٤) ولد في قرطبة سنة ١٥٤ / ٧٧١.

(٥) كان عبد الملك الابن البكر لهشام.

المشكلة جاءت من أعمامه الطامعين بالإمارة منذ عهد أبيه والمنافسين له ، قبل أن يجمع حركتهم ويجبرهم على النفي ، فاستقر سليمان بعد تجوال في طنجة ، وابتعد عبد الله (البلنسي) إلى تاهرت في المغرب الأوسط . أما بشأن الأول ، فقد عبر مع جماعة من البربر إلى الأندلس بعد سماعه بموت هشام ، محاولاً الوصول إلى قرطبة ، ولكنه فشل في ذلك عدة مرات كانت آخرها عند ماردة التي أودت بحياته (١٨٤/٨٠٠)^(١) . أما البلنسي فقد دخل بدوره الأندلس ، وصعد شمالاً إلى سرقسطة ليمارس نشاطه في هذه المنطقة الخطيرة ، معتقداً أنه سيجد من تستهويهم الثورة ضد أمير قرطبة . غير أن محاولته لم تلق تشجيعاً من الزعماء المحليين ، فغادر اسبانية إلى عاصمة المملكة الكارولنجية (أكس لا شابيل) Aix - La - Chapelle لمقابلة شارلمان ، طالباً منه الدعم على غرار الاعرابي الذي ثار على أبيه في وقت سابق ، ولعب دوراً بارزاً في الحملة الفاشلة التي قادها الملك الكارولنجي إلى اسبانية . ولكنه فشل أيضاً وعاد من حيث أتى ، ليعتصم في أحد المعاقل (وشقة) Huesca في إقليم اراغون Aragon ، ويثير أزمة في بلنسية ضد الحكم ، قبل أن يساومه هذا الأخير على السكوت ، بمنحه إدارة هذه المدينة ومعها راتب شهري^(٢) ، حيث اكتسب لقبه الذي اشتهر به (البلنسي) منذ ذلك الوقت .

«والحكم» كان نموذجاً خاصاً وفريداً بين أمراء الأندلس الأمويين ، آخذاً من ملامح جده (الداخل) الكثير من الحزم والجديّة وكذلك الشجاعة^(٣) ، وحتى شيء من ملامح العنف فيه ، بينما الأب لم يمنحه إلا القليل من صفاته ، فلم يكن له أثر يذكر على عهده الذي امتد أكثر من ربع قرن . كذلك فإن «الحكم» تمتع بذوق اجتماعي رفيع ، انعكس على أجواء الترف والبذخ في عهده . وكان قصره المشرف على الوادي الكبير يفرق بمظاهر الفخامة

(١) أعمال الاعلام ص ١٥ .

(٢)

Levi - Provençal. Hist 1 , 153

(٣) أخبار مجموعة : ص ١٢٤ .

وتزدحم حوله فرق الحرس المستترة لكل طاريء، إذ كان يحسب لكل شيء حسابه، ولا بدع لجانب في حياته أن يطفى على الآخر. فهو جدّي حتى الحزم حيث تدعو الحاجة، وهو كذلك يباذخ يعشق القتاء ومتادمة الشعراء ورحلات الصيد، ولا يجد تناقضاً بين هذا وذاك.

مجزرة طليطلة

نشت الثورة في عاصمة القوط القديمة، مع مجيء الحكم إلى الامارة (٧٩٧/١٨١). فهذه المدينة كان لديها من الأسباب، ما يجعلها تنجح دائماً إلى رفض سيادة قرطبة والتحرر منها بأي ثمن، حيث كانت كعاصمة لها يريقها السياسي وزعامتها الدينية في الماضي، تحقد على عاصمة الحكم الأموي (قرطبة) التي تألفت على حساياها. كما ظلت طليطلة بحكم استمرار الأسقفية الكاثوليكية فيها، تستقطب نسبة كبرى من نصارى الاسبان، الذين كانت غالبيتهم معقودة للمولدين (الاسبان المتحولون إلى الإسلام) وللمستعربين (الاسبان الذين اندمجوا في المجتمع العربي دون أن يتخلوا عن المسيحية)^(١). فهي تركيبة غير مستقرة إذن في تلك المدينة القوطية، المحصنة بالأسوار العالية والرابضة فوق منحدر يطل على نهر تاجة Tago. وغالباً ما كانت تقف هذه حاجزاً بينها وبين قرطبة، التي عانت غياب الولاء المخلص لها في هذه المدينة، الطامحة دائماً إلى انتحال دور من الأدوار، يعيد إليها بعض أهميتها السابقة^(٢).

وهكذا أعلنت طليطلة ثورتها على الإدارة الأموية وانفصالها عن قرطبة^(٣)، حيث كان الوقت مناسباً بُعيد موت هشام وبداية هبوب المنافسات العائلية في وجه الأمير الجديد، الطنجي لم تكن شخصيته المحازمة قد انطبعت بعد في

(١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٣٨.

(٢) راجع لين بول، العرب في أسبانيا ص ٦٥.

(٣) تزعم الثورة عبيدة بن حميد، من مولدي طليطلة.

أذهان الناس. ولكن «الحكم» الداهية، الذي يطيب لبعض المؤرخين أن يجعلوه قريباً للمنصور العباسي في هذا المجال، رغم أن الدهاء إحدى صفات «الداخل» البارزة وكان أولى أن يتأثر به، لم تترك لديه ثورة طليطلة قلقاً شديداً، بل عالجها بمتهى الهدوء والذكاء. واختار للمهمة «مولداً» من Huesca^(١)، هو عمروس بن يوسف، بعد أن وثق به وأرسله حاكماً على المدينة الثائرة، ليقوم بإجهاض حركة «المولدين» هناك. وكان ذلك اختياراً ذكياً بدون ريب، لشخصية ليست موضع ارتياب عند مولدّي طليطلة، عثداً استطاع التظاهر بأنه أكثر منهم حقداً على الأمير الأموي، فمنحوه كل ثقتهم وأسرارهم، وأصبح بنظرهم من رجالات الثورة، دون أن يشعروا بما يبئ في رأسه من خطة مبتكرة للقضاء عليهم، حسب توجيهات أميره الحكم.

ومضى عمروس يتلاعب بعواطف اخوانه المولدين، فأنشأ لهم قلعة على مقربة من النهر (تاجة)، لتكون حسب زعمه قاعدة للثوار ومركزاً للتدريب. فلما انتهى من بنائها، دعا زعماء الثورة إلى مأدبة كبرى في القلعة، ثم بعث إلى «الحكم» سرّاً ليوافيه بقوة عسكرية في الوقت المحدد. وانسجماً مع سرية الخطة واتقانها، أعلن الحكم عن إرسال حملة عسكرية إلى الحدود الاسبانية في الشمال بقيادة ابنه عبد الرحمن، الذي اتخذ في الواقع طريق طليطلة. وكانت مجزرة رهيبة لم يتفق المؤرخون على رقم دقيق لقتلها^(٢)، بمن في ذلك زعماء الثورة الذين سقطوا في حفرة ضخمة وراء القلعة. وهكذا أجهضت ثورة طليطلة بأسلوب من ابتكار الأمير الذكي، دون أدنى ضجة أو مشقة، ودون أي ردّة فعل في طليطلة لأن زعماءها البارزين دُفِنوا مع ثورتهم في الحفرة الشهيرة^(٣).

(١) القلعة التي سيمتص فيها عبدالله البلنسي بعد عودته من أكس لا شابل.

(٢) قيل إن عددهم بلغ السبعمئة. ابن عذاري ج ١ ص ٧١-٧٢.

(٣) سميت هذه المجزرة «بوقعة الحفرة». ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥. ابن عذاري ج ٤ ص ٧١-٧٢.

أعمال الإعلام ص ١٤-١٥.

كانت هذه الثورة نتيجة غير مباشرة لذلك التحول المذهبي في الأندلس على عهد هشام الأول، الذي ساهم في خلق «طبقة» من فقهاء المالكية. فاستطاعت هذه أن تتخذ حجماً خطيراً في السياسة الداخلية في قرطبة على حساب نفوذ الأمير، الذي كان مشدوداً بمزاجه الصوفي نحو رجال الدين، غير مكترث لوصايتهم المتزايدة عليه ونمو تأثيرهم على قطاعات هامة في الدولة، خاصة في الأوساط الشعبية النازلة في أحياء «الربض» التي تتجاوزها عادة التيارات الاجتماعية والدينية الجديدة. والربض معناها اللغوي الضاحية، والمقصود هنا المنطقة السكنية المستجدة في قرطبة العربية بعد إنشاء الجسر (القنطرة)، والممتدة إلى ما وراء الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير. وكانت هذه الضاحية المقابلة تماماً للمسجد وقصر الإمارة، قد امتلأت بصنوف الناس بعد أن غصت قرطبة بهم، جاذبةً إليها الكثير من التجار والحرفيين والعمال، فضلاً عن عدد من الفقهاء المالكيين الذين وجدوا في هذا الخليط البشري، وكان جلّه من «المولدين»، مجالاً فسيحاً لممارسة نفوذهم، والضغط من خلاله على الأمير الجديد المناوئ لهم. فكان «الربض»، وهو لا يزال يحمل الاسم نفسه Arrabal^(١)، الأرض الخصبة لأية حركة سياسية بزعامة هؤلاء الفقهاء المستحوذين على عواطف الفقراء وذوي المداخل المحدودة.

والمسألة لا تأخذ بعدها الاجتماعي إلا في أعقاب التصادم الذي أخذ يتبلور بين «الحكم» القوي الشخصية، الرافض لوصاية رجال الدين، وبين هؤلاء الذين استبدّ بهم القلق على نفوذهم المضمحل وزعامتهم المفقودة. فلم يجدوا مَدْخَلاً لتحطيم خصمهم الأمير، سوى تأليب الفقراء عليه من خلال الطعن بسلوكه الأخلاقي واتهامه بالهرطقة الدينية، والتركيز على الهوة

(١) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٣٢.

الاقتصادية الفاصلة بين أغنياء السلطة المترفين في قرطبة^(١) وبين فقراء الربيض المعدمين، مع العلم أن جلّ هؤلاء الفقهاء لم يكن أقل ثراءً من رجالات السلطة، إلا أن ذلك كان المدخل المجدي لشحن عواطف الناس وتوتيرهم ضد الحكم الذي حطم نفوذ وامتيازات الفقهاء^(٢).

ولم تلبث الدعوة إلى الثورة على الطاغية - حسب تعبيرهم - أن عبرت الجسر إلى قلب المدينة القديمة، لتجد لها محلاً عند فئة أخرى لم تكن مرتاحة لشخصية الحكم، فأصابها ما أصاب الفقهاء من تحجيم. واتسع بذلك نطاق الحركة الانقلابية التي استهدفت العدو المشترك للفقهاء والزعماء السياسيين، ومن سار وراءهما من العمال والمزارعين وأهل الحرف وطلبة العلم وغيرهم من الفئات المسحوقة. وكان للمؤامرة دوران قبل أن تتحوّل إلى ثورة عامة وتهدّد عرش الأمير: الدور الأول، يتمثل في الانقلاب الفاشل الذي دبرّه الفقهاء^(٣)، بالاتفاق مع أحد أقارب الحكم من الأسرة المروانية، على أن يكون الأمير البديل^(٤) (١٨٩ هـ / ٨٠٥ م). ولكن هذا الأخير ساهم في تفشيل الانقلاب، عندما أفشى بسرّه للحكم قبل تنفيذه، ربما لتصوره أن عوامل النجاح غير متوفرة في ذلك الوقت. ولم تشر المصادر إلى اشتراك الفقيه البارز يحيى بن يحيى في المؤامرة، وإن كان من المرجّح أن دوره الخفيّ قد ترك تأثيراً كبيراً على قادة الحركة، خاصة وأنه ابتعد عن قرطبة إثر اكتشاف المؤامرة. وكان «الحكم» في منتهى القسوة مع هؤلاء المتآمرين، ففتك بنحو سبعين منهم، وصلبهم جميعاً أمام دار الإمارة^(٥)، ولقد أثارت مجزرة الفقهاء والأعيان مزيداً من النقمة على «الحكم»، حيث نجح معارضوه

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٧٦.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٤٥.

(٣) كان بينهم: مالك بن يزيد التجيبي، موسى بن سالم الخولاني، أبو كعب بن عبد البر، يحيى

ابن مضر القيسي. ابن الأثير ج ٦ ص ١٦ ابن عذاري ج ٢ ص ٧٣.

(٤) محمد بن القاسم.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٧٣.

في استغلالها على نطاق واسع، للمضي في مخططهم الذي لم يتوقف عند هذا الحد. وهكذا ينتهي الدور الأول من «مؤامرة» الفقهاء إلى الإخفاق وخروج «الحكم» منها سالماً، ولكن ليفتح معركة ضد خصومه أصبح لها أكثر حذراً وأشدّ يقظة. وقد تجلّى ذلك في الإجراءات السريعة التي اتخذها بعيد اكتشاف المؤامرة، وإدراك الاتجاه الذي تتسرب منه رياح الثورة. فأمر بتحسين أسوار العاصمة وترميم المتصدّع منها وإحاطتها بالخنادق من جميع الجهات، فضلاً عن تكيفه عناصر الحرس الخاص وتدريبهم تدريباً رفيعاً^(١).

والدور الأخير للثورة هو الدور المباشر الذي أطلق النفوس من عقالها لتفجر ثورة عارمة، في ظاهرها شعبية، ولكنها في المضمون ثورة المصالح المتضاربة مع رجل السلطة القوي، الذي لا يعترف بنفوذ غير نفوذه في الدولة، والعازف بطبيعته الدنيوية عن مجالسة رجال الدين أو الأخذ بمشورتهم. ولقد حدث ما يمكن اعتباره أمراً عادياً في كل زمان ومكان، ولكن يصلح في الظروف الخاصة إذا توفرت المعطيات، ليكون الشرارة التي تلهب الفتيل وتشعل نيران الثورة في كل زمان ومكان أيضاً. ففي سنة ٢٠٢ / ٨١٨، أي بعد نحو أربعة عشر عاماً من مجزرة الفقهاء، وقع خلاف بين أحد حراس الأمير وبين حدّاد في الربض قدم إليه ليصلح سيفه، انتهى بقتل هذا الأخير. فهاجت النفوس وانتشر السخط غضباً للحدّاد المقتول، واستغلّ الفقهاء هذه الحادثة على طريقتهم، داعين أهالي الربض للزحف إلى قرطبة والتخلص من «الأمير الطاغية»، على الرغم من أن الحارس القتال لقي عقابه على يد الجموع الهائجة.

وهكذا عبّرت قوافل الربضيين الجسر إلى قرطبة، مسلحة بما وصل إلى أيديها من سيوف وخناجر وعصي وغيرها، وأحاطوا بقصر «الحكم» يبنون الانتقام منه، كمسؤول رئيسي ينظرهم عمّا حدث من تحديات كانت آخرها

(١) راجع Levi - Provençal. Hist I, 164.

حادثة الحداد. وكان في طليعتهم الفقيه المعروف يحيى بن يحيى، الذي كان الزعيم الفعلي للثورة وفقيه آخر هو طالوت بن عبد الجبار المعافري^(١). وشعر «الحكم» بضغظ الحصار على القصر الذي تولى الدفاع عنه قائد الحرس الخاص^(٢)، وحاجبه (وزيره) القائد المعروف عبد الكريم بن مغيث وعبيد الله ابن عبد الله (البلنسي)، الذي كان يتولى في عهده قيادة الصوائف إلى الثغور الأسبانية. ولكن الأمير القوي الإرادة ظل محتفظاً بهدوء أعصابه، دون أن يأخذ الوجمل أو شيء من الاضطراب، ولم يعدم ذهنه الوقاد خطة ما، لا تقل إثارة عن مجزرة «الحفرة» في طليطلة. فأمر قائديه عبيد الله وابن المغيث، أن يخترقا بفرسانهما هذا الحاجز البشري المخيف بشتى الوسائل، على أن يتابع قائد الحرس وحده مهمة الدفاع عن القصر. ونجح القائدان في النفاذ بصعوبة إلى ما وراء المحاصرين، حيث كانت مهمتهما الوصول إلى الربض، عن طريق آخر غير الجسر الذي كان تحت سيطرة الثوار وإشعال النار فيه. واستكملت العملية باتقان، ولم يشعر الربضيون إلا وبيوتهم تنبعث منها ألسنة النيران، مؤدياً ذلك إلى بلبلة صفوفهم وعودة الكثيرين منهم لإنقاذ عائلاتهم وممتلكاتهم، بينما ذهب الباقون طمعاً لحرس الأمير الذي فتك بهم. وكان على ضفة «الوادي الكبير» أن تشهد موكباً آخر من المصلوبين قارب الثلاثمائة ممن ثبتت عليهم الإدانة، بينما هرب من استطاع إلى ذلك سبيلاً من زعماء الثورة^(٣). ولعل المذبحة كادت تأتي على كل الربضيين، لولا أن أوقف «الحكم» عمليات القتل والملاحقة شريطة إلغاء معالم الحياة في الربض. وهكذا كان، بعد أن أعطى سكانه مهلة أيام لمغادرة الأندلس، ومن بقي منهم فمصيروه القتل، ليبقى كذلك نحو قرنين من الزمن^(٤)، لم يذكر الناس به سوى

(١) أعمال الاعلام ص ١٥.

(٢) ربيع بن تدلفه. وهو مستعرب من قرطبة.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيرة ص ٣٩. ابن عذارى ج ٢ ص ٧٧. Levi - provençal. Hist.

1.164.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ١٦.

اللقب الذي غلب على الأمير واشتهر به فيما بعد وهو «الحكم الربضي». أما فصولها الخارجية فقد ظلت تجرّ ذيولاً في أكثر من مكان، قبل أن تضع نهايتها الأخيرة. فبعد نفي الربضيين من الأندلس، اتجه فريق منهم إلى فاس عاصمة دولة الإدارة الناشئة واستقروا هناك، بينما الأغلبية المتعطشة للمغامرة يمت صوب المشرق وانتهى المطاف بها إلى الاسكندرية، محاولة تثبيت أقدامها تلك الأرض الهادئة وإقامة تجمع يحظى بنوع من الاستقلال. غير أن الخليفة العباسي وكان يومذاك المأمون، لم يدعهم يحققون هذا الحلم، فأرسل إليهم أحد أقرب قواده الفرس عبدالله بن طاهر^(١)، الذي أرغمهم على الخروج من المدينة (٢١٢ / ٨٢٧)، ليبحثوا مجدداً عن ملجأ آخر، فلم يجدوا غير جزيرة كريت (اقريطش) Crete التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية^(٢). وهناك وجدوا من الحظ ما افتقدوه في الأندلس ومصر، عندما نجح زعيمهم عمر بن عيسى المعروف بأبي حفص البلوطي^(٣)، في تأسيس دولة إسلامية حكمتها أسرته مائة وخمسة وثلاثين عاماً، قبل أن يستعيدها البيزنطيون من جديد، على يد قائد أصبح امبراطوراً في وقت لاحق (نقفور فوكاس) Nicephor Phocas (٩٦١ / ٣٥٠).

العلاقة مع الفرنجة والاسبان لم تخل السنوات الست والعشرون التي قضاهما الحكم الربضي في الإمارة، مشغولاً في إحباط مؤامرات الفقهاء والمولدين، من اهتمام بشؤون الحدود مع الإمارات الأسبانية في الشمال. فقد استغلت هذه الأخيرة طغيان الأحداث الداخلية في تلك الفترة وأخذت تضغط كعادتها باتجاه الجنوب. كذلك فإن الكارولنجيين - رغم عزوف شارلمان عن تكرار محاولته اليتيمة في اسبانية - لم يترددوا بين الحين والآخر في اختراق الجبال وإثارة المتاعب في وجه الإمارة الأموية. وكان لويس أحد أبناء

(١) كان أبوه طاهر بن الحسين على رأس الجيش الذي دخل بغداد واسترد الخلافة للمأمون.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٧٧.

(٣) اللقب مأخوذ من القرية التي ينتسب إليها (فحص البلوط) الواقعة على مقربة من قرطبة.

شارلمان، الأكثر حماسة للقيام بأعمال عسكرية في أسبانية. ففي سنة ٨٠١/١٨٥ أصيبت السيادة الأموية بأول ضربة خطيرة مع سقوط برشلونة في أيدي الكارولنجيين، دون أن تتمكن الصائفة التي قادها أخوه (معاوية) إثر ذلك أن تسترد ما ضاع. فعلى العكس دفعت ثمناً إضافياً، عندما حلت بها هزيمة عنيفة على مسافة قصيرة من رافد لنهر الأبرو Ebro^(١). ومرت بضعة سنوات دون أن يطرأ تعديل ما على أوضاع هذه المنطقة حتى سنة ٨٠٨/١٩٢، عندما قام لويس الكارولنجي بعملية جديدة وحاصر مدينة طرطوشة^(٢)، ولكن المحاولة فشلت تحت ضغط حملة عسكرية أرسلها الحكم بقيادة ابنه عبد الرحمن. ثم تكررت المحاولة في السنة التالية وتكرر معها التصدي من جانب الأمويين، وبالتالي إنقاذ المدينة وإلحاق الهزيمة بالجيش الفرنجي. وكانت هذه آخر عمليات الكارولنجيين المنظمة في عهد الحكم، ولكن دون أن تخلو الحدود الشمالية الشرقية تماماً من هجمات متقطعة، عندما تشتد الأزمات الداخلية في إمارة الأمويين، من غير أن تتخذ أي بعد توسعي خطير. ومن جانبه «الحكم»، الذي تأثر إلى حد كبير لضيق برشلونة، بذل جهداً في استردادها حين أرسل حملة ضخمة على رأسها قائد الصوائف^(٣) (٨١١/١٩٥)، في وقت كان الهدوء يخيم على إمارة قرطبة، فشن هجوماً قوياً على برشلونة وقضى على أحد الجيوش الفرنجية بالقرب من المدينة. ولكن هذه الأخيرة لم تعد إلى الأمويين وإن أسفرت الحملة كما يشير المؤرخ ابن حيان^(٤)، إلى معاهدة بين الحكم وشارلمان، نصّت على احترام الهدنة في منطقة الحدود بين الطرفين، حيث ظل مفعولها سارياً حتى وفاة الامبراطور الكارولنجي^(٥).

(١) Levi - Provençal I, 176

(١) -

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥. ابن عذاري ج ٢ ص ٧١-٧٢. تقع طرطوشة على مسافة ١٢٠ ميلاً إلى الشمال الغربي من بلنسية. صفة جزيرة الأندلس ص ١٢٤.

(٣) هيدالله بن عبدالله البلنسي.

(٤) راجع عنان ج ١ ص ٢٤١. Levi - Provençal: Hist 1, 181 - 182.

(٥) أصبح امبراطوراً منذ سنة ٨٠٠ م.

أما علاقات الحكم العدائية بجيرانه الأسبان، فقد أورد عنها ابن حيان في «مقتبسه» تفصيلات وافية. ذلك أن الفونسو الثاني ملك استورقة (استورياس) الذي مر ذكره في إمارة هشام الرضا، كان شديد الحماسة للتوسع على حساب العرب، حيث اتخذت حملاته العسكرية بعداً صليبياً ظاهراً. وكان الحكم مدركاً لخطر الفونسو قبل أن يأتي إلى الإمارة، ولهذا لم يتردد في نفس السنة التي استلم فيها مهامه، في إرسال وزيره (ابن مغيث) في مهمة عسكرية إلى قشتالة (منطقة القلاع). وكانت حملته على ما يبدو مقتصرة على الفرسان، ليتاح لها التحرك بغير صعوبة في تلك الأرض الوعرة. فتقدم بهم القائد الأموي نحو الشمال الغربي دون مقاومة تذكر، ثم عاد أدراجه بعد تخريب عدد من الحصون والقلاع التي سقطت في يده^(١). غير أن مؤامرات الأعمام وثورات المولدين جمدت نشاطه (الحكم) إلى حين، في الوقت الذي كان الفونسو الثاني يستغل الفرصة الذهبية، في غياب حملات الصوائف التقليدية ويشن هجوماً متقدماً حتى مدينة اشبونة (ليشبونة) Lisbonne^(٢) (٧٩٨/١٨٢). ولكن هذه المدينة على ما يبدو لا تسقط في يده، أو أنها سقطت واستعادها الحكم بحملة قادها بنفسه في وقت لاحق (٨١٠/١٩٤)^(٣).

وبعد خمس سنوات (٨٠٣/١٨٧)، كان الأخوان (عبد الملك وعبد الكريم) يقومان بحملة عادية إلى منطقة القلاع (قشتالة)، في إطار نظام الصوائف، ولكنها لم تترك أثراً يذكر، كما أن المعلومات عنها لا تكاد تكفي لتقويم نجاحها. وهي لا تختلف عن حملات تقليدية أخرى كانت تشق طريقها كل صيف إلى الشمال، ما لم يكن هناك مشاكل داخلية تستوجب تجنيد كافة الطاقات العسكرية في الدولة. ولعل النشاط الأخير الذي شهدته جبهة الحدود

Levi - Provençal: Hist 1,174

(١)

Ibid

(٢)

(٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٤١.

الشمالية في عهد الحكم، تمثل في تلك الحملة الضخمة التي قادها وزيره عبد الكريم بن مغيث إلى استورقة (٨١٦/٢٠٠)، وتوغلت حتى جيليقية في أقصى الشمال الغربي. وهناك في منطقة تعرف بوادي آرون Arun، يخوض البقائد الأموي معركة طاحنة ضد جيليقية، وينزل بها ضربة قوية ^(١) قبل أن يعود أدراجه إلى قرطبة، لتتوقف بعدها الأعمال العسكرية في الشمال وتنحصر في تطويق مؤامرات الفقهاء التي أخذت تهدد عرش الأمير الأموي.

وتوفي الحكم (٨٢١/٢٠٦) بعد ولاية مديدة اختارته، لأن يكون بطلها المميز وسيفها المسلط ^(٢) فوق رقاب المتآمرين. وكان في أواخر أيامه قد استكان لبضعة أعوام، قبل أن يشعر باقترب النهاية ويختار ابنه الأكبر (عبد

(١) المقري ج ١ ص ١٥٩، ابن عذاري ج ٢ ص ٧٧.

(٢) كان «الحكم» ينظم الشعر على غرار جده، وربما كان أكثر شاعرية وجاذبية منه، فهو يقول مشيداً بالاستقرار الذي انعكس في عهده على الأندلس بعد ثورة الرض:

رايت صدوع الأرض بالسيف راقعا	وقدماً لأمّ الثبت مذ كنت يافعا
فلاني إذا حادوا جزاعاً عن الردي	فلم اك ذا حيد عن الموت جزاعا
ولما تساقينا سجال حروبنا	سقيتهم سماً من الموت ناقعا
وهل زدت إن وقيتهم صاع قرصهم	فوافوا منايأ قدردت ومصارعا
فهالك بلادي إنني قد تركتها	مهاداً ولم أترك عليها منازعا

ابن عذاري ج ٢ ص ٧١-٧٢.

ومن غزلياته الرقيقة:

ظل من فرط حبه مملوكا	ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلما	وبعداً يدني حماماً وشبكا

أخبار مجموعة ص ١٣٣، ابن الأبار، الحلة السيرة ص ٤١. ومن رائع شعره أيضاً في هذا المجال:

قضب من البان ماست فوق كلبان	أعرضن عني وقد أزمعن هجراني
ناشدتهن بحقي فاعتزمن على	الهجران حتى خلا منهن هيماني
ملكنتي ملك من ذلت عزيمته	للمحب ذل أسير موثق عاني
من لي بمختصبات الروح من بدني	غصبنني في الهوى عزوي وسلطاني

ابن عذاري ج ٢ ص ٧٩.

الرحمن) ولياً لمعهده، دون ضجة أو صراعات عائلية دامية. حتى إذا تسلم الأخير منصبه المرشح له. كان أول أمير أموي لا يقفز إلى السلطة فوق أنهار الدم، مما أتيح لمعهده الطويل والهادئ أن يكون الانطلاقة الجدية لحضارة ساطعة ومتفوقة في العالم الوسيط.

ومهما تكن نظرة المؤرخين التقويمية إلى الحكم واختلاف الآراء حول مواقفه، التي قد تبدو غير مألوفة لهم بالمقارنة مع أجواء العصر الذي عاش فيه، فإنه من التجديف على الحقيقة أن لا نعترف بواقعيته وكفاءته كرجل دولة أصاب من النجاح حظاً غير يسير. وإذا كان تَوَاقُاً بطبعه إلى أن يعيش حياته بكاملها، لا يطرق فيها غير أبواب الفرح ولا يكفيه أن يأخذ منها بمقدار، فليس في ذلك ما يسيء إليه أو يظمن في سلوكه، كما انفرد ابن حزم^(١) من دون سائر المؤرخين. لأن حياته الخاصة لم تتدخل أبداً مع المنصب، الذي تربح فوقه وتحمل مسؤولياته بجدية وإخلاص طيلة ربع قرن أو يزيد، على نحو ما فعل مع الفقهاء حين رفض تدخلهم في شؤون الدولة.

عبد الرحمن الثاني: الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢) تسلم عبد الرحمن^(٢) الإمارة من أبيه الحكم، في ظل أجواء هادئة لا تمكرها المنافسات العائلية ولا الحركات الثورية الخطيرة، التي طوقت العهد السابق وكادت أن تطيح به لولا شجاعة الحكم ومبادراته السريعة. والأمير الجديد لا يتفق مع سلفه في كثير من الصفات، فهو أقل تمسكاً بنظرية الحكم المطلق، وبالتالي فإن خلفيته الدينية كانت ظاهرة في أجواء البلاط ورواده من أهل الفقه ورجال الدين الذين هجرتهم عتباته لربع قرن مضى. فهو في ذلك أقرب إلى جده

(١) يصف ابن حزم الحكم بأنه كان من المجاهرين بالمعاصي السافكين للدماء على عكس بقية المؤرخين الذين أشادوا بحزمه وحسن إدارته. أعمال الاعلام ص ١٥. أخبار مجموعة ص ١٢٤. ابن غداري ج ٢ ص ٧٨.

(٢) تسلم الحكم في الثلاثين من عمره ويعرف بالأوسط للتمييز بينه وبين اثنين يحملان نفس الاسم، عبد الرحمن الداخل (الأول) وعبد الرحمن الناصر (الثالث).

(هشام)، منه إلى أبيه رجل السياسة المحترف، وإن كان هنالك من يرى في شخصيته مزيجاً بين الاثنين الأب والجد^(١)، متأثراً بمقدار من صفات الأول وبآخر من صفات الثاني. غير أننا نخطيء إذا نظرنا إلى شخصية عبد الرحمن الثاني من جانب التأثير بالأسلاف فقط، وجردناه من ملامحه الخاصة التي كان لها دور هام في تكوين شخصيته السياسية والإدارية، والتي انعكست على حياة الأندلس أكثر من ثلاثين عاماً، وهو متربع على عرش الإمارة في قرطبة. ولعل أبرز هذه الملامح هي ثقافته الأدبية والفقهية الواسعة^(٢)، وما تمتع به من إحساس فني مرهف وذوق اجتماعي رفيع، وغير ذلك مما ترك تأثيراً على العصر الذي عاش فيه وأصبح عنوانه الرئيسي، حيث اختمرت فيه بذور التحول الحضاري الساطع في الأندلس، وبداية الانتقال الحقيقي إلى الدولة بمفهومها المحدد كمؤسسات إدارية وثقافية وعسكرية متطورة بحدود ما. فهذا العصر يمثل بدون ريب، نقلة حضارية ومرحلة هامة من مراحل الانصهار الاجتماعي بين مختلف العناصر العربية والمستعربة، التي تضافرت على هذا المعطاء القيم.

ولقد اعتاد المؤرخون أن يتناولوا تاريخ هذا الأمير، من خلال شخصيات معاصرة استوت مراتب عالية من التقدير والمحظوة، وساهمت بما لديها من تأثير قوي في إعطاء عهده هذا اللون الخاص. فهل كان ذلك من مظاهر الضعف في نظام عبد الرحمن الثاني؟ أم أن شخصيته المثقفة استهوت التعامل مع عبقریات الفن والعلم والأدب، فاتخذت محلها الرفيع في بلاطه الذي انفتح لها على مصاريمه؟

السياسة الداخلية وقبل أن يأخذنا الحديث عن زرياب^(٣) أو الليثي^(٤)

(١) العبادي، المعجل في تاريخ الأندلس ص ٨٣.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٣٥.

(٣) المغني الشهير الذي لعب دوراً كبيراً في إمارة عبد الرحمن الثاني.

(٤) هو الفقيه يحيى بن يحيى الليثي رائد المالكية في الأندلس. وقد مر ذكره أثناء الخلاف بين «الحكم» والفقهاء.

أو طروب^(١) وغيرهم من شخصيات العصر، بحيث لا نرى أي دور للأمير إلا دور الظل لهؤلاء، ينبغي أن نلتفت إلى أحداث تلك الفترة وأهم التطورات السياسية التي مرت بها دولة الأندلس الأموية في ذلك الحين.

ففي مستهل هذا العهد تمرد على حكومة قرطبة، عبدالله بن عبد الرحمن (البلنسي)، ذلك الثائر التقليدي الذي يجرب حظه في مطلع كل عهد، فلا تنبيه التجارب الفاشلة عن تكرار المحاولة ولا الشيخوخة المنهكة بثقل السنين. فقاد بلنسية إلى تدمير^(٢) واتخذها مركزاً لنشاطه وتجميع أنصاره، قبل تنفيذ الخطة الرئيسية في التقدم إلى قرطبة والإطاحة بعبد الرحمن. ولكن القدر كان متربصاً بالشيخ الأموي العجوز، قبل أن يتربص به أمير قرطبة وينقض عليه، وإذا به يتراجع إلى مدينته (بلنسية)، تحت وطأة المرض الأخير ليفارق الحياة بعيد ذلك بقليل، متفادياً بذلك عبد الرحمن هذا الخصم التقليدي في الأسرة الحاكمة بدون عناء. غير أن تدمير ظلت مسرحاً للعنف نحو سبع سنوات، عندما قامت حرب شرسة بين العرب اتخذت بعداً قليلاً لأول مرة منذ تأسيس الإمارة الأموية. فقد استطاع «الداخل» حينذاك وقد حمل معه مأساة أسرته المنهارة، أن يستفيد من تجارب أسلافه الأمويين، فلم يقتد بنهجهم السياسي غير المتوازن الذي أدى إلى تعميق الخلافات العربية وتفجير الحساسيات القديمة بين القبائل. فنجح كثيراً بفضل سياسته الحكيمة في تجنب دولته، ذلك الصراع التقليدي العنيف بين اليمانيين والقيسيين وفي لام الجراحات بينهما إلى حد كبير.

وهكذا عادت الصراعات الحزبية العربية، تنفجر لأي سبب، وإذا بحرب ضارية تشهدها تدمير (٢٠٧ - ٢١٣ هـ)، أساسها خلاف سطحي بين رجلين أحدهما يماني والآخر قيسي انتهى بمقتل الثاني، ولكنه لم ينته لدى الحزبين

(١) الجارية الباسكاوية التي مارست سلطة واسعة في بلاط الأمير.

(٢) إحدى المقاطعات الشرقية في الأندلس، وهي منسوبة إلى حاكمها الذي يحمل نفس الاسم:

تدمير: «راجع ولاية عبد العزيز بن موسى». صفة جزيرة الأندلس ص ٦٢.

فانجرو إلى الحرب. ولقد بذل الأمير الأموي جهده لإطفاء نار الصراع الملتهبة في تدمير، موفداً أحد قواده (يحيى بن عبدالله) لهذه الغاية ومعه قرار تعيينه حاكماً على المنطقة، دون أن يتمكن رغم الشدة التي أخذ بها المتحاربين من إيقاف ذلك الصراع العربي-العربي، الذي حسم حينذاك لمصلحة اليمنيين وتولي زعيمهم محمد بن إبراهيم المعروف بأبي الشماخ الأمر في تدمير^(١). ثم تكررت محاولات السلطة في قرطبة، حتى قُدِّر للقائد أمية بن معاوية أن يقضي على هذه الحركة، ومعها قاعدة الإقليم (آلة) Ello^(٢) التي يبدو أنها كانت تستقطب غير الموالين للحكم المركزي، واستبدل بها مدينة جديدة أصبحت لها شهرتها فيما بعد هي مرسية Murcia^(٣)، في الإقليم الذي يحمل نفس الاسم.

ثورات البربر تحرك البربر بدورهم وأعلنوا العصيان في أكثر من منطقة حيث يسودون أو يتمتعون بأغلبية ساحقة، فثاروا سنة (٨٢٦/٢١١) في إقليم الجزيرة الخضراء^(٤). ولكن عوامل الثورة لم تكن ناضجة وافترقت إلى التأييد الكافي، مما جعلها تلقى الفشل الذريع ودفعت ثمناً غالياً من القتلى على يد قوات الحكم المركزي.

بيد أن التحرك الخطير الذي قام به البربر في عهد عبد الرحمن الثاني، كان مسرحه مدينة ماردة (إلى الغرب من قرطبة)^(٥)، حين أعلنت الثورة هنا بعد عامين من أحداث الجزيرة الخضراء (٨٢٨/٢١٣)، بقيادة رجل من قبيلة مصمودة (محمود بن عبد الجبار بن راحلة)، ومعه رجل آخر (سليمان بن مرتين)، يبدو من اسمه أنه مولدي أو مستعربي، كما أتيح للثورة أن تستفيد من

(١) راجع ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ - ٨٣. Levi - Provençal: Hist 1, 199.

(٢) Levi - Provençal Ibid

(٣)

(٤) راجع صفة جزيرة الأندلس ص ١٨١ - ١٨٣.

(٥) قامت الثورة بقيادة بربري اسمه حبيب البرنسي.

(٥) صفة جزيرة الأندلس ص ١٧٥.

الموقع الجغرافي لمدينة ماردة وتلقى دعماً خارجياً على جانب من الأهمية. ذلك أن قائد الثورة الذكي والجريء، تمكن من اصطناع تحالفات سياسية مع الملك الأسباني الفونسو الثاني وغيره من الأمراء الأسبان، فضلاً عن مساعدات قدمها له الملك الكارولنجي لويس^(١). وتصدى الأمير الأموي لهذه الحركة، وحاول أن يضيّق حولها الخناق بشتى الوسائل، ولكن محاولاته أخفقت ولم تزد الموقف إلا حرجاً، مما دفعه إلى ارتداء ثوبه العسكري والتوجه إلى ماردة (٨٣٣/٢١٨)^(٢)، دافعاً زعيم الثورة إلى الهرب والاختباء في أحد حصون وادي آنة^(٣). وما لبث الخلاف أن وقع بين الأخير وبين حليفه المولدي سليمان، فانفرد بالثورة في تلك النواحي، مسيطراً على بطليوس^(٤) وبلجة^(٥). ويبدو أن هذه الأخيرة لم تتجاوب مع حركته، فأكرهها بالقوة على فتح أبوابها والانضمام إليه. على أن الأمير الأموي لم يعطه فرصة التوسع أبعد من باجة، فقد طارده جيوشه حيث حل، واضطر تحت ضغطها للالتجاء إلى جليقية، ومن هناك اتصل بالملك الفونسو الثاني طالباً المساعدة في حركته الانفصالية. ولكن الثائر البربري يكتشف بعد حين أنه تورط في تحالفه مع الملك الاستورقي، فيعمل على التحرر من العأزق الذي وضع نفسه فيه، بعد أن شعر بأن الملك يستخدمه كأداة لتحقيق مكاسب سياسية لمملكته على حساب الإمارة الأموية. ورأى أن العودة إلى حظيرة قرطبة أسلم عاقبة وأقل حرجاً، ولكن الفونسو أفسد عليه مخططه وجرّه إلى معركة قاتل فيها ببطولة نادرة، قبل أن يدفع حياته ثمن موقفه الانفصالي وتنقلب عليه محالفاته مع الأعداء^(٦).

(١) راجع عثان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٥٧.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٨.

(٣) النهر نفسه الذي تقع عليه مدينة ماردة.

(٤) تقع إلى الغرب من ماردة.

(٥) من أقدم مدن الأندلس. تقع على مائة فرسخ إلى الغرب من قرطبة. وهي المدينة التي ثار فيها

العلاء بن رقيش ضد «الداخل». صفة جزيرة الأندلس ص ٣٧.

(٦) راجع ابن القوطية ص ٦٧.

ثورة طليطلة: كان وراء هذه الثورة الغامضة، زعيم شعبي يدعى هاشم الضراب، كان قد بدأ حياته في قرطبة حداداً قبل انتقاله إلى طليطلة^(١)، وانغمسه في أجوائها المضطربة والمشحونة بمختلف الأفكار، بحيث أصبحت هذه المدينة مركز التحرك الدائم واجتذاب أصحاب الطموح السياسي. ومن هؤلاء كان الضراب الذي كان له من شخصيته القيادية ونشأته في وسط شعبي فقير، ما يؤهله لتزعم أولئك المسحوقين الذين عجت بهم طليطلة، وإعلان الثورة على الحكم المركزي (٨٢٩/٢١٤).

والواقع أن مصادر المؤرخين لا توضح لنا أبعاد هذه الثورة وأسبابها، إذا ما كانت حركة انفصالية على غرار الحركات العديدة التي شهدتها الأندلس في تلك الفترة، أم أنها حملت مضموناً اجتماعياً يرمي إلى تحسين أوضاع الفئات المسحوقة، التي التفت حول هذه الحركة وتحمست لها؟ وقد يكون الاحتمال الثاني أكثر واقعية لا سيما وأن الضراب يوصف في كتابات المؤرخين بأنه زعيم العامة، مع إشارات إلى التحقير من شأن حركته ورمي جماعته بشتى نعوت الوضاعة والإهانة، بأنهم سفلة القوم وأهل البغي والشر إلى آخر ذلك^(٢). ولا بد من الإشارة إلى أن آراء المؤرخين، كانت بصفة عامة انعكاساً لرأي السلطة، التي كان لها موقف معروف إزاء هذا النوع من الحركات الاجتماعية. وبقي هاشم الضراب الزعيم النافذ في طليطلة وجوارها نحو سنتين، لم تتمكن قوات الإمارة خلالها من قمع حركته، إلا بعد أن رمت بثقلها وطوقت ثورة طليطلة الشعبية حيث تمكنت من القضاء عليها وقتل قائدها في معركة حاسمة بالقرب من دروكة Daroca^(٣).

غير أن طليطلة نأبى الخروج من دائرة العصيان، فبقى على سلاحها

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٣. Voir: Levi Provençal, Hist 1, 200—201.

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ وما بعدها. ابن عذاري ج ٢ ص ٨٣.

Levi - Provençal, Hist 1, 201

(٣)

شهره في وجه الأمير الأموي، الذي عاد إلى الانشغال بها وإرسال أخيه أمية ابن الحكم لإخضاعها. ويبدو أن مهمته كانت تستهدف اجتثاث بؤرة التمرد في المدينة، التي كان لها قصة لا تنتهي مع كل أمير أموي، بدليل أن قائد الحملة ما كاد يصل إلى أطرافها حتى أمر جنده بإلغاء معالم الحياة حولها، ونشر الفرع في داخلها بإزالة المنشآت وحرق المزروعات. ولكن ذلك لم يؤثر في معنويات المدينة التي اعتصمت وراء أسوارها العالية والمنيعة، مما أدى إلى تراجع القائد الأموي بعد اصطدامه بمقاومة، تطلبت صبراً ووقتاً فوق احتمال. فغادرها تاركاً أحد رجاله في قلعة قريبة منها ^(١)، كانت مهمته استنزاف المدينة المغلقة حتى الاستسلام. ولكن ثوارها ما كادوا يشعرون بانسحاب القائد الأموي، حتى شنوا هجوماً عنيفاً على القلعة، أدى إلى وقوع عدد كبير من القتلى بين الجانبين، دون أن يتمكنوا من اختراقها، حيث عادوا بعدها إلى طليطلة لاستئناف العصيان، الذي طال حتى سنة ٨٣٧/٢٢٢. وتنسب هذه المصادر إلى أن رجلاً من طليطلة (ابن مهاجر)، التحق بهذه القلعة بعد أن ضاق بالحصار وكان على معرفة بنقاط الضعف عند الثوار، فقام بدور هام في إنجاح الهجوم على المدينة المتمردة وإسقاطها ^(٢).

المستعربون في قرطبة - بداية المقاومة الأسبانية من الداخل لم تكن الحركات الثورية التي جابهت نظام عبد الرحمن الثاني، من الخطورة إلى حد يماثل الثورات التي أحدثت بأسلافه. فقد استطاع هذا الأمير بقليل من الجهد، إزالة كل الحواجز التي اعترضت مسيرة الهدوء والسلام في عهده، ولكن تطورات مثيرة شهدتها قرطبة، كانت المؤشر الأول لحركة التحرر الأسباني في الداخل، بعد أن سبق إعلانها في المناطق التي لم تصل إليها السيادة الأموية بشكل أو بآخر. ذلك أن مسيحي عاصمة الإمارة أو

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ وما بعدها. ابن عذاري ج ٢ ص ٨٤

المستعربين Mozarabes^(١)، وجدوا فرصة للتحرك في عهد لم يكن السيف وحده يسيّر خطوات الدولة، بل كانت أجواء الاستقرار والتعايش والانفتاح، وكذلك حرية المعتقد هي السائدة، حيث شجع عليها وجود أمير مثقف ومسال� على رأس السلطة. وكان المستعربون من الفئات التي انتعشت وتحسنت أوضاعها في هذا العصر، بعد أن استطاع عدد غير قليل منهم القفز إلى مراتب عالية في الإدارة، بفضل كفاءاتهم وإتقانهم للغة العربية، كذلك فإن العلاقات بينهم وبين المسلمين، كانت تزداد وثوقاً وانسجاماً. وكان عبد الرحمن الثاني بعقليته المنفتحة، الرجل المناسب لتلك المرحلة الهامة، من أجل انصهار أكثر بين فئات المجتمع الأندلسي، وتذويب التناقضات الفكرية والعقائدية بينها إلى حد كبير.

وإذا كانت هذه السياسة التي رحب بها السواد من المستعربين، بما حملت إليهم من الفائدة والشعور بعودة الاعتبار الاجتماعي إليهم، كأعضاء عاملين في الدولة، فإن الرهبان والقساوسة الذين انفردوا مع ذواتهم تحت أسقف الكنائس والأديرة، ظلوا بعيدين عن هذا التيار الذي غمر جماعاتهم، المسيحي المعتقد، المتعربي الثقافة والسياسة، وبالتالي أصابهم الجزع الشديد على المستقبل الذي بدا مخيفاً، وهم يرقبون تقلص رواد الكنيسة وانتشار لغة القرآن وثقافة العرب في أوساطهم بصورة مذهلة، فتذهب نداءاتهم عبثاً ولا تردد صداها غير جذران الأديرة. فتزلوا إلى الشوارع يفتعلون أزمة مع الحكم المتسامح ويستدرون عطف إخوانهم في العقيدة، عبر مواقف ساذجة وممارسات مثيرة للدهشة، توسلاً لإخراج السلطة وجرحها إلى معركة داخلية ذات طابع صليبي.

ولقد تزعم هذا التيار المتطرف في أواخر إمارة عبد الرحمن الثاني، راهب قرطبي شاب يدعى ايلوخيو Eulogio، وهو متحدر من عائلة مستعربة

على جانب من الثراء، كان لبعض أفرادها مناصب إدارية في الدولة. وانضم إليه فريق من القساوسة الشبان ممن أصابتهم هذه اللوثة، وعدد آخر خارج الدائرة الكنسية، لا سيما اثنان احتلا دوراً هاماً في حركة الرهبان المتطرفة: أحدهما تاجر ثري من مستعربي قرطبة يدعى الفارو Alvaro وفتاة مسلمة الأب، غير أنها تأثرت بأفكار المسيحية واستهوتها أفكار زعيم الحركة حتى الهوس. وما لبثت علاقة روحية متبادلة أن قامت بين الفتاة واسمها فلورا Flora وبين الراهب ايلوخيو، جعلت منها راهبة تنسم بالجراءة والإخلاص حتى الموت في سبيل المعتقد، حيث تسربت إليها تعاليمه وهي طفلة من الأم وترسخت في قلبها بعد معرفتها بالراهب الشاب^(١).

وقبل أن ندخل في تفاصيل حركة الرهبان في قرطبة، لا بد من استبعاد أي عامل اجتماعي وراء هذه الحركة خاصة في عهد عبد الرحمن الثاني - وقد حدثت في آخره - الذي كان أفضل العهود الأموية في الأندلس تسامحاً وافتتاحاً، حيث أصاب المستعربين من إيجابياته، ما لم يسبق لهم أن تمتعوا بها في عهد سابق. فالقضية إذن لا تحمل خلفية اضطهادية، بقدر ما كانت نتيجة من نتائج الاستقرار السياسي في ذلك الوقت، والتلاحم الأسباني مع الحياة العربية الإسلامية. ولو كان لحركة الرهبان بُعد آخر غير البعد السياسي المغلف بشوب ديني، لكان من السهولة إيجاد وسائل مختلفة للاحتجاج، ولكنها توسلت منهجاً غامضاً وغريباً، للتعبير عن رفضها هذا التحول الاجتماعي، باللجوء إلى مبادرات انتحارية معروفة النتائج. ومع ذلك أخذت تتكرر وتزداد جرأة، على نحو أربك السلطة الأموية في قرطبة وأوقع قضائتها في مأزق القوانين الصريحة، والمحافظة على وحدة المجتمع الذي استهدفته هذه الحركة.

وكانت خطة الرهبان، استشارة السلطة الأموية وجبر عاصمتها إلى

اضطرابات دموية، من خلال تحدي السلطة في مقدساتها والتهجم على العقيدة في الأمكنة العامة المكتظة بالناس، وهو تصرف كان عقابه الموت حسب الشريعة الإسلامية. وكان أول ضحية من ضحايا التصرف الحافل هذا، راهب يصفه لين بول بـ «الاحتبال»^(١) يدعى (برفكتو) Perfecto، كان قد استدرج أحد العرب المسلمين إلى نقاش حول العقيدة، وبلغت به الحماسة إلى درجة فقدان السيطرة على عباراته التي جنحت إلى التطرف في تحقير النبي والإسلام. وكانت المناسبة عيد الفطر (٢٣٥/٨٥٠)، حيث الناس مكتظة تحتفل بالعيد، فأصابته كلمات برفكتو منهم جرحاً لم يسكن إلا بإعدام الراهب، الذي أسلم الروح دون أن يتراجع عن كلمة واحدة من أقواله^(٢).

وجاء الحكم على برفكتو كما انتهى زعيم الحركة الانتحارية (ايلوخيو)، الذي استغله لاكتساب مزيد من المؤيدين المستعربين ممن تسربت إليهم تدريجياً أفكار الراهب المتطرف، وأصبحوا أكثر تأثراً وانفعالاً بعد هذه الحادثة. ولم يلبث برفكتو أن ارتقى إلى مرتبة القديسين، بعد الهالة التي أحيط بها بعد موته، وكانت وراءها الأساليب الدعائية الحارة التي أتقنها ايلوخيو، نافذة إلى قلوب البسطاء من المستعربين، فدخلوا بدورهم هذه المأساة العصبية ضد شعائر الدولة ومقدساتها. ثم تكررت المحاولة مع راهب آخر يدعى اسحاق Isaac، قام بنفس الدور الذي قام به برفكتو بعد نحو سنة من إعدامه (٢٣٦/٨٥١)^(٣). ولم يجد الأمير الموادع عبد الرحمن مجالاً للتردد في موقفه من هذه الحركة وما تحمله من الخطورة، فكان متشدداً وحازماً، عندما انتهى اسحاق نهاية سلفه، ولكن محروفاً، لمنع أي احتفال بتشييعه وتجمهر حول ضريحه، على غرار الحادثة السابقة.

(١) لين بول، العرب في أسبانية ص ٧٧.

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٥٦.

(٣)

ولعل الشدة التي اتخذتها السلطات الاموية في قرطبة رداً على هذه الممارسات الغريبة، كانت مطلباً ملحاً لحركة الرهبان التي زرعت فكرة الاستشهاد من أجل العقيدة في نفوس جماعتها، ولم تعدم عناصر غلبها التطرف خارج دائرة الرهبة. فلا يتردد جندي^(١) من حرس الأمير، من المتشبعين بأفكار ايلوخيو، أن جهر في ثورة حماسية بالتهجم على شعارات الإسلام في باحة القصر. ولحق الجندي بالراهبين ليرتفع عدد «القديسين» الذين حملوا هذا اللقب إلى ثلاثة، دون أن يكون لهم من صفات القداسة، إلا الجرأة على تحدي عقيدة الدولة ومجابهة الموت بشجاعة نادرة. وما كاد يطل صيف السنة نفسها، حتى كان عدد آخر من الرهبان والقساوسة يقتحمون الموت طلباً للشهادة، بتحريض من ايلوخيو الذي لم تزد مشاهد الإعدام ورؤوس أصحابه المقطوعة، إلا إصراراً على موقفه وحركة دائبة بين صفوف المستعربين، بدفع من استطاع منهم بقوة إقناعه إلى حلبة الموت.

ولكن أين ايلوخيو في هذه الموجة الانتحارية؟ وما هو موقف السلطة من نشاطه المريب؟ وبالتالي ما هو موقف المستعربين خارج قرطبة من هذه الحركة ومدى الاستجابة نحوها؟. في الواقع أن زعيم حركة الرهبان كان لا يزال في دوره غير مكشوف تماماً للسلطة، حيث حُصر في نطاق الاتصالات الخفية واستقطاب المؤيدين، متحاشياً الاصطدام معها أو التفوّه بكلمات كان يأمر أتباعه بالجهر بها طلباً للموت. ولم يكن معنى ذلك أن أجهزة الأمير كانت غائبة عن تحركات الراهب الحاقد، المتحكمة فيه عصبيته الأسبانية. غير أنها ارتأت التريث في عقابه حتى تهدأ العاصفة المصطنعة، وحتى لا يثير إعدامه ضجة في أوساط المستعربين في المدن الأخرى.

وقبل الإشارة إلى موقف الأسقفيات المسيحية خارج قرطبة، وهي كما نعرف ظلت تمارس نشاطها بحرية أثناء الحكم العربي الإسلامي - وإن كانت زعامتها قد انتقلت إلى العاصمة قرطبة، بعد أن كان الأسقف العام يتخذ مركزه

(١) يدعى سانشو، راجع لين بول، العرب في أسبانية ص ٧٨.

في طليطلة سابقاً^(١) - يجب التوقف عند حادثة فلورا Flora الفتاة المسلمة وتلميذة أيلوخيو. لقد اكتشفت حقيقة هذه الفتاة المنتصرة التي أخذ ترادها على الكنيسة واجتماعها بالراهب يثير ارتياح الأسرمة، وما لبثت أن غادرت البيت بعد أن شعرت باكتشاف أمرها، إلا أن ذلك لم يطل لأن أخاها الأكبر توصل إلى معرفة مكانها واستعادتها. ولكن الأخ لم يكن رحوماً إزاء ارتداد فلورا بعد أن اعترفت أمامه بحقيقة إيمانها، فسلمها إلى القاضي لتتال نصيبها في المحاكمة. وهناك اكتشف القاضي أن تنصرها راسخ، تشربته وهي طفلة من والدتها المستعربة، ومن ايلوخيو الذي استهواها وهي شابة. حتى أنها لم تتردد في التفوّه بما فاه به الرهبان الذين سبقوها إلى الموت. ويبدو أن انتماءها الإسلامي خفّف انفعال القاضي، الذي اعتقد أن ما أصابها لا يعدو أن يكون لؤنة سطحية، أو لعل هذا الأخير مجّت نفسه هذا الشريط المعجيب الذي يتابعه منذ أكثر من عام ومعّ قرارات الإعدام المتواصلة، دون مسوّغ لضحايا غير تلك الموجة المحمومة المستحوذة على عقولهم. فأمر بأن تلقى فلورا ورفيقة أخرى لها (ماريا) في السجن. وعلى عكس ما اعتقد القاضي لم تهن عزيمة فلورا التي ظلت على اتصال دائم مع أستاذها الروحي (ايلوخيو)، وأصرّت على موقفها كما في السابق. ولم يجد بداً في النهاية من إصدار حكم بإعدامها (٨٥١/٢٣٧)، لتنضم (فلورا) إلى قافلة «الشهداء القديسين»، من الذين جرّهم ايلوخيو إلى هذا المصير^(٢).

وأخذت أصداء هذه الحركة تمتد خارج قرطبة، وتجد لها معجبين في بعض المدن الأخرى. فرأى عبد الرحمن الثاني أن يساهم إلى دعوة الأساقفة في دولته إلى مؤتمر عام لمناقشة تطورات هذه القضية. والتأم المؤتمر في قرطبة (٨٥٢/٢٣٧) برئاسة أسقف اشبيلية (ريكافريدو) Recafredo^(٣)،

(١) أحمد إبراهيم الشعراوي، الأمويون أمراء الأندلس الأول من ٣٠٩ وما بعدها.

(٢) المبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٥٧.

Levi - Provençal, Hist 1,236

(٣)

وتمثلت الإمارة الأموية بأحد موظفيها المستعربين (غومز بن انطونيان) Gomez fils d'antonien^(١). فوضع هذا الأساقفة في أجواء العاصفة المفتعلة التي خلقها ايلوخيو ورفاقه المتطرفين من الرهبان، وانعكاساتها الخطيرة على المجتمع الأندلسي بصورة عامة. فاستنكر مجلس الأساقفة هذه الحركة وأعلن معارضته لها باستثناء أسقف قرطبة^(٢)، الذي يبدو أن الموجة المحمومة جرفته في طريقها، ووجد ما يدافع به عن هؤلاء المتطرفين من خلال فكرة الاستشهاد السائدة في العقيدة المسيحية.

ولكن بيان المجمع الأسقفي الاستنكاري، لم يترك من الأثر شيئاً على ايلوخيو، الذي قرر آنذاك المجاهرة بموقفه دون تردد. وتأخذ الحركة ملامحها الصليبية لأول مرة على المستوى الأوروبي، بزيارة راهبين من فرنسا لقرطبة والتقاءهما سرّاً بزعيم الحركة، ثم عودتهما إلى باريس، ومعهما بقايا من رفات «القديسين الشهداء»^(٣)، في اتجاه لتحويل الرأي العام الأوروبي نحو قرطبة وإعطاء حركة الرهبان فيها البُعد السياسي المطلوب.

وهكذا استفد عبد الرحمن الثاني وحكومته كل المحاولات السلمية، في سبيل وضع حد لتلك الحركة دون طائل ما، ودون عقاب رأس الحركة (ايلوخيو)، الذي تمتع بشعبية واسعة بين مستعربي قرطبة. وقبل أن يموت الأمير بأيام تعرض المسجد الكبير لعملية انتهاك، قام بها متطرفون من هذه الحركة، فكان عقابهم الإعدام. في هذا الوقت كانت دعاية زعيم الحركة تشق طريقها إلى أوساط المستعربين لترتبط بين إعدام جماعته وبين موت الأمير^(٤)، الذي قطع شوطاً من العمر وكان حينذاك على أبواب السبعين.

فألقى الأمير الجديد القبض على ايلوخيو وزجّ به في السجن ثم ترك

(١) كان كاتباً عند عبد الرحمن الثاني وابنه محمد، وقد نال شهرة أدبية واسعة. الخشني، قضاة قرطبة ص ١١١.

(٢) (ساؤول Levi - Provençal I. 237)

O. P. cit I, 236

(٣)

O. P. Cit I, 237

(٤)

وشأنه بعد قليل، لقاء موافقته على مغادرة قرطبة إلى بنبلونة. ولكنه لم يمكث هناك طويلاً، فعاد إلى طليطلة ومنها مجدداً إلى قرطبة^(١). وحينذاك فقد الأمير (محمد) صبره، فأمر بإلقاء القبض عليه وإعدامه (٨٥٩/٢٤٥)، واضعاً بذلك حداً لتلك الموجة الصليبية، التي اتخذت من الانتحار الديني سبيلاً لتحقيق أهدافها السياسية، الرامية إلى إضعاف الحكم الأموي وتوريثه في مشاكل داخلية خطيرة، ومن ثم إيقاف تيار التمازج الاجتماعي بين الأسبان المسيحيين والعرب المسلمين، وأخيراً تنفيذ المستعربين من النظام القائم، بعد أن شهدت الأعوام السابقة إقبالاً واسعاً منهم على الأخذ من ثقافة العرب والاكتماب من لغتهم، ما يتيح لهم الارتقاء إلى المراكز الاجتماعية العالية.

العلاقات العسكرية: مملكة استورقة كانت السياسة الجهادية في الحقيقة محكاً عملياً للنظام في الأندلس، فمن خلالها يُقوّم نجاح أو فشل الأمير الحاكم. وفي زمن عبد الرحمن الثاني، كانت العوامل مساعدة لتحريك الجيوش نحو حدود الدولة في الشمال، والقيام بعمليات عسكرية ضد أعدائها الاستورقيين وغيرهم من الذين يترصون بها. فالحركات الثورية في الداخل، كان من السهولة حصرها والقضاء عليها، وليس هنالك ما يعيق السياسة الجهادية من اتخاذ مبادرات ما، خلال هذه السنوات الطويلة التي قضاها الأمير في الحكم. ففي سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م، في مطلع عهده قام القائد المعروف عبد الكريم بن مغيث، بعملية عسكرية تقليدية إلى ألبه Alava ومنطقة القلاع (قشتالة) في مملكة استورقة، ولكن دون أن تشير مصادر المؤرخين إلى اشتباكها مع قوات الفونسو الثاني، مما يرجح اقتصرها على الذخائر التي عادت بها، والقلاع التي دمرتها حيث وصلت^(٢). ثم تبعه «قائد الصوائف» عبيدالله البلنسي بحملة أخرى (٨٢٥/٢١٠)، خاض بها معركة عنيفة ضد

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٨١.

Levi — Provençal, Hist I, 237 — 238.

(٢)

قوات الملك الاستورقي الذي هُزم وتراجع بفلوله إلى جليقية^(١). وهذه الأخيرة لم تنج من حملة مشابهة، توغلت في أراضيها في نفس العام بقيادة العباس بن عبدالله القرشي، ثم تكررت هذه الحملات بشكل مكثف ودوري، حتى أن الأمير شارك في واحدة منها (٨٤٠/٢٢٥).

وشهد إقليم أراغون في الشمال الشرقي تطورات هامة، حين تحالف حاكم تطيلة Tudela^(٢) (موسى بن موسى) مع البشكنس (الباسك)، وهو من أصل قوطي، كان مع أسرته يتقلدون مناصب ومسؤوليات في الإمارة الأموية. ويبدو أن خروجه على قرطبة سبقته خلافات شخصية مع أحد القادة العسكريين، إبان مهمة حربية جرت في منطقة البشكنس^(٣). فقام عبد الرحمن الثاني بحملة تأديبية ضد حاكم تطيلة قضت على تمرده، ومن هناك تابع مسيرته شمالاً ليقع هزيمة عنيفة في قوات البشكنس حلفاء موسى. حيث التجأ هذا الأخير إلى عاصمتهم (ببلونة). وما لبثت هذه المدينة أن عقدت صلحاً مع الأمير الأموي، ملتزمة بالهدوء وعدم الاعتداء على حدوده (٨٤٢/٢٢٨)^(٤).

كانت علاقات عبد الرحمن الثاني مع جيرانه الاستورقيين والبشكنس عدائية بصورة عامة، وأتسمت حملاته العسكرية بالكثافة، كمحصلة لهندوه الأوضاع نسبياً في الداخل، متوفرأ بذلك الوقت لإعطاء قسط من اهتمامه إلى جهة الحدود الشمالية، وأن يشترك ببعضها شخصياً برغم نزعته غير الحربية. وكان خروجه المتكرر من قرطبة له دلالة، بأن حكومته لا تحمل كثيراً من المتاعب الداخلية، حيث يغادرها مطمئناً ويعود دونما حساب للمفاجآت.

(١) Levi — Provençal, Hist 1.204 كانت جليقية تابعة لمملكة أستورقة.

(٢) تقع إلى الجنوب من ببلونة وهي من أعمال أراغون، الروض المطار، ط ٦٤.

(٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٦٠.

(٤) ابن عذاري ج ٣ ص ٨٧.

النورمان: إغارات ودبلوماسية شهد النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، اتصالات هامة بين حكومة عبد الرحمن الثاني وبين النورمان، القبائل الوثنية المعروفة بالفيكنج Vikings في أقاصي الشمال الأوروبي، وذلك في أعقاب سلسلة من الهجمات البحرية، بعضها استهدف للشواطئ الغربية والشرقية، وامتد الآخر في الداخل حتى اشبيلية عبر «الوادي الكبير». وإذا كان الجانب الحربي يبدو واضحاً في كتابات المؤرخين الذين اهتموا بتدوين تلك الأحداث، من أمثال ابن القوطية وابن حيان وابن عذاري وغيرهم^(١)، فإن الجانب الآخر وهو «الدبلوماسية» محاط بشيء من الاضطراب والغموض، وذلك لتداخله صفةً وتاريخاً مع بعثة أرسلت إلى القسطنطينية، خاصة وأن شخصية واحدة اضطلعت بالمهمتين، وأعني بها الشاعر «الغزال»، رجل البلاط المثقف وسفيره إلى الخارج.

والعلاقات بين الأمويين في الأندلس وبين النورمان الشماليين، اختلفت عن أية علاقات دولية أخرى شهدها العصر. فلم تكن وراءها خلفية محورية تستهدف إقامة تكتل سياسي في وجه تكتل آخر، كما زُعم في تفسير التودد الذي جرى بين الدولتين العباسية والكارولنجية، بل كانت نابعة من موقف مصلحي، أول ما يفيد حكومة قرطبة التي شُغلت منذ تأسيسها بإحباط الثورات الداخلية ومطاردة المتآمرين. وقد تمّ ذلك بعد عناء كبير حيث كانت الحروب البرية التي برع فيها العرب المسلمون سيدة الموقف، دونما حاجة ملحة آنذاك لاهتمام بالشؤون البحرية، التي بقيت محدودة الإمكانيات، كذلك لم تكن فكرة القواعد العسكرية على سواحل الإمارة، قد طُرحت بشكل جدي في ذلك الحين. وهكذا فإن الاختلال كان واضحاً في هذا المجال، وظل قائماً حتى تعرضت تلك السواحل المكشوفة والمفتقرة إلى السفن والتحصينات، لهجوم مفاجيء قام به النورمان. فامتدت اهتمامات السلطة إلى سد هذه الثغرة

(١) ابن عذاري ج ٣ ص ٨٧.

الهامة في قوتها العسكرية، وذلك في السنوات الأخيرة من إمارة عبد الرحمن الثاني^(١).

والمصادر العربية لا تذكر تفاصيل وافية عن هذه الدولة ، التي أفلقت الحكم الأموي في الأندلس . فهي تقتصر على وصفها بإحدى الممالك الشمالية في أوروبا ، وأن أهلها يمتازون بالشقرة الزائدة والتزوع إلى عبادة النار والكواكب . ولعل تسميتهم بالمجوس^(٢) ، كما جاء في هذه المصادر ، له علاقة بذلك ، حيث إن المجوسية في نظرها مرادفة لعبادة النار ، على نحو ما كان سائداً في بعض العبادات الشرقية القديمة . ولقد اقترن بهم كذلك اسم آخر ، كان له علاقة بالموقع الجغرافي وهو النورمان Normands . وهذه الكلمة على ما يبدو تحريف للاسم الذي عرفوا به الأصل Norsmands ، ومعناه الشماليون أو أهل الشمال^(٣) . وكان أول ما اشتهر به هؤلاء ، احتراف البحر والتزوع إلى المغامرة والقرصنة ، حيث انطلقوا في موجات متوالية ومتشعبة ، استهدفت معظم سواحل أوروبا الغربية لا سيما المكشوفة منها ، والمفتقرة إلى وسائل دفاعية رادعة ، كما كان الحال حينذاك في الأندلس حيث تجلى ضعف البحرية على الجانب الغربي ، مما دفع هؤلاء إلى تركيز نشاطهم في هذه المنطقة . أما القوة المحدودة في هذا المجال فقد كانت مرابطة على السواحل الشرقية ، في مواجهة الأخطار الحقيقية التي يمثلها الأسطول الفاطمي في ذلك الحين .

ولقد استهدفت غارات النورمان الجريئة بشكل خاص شواطئ الأندلس ، تجذبهم إليها عوامل اقتصادية بحثة ، لما تمتعت به من شهرة ذائعة في الثراء ، بالمقارنة مع الشواطئ الأوروبية الأخرى . وكانت أخطر هذه العمليات

(١) مجلة الرسالة (المصرية) عدد ١٣٢ ص ٤٨ . ٦-١-١٩٣٦ .

(٢) ابن دحية ، المطرب في أشعار أهل المغرب ص ١٣٨ وما بعدها ، ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٨٦ . ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٨ .

(٣) جاء النورمان أصلاً من أسكتلندا وصواحل ألمانيا الشمالية .

النورمانية تلك التي حدثت في سنة ٢٢٩/٨٤٤، حين تعرضت مدينة اشبونة (ليشبونة حالياً) لهجوم بحري من عدة سفن، عبرت إليها من مصب نهر تاجة Tago. ولكن مقاومة المدينة بقيادة حاكمها (وهب الله بن حزم)، أدت إلى إحباط المحاولة وإجبار النورمان على التراجع. فوجدوا عند ذلك بغيتهم في مصب الوادي الكبير (إلى الشمال من قادس)، حيث سقطت هذه المدينة في أيديهم وعاشوا فيها تسليماً، ومن ثم انتقلوا إلى تحقيق أمنيتهم باختراق الأندلس، إلى عاصمتها الشهيرة قرطبة. وعلى الرغم من التصدي لمراكب هؤلاء الغزاة على ضفتي النهر، والاستعدادات التي اتخذها عبد الرحمن الثاني منذ أن أخطر بتزولهم على شواطئ دولته، إلا أنهم تابعوا تقدمهم في مياه النهر حتى أدركوا أشبيلية وسيطروا عليها، وقاموا بأكبر عملية قرصنة استهدفت المدينة التي عانت أياماً صعبة في ظل القتل والدمار^(١).

وأحدثت هذه الغزوة ارتباكاً في أوساط حكومة قرطبة التي فوجئت بنتائجها، ولم يكن لديها من السفن غير الرابضة في المرسى على الساحل الشرقي. ولكنها لم تعدم وسائل التصدي لهؤلاء المخامرين، المتطلعين إلى عاصمة الإمارة هدفاً ثانياً لهم، فشكلت فرقاً سريعة لمطاردة النورمان في أشبيلية والحوال دون تقدمهم إلى قرطبة. غير أن الغزاة وقد اصطدموا بهذا الحاجز الدفاعي، آثروا الاكتفاء بما حققوه والعودة، ولكن دون أن يكون ذلك في متناولهم، حيث واجهت العودة معركة عنيفة، كان مسرحها قرية طلياطة Tejada^(٢)، انتهت بهزيمة النورمان وفرارهم بقليل من سفنهم، تاركين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى^(٣).

وكان على السلطة الأموية في عهد عبد الرحمن الثاني، أن تبذل جهوداً

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٨. ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨.

Levi — Pronvençal, Hist, 1.220 — 225

(٢) تقع على مسافة عشرين ميلاً من أشبيلية، راجع الروض المطار ص ١٢٨ وما بعدها.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٨٨.

قصوى لإيقاف هجمات النورمان الشرسة وعدم تكرارها. وظهر هذا الاهتمام في سلسلة من الحصون الدفاعية على مصبات الأنهار، وتزويد الأسطول بسفن جديدة بلغت مداها في عهد الخليفة الناصر. وبذلك أمكنها تجميد الخطر النورماني، بفضل هذا الحزام الدفاعي الواقي. غير أن الأمير الأموي، لم يكن بعد حادثة اشبيلية مطمئناً إلى عدم تكرار المحاولة التي قام بها هؤلاء القراصنة، فارتأى وهو المنفتح بطبعه، أن لا يكتفي بالإجراءات العسكرية المتخذة، ولكنه آثر إقامة نوع من الصداقة بينه وبين الملك النورماني.

وقد انتدب عبد الرحمن الثاني أحد البارزين في بلاطه وهو الشاعر يحيى الغزال، لزيارة مملكة النورمان ومعه شخص آخر (يحيى بن حبيب). فقام بتنفيذ هذه المهمة على متن سفينة أموية مضافة إلى سفينة أخرى نورمانية، كما تشير الرواية التي تعرضت لهذه الحادثة^(١). وهذا يعني أن اتصالات مسبقة جرت بين الطرفين، مهدت الطريق أمام الموفد الأموي، الذي وصل هذا الأخير إلى بلاط الملك النورماني^(٢) في سنة ٨٤٥/٢٣٠، أي بعد سنة من الغزوة الأنفة الذكر. ولا يتطرق المؤرخ^(٣) الذي اهتم بأخبار هذه الرحلة «الدبلوماسية» إلى أكثر من حدود الترحيب والحفاوة بمبعوث الأمير الأموي، دون أن يشير إلى اتفاق ما يفترض أن تسفر عنه مهمة الغزال، حيث طغت شخصية السفير عنده وأخبار ظرفه على ما عداها. ولا نستطيع المبالغة كثيراً في الاستنتاج، بأن معاهدة جرى نقاشها وتوصل إليها الطرفان، تقضي بالتزام ملك النورمان بعدم الاعتداء على سواحل الأندلس. وإذا كان شيء من ذلك قد تمخض عن هذه الزيارة، فهو لا يعدو أن يكون مرحلياً فقط، لأن هجمات النورمان تكررت في وقت لاحق.

(١) ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب ص ١٣٨ وما بعدها.

(٢) كان يدعى هوريك.

(٣) ابن دحية الكلبي.

العلاقات الدبلوماسية مع البيزنطيين إذا صح أن تلك الاتصالات والرفود المتبادلة بين العباسيين والفرنجة، أو بعضها على الأقل، كان يدور في إطار العلاقات «الدبلوماسية» بين الدول حسب المفهوم المتداول لها، وما يمكن أن ترمي إليه من أهداف ذات مصلحة مشتركة لكل من الطرفين، فإن علاقات أخرى يفترض أنها قامت بين دولتين كانتا أساساً هدف هذه الاتصالات المحورية، وهما دولة البيزنطيين وإمارة قرطبة الأموية. فثمة مصادر معينة تشير إلى أن هذه العلاقات تمت فعلاً بينهما، ولكن في وقت متأخر قليلاً عن العلاقات العباسية الكارولنجية^(١)، وإن كانت محاطة بالغموض والتشويش. فالمعروف أن سياسة الأمويين في الأندلس، كانت تحمل طابع الاستمرارية لسياسة الأسلاف في دمشق، وهي لم تخرج عن التنافر والعداوة بين هذه الأخيرة والقسطنطينية. ومن هذه الزاوية يمكن التساؤل عن فائدة ما لأي من الطرفين في إقامة هذه العلاقات، لا سيما الإمارة الأندلسية الغارقة في شجونها المحلية، وفي مواجهة التيار الصليبي الذي أصبح أكثر خطورة بعد سقوط برشلونة وحركة الرهبان في قرطبة؟ ولعل ما أوردته المصادر عن اتصالات دبلوماسية وتجارية بين القسطنطينية وقرطبة، يندرج في مصاف الزيارات العادية التي تتم بين الدول بهدف التسودد والصداقة، وربما تبادل الخبرات في حقول ثقافية وعمرانية وغيرها، أكثر من التحالف وتوحيد الموقف السياسي بين الدولتين. فالامبراطور البيزنطي (تيوفيل) عندما أوفد سفيره اليوناني (قرطوس) إلى قرطبة، لم تشر هذه المصادر إلى أبعاد هذه الزيارة السياسية^(٢). وكل ما صدر عن الأمير الأموي، هو الرد على المبادرة البيزنطية والهدايا الفخمة التي حملتها، بمبادرة مماثلة تولى تنفيذها الغزال، الذي كان موضع إعجاب شديد من جانب الامبراطور

(١) ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب ص ٧٨.

(٢) تعود هذه الزيارة إلى سنة ٨٣٩/٢٢٥. نفع الطيب ج ١ ص ١٦٢.

لكياسته وثقافته، دون الإشارة إلى طبيعة الزيارة. وإذا قيل بأن أهدافاً ما وراء هذا الاتصالات في أيام عبد الرحمن الثاني، فإن ما جرى بعد ذلك في عهد الامبراطور قسطنطين السابع والخليفة الناصر، لم يتعد الشكل «البروتوكولي» المعروف واقتصر على الاحتفالات والهدايا والخطب. ذلك أن الأندلس تحررت من هواجسها العباسية وتخلت عن الإمارة بمعناها الضيق لتستعبد عنها بالخلافة، متمردة على بغداد ليس فقط في الخروج على السيادة، ولكن أيضاً في تحدي المنصب الخلافي. ويبقى الأصح أن هذه العلاقات (بين قرطبة والقسطنطينية)، كانت تدور في إطار حضاري، بين مدينة عريقة (القسطنطينية)، وأخرى (قرطبة) تجتهد لأن تأخذ دورها التاريخي، ولا تتردد في التوجه إلى أي مركز من مراكز الثقافة العالمية، خاصة في أيام عبد الرحمن الثاني، التي بلغت الذروة في الاستقرار والانفتاح السياسي والاجتماعي في دولة الأندلس الأموية.

مظاهر الحياة الاجتماعية

يمثل هذا العهد مرحلة حضارية خاصة، اختمرت فيها تيارات وثقافات مختلفة، سرعان ما تفجرت عطاءً واشعاعاً في العهود التالية من تاريخ الأندلس. وإذا كانت الحروب تقتل المواهب وتفتي الطاقات، فإن السلام يخلق ظروفاً نادرة للانتاج، لا سيما إذا توفرت لذلك المعطيات اللازمة والمناخات الفكرية المقبولة. ولا شك أن مجيء عبد الرحمن الثاني إلى الحكم في وقت شاع فيه الاستقرار الداخلي إلى حد كبير، وفي ظروف كانت عاصمة العباسيين في الشرق تسطع بمجدها الثقافي الذي صنعه لها الخليفة المأمون، المفطور على حب المعرفة والعلم، كان لها تأثير إيجابي على انتعاش الحركة الفكرية في قرطبة ونمو دورها الثقافي، الذي أصبح إحدى مفاخر الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ.

ففي بغداد - المدينة الحديثة يومذاك - كانت جامعتها أو دار الحكمة^(١) -

(١) أسسها المأمون بعد عودته إلى بغداد. راجع عصر المأمون للرفاعي ج ١ ص ٣٧٥.

ملتقى النخبة العالية من العلماء والفلاسفة والمترجمين، وتفيض خزائن مكتباتها بالمخطوطات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية^(١)، فضلاً عن العربية التي انتقلت إليها هذه المعارف. ولم يمض غير وقت قصير إلا وكتب افلاطون وأرسطو الفلسفة، قد ترجمت مع شروح لها إلى اللغة العربية، وكذلك مؤلفات جالينوس وأبقراط في الطب، وكتابات أقليدس وبطليموس وغيرهما من أساطين الرياضيات والهندسة وعلم النجوم والجغرافية وسائر العلوم^(٢)، هذا إذا استثنينا كتب الفرس الشهيرة مثل (هزار افسانه)^(٣) و(كليلة ودمنة) و(مزدك) و(التاج في سيرة انوشروان) وكثيراً غيرها.

هكذا بدت بغداد لمعاصرها عبد الرحمن الثاني المطبوع بدوره على الأدب والعلم، فضلاً عن مزاجه الهاديء واحساسه المرفه في تذوق الجمال واستهواء الموسيقى والغناء. وكانت عاصمة العباسيين تستوعب كل ما يتوق إليه الأمير، فلم يكن غير مألوف هناك مشاهدة حفلات السمر الليلي، حيث تتألق الجواري بروقاتها الإيقاعية في قصور الأغنياء والمترفين. ويلمع حينذاك الموصلي، الموسيقي الشهير ومعني الخليفة، فيضيف مع تلاميذه المغنين على العاصمة العباسية أجواء من الرخاء والجازبية. وكان عبد الرحمن الثاني شغوفاً بكل ما يجري في هذه المدينة، جاهداً أن لا يفوته شيئاً من معالمها إلا اقتبس، دون أن تؤثر فيه حساسيته الأموية التي قطعت في السابق كل الجسور مع بغداد العباسية. فكان هذا الأمير المثقف رائد السياسة الجديدة المنفتحة على الخارج بمن في ذلك أعداء الأمس، وكانت عاصمته (قرطبة) مشرعة الأبواب أمام العلماء والشعراء والتجار وذوي الفنون المختلفة، القادمين من الشرق، هرباً من المنافسة أو بحثاً عن آفاق جديدة لم تتوفر لهم في بغداد.

(١) السنسكريتية.

(٢) راجع عصر المأمون ج ١ ص ٣٨١ - ٣٨٧.

(٣) معناه ألف خرافة. وهو الكتاب المعروف بألف ليلة وليلة.

زرياب: شخصية العصر الفنية والاجتماعية

وفدت على قرطبة مع مجيء عبد الرحمن الثاني إلى الإمارة، شخصية طريفة كانت لصيقة بالأمير شديدة التأثير ببلاطه، عاكسة ملامحها المتنوعة على المجتمع بصورة علمة، فإذا هو مطبوع بمادة جديدة من الترف الاجتماعي والذوق الأنيق، عدا المواهب الأصيلة التي جاءت معه وكانت سبب مجيئه، كالموسيقى المتجددة والغناء الرفيع. وأعني بذلك الحسن بن علي بن نافع المعروف بـ «زرياب»، حيث الكنية الأخيرة، ليست سوى لقب معناه بالعربية الطائر الغريد الأسود اللون. ويبدو أن اكتسابه لهذا اللقب عائد إلى سمر داكنة تميز بها، أو أن لونه كان أسوداً كلون هذا الطائر. ولقد جاء في العقد الفريد «انه كان عبداً أسود للموصلية»^(١)، المعني الذائع الصيت في بلاط الرشيد. ومن هنا تبدأ قصة زرياب مع الشهرة والتي كاد أن يخسر معها حياته في بغداد، ذلك أن الفتى الفارسي الذي دخل في خدمة الموصلية، فاكشف فيه ميلاً إلى الغناء وموهبة موسيقية فذة، لم يلبث أن أصبح تلميذاً متفوقاً بات يحشاه الأستاذ، حتى إذا امتلك الصنعة وبرع فيها أتبع له أن يعزف شيئاً من ألحانه في حضرة الخليفة، فأطربه وانتزع إعجابه. ولكن هذه المناسبة بدل أن تفتح له آفاق الشهرة والصعود، كادت أن تقضي عليه، لأن أستاذه الأثير عند الخليفة والنافذ في البلاط، لم يحتمل وجوده في بغداد، فتصحه بلهجة لا تخلو من التهديد بالخروج منها.

غادر التلميذ المتفوق العراق باتجاه المغرب، فوصل إلى القيروان - عاصمة الأغالبة - في أواخر القرن الثاني للهجرة. ولقي هناك كل حفاوة وترحيب، حتى اختلف مع أميرها (زيادة الله)، الذي أمره بمغادرة بلاده^(٢).

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٧ ص ٣٠. جاء في افتتاح الأندلس لابن القوطية أن زرياب كان في بلاط الأمين ثم هرب من بغداد بعد مقتل هذا الخليفة. ص ٨٩.

(٢) يقول ابن عبد ربه، إن سبب الخلاف أبيات لعترة غناها زرياب للامير الأغلب فوقع منه موقع الغضب. العقد الفريد ج ٧ ص ٣٠ - ٣١.

ومرة أخرى يهيم زرياب على وجهه خائفاً مذعوراً، ويتطلع إلى الأندلس آملاً أن يجد فرصته التاريخية هناك، بعد أن أوردته تلك الموهبة أو كادت موارد التهلكة في بغداد والقيسروان. وانتظر أن يسأته جواب الأمير الجديد (عبد الرحمن الثاني) بالموافقة، حتى إذا تم له ذلك انتقل إلى قرطبة^(١)، ليجد فيها المحل اللائق به والطموح الذي يتوق إليه.

وفي عاصمة الأندلس الأموية، وجد زرياب المناخ الاجتماعي الملائم للعطاء والإبداع. في الموسيقى وفي غيرها من المجالات. وكان في مزاج الأمير المثقف والمذوق فرصة نادرة لأن يكون نجم البلاط المتألق والشخصية الأكثر جاذبية فيه. ولعل شهوة زرياب في قرطبة مبنية أساساً على أنه كان رائداً في التجديد الموسيقي، حيث أضلفه إلى العود آلة الغناء الرئيسية في ذلك الوقت، وتراً جديداً لم يكن متداولاً من قبل^(٢)، هذا فضلاً عن امتلاكه الخارق لهذه الآلة وسيطرته المطلقة على أوتارها، يساعده صوت عذب وشجي. كذلك فهو رائد استخدام التنويع الغنائي في الموسيقى العربية، باشتراك عدة مغنين أو مغنيات إلى جانب المغني الرئيسي.

والى جانب الغناء الذي أصاب منه تلك المنزلة المتفوقة، نستطيع القول إن زرياب أحدث انقلاباً في الحياة الاجتماعية الأندلسية، استهدف كل جانب من جوانبها الكثيرة، سواء في الأطعمة حيث انتقل معه الذوق الشرقي وتعدد الأصناف، وآداب الموائد التي لا زالت في كثير من ملامحها سائدة هذه الأيام، أو في مظاهر الأناقة حين ابتكر طريقة خاصة لتصفيف الشعر، والتنويع في الألبسة تبعاً للفصول، مع مراعاة النوع واللون. وهكذا لم يخل جانب ما في المجتمع الأندلسي، إلا وكان له نصيب من ذوق زرياب وابتكاراته، هذا

(١) وصل إليها على الأرجح سنة ٢٠٧ هـ.

(٢) كان العود يتألف من أربعة أوتار قبل أن يضيف إليه زرياب وتره الخامس، راجع لين بول، العرب في إسبانية ص ٦٩ - ٧٠.

المغني الطموح الذي طبع العصر بشخصيته الفذة، حتى غدا أحد رموزه الحضارية المشعة في ذلك الوقت^(١).

وأخيراً فإن بلاط الإمارة استقطب عدداً من الشخصيات البارزة، كان لها مقامها وكلمتها المسموعة، إلا أن أحداً منها لم يبلغ ذلك المستوى الذي وصل إليه زرياب في التأثير على عصر بكامله، تناول مختلف الفئات الاجتماعية فيه وليس داخل أسوار القصور فقط. ومن هذه الشخصيات، الفقيه المالكي المعروف يحيى بن يحيى الليثي الذي كان وراء حركات المولدين في العهد السابق، والعالم الكيميائي عباس بن فرناس الذي مارس نشاطه العلمي وقام بتجاربه في جو من الحرية لم يجدها في غير هذا العهد، وكذلك جارية الأمير الباسكاوية (طروب)، التي افتتن بها واحتلت مكانة أثيرة عنده^(٢)، وأخيراً شخصية السفير الشاعر يحيى بن حكم البكري المعروف بالغزال، التي نالت نصيبها من الشهرة بين مساعدي الأمير وأعوانه.

وهكذا كانت شخصيات البلاط ورجالاته المقربين، من الموسيقي العبقري إلى الفقيه الشهير قاضي قرطبة، إلى الشاعر رجل المهمات الدبلوماسية، انعكاساً لشخصية عبد الرحمن الثاني، الأمير المثقف الذي اختار أعوانه من هذه المجموعة النخبوية، دون أن يدع لأحد مجال الاستئثار بما هو خارج عن اهتمامه، فاستطاع بأسلوبه الهادئ أن يحفظ التوازن في إدارته وأن يجنبها العثرات والمشاكل.

بقي أن نشير إلى أهم منجزات عبد الرحمن الثاني العمرانية، وهي بلا ريب كانت إحدى مآثره الحضارية التي لا يمكن اغفالها. فعدا المدينة التي أمر بإنشائها بعد إخضاع ثورة تدمير، والتي عرفت باسم مرسية^(٣) Murcia،

(١) عن زرياب، راجع تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطبة ص ٨٩، نفح الطيب ج ٤ ص ١٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٢.

(٣) (٢١٦ هـ / ٨٣١ م).

كذلك ارتبط اسمه بالسور الذي أنشئ حول اشيلية في أعقاب الغزوة النورمانية. وفي قرطبة، كان لها أن تتألق كعاصمة فخمة لامارة عظيمة، فالإلى عهده يعود ذلك الرصيف المعبّد المحاذي لنهر الوادي الكبير، فضلاً عن القصر الخاص الذي كان صورة لترف الأمير، بما حوى من تطوير فني ومعماري، كالشرفات العالية المطلّة على النهر والتجهيزات الداخلية المعقّدة، على نحو لم يكن معروفاً في السابق. وكان للمسجد الكبير كالعادة نصيبه من اهتمام الأمير، فهو الصرح المشترك لتنافس الأمراء في الذوق والسخاء، أما عبد الرحمن الثاني فقد أضاف إليه مساحة كبيرة احتلتها ثمانون من السواري^(١).

(١) بلغت الزيادة التي أضيفت إلى المسجد مئة آلاف وخمسمائة ذراع مربع. راجع ابن عذاري ج ٢ ص ٨٢.

E. Lambert, les mosquées de type Andalous en Espagne et en Afrique du Nord. p 273.

الانتكاسة

اختلال المركزية في قرطبة

(٢٣٨ - ٣٠٠ / ٨٥٢ - ٩١٢)

محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ / ٨٥٢ - ٨٨٦) غاب عبد الرحمن الثاني عن أمارته وهي موطدة هادئة، تستقطب أعلام الفكر وتجذب أصحاب المواهب. وجاء من كان معداً لخلافته وهو الأمير محمد، الذي سبق أن تولى مهمات إدارية في سرقسطة وعسكرية في حملة البشكنس (الباسك)، ودبلوماسية مع أعداء الدولة المجاورين لا سيما الفرنجة. فهو إذن صاحب تجربة سابقة في الحكم ووثيق الصلة بأبيه الذي اصطفاه ولياً لعهد رغم تكتل المحظية الأثيرة (طروب) وعصبتها في القصر، ليكون ابنها (عبد الله) المرشح للإمارة^(١)، وهو بالتالي رصين يقظ، مرهف الإحساس، قوي الإرادة، غير متخاذل^(٢). ولكن كفاءة الحاكم ليست وحدها دائماً المعيار الأساسي للنجاح، فالمطلوب إلى جانب ذلك عوامل أخرى لا تقل أهمية، وفي طبيعتها البنية الاجتماعية المنسجمة والمصالح المشتركة غير المتنافرة، والولاء الموحد لحكم مركزي منفتح على جميع التيارات، وليس احتكاراً لفئة خاصة. فهل توفرت هذه الظروف أو بعضها للحاكم الجديد؟

والواقع أن الإمارة الأموية حتى في أيام الرخاء إبان عهد عبد الرحمن الثاني، لم تكن خالية من المتاعب، ولم تكن السلطة فيها إلا عبثاً ثقيلاً على أمراء تلك

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٦.

(٢) عن الأمير محمد راجع أخبار مجموعة ص ١٤١-١٤٢.

الحقبة. ذلك أن قضيتين أساسيتين كان على كل أمير جديد أن يتصدى لهما، أو انزلق ومعه النظام إلى مهاوي التمزق والانقسام: القضية الأولى وهي الأكثر خطورة، تكمن في طبيعة المجتمع الأندلسي المفكك، الذي هو عبارة عن قبائل وشعوب متعددة، خضعت للسيادة الأموية إما طوعاً أو كرهاً وإما ابتغاءً لمصلحة، دون أن يجمع بينها قليل من القاسم المشترك بالمسؤولية الوطنية. فإذا تطرقنا إلى عناصرها المختلفة، نجد أنها تتراوح بين أقلية عربية جاءت مع الفتح أو في ظروف عادية، وحتى هذه كان يعوزها الانسجام لتوزع انتماءاتها قبلياً بين قيسي وبغيني، وأقليمياً بين حجازي أو شامي أو أفريقي، وبين أقلية أخرى من البربر جاءت في نفس الظروف ونازعته مشاعر السيطرة والنفوذ، فاختفت مراراً ولكنها لم تتخل عن طموحها الذي استمدته من دعم القوة الأساسية للبربر في المغرب، وكذلك بين أغلبية من السكان الأصليين الذين تأقلموا مع النظام، عقيدة وهوية فصاروا يعرفون بالمولدين، بالإضافة إلى فئة أخرى من هؤلاء تأقلمت هوية دون عقيدة وهي التي عرفت بالمستعربة أو المستعربين. أما القضية الثانية والتي كانت نتيجة حتمية لهذا المجتمع المنخور والمتنافر عنصرياً ودينياً، إن لم نقل اجتماعياً، هي العلاقة العدائية بين حكومة قرطبة وبين الإمارات الأسبانية في الشمال، التي كانت تغذي هذا التنافر وتستفيد من اختلال الحكم المركزي لحساب مصالحها التوسعية.

هكذا كانت ظروف الإمارة الأموية مع استلام الأمير محمد شؤون الحكم في قرطبة. تناقضات هائلة ورياح حركات استقلالية مكبوتة تنتظر لحظة الانفجار في الوقت المناسب، حتى إذا حانت الفرصة في مطلع عهده وثب الطامحون إلى السلطة كل في مقاطعته، حيث يتوفر الانصار والمؤيدون، وكأنهم على موعد مع خطة مشتركة ومديرة. وحاز «المولدون» قصب السبق في عملية اقتسام الدولة، التي كانت حتى وفاة عبد الرحمن الثاني محافظة على وحدتها السياسية الكاملة، أما الآن فلم تعد سلطة الأمويين خلال فترة الستين عاماً، ما بين غياب هذا الأخير وبجيء الناصر، تمتد إلى أبعد من إقليم قرطبة، كأى إقليم آخر في الإمارة

المنهارة. ففي شمالي شرق إسبانية، أعلن موسى بن موسى^(١) (من المولدين)، منطقة الشجر الأعلى ولاية مستقلة عاصمتها سرقسطة. وفي غرب الأندلس استقل عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، وهو من المولدين أيضاً، عن حكومة قرطبة في بطليوس. وعمر بن حفصون وهو كذلك مولدي، الذي كان في ممارساته قريب الشبه بزعيم حركة متطرفة، تزرع الذعر في البلاد وتقطع الطرق وتسلب الناس، حيث اتخذ مركز نشاطه في منطقة جبلية وعرة في الجنوب بين مالقة ورندة، تعرف بحصن بيشتر Bobastro^(٢). وإلى جانب هؤلاء المولدين، كان البربر يتربصون السوانح لاتخاذ مراكز نفوذ لهم، فسيطروا على طليطلة (موسى بن ذي النون) وعلى جيان (بنو الملائخ). ولم تفت عملية التقاسم هذه بعض زعماء العرب، الذين ثاروا بدورهم على الحكم المركزي، واتخذوا في إشبيلية وقرمونة قواعد نفوذ لهم (بنو الحجاج من العرب اليمنيين).

هذه هي أهم الحركات الاستقلالية التي عصفت بإمارة الأمويين في الأندلس، حدث بعضها في وقت مبكر من عهد الأمير محمد، وبعضها تأخر سنوات معدودة. وكان قدر هذا الأمير أن يصرف كل جهوده وأوقاته، لمعالجة أخطر أزمة سياسية تعرضت لها الأندلس في تاريخها العربي الإسلامي حتى ذلك الحين. ويبدو أن مشاكله جاءت أيضاً من أقرب الناس إليه وهو هاشم بن عبد العزيز، الوزير المتفطرس الذي كان يتسع قلب الأمير لهفواته^(٣)، ولكنها كانت تترك أثراً سيئاً على آلة الحكم وعلى العلاقات مع حكام الأقاليم.

لقد كانت إمارة محمد الأول وابنيه من بعده، تمثل انتكاسة للمنجزات الضخمة التي تحققت على يد الأوائل من الأمراء الأمويين، واتخذت تألقها الحضاري بشكل خاص في أيام عبد الرحمن الثاني. ولم تكد تمر بضعة أيام على

(١) هو موسى بن موسى الذي ثار في العهد السابق في تطيلة من أعمال أراغون. العذري، ترصيع الأخبار ص ٢٩.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٦.

(٣) أخبار مجموعة ص ١٤٢ - ١٤٣.

موت هذا الأخير حتى كانت طليطلة رائدة العصيان في كل عهد، ترفع علم الثورة وتهاجم حاكمها الأموي وتلقي به في السجن، مساومةً على أسرى لها معتقلين في قرطبة. ولما استجاب الأمير لمطلبها عادت بعد حين (٢٣٩/٨٥٣) وطردت الحامية الأموية من قلعة رباح المجاورة. وعلى الرغم من استعادة القلعة في وقت لاحق، إلا أن طليطلة استمرت مضطربة تنتهز الفرص للثورة على حكومة قرطبة. فقد تعرض أحد جيوش الإمارة وهو في مهمة عسكرية في شندلة Jandula^(١)، لكمين شنه ثوار المدينة المتمردة، أوقع به هزيمة ساحقة. وكانت هذه الحادثة كافية لإعلان العصيان المنظم في طليطلة، حيث يسيطر المولّدون وبعض المستعربين، الذين كانوا يلقون عطف وتشجيع الدويلات الاسبانية، خاصة في عهد الملك الاستورقي أردونيو الأول Ordonio 1^(٢)، الذي أرسل جيشاً لمساعدة الثوار، في سابقة لم تحدث قبلاً في الأندلس. وربما كان لهذه المبادرة أثر في ترويع الجو العام في قرطبة، التي كان لديها القدرة على تجميع قوات ضخمة، بقيادة الأمير محمد نفسه (٢٤٠/٨٥٤)، لقمع هذه الحركة الخطيرة. وكانت الخطة متقنة إلى حد كبير بحيث أن الأمير استطاع تضليل الثوار بأعداد ضئيلة من حملته، التي اختفى معظمها في كمائن بين التلال المشرفة على نهر سليط Salit، وهو رافد صغير لنهر تاجة Tago. وفي هذا المكان جرت معركة طاحنة مع ثوار طليطلة الذين استدرجوا إليه، ووقعوا في الشرك المنصوب لهم، حيث سحق ثورتهم ومعها القوة التي أرسلها الملك الاستورقي^(٣).

وعلى الرغم من أهمية الانتصار والكسب المعنوي الذي تحقق للأمير الجديد في مطلع ولايته، إلا أن مشكلة طليطلة ظلت قائمة تنذر بالخطر بين الحين والحين، وأضحت المدينة ملجأً مختلف التيارات السياسية والدينية، وهي في

(١) قلعة تقع على رافد لنهر الوادي الكبير يحمل نفس الاسم. عنان، دولة الإسلام في الأندلس

ج ١ ص ٢٩٢ . Levi - Provençal, Hist 1, 292 .

O. P. Cit 1, 293

(٢)

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥ .

معملها حاكمة على السيادة الأموية في قرطبة^(١). ولقد قابل الأمير محمد ثورة طليطلة بجندية وشجاعة، ونجح في قمع عدة انتفاضات على جانب من الخطورة، حتى انتهى الأمر بها إلى الرضوخ والاعتراف بسيادته بعد الضربة العنيفة التي تلقفتها على يده (٨٥٨/٢٤٤). ولا تلبث طليطلة أن تعود إلى خطها السلمي، برغم محاولة السلطة تطويق الاضطرابات فيها، إلا أن ذلك كان تدبيراً وقتياً، لأن المدينة وقعت تحت سيطرة بني ذي النون البربر وتحولت إلى أقلية مستقل بموافقة الأمير الأموي.

وكانت ماردة في ذلك الوقت قد سارت على خطى طليطلة، وأعلنت بدورها الثورة بزعماء عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي^(٢). غير أنها استسلمت بعد حصار الأمير، الذي تركها وشأنها مقابل تسليم زعماء الثورة، فاستجاب لذلك وتم القبض على هؤلاء بمن فيهم الجليقي، وإسداهم السجن في قرطبة. إلا أن هذا الأخير لم يعدم فرصة للهرب والعودة إلى الاعتصام في قلعة^(٣) بالقرب من ماردة، حتى إذا طاردته قوات الأمير استسلم ثانية وأُعيد إلى السجن. ثم ناشد الأمير محمد الإفراج عنه والسماح له بالإقامة في بطليوس Badajoz الواقعة في وادي غاديانا Guadiana^(٤). ولكن هذه البلدة القديمة، لم تلبث أن تحولت مع الجليقي إلى معقل حصين ومركز لنشاطه الثوري ضد الأمير الأموي، وأخذ يمتد نفوذه السياسي حتى جوار أشبيلية. ولما أرادت حكومة قرطبة أن تضع حداً لمغامراته، أدرك أنه لن يفلت هذه المرة من العقاب، فوجد ملجأ لدى ملك استورقة^(٥) الذي كان على استعداد لتبني هذه الحركات الانفصالية في إمارة الأندلس. فعاش بضعة أعوام مع أصحابه في ضيافة الملك، قبل أن ينشب

Voir: Dozy, Hist 1,356

(١)

(٢) مولد من أصل جليقي. Levi - Provençal, Hist 1,295.

(٣) قلعة حنش Levi - Provençal, Hist 1,296.

(٤) تقع بطليوس على بعد أربعين ميلاً إلى الغرب من ماردة. الروض المغطار ص ٤٦.

(٥) الفونسو الثالث.

الخلاف بينهما، ويعود الجليقي غاضباً إلى بطليوس (٢٧١/٨٨٤). وفي هذه الأثناء كان الأمير مترصداً له فأرسل حملة إلى المدينة، أرغمته على مغادرتها إلى مرتفعات أشبرغوزة Esparragosa^(١). فلاحق به المنذر أحد أبناء الأمير، ولكنه لم ينل منه في تلك المنطقة الوعرة، فاضطر مكرهاً إلى مهادنته، في وقت هبّت عليه المشاكل من كل الاتجاهات، والاعتراف به حاكماً على بطليوس والمنطقة المحيطة بها^(٢).

ثورة ابن حفصون أثارت شخصية عمر بن حفصون^(٣)، أخطر ثوار تلك المرحلة، جدلاً كبيراً في أوساط المؤرخين الذين أولوه من الاهتمام الكثير. فهو متطرف منذ فجر شبابه، ميال إلى المغامرة، مطبوع على العنف ومجبول بالقسوة. عاش مطلع حياته في إقليم رندة Ronda، ثم رحل إلى المغرب هارباً من جريمة ارتكبها لاسباب تافهة في أحد الأحياء الشعبية، حيث طبيعته الشرسة لا يردّها كايح ولا ترتبط بقوانين. ثم عاد إلى الأندلس سراً ومعه تصميمه على الثورة، فاستولى على قلعة قديمة في جبل بيشتر في إقليم رية، مستقطباً حوله جماعة لا تقل عنه شراسة وتمرداً وذلك في سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨٠ م. وكانت أولى أعماله المنظمة ضد حكومة قرطبة، الهزيمة التي أوقعها بحاكم رية عامر بن عامر، حيث كان لها الأثر الكبير في تقوية نفوذه وازدياد حجمه. فرد عليه الأمير بإرسال حاكم جديد على الأقليم (عبد العزيز بن عباس) بقوات مكثفة، مما حال دون اشتباك ابن حفصون معه، ومن ثم تراجع إلى قلعته والاعتصام فيها. غير أن القائد الأموي لم يشأ أن يعود بغير نتيجة، فشدد حصاره على القلعة حتى توصل مع الثائر إلى هدنة مشتركة^(٤). ولكن الأمير محمد رفض الموافقة على هذا التدبير،

(١) تقع بالقرب من وادي (بانه) Levi - Provençal, Hist 1,298 - 299.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٢ وما بعدها.

(٣) هو مولد كما أشرنا سابقاً ويبدو أن كلمة حفصون تحريف لحفص، والواو هنا في آخر الكلمة لها دلالة على التخميم في اللغة الاسبانية. حيث كانت تتردد هذه الأسماء في الأندلس كابن

زيدون وابن عبدون وابن خلدون. . . Levi - Provençal, Hist 1,302.

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٤.

فعزل القائد ابن عباس وأرسل وزيره هاشم لمتابعة المهمة والقضاء على اعتصام الثائر، فنجح الوزير حيث أخفق القائدان السابقان، وأرغم ابن حفصون على الاستسلام مع جماعته، وحملوا جميعاً إلى قرطبة.

وفي العاصمة، ارتكب الأمير محمد الخطأ نفسه الذي ارتكبه مع الجليقي، فهو لم يكن دموياً بطبيعته، بل كان يؤثر الاعتدال وتجنب العنف. وهذا ما حدث مع ابن حفصون، حيث وقعت شخصيته الذكية موقعاً حسناً لدى الأمير الذي عفا عنه. وبلغ به التسامح أن عينه في منصب هام في الجيش، ليشترك في العمليات العسكرية الرامية إلى قمع المتمردين، وقد كان لوقت قصير أخطرهم على الإطلاق. ولم يطل المقام به في قرطبة، لأن طبيعته المتمردة ترفض التقيد بقوانين المنصب والامتثال لأوامر الرؤساء، ولا تلبث أن تفتقده أوساط الإمارة، لتسمع أنه عاد إلى قلعته في بيشتر (٢٧١/٨٨٤)، أي قبل عامين من وفاة الأمير محمد. وكان هذا الأخير قد أنهكته السنوات الطويلة في مطاردة الثائرين، دون أن يضع لنشاطهم حداً، لا سيما ابن حفصون الذي أطلق العنان لنفسه عابثاً غرباً، إلى أن تصدى له الأمير منذر بن محمد في أواخر أيام والده، وكان قد بدأ فعلاً يمارس الحكم بعد أن أخذ الإرهاق من هذا الأخير كل مأخذ. فأرسل محمد بن جهور إلى إقليم ربة معقل الثائر ابن حفصون، غير أن هذا القائد عرج أولاً على مالقة قبل تنفيذ مهمته الرئيسية، حيث كان ثائر آخر وحليف لابن حفصون، كان قد اتخذ معقلاً هناك لحركة انفصالية مشابهة^(١).

وما كادت تصل أخبار الحملة العسكرية التي بعثها المنذر إلى مسامع ابن حفصون، حتى غادر قلعته وقصد معقل حليفه لقطع الطريق على جيش الإمارة. ولكن القائد الأموي سبقه إلى إحكام الطوق على القلعة التي سقطت برغم اشتراك الحليفين في الدفاع عنها، حيث أصيب قائدها بجراح بليغة، بينما هرب ابن حفصون وجماعته قبل أن تدركهم سيوف القائد الأموي. غير أن

(١) هو الحارث بن حمدون الذي اتخذ معقله في (الحاقة) إلى الشمال الشرقي من مالقة.

الأقدار شاعت أن ينجو ابن حفصون مرة ثانية، حيث نعت قرطبة في ذلك الحين الأمير محمد (٢٨ صفر ٢٧٣/ ٤ آب ٨٨٦)^(١)، واضطر الأمير الجديد (المنذر) إلى أن يحشد معظم طاقاته في العاصمة تحسباً لأي طارئ. وبذلك أفلت الناصر المولدي من قبضة الأمير محمد، كما سيفلت من قبضة خليفته المنذر وعبد الله.

المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٨٨٦/ ٢٧٥ - ٨٨٨) تسلّم المنذر تراثاً ثقيلاً من المشاكل، لم يكن من السهولة الخروج بحلول لها ولو بصورة جزئية. فالتمزق السياسي بلغ مداه، والحركات الانفصالية أخذت تتفشى في كل الأقاليم، والمؤامرات تزحف إلى القصر فتصيب رؤوس الكبار وتصل إلى الأمير نفسه. وكان ابن حفصون سيد الموقف وأكبر هواجس المنذر وخصمه الأكثر عناداً، يرتع في المناطق الجنوبية ويقفز من مدينة إلى أخرى، والأمير حينذاك مشغول بتصفية حسابه مع وزير أبيه (هاشم بن عبد العزيز)، الذي بقي في منصبه بعد مجيء المنذر. وكانت بين الرجلين مودة مفقودة منذ زمن بعيد، فلم يمض أكثر من شهرين، حتى دبّر الأمير لوزيره ضربة مفاجئة أودت بحياته وألقت بجماعته في غياهب السجن^(٢). وهذه المبادرة قد يكون لها ما يسوّغها لدى المنذر، الذي فقد ثقته بالوزير الانتهازي وضاق بتصرفاته منذ عهد أبيه، إلا أنه افتتحت شريط الاغتيالات في البلاط الأموي في قرطبة، مما سيؤدي إلى اضطراب الوضع وانحسار سلطة الأخيرة.

لقد كان المنذر قوي الشخصية، صاحب كفاءة في الحرب، حيث جاء إلى الحكم ومعه طموح كبير للقضاء على الحركات الانفصالية، وفي طليعتها حركة ابن حفصون، التي امتدت رقعتها حينذاك من جيان شرقاً إلى شذونة واستجة غرباً، وباتت تجسّد الآمال الوطنية للأكثرية من المولدين، الذين وجدوا في هذا الناصر «بطلاً قومياً» على حدّ تعبير المؤرخ الهولندي دوزي Dozy. ولعل هذا

(١) راجع أعمال الاعلام لابن الخطيب ص ٢٣.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦.

الثائر وجد أن الظروف متاحة لتحقيق أحلامه في السلطة. فأخذ يبحث عن دعم خارجي، حيث قاده العامل الجغرافي إلى الاتصال بأمير القيروان الأغلبي^(١)، لمساعدته في هذا الشأن. ولكن هذا الأخير رفض التورط معه، فعاد يجهد لتحقيق قوة ذاتية من المولدين الذين أخذوا يتدفقون على حركته، بعد اتخاذها آنذاك إطاراً منظماً، وتحولت إلى نوع من «الحكومة» الثورية، لها دورها الأمني والاقتصادي بالإضافة إلى الدور العسكري^(٢).

ولقد بلغ من حماسة الفئة التي تزعمها ابن حفصون، أنها لم تعد تكتفي بالسيطرة على الأرض وتحقيق مكاسب سياسية، وإنما أخذت تنجح إلى التطرف والقيام بأعمال انتقامية مروعة، كان مخططاً لها بيراعة لإحداث جو من الذعر، يلتصق باسمها ويرافق تحركاتها. وفي تلك الأثناء، كان المنذر قد أنهى ترتيباته لقمع هذه الحركة، فقام على رأس قوة ضخمة مستهدفاً اقتلاع جذورها والقضاء على قلعتها المنيعه. فحاصرها نحو أربعين يوماً حصاراً محكماً، لم يتوقف إلا بموته الفجائي، حيث قيل إنه حينذاك شعر بالمرض وعهد إلى أخيه عبد الله متابعة هذه المهمة. غير أن موته لم يخلُ من تساؤلات وشكوك بأن يكون وراءه مؤامرة مدبرة. وتشير أصابع الاتهام - حسب اعتقاد عدد من المؤرخين - إلى أخيه عبد الله المرشح لخلافته^(٣) بأنه ضالع في هذه المسألة.

وهكذا لم يطل عهد الأمير المنذر أكثر من عامين^(٤)، فكان أقصر العهود الأموية في الأندلس، دون أن يحالفه النجاح بالقضاء على ثورة ابن حفصون، بعد أن قضى نحبه وهو يلقي الحصار عليه. فهل سيتاح لخليفته أن يكون بطل المهمة، أم أنه سترك ذلك للظروف ومتغيرات الأحوال؟ .

عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠/٨٨٨ - ٩١٢) انتقل الحكم إلى الأمير عبد الله دون ضجيج أو منافسة، ولعل التركة الثقيلة من المشاكل والأخطار العاصفة

(١) ابن حيان، المقنن ص ٩٣.

(٢) ابن عذاري، ج ٢ ص ١١٧ - ١١٨.

(٣) ابن القوطية ص ١٢٠.

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٢. أخبار مجموعة ص ١٥٠.

بالإمارة من كل صوب، لم تشجع أحداً من الأخوة الكثر على ركوب هذا المركب المترنح وسط عباب الأمواج العاتية. فمن ثورة ابن حفصون التي باتت معضلة النظام الأموي في قرطبة، إلى الحركات الانفصالية الأخرى، التي احتلت مكانها في حرب الصراع على النفوذ واتسعت دائرتها لتجرّ ذوي الطموح من عرب وبربر ومولدين آخرين، فتجرّ معهم الأندلس الأموية إلى مهاوي الضياع والتسبب. ولعل الباحث الذاهب بخياله إلى تلك الحقبة الخالكة، لا بد له أن يستشفّ معالم النهاية القريبة لهذه الدولة. غير أن الزمن يمرّ والأخطار تتفاقم، والتحديات تستوجب صموداً وجلداً عظيمين، والأمير الجديد المرفه الاحساس والقوي الإرادة^(١)، لا ترهبه الشدائد ولا تربكه المهمة المستحيلة. وإذا لم يكن لجهوده من تأثير إيجابي في إنقاذ الأندلس من حروبها الداخلية الساخنة، فإنه بدون ريب أوقف عجلة السقوط السريعة أو خفف على الأقل من مجوحها، ليتاح لهذه الدولة فرصة جديدة من الحياة والتألق بعد موته.

بين عبد الله وابن حفصون بدأت العلاقة بين الأمير الأموي والثائر المولدي، بمعاهدة سلمية ربما كان في انعقادها مصلحة للطرفين. فالأمير كان بحاجة إلى شيء من الوقت ليتاح له تنظيم إدارته وإعداد قواتها العسكرية، كذلك ابن حفصون الذي أدرك أن للمرحلة متطلبات جديدة و«استراتيجية» مختلفة، حرص على أن يستفيد قدر المستطاع من الهدنة. وكان ثمن هذه الأخيرة أن يبقى الثائر المولدي مع جماعته في قلعة ببشتر، ولكن تحت وصاية الأمير ومراقبة الحاكم الذي عينه على أقليم رية. بيد أن هذه المعاهدة كانت هشّة، وما لبثت أن تداعت بعد أشهر قليلة، وقامت حركة الثائر الخطير باستئناف الحرب المسلحة في المناطق المحيطة بأقليم رية، حيث تأرجح النفوذ مراراً في السنوات الأخيرة بين حكومة قرطبة وبين الثائر المولدي. فاستهل الأمير عبد الله أعماله العسكرية بمطاردة هذا الأخير حتى معقله، ثم عاد إلى عاصمته مؤثراً عدم الابتعاد عنها طويلاً، في حصار غير حاسم للقلعة الحصينة

(١) أخبار مجموعة ص ١٥٠ - ١٥١.

(٢٧٦/٨٨٩)^(١). وفي هذا الوقت أُتيحت الفرصة لابن حفصون أن يوسع دائرة نفوذه شمالاً ويستولي على استجة، مستهدفاً قرطبة، ولكن المحاولة فشلت ورَدَ صاحبها على أعقابهِ^(٢).

ويبدو أن الهزيمة التي حُلَّتْ بابن حفصون بعد موقعة استجة كانت شديدة، لما خلفته من خسائر جسيمة بين جماعته، إلى درجة أصبح معها بحاجة إلى هدنة جديدة مع أمانة قرطبة. ولقد مهَّد لذلك بمبادرة إيجابية، عندما قامت مجموعة من عناصره إلى جيَّان حيث ثار مولد آخر^(٣) في قلعة شوذر Jodar، مدفوعاً بعوامل نفسية وشعوبية لا تختلف كثيراً عن دوافع ابن حفصون، فاغتالته وجاءت برأسه إلى زعيمها في بيشتر وأرسله هذا إلى العاصمة، مصيباً بذلك هدفين: التخلص من ثائر مجاور ينافسه في زعامة الأقاليم الجنوبية، ومحاولة التقرب من الأمير عبد الله واستدراجه إلى معاهدة جديدة، تعطيه فرصاً أفضل للتحرك والنجاح^(٤). ولكن عبد الله كان أكثر حذراً وذكاءً من الوقوع مرة أخرى في شرك المهادنة، رافضاً هذا التودد من ابن حفصون ومتمسكاً بموقف السلطة التقليدي من حركته الخطيرة.

وبعد سنتين من هزيمة استجة (٢٧٨/٨٥١)، عاد ابن حفصون إلى تصعيد الحرب المسلحة، بعد وقت صرَّفه في تنظيم قواته وتكثيفها، بحيث تفوقت على القوات المركزية^(٥). فشن هجوماً على أقليم جيَّان، ومن هناك تقدم شمالاً حتى بلغ مشارف العاصمة^(٦)، ليفاجئ الأمير بأسلوبه الجديد في القتال، عبر العمليات الجريئة التي قامت بها عناصره المدربة، على نحو ما نسميه اليوم بحرب العصابات، بكل ما تعنيه هذه الكلمة. ولقد اتخذ من أحد الحصون المعروفة

(١) أخبار مجموعة ص ١٥١. أعمال الاعلام ص ٢٨.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٥١.

(٣) خير بن شاكر، المقتبس لابن حيان ص ٩٢-٩٣.

(٤) راجع أعمال الاعلام ص ٢٨.

(٥) راجع المقتبس ص ١٠٤.

(٦) أخبار مجموعة ص ١٥١.

باسم بُلاي Poley - كما جاء في المصادر الأندلسية القديمة ^(١) - معسكراً لقواته . ومن هذا الموقع كانت تنطلق تلك الهجمات التي أشاعت في قرطبة جواً من الذعر والهلع . وكان الأمير عبد الله منهمكاً في الدفاع عن عاصمته ، مستنفراً كل طاقاتها لردّ الخطر المحدق بها ، فصب اهتمامه الخاص على سلاح الفرسان وعلى قائده أبي العباس (أحمد بن محمد) ^(٢) الذي عُهدت إليه مهمة التصدي لابن حفصون . وكان لسلاحه هذا الخفيف الحركة ، دوره المطلوب ، محققاً ما كان معقوداً عليه من آمال ، بتمزيقه طليعة الثوار ، الذين انكفأوا حينذاك إلى الحصن للاعتصام به على غرار ما كان يجري في قلعة بيشتر . ولكن جنود القائد الأموي كانوا حائلاً بضرباتهم السريعة دون تحقيق ذلك ، فسقط الحصن وتشرذم الثوار وتدفعوا إلى الجبال المجاورة هارين من الموت . وفي الوقت نفسه استعاد الأمير عبد الله سيادته على بُلاي وأستجة والمناطق الأخرى ، بينما عاد ابن حفصون إلى قلعته ^(٣) يحتر مشاعر الخيبة ومرارة الهزيمة القاسية التي حلت به ، وكانت أشد ما تعرض له في حياته ، وسيكون لها أثر كبير في تحجيمه واختلال مركزه في أذهان مؤيديه وأنصاره . وفي قرطبة أعطت هذه المعركة لنظام الأمير شحنة من الحيوية وثقة كبرى في الصمود ، وفجّرت قصائد الشعراء المادحين ^(٤) ، تمجّد الانتصار وتسبغ عليه هالة من العظمة .

ومن البديهي أن القضاء على هذه الحركة الخطيرة ، كان يتصدّر الأولويات في سياسة الأمير الأموي ، ولكنه لم يجد مناصاً من التحرك على جبهات أخرى مقلقة ، مستفيداً من ركود الجبهة مع ابن حفصون . وإذا انصرف إلى معالجة قضية أشيلية القرية منه ، كان الثائر المولدي ينفذ عنه آثار الهزيمة ويعيد النظر في أوضاعه ، مستقطباً ما استطاع الحلفاء ، في محاولة للضغط مجدداً على

(١) يقع هذا الحصن إلى الجنوب من قرطبة . راجع : أخبار مجموعة ص ١٥١ . أعمال الاعلام ص ١٥١ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٥١ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المقتبس لابن حيان ص ٩٧ - ١٠٠ .

إمارة قرطبة والإطاحة بها. غير أن هذه الاجراءات لم تكن مجهولة لدى هذه الأخيرة، التي كانت تستقي المعلومات بانتظام عن ابن حفصون وتراقب بحذر ما يجري في قلعة النينة. وكان نذّه البارز آنذاك، (المطرف) أكثر أبناء الأمير شجاعة، الذي أنزل به ضربة قوية جديدة (٢٨١/٨٩٤)، أفقدته عدداً من قواده الأكفيا، واضطر بعدها إلى التفرق في معسكره نحو ثلاث سنوات، دون أن يقوم بأية بادرة عدائية نحو إمارة قرطبة^(١).

على أن حركة ابن حفصون، أخذت بُعداً جديداً في عداتها للسيادة الأموية في الأندلس. فقد جاء تحوّل زعيمها إلى المسيحية^(٢) - حسب ما أورده بعض المصادر - مؤشراً لتصعيد الأزمة مع السلطة ووضعها في مأزق جديد. على أنه من المعتقد أن بواعث هذا التحول سياسية أكثر منها عقائدية، ولا تعدو أن تكون محاولة لإلغيات نظر الملك الإسباني الفونسو الثالث إلى حركته والحصول على الدعم المطلوب منه، بعد أن لحق به الفشل خلال السنوات الطويلة الماضية. وإذا افترضنا صحة ذلك، وأن الثائر المولدي كان منظوياً على هذه العقيدة منذ فجر شبابه، فإنه من المستبعد المجاهرة بها وهو على رأس حركة عناصرها من المسلمين، ويتخذ لها موقفاً في محيط إسلامي في جنوب الأندلس، فضلاً عن الحلفاء الذين تعاون معهم كابن قسي في سرقسطة وابن حجاج في أشبيلية، دون أن تكون له مصلحة في اتخاذ بادرة جريئة كهذه، بمعزل عن تصوراته المستقبلية في هذا المجال. ولعلها مجرد تهمة الصقتها به إمارة قرطبة، في إطار حملة نفسية ضد هذا الثائر العنيد، حيث التاريخ ينطوي على أمثلة عديدة من هذا النوع من التركيز الإعلامي والتشهير الذي يستهدف الحركات المناوئة، خصوصاً ذات المحتوى الاجتماعي أو السياسي المتقدم، فتلجأ السلطة إلى قذفها بتهمة الخروج على المعتد أو الزندقة إلى آخر ذلك. وإذا كان المؤرخون لم يهتموا إلا بالجانب العسكري من هذه الحركة، دون أية إشارة إلى مضمونها الخاص، فإنه من

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٤.

(٢) راجع المقتبس لابن حيان ص ١٣٨ ابن عذاري ج ٢ ص ١٨٧.

العسير فهمها بعيداً عن الظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت بها، وبعيداً عن شخصية قائدها الخارج من بيئة تعج بالعمال والحرفيين. ومن العسير أيضاً أن تعيش حركة ثورية نحو ما يقرب من الأربعين عاماً وتأخذ جلّ اهتمام السلطة فلا تتال منها، دون أن يكون لها طرح اجتماعي معين، يلامس عواطف الفئات الشعبية التي كانت عماد هذه الحركة والمصدر الذي يغذيها بالدماء الجديدة.

ومن هذا المنظور فإن حركة ابن حفصون تمتعت بسمات خاصة، ميزتها عن بقية الحركات المعاصرة ذات البعد السياسي المحض. فتحوّلت إلى شكل من أشكال «الحكومة الثورية» بكل ما تعنيه هذه الكلمة، إن كان من حيث الأفكار المتقدمة التي استهوت آلاف المقاتلين المشحونين بالكراهية ضد «الطغیان العربي» حسب تعبير ابن حفصون، وضد «الأرستقراطية» العربية الباذخة والمستأثرة بالأموال ورغد العيش^(١)، أو من حيث القدرة التنظيمية المتفوقة التي كانت أبرز ملامح هذه الحركة، والعامل الأهم في استمراريتها دون تعثر أو هزات داخلية، برغم الهزائم العنيفة التي توالى عليها. وعلى مدى هذه السنوات الطويلة احتلت ثورة ابن حفصون جانباً هاماً في مشاكل النظام الأموي الذي أخفق في القضاء عليها نهائياً، فخضعت علاقاته معها للأمر الواقع، وتحوّلت هي بدورها إلى مشكلة تقليدية يتعاش معاً الأمراء المتعاقبون، متأرجحة بين الامتداد والانحسار ولكن في إطار محدود. فالواقع العسكري المحض الذي اختارته في إقليم ربة مقرأ لها، كانت تكمن فيه قوة هذه الحركة كما يكمن ضعفها في آن معاً، إذ كانت لديه القدرة الدفاعية في تلك الظروف لتفشيل مخططات جيوش الامارة لاختراقه، ولكنه في المقابل كان يقتصر إلى الدعم الخارجي المطلوب، حيث السبيل إلى ذلك دونه الصعاب. فالظروف الجغرافية لم تحسن اختيارها، وظل ابن حفصون أسيراً لها، يلهث وراء محالفات سياسية ترجّح موازين القوى

لمصلحته ولكن دون جدوى. ذلك أن الاتفاق الذي عقده مع ابن قسي في سرقسطة، أجهض قبل أن يخرج إلى النور، كما أن حلفه القصير مع زعيم أشبيلية (ابن حجاج)، انتهى أيضاً بخرق هذا الأخير له، في أعقاب تصفية مشاكله مع حكومة قرطبة^(١)، التي كان لديها بدورها متسع من الوقت، لتشن سلسلة من الحملات على معقل ابن حفصون في السنوات العشر الأخيرة من هذا العهد، وتدفعه إلى الاعتصام في قلعة مدافعاً عنها بصبر وجلد، بعد أن خسر الكثير من رجاله، وبعد أن عبث به المرض ووطأته الشيخوخة، ومع ذلك لم تسقط القلعة ولم تنته الثورة، إلا بعد نهاية المرحلة وانبعاث مرحلة جديدة من بين الركام.

بين عبد الله وبني الحجاج في أشبيلية قبع ابن حفصون في قلعة بعد تلك الضربات المتوالية، وركدت العلاقات العدائية بينه وبين حكومة قرطبة، التي كان أمامها مزيد من المشاكل، لتتخذ ما يمكن انقاذه من هيئة السلطة المركزية المتداعية. ولعل الملفت للنظر في تلك الفترة، أن تستفز ثورات المولدين مشاعر العرب، حيث اتخذوا موقفاً سلبياً وقابلوها بثورات مضادة، ولكن دون أن يتبادر إلى الذهن أن تحرك القبائل العربية في تلك الأثناء، كانت وراءه دوافع قومية لحماية النظام الأموي، الذي تشدهم إليه روابط قبلية أو عنصرية، بل كان تحركاً تمليه مصالح ذاتية بحتة، بدليل أنه استهدف حكومة قرطبة نفسها التي كانت حينذاك بنظر العرب، أداة مطواعة في أيدي العناصر الأجنبية المستحوذة على مراكز النفوذ في البلاط والجيش، كما استهدفت المولدين الذين انتشروا في عرض الأندلس يقتطعون أجزاءها تباعاً، فتتحول الدولة إلى دويلات تتقاذفها أيديهم هنا وهناك.

وفي غمار ذلك أبت الزعامات العربية أن تظل قابعة خارج دائرة الأحداث مراقبة لها، فاتفحت دوراً فاعلاً فوق حلبة الصراع على النفوذ ضد الأطراف

(١) راجع المقتبس من ١٢٧ - ١٢٨.

الأخرى المتنازعة^(١). ولقد شهدت تلك الحقبة عدداً من الثوار العرب خاصة من الحزب القيسي، من أمثال يحيى بن صفالة الذي اتخذ من أقليم البيرة مركزاً لنشاطه المعادي ضد القوى التي مر ذكرها، وسوار بن حمدون الذي انتصر على قوات الإمارة في معركة طاحنة (٢٧٦/٨٩٠)^(٢)، وسعيد بن سليمان السعدي الذي قاد سلسلة من العمليات العسكرية الناجحة ضد جماعة ابن حفصون^(٣)، وغيرهم من الثوار العرب في تلك الجهات، من الذين تمحور نشاطهم بصورة خاصة ضد الثائر المولدي ابن حفصون^(٤). ويبدو أن نفوذهم في أقليم البيرة لم يعد موضع جدال بالنسبة لحكومة قرطبة، التي سارعت إلى الاعتراف بسيادتهم عليه، يشجعها على ذلك تلك العلاقات العدائية المتوترة، بينهم وبين عدو الإمارة الشرس ابن حفصون.

غير أن نقطة الثقل حينذاك في الزعامة العربية لم تكن في ذلك الأقليم (البيرة)، ولكنها انتقلت إلى أشبيلية المدينة النائية في الأندلس حيث تزدهم القبائل العربية والنافذة، إلى جانب عدد كبير من المولدين والبربر وبعض المستعربة. ولكن الزعامة الحقيقية في المدينة كانت معقودة للعرب بقيادة بني الحجاج، الذين صنعوا أحداثها وتبأوا فيها الصدارة. وعلى الرغم من أن بواكير الثورة المسلحة في أشبيلية لم ترتبط بهم مباشرة في البدء، إلا أنه كانوا وراءها وغير بعيدين عنها. ذلك أن زعيم بني خلدون (كريب بن عثمان)^(٥) أعلن الثورة على نظام قرطبة (٢٧٦/٨٨٩)، مدعوماً بقوى ذات انتماءات مختلفة، حتى أنه لم يتردد في التحالف مع الجليقي الثائر المولدي وزعيم بطليوس الذي مر ذكره. فاحتدم الصراع في أشبيلية واختلطت فيها الأوراق السياسية، حيث دأب كل طرف على استغلال الموقف المشحون وتحويله باتجاه مصالحه الخاصة. ثم

(١) المقتبس ص ٥٥.

(٢) عرفت بمعركة المدينة. المصدر نفسه ص ٥٥ وما بعدها.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها.

(٤) المقتبس ص ٢٩ - ٣٠، ابن عذاري ج ٢ ص ١٣٩.

(٥) الأسرة التي ينتمي إليها المؤرخ الشهير ابن خلدون. المبرج ج ٧ ص ٣٨١.

سقط حاكم المدينة الأموي^(١) وهو يدافع عنها، فأدى ذلك إلى انهيار الأوضاع وانفلاتها نهائياً من قبضة السلطة المركزية.

واستمرت الحالة مضطربة بضع سنوات في هذه المدينة، إلى أن تمكن الأمير عبد الله من إرسال حملة عسكرية ضخمة بقيادة ولده المطرف لقمع الثورة ومعاقبة المتمردين. ومن الغريب أن الحملة نفسها لم تكن قيادتها على قدر من الانسجام إذ وقع خلاف بين قائدها ومساعدته وزير الأمير (عبد الله بن أمية)، انتهى بقتل الأخير. ولعل في ذلك ما يعطينا صورة عن التلاحن السياسي المستشري حتى في بلاط الأمير، الذي انعكست عليه أجواء البلاد، بما فيها من دسائس وصراعات لا حد لها. ويبدو أن الأمير عبد الله لم يفاجأ بتصفية وزيره ولم يتأثر له، مما يوحي بأنه ضالع في العملية وعلى معرفة مسبقة بها. ذلك أن الأمور سارت بشكل طبيعي ونفذت الحملة مهمتها في أشبيلية، حيث حالفها النجاح وأوقعت بالثوار هزيمة قاسية. ولكن النصر الذي حققه المطرف لم يؤد بالضرورة إلى حسم نهائي للمشكلة، لأن إمارة قرطبة وجدت نفسها مضطرة إلى الدخول في مساومات حول مستقبل المدينة الشائرة، كما اضطرت في الماضي إلى اتخاذ مواقف مماثلة، بعد أن فقدت عنصر التفوق على الصعيد العسكري، ولم يعد ما يميزها كثيراً عن الدويلات الأخرى التي فرضت نفسها بالقوة وانتزعت اعتراف الإمارة بها. وهذا ما حدث في أشبيلية حين اتفقت مع أبرز زعمائها والمهم شخصية (إبراهيم بن الحجاج) المتحدر من قبيلة لحم اليمنية، على أن يحكم المدينة في ظل وصاية محدودة للأمير.

وهكذا نشأت دويلة شبه مستقلة على مقربة من عاصمة الإمارة (٨٩٥/٢٨٢)^(٢) بزعملة بني الحجاج، عاشت حتى قيام الخلافة. ولقد نافس بلاط أشبيلية في عظمته بلاط قرطبة في الاستقرار ومظاهر الشرف واستقطاب

(١) أمية بن عبد الغافر بن أبي عبده.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦.

الشعراء والعلماء^(١). ومن الذين تألقوا في بلاط بني الحجاج، ابن عبد ربه صاحب الكتاب الشهير المعروف بـ «العقد الفريد»، والشاعر الذي عاصر تلك الفترة القلقة من حياة الأندلس وامتد به العمر ليشهد صعودها من جديد على عهد الناصر^(٢).

تلك هي أهم أحداث هذا العصر الذي شهد اختلال السيادة العربية وانتكاسها، لأول مرة منذ ارتباط الأندلس بالأسرة الأموية. فقد تراجع نفوذ قرطبة تدريجياً وفقدت مركزيتها السياسية^(٣)، ومعها ذلك الوهج الذي تألقت به في ظل الأمراء الأوائل. والواقع أن هذه الفترة التي استمرت نحو ستين عاماً، كانت موحدة الملامح، متشابهة الظروف بحيث لا يمكن أن نميز أي عهد فيها عن الآخر، بل كانت متلاحمة في عصر واحد أطلق عليه المؤرخون اسم «دويلات الطوائف الأولى»، مقارنةً مع عصر ملوك الطوائف الذي نشأ في أعقاب سقوط الخلافة (٤٢٢/١٠٣١). ولعل في التسمية تعبيراً واضحاً عن الشذمة التي اجتاحت الأندلس في تلك الأثناء، فحولتها إلى دويلات صغيرة تزداد أهميتها أو تقل بحسب نفوذ الأسر المهيمنة عليها، في وقت عجزت السلطة المركزية في قرطبة عن مواجهة هذا التيار الاستقلالي الذي هب عليها من كل الجهات. وكان للمولدين كما رأينا الباع الطويل في مقارعة السلطة، فاستقلوا عنها في ثلاثة عشر مقاطعة^(٤). والقليل من هؤلاء استطاعت حكومة قرطبة القضاء عليه، بينما تحدتها الأكثرية واستمرت في الخروج عليها. أما البربر فكان

(١) Dozy, Hist. des Musulmans d'Espagne 11, p. 89

(٢) راجع ترجمة ابن عبد ربه في مقدمة الجزء الأول من العقد الفريد.

(٣) أعمال الاعلام ص ٢٧.

(٤) عمر بن حفصون (بشتر)، ديسم بن اسحق (تدمير)، عبد الله بن أمية ومنذر بن هابل وسعد بن هذيل وخير بن شاعر ثاروا جميعاً في (جيان)، سميد بن وليد (باجة)، عبد الرحمن الجليقي (بطلوس)، عبد الملك بن أبي الجواد (باجة)، بكر بن يحيى (شتنمية)، محمد بن لب بن موسى بن قسي (الشعر الأعلى)، سميدون بن فتح (قلنبرية)، عبد الوهاب بن جرج (البيرة). راجع المقتبس ص ٩٢ - ١٠٩، أعمال الاعلام ص ٢٧، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٨ - ١٣٢.

أشهر الخارجين منهم على الحكم المركزي أبناء موسى بن ذي نون (يحيى والفتح والمطرف)، في طليطلة وشتمرية، ومن العرب بنو حجاج، الذين سيطروا على أشبيلية ونافسوا بها العاصمة من النواحي السياسية والثقافية.

لقد نشرت هذه المأساة أجنحتها السوداء على الأندلس الأموية، المنهكة والمتداعية في ذلك الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة. وإذ تتراقص أشباح النهاية في قرطبة منذرة بشر مستطير، وبأن زوال الحكم الأموي بات على بضع خطوات؛ تنفجر ارادة جديدة بالاستمرار والتهوض بأعجوبة من بين حطام الدولة الممزقة، والعبور إلى مرحلة زاهرة، بلغت فيها السيادة العربية الإسلامية أرقى درجاتها في الأندلس.

ولعل من الخطأ الفادح أن نضع مسؤولية ذلك الانهيار السياسي على عاتق أمراء هذه المرحلة، خاصة الأمير عبد الله الذي هبت عليه أعاصير الثورات المحلية خلال ربع قرن من الزمن، دون أن يتيح له مجالاً آخر للعطاء. فهو لم يكن أقل كفاءة أو ذكاء من الأمراء الذين سبقوه^(١)، ولكن المرحلة التي جاءت به إلى عرش الإمارة، كانت غير عادية وتحتاج بالتالي إلى رجل فذ وحاكم غير عادي. فقد عاشت الأندلس آنذاك تحولات اجتماعية وثقافية خطيرة، أخذت ملامحها في الظهور خلال إمارة عبد الرحمن الثاني كما سبقت الإشارة، وبلغت من النضج حداً في ذلك الوقت، أن شخصية جديدة بلورتها التيارات المختلفة، لبست الأندلس وطبعتها بسمات خاصة. فلم تعد هذه البلاد تُحكم بأقلية عربية ذات مزاج شرقي وطبيعة لا زال فيها من البداوة نصيب، ذلك أن فئات أخرى برغم ذوبانها في إطار العقيدة مع «الأرستقراطية» الحاكمة، اختلفت مزاجاً وطبيعة، وحتى ثقافة عنها، فتطلعت إلى المشاركة في الحكم أو الاستئثار به، معتمدة على تفوقها البشري وارتباطها التراثي القديم بالبلاد.

ومن أبرز ملامح تلك الفترة المضطربة، انها على الرغم من أجواء التطاحن

(١) أعمال الاعلام ص ٢٦.

واستشراء الصراع والتمزق السياسي، لم تعدم بعض الإيجابيات على صعد أخرى لا سيما في المجال الثقافي. وقد نال الشعر نصيبه الوافي، حيث شهد تطوراً جذرياً في الأسلوب والمحتوى، فكان انعكاساً واضحاً لهذا التمازج الثقافي واللغوي الذي بلغ مداه في ذلك الحين^(١). واعتبرت القصيدة الأندلسية رائدة التحرر في الشعر العربي من طغيان القافية وغموض العبارة، فامتازت بالرقّة والوضوح والسهولة. ولعل من أوائل المتأثرين بهذا النسيج الشعري الجديد، هو الأمير عبد الله نفسه الذي تمتع بشاعرية رقيقة وصافية، تجلت في وجدانياته بصفة خاصة، ومنها هذه الأبيات التي اخترناها من بين بضع قصائد له :

يا مهجة المشتاق ^(٢) ما أوجعك	ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها	بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتي به	في مجلس يخفى على من معك
كم حاجة اتجوزت لإسرازها	تبارك الرحمان ما أطوعك ^(٣)

(١) H. Pérès, La Poésie Andalouse p 215

(٢) وردت في الحلة السيرة : «يا كبد المشتاق» ج ١ ص ١٢١.

(٣) أعمال الاعلام ص ٢٦ - ٢٧، نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٢ الحلة السيرة ج ١ ص ١٢١.

الخِلافة

عبد الرحمن الثالث "الناظر"

٣٥٠-٣٥١ / ٩١٢-٩١١

عبد الرحمن الأمير: إسترجاع الوحدة السياسية
عبد الرحمن الثالث^(١) هو الشخصية الأكثر جاذبية
وتألقاً في تاريخ الأندلس الأموية، لا يختلف في ذلك عن
جده الأعلى عبد الرحمن الأول واصل اللبنة الأولى للسيادة
الأموية في تلك البقعة النائية، المزدهمة بالمتناقضات
والمحاطة بصنوف الأخطار والتحديات. فكان هذا الأخير
نموذجاً متطوراً يحاكي معاوية بن أبي سفيان صانع الدولة
الأم، التي دفعت بالأسرة الأموية إلى واجهة الأحداث في
مرحلة دقيقة من التاريخ الإسلامي.

وإذا ما جاز لنا أن نتابع المقارنة في إطار هذه الأسرة، فإن شخصية عبد
الرحمن الثالث سنجد فيها الكثير من ملامح سلفه عبد الملك بن مروان، الذي
أشاد من جديد صرحاً كان منهياراً ولملم أطراف دولة كانت مبعثرة. فهو إذن
المؤسس الثاني للدولة الأموية في الأندلس بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وهو باني
عظمتها الحقيقية والمساهم الرئيسي في إعطائها ذلك الدور الحضاري الساطع.

(١) هو عبد الرحمن بن محمد، حفيد الأمير السابق عبد الله، وقد كني بأبي المطرف قبل أن يتولى
الحكم وهو في الحادية والعشرين أو أكثر بقليل. راجع أعمال الاعلام ص ٢٨ - ٢٩. الحلة
السيراء ج ١ ص ١٩٧، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣. المعجب في تلخيص أخبار المغرب
ص ٥٤.

لقد وقع الاختيار على عبد الرحمن بن محمد، في ظل ظروف كان الحكم فيها ضرباً من الاستحالة. فالدولة الأموية لم يبق منها سوى الاسم على حد تعبير ابن الخطيب^(١)، وشُحِبَ الظلام الكثيف حجبت آفاق المستقبل السياسي لهذه الدولة، بحيث كان يصعب التكهن بما يحمله من مفاجآت. ولكن فجراً آخر يشرق عليها، فينقذها من براثن الليل ويزيح عنها كوابيس الأيام الخالية. فقد كانت الظروف مهيأة لحدث ما بعد نصف قرن من الحرب الأهلية الدامية، مقترناً بظهور شخصية مميزة كعبد الرحمن الثالث، رجل المرحلة الذي عاش في قلب الأزمات وانصهر بالتجربة، لتضاف إلى موهبة فذة ومقدرة غير عادية في تحمّل أعباء الحكم ومسؤولياته.

وقصة عبد الرحمن مع الأمارة لم تكن خالية من عامل الصدفة تماماً، إذ تدخلت المنافسة بين ولدي الأمير السابق (محمد والمطرف) - حيث كان لأحدهما خاصة الأول النصيب الأوفر بالأمارة - لمصلحة الحفيد (عبد الرحمن). ذلك أن المطرف حسب ما تفيد به المصادر، ألصق تهمة غريبة بأخيه المرشح لولاية العهد، أسفرت عن قتله بموافقة الأب^(٢). ويبدو أن هذا الأخير شعر بالتورط بما أقدم عليه، وارقه أن يشارك في مؤامرة تستهدف ابنه المفضل بصرف النظر عن التهمة الملصقة به. وإذا كان الخطأ لا يُعالج بالخطأ، فإن الأمير عبدالله شدّ عن القاعدة فخاته أعصابه وقضى على ابنه الآخر (المطرف)^(٣)، لتتضاعف أحزانه وتتراكم فوق همومه السياسية، هموم خاصة بعد افتقاده إثنين من أبنائه. ووجد الأمير الحاكم عزاء في حفيده (عبد الرحمن بن محمد) الفتى الغضّ، فأعطاه كل حنانه ورعايته، خصوصاً بعد أن اكتشف فيه ملامح الذكاء وقوة الشخصية، وتوسم الرجل المناسب للفترة العصيبة.

(١) أعمال الاعلام ص ٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨-٢٩، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩.

وهكذا جاء عبد الرحمن إلى الأمانة شاباً في مقتبل العمر^(١)، متدفقاً بالحياة والطموح. وتنفذت إرادة الجد دون معارضة الأعمام وبقية العائلة، العازفين عن الحكم في دولة متهاوية ممزقة الأوصال^(٢). فاستهل عهده بخطوة هامة في إطار معالجة الوضع الداخلي، بإصدار ما يمكن أن نسميه برنامجاً عاماً لسياسة جديدة، تجل في ذلك البيان الموجّه إلى المتمردين الذين امتلأت بهم الأندلس، وفيه من الانفتاح والحوار كما فيه من الوعيد والتشديد في العقاب. وأعقب ذلك بخطوة عملية، حين أرسل ممثلين إلى الأقاليم المتمردة، للتفاوض معها وإعادتها إلى دائرة السلطة المركزية^(٣). ولعل الأجواء العامة في الأندلس لم تكن متنافرة مع قدوم هذا الأمير، بل على العكس من ذلك كانت شخصيته الجذابة تعكس تأثيرها القيادي على رجالات الحكم والبلاط، كما في خارج القصر بين أوساط الشعب لدى جانب من فئاته الموزعة الانتباهات والمواقف السياسية. فالأمير الجديد القوي، لم يكن أسير عقد خاصة أو مطية لاعتبارات ضيقة، بل كان نموذجاً فريداً في مسلسل الأمراء الأمويين، كرجل دولة يكرّس كافة طاقاته للعمل دون توقف^(٤). وإذا كانت جماهير الناس مشغوفة بالتغيير في كل زمان ومكان، فإن التفسير الجذري في بنية الحكم وفي طبيعة الأسلوب الذي رافق مجيء عبد الرحمن، كان له الأثر الإيجابي الواسع، بظهور بواكيره الأولى في قرطبة وانتشاره بسرعة مذهلة في بقية الأقاليم^(٥).

سياسته الداخلية كانت مشكلة ابن حفصون، أخطر مشكلة يتوارثها الأمراء الأمويين حتى ذلك الحين، دون أن يختلف الحال مع الأمير الجديد الذي انتظر وقتاً ردة الفعل على بيانه قبل أن يقوم بأية بادرة عسكرية. فلقى إستجابة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣.

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨-١٥٩.

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٩.

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨.

لدى بعض المتمردين^(١) وإمتناعاً لدى البعض الآخر. وكان في طليعة الأقاليم التي اعترفت بلمارته أقليم سرقسطة، ثم توالى الاعترافات تشق بداية جيدة لهذا العهد، وفتح له آفاقاً واسعة بأقل قدر من المجاهبة. غير أن فريقاً وهو الأكثر خطورة، ظل متجاهلاً نداء الأمير ومستكفاً عن التعاطف معه، مما دفعه إلى معترك الصراع وسحق المتمردين بنفسه. وكانت ظاهرة خاصة تلازم هذا الأمير، هي انه لم يقع في حصره متخلياً عن المهمات العسكرية إلى قواده، بل كان يتولى تنفيذها شخصياً بمنتهى البراعة. وقد شهد أقليم رية حيث معقل الثائر ابن حفصون، باكورة نشاطه العسكري، وذلك بعد شهور قليلة من توليه الحكم. وإذا كانت هذه العملية المبكرة التي دامت نحو ثلاثة أشهر قد حالها النجاح في تطويع الأقليم وتحييط حصونه الثائرة، فإن حصن يبشتر ظل في منأى عن السقوط رغم الضربة التي أنزلت بالعجوز المتمرد، كون هذه المنطقة تدور في فلك ابن حفصون وتدين له بالولاء.

وعاد الأمير الأموي إلى عاصمته، تاركاً ابن حفصون في قلعة الشهيرة وقد أخذته المفاجأة باختلال الأوضاع في أقليم رية لغير مصلحته. فكان لابد من تحليل جديد للموقف السياسي الذي بدأ يميل نحو مركزية السلطة، لأول مرة منذ سنوات طويلة. أما عبد الرحمن فكانت بانتظاره مهمة أخرى في أشبيلية تلك المدينة المتنافسة لعاصمة الأمارة، حيث اتخذها بنو الحجاج ملكاً متوارثاً، بانتقال السلطة فيها بعد وفاة زعيم الأسرة (إبراهيم)^(٢) إلى ابنه، وذلك قبل مجيء عبد الرحمن إلى الأمارة. ولكن ظروفاً إستجدت بانقسام الأسرة الحجاجية وتنافسها على الحكم^(٣)، أدت إلى تدخل الأمير الأموي وإرسال أحد قواده، للفضاء على استقلال المدينة وإعادتها إلى فلك الحكم المركزي، حيث نجحت الحملة

(١) أخبار مجموعة ص ١٥٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٢.

(٣) بعد موت إبراهيم انتقلت الزعامة إلى ابنه عبد الرحمن ثم محمد بعد موت الأول سنة ٣٠١ هـ. ولكن أحمد بن مسلمة من بني حجاج أيضاً، نافه على زعامة المدينة، فطلب محمد مساعدة الأمير الأموي. أعمال الاعلام ص ٣٥.

وأنته إحدى أهم الحركات الانفصالية التي شهدها العصر (١٤/٣٠١). (٩١٤).

كان انهيار دولة بني حجاج في أشبيلية تحت ضغط القوة الجديدة في قرطبة من أهم المؤشرات الايجابية التي انعكست على نظام الأمويين، فأعطته دعامة وقوة في المسيرة الصعبة، التي استهدفت إعادة توحيدها وإنقاذه من براثن التمزق والسقوط. ولعل المدخل إلى تحقيق ذلك السلام المنشود، كانت دونه العقبة الكأداء في إقليم رية، حيث تنتصب قلعة يبشر منيعة جلدة، تنفت في صفوف ثوارها أفكار التغيير والاستقلال، وتبقى وحدها رغم كل شيء، النافذة الواسعة التي تهب منها الرياح الخطرة. غير أن حسم هذه المشكلة تطلب بعض الوقت، لانصراف الأمير إلى معالجة الأزمات الاقتصادية^(١)، الناتجة عن التطاحن الداخلي الذي استنفد موارد البلاد وطاقاتها. ولقد عانى سلباتها جميع الأطراف بمن فيهم ابن حفصون الذي كان أكثر تضرراً من الظروف الجديدة، التي أصابت معنويات جماعته وأفقدتها كثيراً من حماسها، خاصة بعد انقطاع خطوط المساعدات المحلية والخارجية، التي أمنت للقلعة احتياجاتها بصورة شبه دائمة، وذلك بعد أن تحولت السيطرة الجديدة عليها لقوات الأمانة. وكان ابن حفصون قد تقدم به العمر وشعر بثقل السنين على معنوياته المتهدمة، بعدما أصاب قواعده الشعبية من اهتزاز، وبعد أن أخذ منها اليأس كل مأخذ وفقدت كل أمل بالتغيير وتحقيق الشعارات التي استهوتها وقاتلت في سبيلها من دون طائل؛ واجداً أن طريق المصالحة مع النظام الجديد هو الطريق الأجدى. وكانت المفاجأة التي لم يتظرها الأمير، عندما أرسل إليه ابن حفصون عهداً بالاعتراف به والالتزام بالولاء للسلطة المركزية^(٢). وجاء الناصر الكبير إلى قرطبة (١٦/٣٠٣)، بعد ترتيبات وافية أجرتها هذه الأخيرة لضمان العلاقة المستقبلية معه.

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢.

(٢) أعمال الاعلام ص ٣٢، البيان المغرب ج ٢ ص ١٧١.

كانت تلك بداية النهاية لأخطر ثورة شهدتها الأندلس الأموية، إلا أن مجيء رأس الثورة وعقلها المفكر إلى قرطبة معترفاً بالسلطة خاضعاً لها، ثم موته بعد بضعة أعوام (٣٠٦/٩١٩)^(١)، لم يكن معناه إنطواء صفحتها الأخيرة، لأن راية الثورة عادت إلى الارتفاع في قلعة ببشتر على يد جعفر أحد أبنائه، الذي حمل بعض ملامح الأب في الجرأة والحقد على حكومة قرطبة الأموية. ولكن القلعة الحصينة دخلت إليها بعد غياب مؤسسها، أجواء الصراعات بين الأخوة الذين لم يكونوا على موقف موحد، محدثة فيها اضطراباً كان من الصعوبة تطويقه أو معالجته. فقد اغتيل زعيم القلعة (جعفر)، في ظروف لم يكن أخوه الآخر (سليمان) ورجل من قرطبة بعيداً عنها. وأصبح هذا الأخير حاكم القلعة المعترف به من السلطة التي أمنت له سبل الوصول إلى الزعامة وتصفية كل الخصوم والمنافسين^(٢). ولكن سليمان ما لبث أن جذبته تيار الثورة في القلعة وغلبه الطموح، ليمارس دور أبيه في مقارعة الأماة الأموية بعد أن شعر بقوته. بيد أن الأمير عبد الرحمن سدّ كل منافذ العودة إلى تكرار التجربة الصعبة، وأحاط القلعة بحزام كثيف من جنوده، ظل يُنزل بها الضربات حتى خارت قواها أخيراً بسقوط سليمان في معركة طاحنة (٣١٤ هـ)^(٣) واستسلام أخيه (حفص) في السنة التالية (٩٢٨/٣١٥)، بعد أن اخترقت جنود الأماة أسوار القلعة المنيعة التي ظلت نصف قرن، مثل جدار حديدي تتكسر عليه محاولات السلطة العديدة. وما لبثت القلعة الشهيرة وثورتها، أن دخلت في النسيان وتحررت الأماة من كابوسها الطويل، لتفتح أمامها آفاقاً مشرقة نحو مستقبل جديد^(٤).

كان القضاء على ثورة بني حفصون واقتلاع جذورها، كافياً لبعث الاطمئنان الجدي في أوساط الأمير، الذي شعر بأنه اجتاز أصعب المراحل في طريق الوحدة السياسية. فعلى الرغم من أن بضعة مواقع، كانت لا تزال خارجة على سيادته،

(١) أعمال الاعلام ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣.

(٣) ج ٢ ص ١٩٢.

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٣ - ١٥٤، أعمال الاعلام ص ٣٣ - ٣٤.

فإن أمرها لم يكن يقلقه كثيراً، بعد أن بلغ هذا المبلغ من القوة والنفوذ. ولعل إحدى مظاهر الثقة القوية بقدرته على تحطيم القوى المعادية والمتصدية له، ذلك القرار الذي اتخذهُ بُعَيْدَ سقوط بيشتر، حين وجد أن اللقب الذي توارثه عن أسرته وهو الأمانة لم يعد يتسع لطموحه الكبير، فأجاز لنفسه لقب الخلافة تيمناً بأجداده الأمويين خلفاء دمشق^(١). ويبدو أنه كان مدفوعاً إزاء هذا القرار بعدة اعتبارات: الأول، أن الوحدة السياسية في الأندلس قطعت شوطاً رئيسياً في طريق التنفيذ، بعد ستة عشر عاماً من النضال الصعب، تَوَجَّه بانتصاره العظيم على بني حفصون. والثاني، أن الخلافة العباسية التي انفردت بهذا اللقب بعد قضائها على الأمويين، باعتبار أن الخلافة كمؤسسة دينية ودنيوية لا يمكن أن تنجزاً حسب المفاهيم السائدة في ذلك الوقت، هذه الخلافة انحدرت سمعتها إلى الحضيض وتحولت إلى مطية لأطماع القواعد الأتراك، المهيمنين على مصائر الخلفاء وأصحاب الكلمة النافذة في الدولة. وجاء اغتيال الخليفة (المقتدر) على يد قائده التركي (مؤنس)،^(٢) ليضع الخلافة العباسية أمام منعطف خطير ويشجع على اتخاذ مواقف أكثر جرأة في مناهضتها والخروج عليها. والثالث، مرتبط بالاعتبار السابق وهو نتيجة حتمية له، تَمَثَّلَ بظهور دولة إسلامية جديدة، سبقت الأندلس إلى إعلان الخلافة وهي الدولة الفاطمية، المعروفة بعدائها للعباسيين وللأمويين معاً. وهذا الجانب الأخير هو الذي عُني به عبد الرحمن، إذ إن بروز الفاطميين في تلك الفترة وإعلانهم الخلافة في المغرب، بقدر ما شجع خليفة الأندلس الأموي على الاقتداء بهم في اللقب، بقدر ما كان باعثاً للقلق الشديد من جيرانه الأعداء، واتخاذهُ من الحيلة ما يصرف إهتمامهم عن دولته. أما الاعتبار الأخير والأهم الذي كان وراء قرار عبد الرحمن الثالث، فهو داخلي استهدف إعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية، بما للخلافة من تأثير معنوي يتعدى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٨. نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٣.

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٣.

لقب الامارة، مما سيؤدي إلى اشتداد قبضتها على أطراف الدولة قاطبة، ويكون لها من الوسائل العملية لقمع أي تحرك انفصالي بالسرعة القصوى.

هذه هي أهم الدوافع التي حدثت بأمير الأندلس القوي إلى تسمية نفسه بالخليفة، في وقت كانت الظروف الداخلية والخارجية متاحة لإعلان هذه الخطوة. وأصبح عبد الرحمن، منذ الثاني من ذي الحجة (٩٢٩/٣١٦) أول خليفة أموي في الأندلس، بما يضاف إليه من ألقاب رفيعة تُخاطب بها أوائل الخلفاء في الإسلام. وكانت عبارة «أمير المؤمنين الناصر لدين الله» اللقب الذي غلب عليه، فالتصق به وأصبح يُعرف بالناصر أو عبد الرحمن الناصر^(١).

وكانت لا تزال في الأندلس بعض جيوب، ترفض الانصياع للحكم المركزي كما سبق أن أشرنا. ولعلنا نذكر ثورة الجليقي في بطليوس الذي استقل بتلك المنطقة في غربي الأندلس بموافقة أمراء العهد السابق، وجعل منها حكماً متوارثاً يأبى الاعتراف بالخليفة الأموي. فقام الناصر بأول حملة عسكرية بعد اتخاذه اللقب الجديد (٩٢٩/٣١٧)، وقضى على معاقل الشوار في بطليوس وجوارها، حتى وصل إلى باجة على نهر وادي آنة في أقصى الغرب^(٢).

كانت عملية بطليوس نهاية الشريط الدموي الطويل، الذي ترجم مأساة الأندلس في تلك الفترة وأرخ انتقالها من الفوضى والتفتت إلى فجر ساطع وآمال جديدة. وكانت هذه العملية آخر ضربة للتيار الانفصالي الذي تصدره المولدون وحققوا به نجاحات لا تخلو من الخطورة، إذ إن بقية الأقاليم والمدن الشائرة التي ظلت خارج دائرة الاعتراف بنظام الناصر، لم تعد ذات أهمية، وكان سقوطها مرهوناً بالوقت ليس أكثر.

السياسة الخارجية: مع الممالك الأسبانية بعد إنجاز المهمة العظمى

(١) أعمال الاعلام ص ٢٩ - ٣٠، البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٨، نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٣،

الحلة السراج ج ١ ص ١٩٨.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٩.

بإعادة الوحدة السياسية للدولة التي أخذت نحو ثمانية عشر عاماً من جهود الناصر (٣٠٠ - ٣١٨ هـ)، التأمت بعدها الجبهة الداخلية كأقوى ما تكون، تقف وراءها شخصية الخليفة الذي اختار لنفسه نظام الحكم المطلق، دون أن يكون لغيره كلمة نافذة أو مشاركة في صنع قرارات الدولة. فهو وحده صاحب الحضور الدائم في مختلف المجالات والمؤسسات، أما بقية الأعوان فكانوا يستمدون منه القوة والاستمرار. وكانت أدواته الفعالة التي ضمنت له سرعة التحرك وتحقيق الانتصارات الباهرة، ذلك الجيش المطوع الذي اختيرت معظم عناصره من ممالك الصقالبة^(١) المتضادين في ولائهم للخليفة. ولم يكن استخدام هذه العناصر جديداً في بلاط قرطبة، فقد سبقه إلى ذلك بعض الأمراء الأمويين، ولكن الناصر كان أكثر تعاملًا مع هذه الجماعات، المنترية منذ الحداثة على طاعة النظام، والبعيدة نسبياً عن التأثير بأجواء الصراعات المحلية. فعلى عكس ذلك كان هؤلاء سيفاً مسلطاً على رقاب المتمردين ذوي النزعات الاستقلالية في الداخل، وحاجزاً منيعاً في وجه الأخطار الخارجية التي كانت تهب رباحها في أكثر من اتجاه، لا سيما في الشمال، حيث الدويلات الأسبانية آخذة في الاتساع والنفوذ.

وقبل البحث في العلاقات العدائية التي قامت بين الخلافة الأموية في الأندلس وبين جيرانها الأسبان، لا بد من عودة إلى بدايات الحركة المعادية للعرب المسلمين، حيث كانت نواتها الفلول الأخيرة من القوط التي التجأت في أعقاب سقوط أسبانية بأيدي العرب إلى إقليم جيليقية أو غاليسيا في أقصى الشمال الغربي، وهو إقليم إمتاز بالوعورة وصعوبة المسالك وقساوة الطبيعة، مما جعل اختراقه أمراً على جانب كبير من الصعوبة. وكان رائد المجموعة التي اعتصمت في هذه المنطقة الجبلية رجل يدعى بلاي Pelayo، إنخذ مقره في كهف أونجا

(١) إن مدلول هذه الكلمة لغوي وليس عنصرياً. وهي مشتقة من الأصل الفرنسي Esclave ومعناه الرقيق أو العبد. ومن المؤكد أن الصقالبة لا ينتمون إلى عنصر واحد، وإنما كان يؤتى بهم من عدة مناطق سواء من إيطاليا أو شمالي أسبانية أو من شواطئ البحر الأسود والأدرياتي. راجع صورة الأرض لابن حوقل ص ١١٠، العبادي، الصقالبة في أسبانيا ص ٨.

Cavadongo أو صخرة بلاي كما سماها العرب^(١). ومن هذا الكهف خرجت فكرة القضاء على الحكم العربي في أسبانية وتحريرها من نفوذهم، حاملة لواءها أقدم دويلات الأسبان التي كانت جليقية نواتها الأولى، وأصبحت تعرف بمملكة ليون أو استورقة بزعامة الفونسو الأول (حفيد بلاي).

كانت تلك البداية الجديدة لحركة التحرر الأسباني، التي أخذت ملامحها الصليبية تتكشف يوماً بعد آخر، وصادفها الحظ بأن الواقع العربي لم يكن خالياً من المشاكل، التي صرفت جلّ أوقات الحاكمين منذ الفتح حتى هذا العهد. فُقدَر لهذه الدولة أن تتسع، لتضم مملكة قشتالة التي ظهرت إلى الشرق منها في المنطقة المعروفة باسم القلاع في القرن العاشر الميلادي. وفي غضون ذلك قامت مملكة أسبانية جديدة مدفوعة بنفس الأهداف السياسية وهي نافار Navarra أو نبرة كما يسميها العرب، تحت أقدام البرينيه، وحققت بزعامة ملكها (شنجة) أو (سانشو) Sengha مكاسب على جانب من الأهمية، حيث امتدت سيطرتها إلى تخوم سرقسطة، إحدى أكبر مدن أسبانية العربية. وكان القاسم المشترك لهذه الممالك، هو الموقع الجغرافي المتشابه في الوعورة وفي المناخ، فكان ذلك أول أسلحتها التي استخدمتها في رد الهجمات إلى قلب معاقلها الجبلية البعيدة، فضلاً عن سلاح آخر لا يقل مضاء، وهو يتمثل في الهزات العديدة التي تعرض لها الحكم الأموي، حيث صرف طاقاته الأساسية التي كان ينبغي توجيهها إلى الخارج في صراعات محلية طويلة. وكان لهذه الدويلات الأسبانية الناشئة، أن تراهن على انهيار الأوضاع الداخلية في إمارة الأندلس وتحقيق سياستها التوسعية.

هذه باختصار ظروف الشمال الأسباني، عشية مجيء الناصر إلى الحكم. فهناك ثلاث ممالك: إثنان منها إتحدتا في مملكة واحدة وهي مملكة ليون، وكان على عرشها اردونيو الثاني Ordonio II ومملكة نافار بزعامة شنجة الأول، وكلاهما تجسدت فيه آمال الأسبان في التحرر، حيث بلغت مداها توهجاً وحاسة في ذلك

(١) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٠٦.

الحين. وكان أول احتكاك عسكري بين الناصر وأعدائه الأسبان في مطلع عهده، حين شن الملك الليوني هجوماً على غربي الأندلس (٩١٣/٣٠١) وبلغت قواته مدينة يابرة^(١)، فاقتمحتها بعد مقاومة بطولية من حاميتها التي أبيدت بكاملها. وغادر أردونيو الأخيرة وهي أنقاض لا أثر فيها لحياة، بعد مقتل حاكم المدينة مروان بن عبد الملك وعدد كبير من سكانها^(٢). والواقع أن السياسة الاسبانية، كانت تستهدف في ذلك الحين إحلال الخراب على العرب المسلمين والقضاء على تفكيرهم بالعودة مجدداً إلى الاستيطان فيها، خاصة وأن الأسبان كانوا عاجزين عن تزويد منطقة بعيدة كهذه بالطاقات البشرية التي تؤمن إستمرارية الدفاع عنها في هذا المحيط المعادي. ولكن مخطط أردونيو لم ينجح، فما لبثت يابرة أن استعادت عافيتها وعمرت بالسكان مرة ثانية. ثم تكررت عمليات الملك الليوني على الأقاليم الغربية من الأندلس، في وقت كان الناصر لا يزال غارقاً في همومه الداخلية، ومؤثراً تجميد سياسته الأسبانية إلى حين. ومن أخطر هذه العمليات تلك التي جرت في سنة (٩١٦/٣٠٥) بقيادة الملك نفسه واستهدفت مدينة ماردة إلى الشرق من بطلبوس، واستولت عليها بعد تدمير الجيش الأموي بقيادة أحمد بن أبي عبدة^(٣). غير أن هذه العملية خلّفت قلقاً عظيماً في قرطبة، وحملت الناصر على إجراء تعديل في مخططاته العسكرية، حين وجد أنه لم يعد باستطاعته تجاهل النشاط الواسع الذي تقوم به جيوش أردونيو في غربي الأندلس. وتجمّد موقف الناصر حينذاك، بتصميمه على توجيه ضربة إنتقامية للملك الليوني في عمق بلاده. فقاد حملة عسكرية (٩٢٠/٣٠٨) إلى الشمال واقتحم بها معاقل اردونيو في عدة إنتصارات باهرة، ورغم الأعداد الضخمة التي قدّفت بها نافار لمساعدة حليفها ليون^(٤). وكانت هذه الحملة بما حققت من مكاسب عسكرية وتغييرات جغرافية، باستيلاء الناصر على عدد من المواقع الهامة التي خضعت

(١) على مسافة مائة ميل إلى الشمال من باجة. الروض المعطار ص ١٩٧.

(٢) راجع عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ٢ ص ٣٩٢.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٧٦.

(٤) نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٣.

مؤخراً للأسبان^(١). كافية لتجميد موجة التغلغل العسكري الذي كان رائده الملك أردونيو الثاني، خاصة وأن الجبهة الداخلية في الأندلس لم تعد تستحوذ على كل إهتمام الناصر، فصار لديه من الوقت ومن القدرة على إحباط هذه العمليات من غير صعوبة. وأثبتت الأيام صلابة النظام الأموي في عهد الناصر، فحين عادت إلى الجبهة الشمالية سخونتها بعد موت الملك الليوني (أردونيو) وبجيء راميرو الثاني Ramiro II المعروف بنزعته الصليبية المتطرفة، استطاع الناصر حماية دولته من غزوات التكتل الأسباني المسيحي المتربص بها وتفشيل مخططاته التوسعية.

ولم تستأثر ليون وحدها بمقارعة دولة الناصر، ففد كان لنافار نصيبها في هذه العلاقات العدائية، التي أخذت بُعداً من الشراسة لم تبلغه في أي وقت مضى. ففي سنة (٩٢٣/٣١١) قام شنجة الأول بعملية عسكرية، فاجتاح بعض المواقع الأسورية المتاخمة لحدوده، ومنها حصن بغيرة Viguera، حيث أجرى مذبحة وحشية، فيها من الغدر بقدر ما فيها من التعطش للدماء. فبعد أن استولى على الحصن، حمل حاميته وآخرين من الأسرى إلى عاصمته ليقضي عليهم جميعاً. وكانت هذه الحادثة التي هزّت قرطبة، سبباً مباشراً للحملة التي قادها الناصر بنفسه إلى العاصمة النافارية في السنة التالية (٩٢٤/٣١٢)، واعتبرت إحدى أنجح حملاته الشمالية كما يصفها المؤرخون. ولعل سماتها الانتقامية كانت واضحة في آثار التخريب والدمار، التي خلّفتها وراءها في بلاد الباسك (البشكنس)^(٢).

غير أن ميزان التفوق العسكري لا يبقى مائلاً في انجاء الناصر، فقد خانته الحظ لأول مرة في حياته وهُزم أمام عدوّه القوي والقائد المحنك راميرو الثاني (٩٣٩/٣٢٧)، في المعركة الشهيرة المعروفة بـ «الخنديق» عند مدينة سنت

(١) من هذه المواقع: أوسمة Osma، تطيلة Tudela، كاركاسو Carcaso. ابن عذاري ج ٢

ص ١٧٩ - ١٨٠. العبادي في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٧٠.

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٣، البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٦.

مانكش Simancas^(١). ولقد أسهبت الروايات التاريخية في وصف «الكارثة» التي أصابت جيش الناصر في هذه المعركة، بحيث أن قلة قليلة نجحت في الإفلات من سيوف الأسبان من بينها الخليفة الأموي. فكان وقع الهزيمة قاسياً عليه، إلى حد أنه استنكف منذ ذلك الحين عن قيادة الحملات بنفسه، تاركاً هذه المهمة لقواده^(٢).

غير أن الهزيمة التي أفاض المؤرخون في الحديث عنها، لم تكن نتائجها في ذات الحجم المعطى لها، بدليل أن أية تغييرات ملحوظة لم تشهدها جبهة الحدود الشمالية، خاصة وأن استئناف الحملات التقليدية من جانب الخلافة في أعقاب هزيمة الخندق، كان كافياً لردع أية محاولة توسعية يلجأ إليها الملك الليوني توتيجاً لانتصاره. كذلك فإن ما يجعل من هذه الهزيمة حدثاً عادياً، ذلك الهدوء الذي ساد العلاقات الأموية - الأسبانية، والتودّد الظاهر من ملكيّ نافار وليون نحو الخليفة الناصر، الذي أصبح أقوى شخصيات المرحلة^(٣).

وليس من السهولة أن ندرك أسباب هذه الهزيمة، وذلك لاختلاف الروايات التاريخية التي اهتمت بها. فموازين القوى كانت متكافئة بين الطرفين، ومعنى ذلك أن الجيش الأموي لم يكن ضحية التفوق العددي في الجيش الآخر^(٤)، بقدر ما كان ضحية الانسجام النوعي المفقود بين عناصره المختلفة. فالمؤرخ ابن الخطيب يلقي مسؤولية الفشل على فئة من قوّاد الناصر وجنوده، كان يعوزها الانضباط والاخلاص في الولاء، غير أنه لم يذكر أسماء المتهمين هؤلاء، الذين أعدموا في الساحة العامة في قرطبة، وكان عددهم نحو ثلاثمائة من الفرسان^(٥). ويُستخلص من ذلك أن جيش الناصر كانت تتجاذبه تيارات متناقضة، هي في

(١) أخبار مجموعة ص ١٥٥ - ١٥٦، نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٣، أعمال الاعلام ص ٣٦.

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٣.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٦٦.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٥٥.

(٥) راجع أعمال الاعلام ص ٣٦ - ٣٧.

الواقع نتيجة مباشرة لاختلاف عناصره المقاتلة ، بين أقلية عربية وأكثرية من عماليك الصقالبة^(١)، إلى جانب فئات أخرى اتسع لها هذا الجيش، مما كان له تأثير سلبي على وحدته وتلاحم عناصره في جبهة واحدة منسجمة . ولعل باعث هذا الصراع الخفي له علاقة بالتفوق الصقلي على حساب الفئات الأخرى من العرب والبربر، التي أخذت تتذمر من تراجع نفوذها وانحسار أهميتها في جيش الخليفة^(٢)، خاصة وأن الرجل الثاني في حملة الحنديق بعد الناصر، كان أحد هؤلاء الصقالبة وهو نجدة الصقلي الذي لقي حتفه في هذه المعركة .

بيد أن هذه الهزيمة لم تحدث أي تغيير على الشريط الحدودي مع الأسبان، وظلت العلاقة معهم تتأرجح بين السلم والحرب في السنوات المتبقية من عهد الناصر . ولكن السخونة التي عرفتها هذه الجبهة مع مجيء راميرو الثاني فترت إلى حد كبير، لا سيما وأن الأوضاع الداخلية في مملكة ليون، حاملة شعار القضاء على العرب المسلمين في أسبانية، مرت بعد وفاة ملكها المتطرف (٩٥٠/٣٣٩) بأزمة عاصفة، نتيجة التنافس الشديد الذي وقع بين ولديه (أردونيو) و (شنجة) على وراثته . ومن المثير حقاً أن يكون للناصر دور في تحقيق الوفاق بين الآخرين وتنازل أحدهما للآخر، فكان أن حسمت المسألة لمصلحة الثاني الذي حظي بدعم الخليفة الأموي وشعر بأنه مدين بعرشه لهذا الأخير، فاتحاً معه صفحة من العلاقات الودية التي أفادت الطرفين^(٣) .

مع الفاطميين كان ظهور القوة الفاطمية المعاصرة للخليفة الناصر، من دوافع إهتمامه بالسلاح البحري، الذي لم يكن حتى ذلك الحين متكافئاً مع احتياجات دولة لها تلك الشواطئ الممتدة على مسافات طويلة . ولعل أول اهتمام جديّ اتخذته الأندلس الأموية في هذا المجال، يعود إلى ما بعد الغزوة الشهيرة التي قام بها النورمان في عهد عبد الرحمن الثاني . فقد أدركت حينذاك

(١) عبد العزيز سالم، قرطبة، حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس ج ١ ص ٥٩ .

(٢) ابن خلدون، كتاب العبرج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

نقطة الضعف في سلاحها، وحاولت تقويم هذا الاختلال بحدود ما تفسح لها الظروف. غير أن الحاجة الملحة لإنشاء قوة بحرية متكاملة لم تظهر إلا في أيام الناصر، حين شعر بالخطر الفاطمي على الضفة الأخرى من المضيق. والواقع أن شهرة الفاطميين في البحر نمت مع قيام دولتهم، التي أصابت تقدماً ملحوظاً في ميدان التنافس على حوض المتوسط، بحيث أنها امتلكت زمام المبادرة فيه حتى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي^(١). ولم يكن تحوُّف الناصر في غير محله، فما لبثت أطماع الفاطميين أن تجلت حقيقتها في الهجوم المفاجيء الذي قامت به سفن الأسطول الفاطمي الرابط في صقلية على المريّة، قاعدة الأسطول الأموي في الأندلس، محدثةً فيها أضراراً جسيمة^(٢). ولكن ردَّ الناصر كان سريعاً وقوياً، فقد تحرك أسطوله مترصداً نشاط الأسطول الفاطمي على محاذة السواحل الأفريقية. وشهدت تلك الحقبة تنافساً شديداً بين قوتين، يجمع بينهما المعتقد الإسلامي ولكنها مختلفتان في المذهب، حيث الفاطميون الشيعة كانوا ينظرون إلى الحكم الأموي في الأندلس، على أنه امتداد لخلافة دمشق بذكرياتها البغيضة والمساوية بالنسبة إليهم^(٣). وكانت بعض المواقف المغربية (سبتة ومليلة وطنجة) محور هذا الصراع، بعد أن قُدِّر للخليفة الناصر أن يسط نفوذه هناك، بمساعدة خصوم الدعوة الفاطمية. غير أن الصراع البحري بين الخلافتين المتجاورتين توقف أخيراً بسبب انصراف الفاطميين باهتمامهم إلى غير هذه المنطقة، لتصبح كل همومهم بالتالي شرقية، بينما فاز الناصر من هذا الصراع بمدينة سبتة التي ظلت منفردة بولائها للأندلس^(٤). وهكذا كان الضغط الفاطمي على دولة الناصر، سبباً في انتعاش أسطولها البحري الذي أخذ في النمو، إلى درجة أن الأندلس صُنفت بين الدول البحرية الشهيرة في ذلك الوقت إلى جانب

(١) ارشيال لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ص ٣٢٤.

(٢) المرجع نفسه ٣٢٦ - ٣٣٧، سالم، تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ٣٨.

(٣) حسن إبراهيم حسن - طه شرف، المعز لدين الله ص ٣١١.

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠٧ - ٣١٧.

الفاطميين والبيزنطيين، وقيل إن تحالفاً بحدود ما في هذا المجال، ربط بين قرطبة والقسطنطينية، لفرض نوع من التوازن البحري في غربي المتوسط^(١).

والواقع أن الدولة الفاطمية التي بلغت ذلك المبلغ من القوة في عهد خليفتهما المعز، كانت لها أطماع جدية في الأندلس، يحدوها إلى ذلك دافع الاختلاف المذهبي، الذي يكفي لأن يكون السبب الرئيسي من أجل القضاء على الحكم الأموي فيها. واقتربت مطامع الخليفة الفاطمي بخطوة عملية في هذا الإطار، عندما قام أحد أعوانه بمهمة خاصة في الأندلس وهو الجغرافي المعروف ابن حوقل متحلاً بشخصية تاجر، ليدرس ظروف البلاد ومدى قوتها العسكرية^(٢). ويبدو أن تحويل إمارة الأندلس إلى خلافة وتسمية عبد الرحمن نفسه بأمر المؤمنين، كان من الأسباب التي أثارَت الخليفة الفاطمي (المعز) ودفعته إلى محاولة التخلص من خصم سياسي ومذهبي مجاور، ينافسه في اللقب الذي يعتبره الفاطميون أحد مكتسباتهم الشرعية، التي أجازتها لهم تلك العلاقة مع النبي. وليس أدل على الانزعاج الذي أصاب المعز في هذا الصدد، ما يُنسب إليه قوله عن الناصر: «وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، كما تسمى دون من سلف من آبائه، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله. إننا أهل ذلك دونه ودون سواء»^(٣).

ولا شك أن الظروف كلن لها دورها في حسم هذا الصراع بين الخلفتين الأموي والفاطمي، وإنقاذ الأندلس من غزو مرتقب على يد الدولة الفاطمية النامية في المغرب. فهذه الأخيرة لم يكن الأمويون وحدهم من خصومها في الإسلام، بل كانت لها خصومة أخرى لا تقل ضراوة، متمثلة بالخلافة العباسية التي كانت علاقات الشيعة معها تمتاز بنفس المرارة. ولقد كانت هذه الأخيرة الهدف الرئيسي لنضال الدعوة الفاطمية الرامية إلى تزعم العالم الإسلامي، بعد تحويله إلى المذهب الشيعي. ولعل التوقيت جاء مراعيًا

(١) عبادي - سالم، تاريخ البحرية الإسلامية ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض ١٠٤ وما بعدها، معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٨.

(٣) النعمان بن حيون، المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٣٠ وما بعدها.

M. yalaoui, les Relations entre Fatimides de l'Ifriguia et Omeyyades d'Espagne. P. 13

لطموحهم هذا، في أعقاب سلسلة من الأزمات السياسية التي عصفت بخلافة بغداد، وكانت مصر التي خرجت عملياً من قبضة العباسيين منذ ولاية أحمد بن طولون في منتصف القرن الثالث الهجري (في أيام المستعين)^(١)، تجتذب إهتمام الخليفة الفاطمي لتكون مركز دولته الناشئة، بما لها من ثقل بشري وأهمية جغرافية. وكان الأخشيدي كافور حاكم مصر آنذاك يودّع آخر أيام حياته، كما يودّع نظاماً هشاً ينتظر من يضع قبضته عليه. وهكذا سقطت مصر في يد جوهر، كبير قواد المعز الفاطمي (٣٥٨ هـ)، لتتحول أنظار الفاطميين كلياً نحو الشرق، ويدخلون حلبة الصراع مع القوى السياسية الكبرى صاحبة الشأن في تلك المنطقة، بينما عاشت خلافة الناصر هادئة مطمئنة بعد أن ارتفع عنها الكابوس الفاطمي، لتتصرف إلى معالجة مشاكلها التقليدية. غير أن أجواء العداء التي أحاطت بسواحل الأندلس الشرقية والجنوبية، عكست تأثيرها الإيجابي على هذه الدولة، إذ صنعت منها قوة بحرية ذات شأن، وذلك خلال مدة قصيرة من الزمن، كانت معظم طاقاتها معبأة لانجاز هذه المهمة. وكانت المربة كما ذكرنا القاعدة الأولى للأسطول الأموي في الأندلس، مضافة إليها قواعد أخرى أقل أهمية في عدد من الموانئ والمدن البحرية، التي كانت بمثابة الحزام الواقعي من الغارات المفاجئة.

العلاقات الدبلوماسية لقد اجتمعت في شخصية الناصر عدة مواهب، وكل واحدة منها تؤهل صاحبها ليكون حاكماً على قدر من النجاح كبير. فهو سياسي مرن وقائد شجاع وإداري صلب، بالإضافة إلى ثقافة أدبية واسعة وذوق فني رفيع. وشخصية كهذه، لا بد أن تترك بصماتها على دولة الأندلس بصورة عامة، خاصة قرطبة التي تألفت معه نصف قرن من الزمن، حيث وصل بجهوده الجبارة ومنجزاته العظيمة، إلى أن يجعل منها جوهره العصر، تزدهم بالسكان وتشمخ في سماءها العمائر والقصور، ويؤمها أصحاب العلم وطلابه

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١ - ٦.

من كل صوب. وبدا الناصر بعد رحيل منافسه المعز إلى المشرق وأقول شمس الأُمَـرَاطورية الكارولنجية، الشخصية الأكثر قوة في غربي البحر المتوسط. وفوق ذلك كان باستطاعته أن يدّعي الزعامة الدينية للعالم الإسلامي، بعد تحجيم هذا الدور الذي استأثر به الخلفاء العباسيون زمناً، قبل أن يطفئ عليهم ضباط القصر من الترك والديلم. وهكذا فإن الخليفة الناصر تحوّل في السنوات العشر الأخيرة من عهده إلى رجل العالم الإسلامي القوي، له من متانة نظامه في الداخل وسمعته السياسية في الخارج، ما يؤهله لأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة، التي سعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه.

وفي نطاق العلاقات الدولية بين قرطبة والعواصم الأخرى البارزة في ذلك الحين، نستوقفنا تلك العلاقة الخاصة مع العاصمة البيزنطية، التي كان بينها وبين قرطبة على ما يبدو إنسجام، فرضته تطورات الأحداث والظروف المتشابهة. وكانت الدولة البيزنطية قد استعادت عافيتها على يد الأسرة المقدونية ورجعت لها مكانتها التقليدية كزعيمة للعالم المسيحي، خاصة في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٥ - ٩٥٩)، المعاصر للخليفة الناصر. وتصف الروايات التاريخية هذا الإمبراطور، بأنه كان شغوفاً بالعلم والتاريخ وفنون التصوير والنحت. وتُنسب إليه أبحاث في هذه المجالات لا تخلو من الأهمية^(١)، كانت لها مساهمتها في تصعيد الحركة العلمية التي انتعشت وارتفعت إلى أزهى مراحلها في القسطنطينية. ولعل اتصالاته بالخلافة الأموية في الأندلس، تمت في هذا الإطار الثقافي، لأن الروايات لم تشر إلى أبعاد سياسية محددة وراءها، أو إقامة علاقات لا تختلف في المضمون والاتجاه عن العلاقات الدبلوماسية التي تقوم بين الدول في هذا العصر، يحدها تبادل التعاون في المجالات الاقتصادية والثقافية والفنية إلى آخر ذلك، مع الفارق بين طبيعة هذا العصر وذاك.

(١) أسد رستم، الروم ج ٢ ص ٢٧ - ٢٨.

وفي «نفع الطيب»^(١) وصف مسهب لزيارة قام بها وفد يمثل الإمبراطور البيزنطي، وإن كان لا يتعدى الاهتمام بمظاهر الاستقبال والحفاوة التي لقيها في قرطبة وفي بلاط الخليفة في الزهراء والقاء قصائد الترحيب^(٢). وفي «أعمال الأعلام» يختصر ابن الخطيب أخبار الزيارة بقوله: «ووصل إليه رسول ملك القسطنطينية العظمى، راغباً منه إيقاع المؤالفة». ولعل هذه العبارة تترجم مرامي الوفد البيزنطي وسعيه إلى طلب صداقة الخليفة ومودته. ثم يضيف ابن الخطيب فيصف إنهار الرسول البيزنطي بفخامة العرش الذي يجلس عليه الناصر والترتيبات التي أعدت مسبقاً لتضفي هالة عظيمة على أجواء القصر، حيث استقبل الوفد: «فعد له المقعد الشهير الذي لم يتهياً مثله للملك قبله، فدخل الرسول عليه وقد بُهِت لهول ما عاينه، ودفع إليه رسالة مودعة في ذهب كثير التصاوير، وكان الكتاب في رق سماوي اللون مكتوباً بالذهب وعليه طابع ذهب، في أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك قسطنطين»^(٣). وأحال ابن الخطيب هنا يصف حفلة تقليدية يقدم فيها أحد السفراء أوراق اعتماد، حتى أن ابن خلدون لا يخرج عن هذه الأجواء حين يقول في وصفه للإجراءات التي أعدت لهذه المناسبة بقوله: «ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكه. وزُين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجُمِل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة، ورُتّب الوزراء والخدمة في مواقفهم»^(٤).

وانتهت مهمة الوفد البيزنطي عند حدود الترحيب والحفاوة، وعاد إلى بلاده بعد أن أمضى وقتاً في ضيافة الخليفة. على أن ما يستوقف النظر أن تكون هدية الإمبراطور للخليفة عبارة عن كتابين نفيسين، أحدهما في علم النبات والآخر في

(١) المقرئ، نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) الخشن، قصة قرطبة ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) أعمال الأعلام ص ٣٧.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢.

السيرة وأخبار الملوك الأقدمين^(١). فالإمبراطور البيزنطي الذي قضى بين كتبه وأبحاثه نحو ربع قرن، قبل أن يعتلي عرش الإمبراطورية^(٢)، كان أكثر ما يعنيه في موضوع العلاقات مع الأندلس الأموية، أن تقوم روابط ثقافية بين القسطنطينية الزاهرة وبين قرطبة منارة الفكر في ذلك الزمن. ولم يعد الوفد البيزنطي منفرداً إلى عاصمته، فقد أرسل بصحبته سفير يمثل الخليفة هشام بن هذيل، الذي حمل معه هدية إلى الإمبراطور^(٣). ولا تفيدنا المصادر التاريخية عن محتوى الهدية، وإن كان الظن بأنها مخطوطة قيمة إلى الإمبراطور البحاث. وقد مكث السفير هشام عامين في القسطنطينية ثم عاد إلى قرطبة، وربما جاء مصحوباً ببعثة «دبلوماسية» أخرى^(٤).

واستقبلت قرطبة في أيام الناصر بعثات تمثل ملوك ذلك الزمن، وإن كانت لا ترقى أهمية إلى مستوى العلاقة مع القسطنطينية، حيث امتدت جذورها إلى أيام «الداخل» مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. ومن بين الذين أموا قصر الخلافة في الزهراء (مقر الناصر)، ممثلون لملك ليون الأسباني، خاصة بعد أزمة الحكم بين الأخوين أردونيو وشنجة، والتي انتهت بمساعدة الناصر إلى إيصال هذا الأخير إلى العرش، وكذلك ممثلون لملك نافار لأغراض سياسة أو «دبلوماسية» لها علاقة بجهة الحدود في الشمال. ولم تخلُ هذه الاتصالات من مظاهر انفتاحية في حالات السلم، كانت تصل أحياناً إلى حد قيام هؤلاء الملوك شخصياً بزيارة مقر الخلافة^(٥). كما لم يتردد الناصر في تزويدهم بالمساعدات، لا سيما العلوم الطبية، إنطلاقاً من موقع قرطبة الشهير في هذا المجال، حيث أسفرت هذه الاتصالات عن معاهدة صلح جرى توقيعها في عاصمة الخلافة.

(١) المراكشي، المعجب ٥٥ عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ٢ ص ٤٥٣.

(٢) أسد رستم، ج ٢ ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) نفع الطيب، ج ١ ص ٣٦٥.

(٤) نفسه ج ١ ص ٣٦٥، ابن خلدون، ١٤٢ - ١٤٣.

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٦.

ومن العلاقات المثيرة التي شهدتها قرطبة أثناء خلافة الناصر، ذلك الاتصال بينها وبين الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كان على رأسها أوتو الأول، وهو أقوى الشخصيات الأوروبية في ذلك الوقت. وتجدر الإشارة إلى أن امبراطورية شارلمان التي توارثها هذا الملك (أوتو)، فقدت كثيراً من أهميتها السابقة، ولم تعد متكاثرة في حجمها السياسي مع الدولة الأموية في الأندلس. ولكن اللافت أن هذه العلاقة لا تأخذ سوى جانب يسير جداً من اهتمام المصادر العربية، وتكاد تقتصر على ذكر شخصية السفير الأسقف وتاريخ الزيارة التي يرجّح أنها تمت في حدود سنة ٩٥٦/٣٤٤^(١). ويبدو أن بضعة اتصالات بين الدولتين مهدت لهذه الزيارة، كان قد بدأها الامبراطور، متخذاً طابع الاحتجاج على نشاط البحرية الأندلسية المستهدف شواطئ بلاده، لأن ردة الفعل كانت واضحة في لهجة السفير جان دي جورز - أو يوحنا الجورزيني، وهو من دير Gorze القريب من مدينة متر Metz^(٢)، برغم التكريم الذي أحيط به وإنزاله في قصر قريب من إحدى الكنائس. وهي ظاهرة لها دلالة على مناخ الحرية الدينية الشائع في قرطبة، خاصة في عهد الناصر، كما لها دلالة أخرى على مرونة هذا الخليفة الذي لم يتفعل إزاء عصبية الأسقف ورسائله الجدلية حول موضوع الإسلام، التي أصر المبعوث الأسقف على إلقائها بين يدي الخليفة. فقد رفض الخليفة استقباله بعد أن علم بمضمون الرسالة، قبل أن يستوثق إذا ما كانت هذه الأخيرة تمثل وجهة نظر الامبراطور، أم أن الأسقف المتطرف احتبلها فرصة للإفشاء عن آرائه العدائية في مجلس الخليفة. فكانت تلك البعثة التي غادرت قرطبة إلى بلاط الامبراطور، وعلى رأسها مستعرب وثيق الصلة بالناصر يدعى رثمونندو Recemondo، المعروف في الروايات العربية باسم ربيع بن زيد، وهو كما يبدو تحريف لاسمه الاسباني^(٣). ونستخلص من العبارات المختصرة والغامضة التي

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٣٤، نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٥.

(٢) Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France* P187.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣.

أوردت خبر هذه الزيارات المتبادلة بين الخليفة والامبراطور، أن سفير الناصر بدد السحب السوداء التي غمرت العلاقات بينهما، والتي حاول تقليدها الأسقف المتعصب. فقد استقبل أوتو مبعوث الناصر بترحاب وأحاطه بالحفاوة والتكريم^(١)، بينما اجتمع مبعوثه في قرطبة إلى الخليفة، محاطاً بنفس الرعاية بعد اكتفائه بالمراسيم العادية، دون التطرق لموضوع آخر غير العلاقات الودية بين الدولتين، حيث كان لسفير الناصر دوره الإيجابي في هذا المجال.

والواقع أن التعرض لموضوع العلاقات الدبلوماسية في تلك الحقبة الزمنية من العصور الوسطى أمر غير يسير، حيث العلاقات العسكرية طاغية على سواها من مظاهر التعاون الودي. وكما لاحظنا فإن هذه الاتصالات والزيارات المتبادلة بين وفود الخلافة الأموية في الأندلس وبين الممالك المعاصرة لها سواء في الشرق أم في الغرب، لم تحتل غير جانب سطحي في إطار ما نسميه حالياً بالعلاقات الدولية، لأن الجانب الأهم كانت تشهده ساحات القتال في معركة إثبات الوجود، فوق أرض محاطة بالأعداء.

قرطبة في أيام الناصر: مركز حضاري فريد في العالم الوسيط

إن تاريخ قرطبة العربي الإسلامي، هو في الحقيقة تاريخ الأمويين في الأندلس بما يحمله من الارتفاع والسقوط. ولكن قرطبة الناصر تأخذ مكانها المميز، كأعظم مدن ذلك العصر إلى جانب بغداد المدينة العباسية الشهيرة، والقسطنطينية عاصمة البيزنطيين المتألقة، حتى أنها نافست هذه الأخيرة اتساعاً واكتظاظاً بالسكان. فهذه المدينة التي انصبّت فيها معظم مداخيل الأندلس الغنية، لتجعل منها نموذجاً متطوراً لمدن العصر، تستقطب الآلاف من البشر وتزدحم بآلاف المنازل والقصور وعشرات الفنادق والحمامات والمتاجر، وتحترقها الشوارع والأسواق المرصوفة، وتعمّج أروقة المساجد فيها بالعلماء والفقهاء وتغص بطلاب العلم، كما تجتذب قصورها أجواء الشعر والغناء والرقص، كانت هذه

. Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France* P193 (١)

المدينة الوجه الحضاري لدولة الأمويين التي بلغت ذروة تألقها في عهد الخلافة^(١). وفي قرطبة أشد ما يثير الإعجاب في كل زمان، مسجدُها العظيم الذي واكب تاريخ الأمويين في الأندلس، بحيث كاد يكون لكل أمير منهم بصماته الواضحة عليه، فيصبح مع كل عهد أكثر اتساعاً وأروع جمالاً، حتى إذا كانت خلافة الناصر وابنه الحكم، بلغ أقصى امتداده إلى الجنوب محاذياً نهر الوادي الكبير^(٢). ولعل المنارة المذهبة التي سُميت بمنارة الناصر (٩٥١/٣٤٠)^(٣)، هي أبرز المنشآت التي أُضيفت إلى هذا المسجد، فكانت شاهقة الارتفاع وغاية في الفخامة والدقة الفنية^(٤).

ومن المؤكد أن النهضة العمرانية في قرطبة، ارتبطت إلى حد كبير بمناخ الاستقرار السياسي الذي خيم على الأندلس، منذ الثلث الأول من عهد الناصر. ولقد ساهم فيها الأمراء ورجال الحكم وأصحاب الثراء من الناس، المتأثرين بالدوق الفني الذي انتقل إلى خارج القصور ليصبح طابع المدينة بصورة عامة. ولكن منجزات الخليفة في عاصمته التي ابتدأت بالمسجد ومنارته وانتهت بالسور الكبير، لم تأخذ من اهتمام المؤرخين ما يستحق أهميتها، إذ طغت عليها المدينة الجديدة التي بناها الناصر على مقربة من قرطبة، وهي الزهراء^(٥)، التي كانت توأم الخليفة الملازم له، بحيث لا يُذكر أحدهما منفصلاً عن الآخر. وتشير بعض الروايات التاريخية أن هذه المدينة الجديدة كانت بادرة تكريم لإحدى جارياته التي تحمل نفس الاسم^(٦)، ولكن هذا الاعتقاد محاط بالشك لما عرف عن الناصر من جدية كرجل دولة واستبعاد رضوخه لرغبة حظية عنده، ببناء

(١) الروض المَطَّار ص ١٤٠ وما بعدها، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨.

(٣) المكان نفسه.

(٤) عن تطوير المسجد في عهد الناصر، راجع: البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١.

Levi — Provençal. Inscriptions Arabes d'Espagne P. 19.

(٥) الروض المَطَّار ص ٩٥.

(٦) نفع الطيب ج ١ ص ٥٢٣.

مدينة خاصة لها، لا سيما وأنه نقل إليها بعد إنجازها، إدارة الدولة وحاشيته ومعاونيه. ولا بد أن بناء الزهراء كانت له علاقة بالضغط البشري على عاصمة الخلافة، مما دفع الناصر إلى الخروج منها إلى سفح جبل العروس^(١)، حيث موقع الزهراء لتكون عاصمة جديدة للخليفة العظيم، تنعكس عليها ملامح العصر الذهبي للأسرة الأموية في الأندلس. فالباعث إذن وراء هذا الإنجاز العمراني الضخم، خضع لمتطلبات الدولة وسرعة نمو العاصمة، إن لم نقل استجابة لتزعة الخليفة «الارستقراطية»، باتخاذ مقر جديد، فيه من البهاء والفخامة ما يبتغيه طموح خليفة، يؤمن بنظام الفرد والحكم المطلق إلى أبعد الحدود^(٢).

ولقد بوشر بالعمل في الزهراء في مطلع سنة ٩٣٦/٣٢٥، أي في منتصف ولاية الناصر، وهي تبعد نحو خمسة أميال تقريباً إلى الشمال الغربي من قرطبة^(٣). وقد روعي في تخطيطها نظام المدينة الكاملة، لتستوعب أجهزة الحكم ورجال الحاشية والجيش، وصرفت لها ميزانية هائلة، بحيث أن مهندسين وفنانين وبنائين استقدموا من الشرق خاصة من بغداد والقسطنطينية، للمشاركة في هذا العمل الضخم، فضلاً عن عشرة آلاف من العمال والحرفيين كانوا منصرفين يومياً إلى بناء هذه المدينة^(٤). وعلى الرغم من السرعة العجيبة والعمل اللئوب فإن الزهراء لم تستكمل صورتها النهائية إلا بعد وفاة الناصر، تاركاً لابنه (الحكم) تنفيذ الجزء الأخير منها.

غير أن الزهراء التي حظيت بهذا الاهتمام الكبير وانصبت فيها تلك المقادير من الأموال ومن جهود العمال والمهندسين - فأصبحت كما تفيض روايات المؤرخين، أحد أعظم المنجزات الفنية في العصر وأكثرها تجسيدا للترف

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٥٢٣.

(٢) Dozy, Hist 2, 153

(٣) الروض للمعطار ٩٥، نفع الطيب ج ١ ص ٥٢٤.

(٤) نفع الطيب ج ١ ص ٥٢٦.

والبذخ الذي بلغ في ذلك الوقت^(١) - تهاوت بالسرعة التي قامت بها وكان وجودها اربط بالخلافة ، حتى إذا اضمحلت هذه الأخيرة لحقت بها ولقيت نفس المصير. ولعلمها أول مدينة في التاريخ تقدر بها الأيام، فتحوّلها إلى بقايا أنقاض، حيث ظلت مطمورة منسية حتى مطلع هذا القرن، عندما قام أحد العلماء الأسبان بحفريات في المكان الذي أقيمت عليه، معتمداً على المعلومات الواردة في «نزهة المشتاق»^(٢) للادريسي، الذي كان قد زارها بعد وقت قصير من خرابها^(٣)، وهي لا تزال حتى اليوم، تحمل اسمها العربي القديم: مدينة الزهراء Medina Zahara^(٤).

وقرطبة لم تكن زاهية فقط بمنشآتها العمرانية البديعة، المتوّجة بولادة جارتها الزهراء العاترة الحظ، بل كانت إلى جانب ذلك قمة علمية شامخة تغص مكتباتها بآلاف المخطوطات النفيسة الأصلية والمترجمة، وتجع أروقة مساجدها وقصورها بالنخبة من العلماء والشعراء والمثقفين، يستهويهم المناخ الفكري الفريد في المدينة والذهنية المستنيرة والمتطورة. هذه النهضة العلمية والأدبية التي شقت طريقها في الأندلس على يد الأمير عبد الرحمن الثاني، كانت قد بلغت مرحلة من النضج والعتاء في عهد الناصر، وعلى الأخص في أيام خليفته المثقف وصاحب أكبر مكتبة في ذلك الوقت، وهو ما ستطرق إليه عند حديثنا عن الحكم المعروف بالمستنصر، تيمناً بقلب الخليفة الأب الذي حمل اسم الناصر.

ويبدأ هذا الخليفة الذي ضاق بأعماله نصف قرن من الحكم الطويل، يشعر بوطأة تلك السنوات الثقيلة، تغتال فيه الحيوية تدريجياً، حتى إذا اقترب من العام الخمسين لحكمه كان المرض قد استحوز عليه، حيث قضى بضع سنوات بين الاعتكاف والظهور، إلى أن توفي في رمضان ٣٥٠ هـ/ تشرين الأول

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٥٢٦.

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤١٥.

(٣) نزهة المشتاق ص ١٩٣.

(٤) مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤١٤.

٩٦١ م، خاتماً بذلك قصة حافلة من النضال الشاق والإنجازات العظيمة^(١). فهذا الرجل الذي قطع في الحكم أطول شوط بلغه حاكم في تاريخ العرب والإسلام، قدّر له بفضل إرادته الفولاذية أن يصنع المعجزات في دولة كانت على مشارف النهاية، فأنقذها من الضياع وأعطاهها ذلك الوجه الحضاري المتميز الذي أشرقت به إسبانية العربية في العالم الوسيط. والعظماء في التاريخ لا ينكر فضلهم حتى الأعداء، فتتنكس هاماتهم تقديراً لهم واحتراماً. ولعل زيارة الملك الليوني المخلوع أردونيوار الرابع، لثوى هذا الخليفة بعد فترة قصيرة من موته وخشوعه أمام ضريحه، خير اعتراف بالمكانة العالية التي رقي إليها الناصر والثقل المعنوي الذي رافق اسمه في ذلك الحين^(٢).

الحكم الثاني: المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦ / ٩٦١-٩٧٦)

قطع هذا الخليفة سنوات الشباب^(٣)، قبل أن يرتقي عرش الخلافة ليملا ذلك الفراغ الكبير الذي تركه غياب الناصر. والكهولة وإن افتقدت روح المغامرة فلا بد أنها مخزن تجربة إذا ما اقترنت بعقل متنور وشخصية قوية. فأين الحكم من هذه الصورة؟ بل أين موقعه في تلك «المؤسسة» الضخمة التي ورث أعباءها الثقيلة؟ هل كانت له بعض ملامح أبيه وذهنيته المتفتحة؟ أم أن وقار الخمسين غلبه، فعاش في قصره يتوكأ على أنجاد الخليفة السابق؟.. ذلك أن الحكم الثاني لم يكن رجل سياسة محترف، يفتن بالسلطة وتستحوذ عليه شهوة الملك، بل نموذجاً خاصاً بين الحكام الأمويين في الأندلس. فقد كان صاحب مزاج لا يتفق عادة مع السياسة، إذ هو عاشق للكتب، مولع باقتنائها حتى الهوس^(٤). ومن الطبيعي أن يجد رجل له تلك الهواية في السلطة، غربة ومكاناً ليس مكانه

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠، نفع الطيب ج ١ ص ٣٨٢.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.

(٣) كان في السابعة والأربعين حين ارتقى الخلافة. المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٩، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٣٣.

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٦١-٦٢.

المناسب. ولقد أوجز ابن الخطيب في بضع كلمات، شخصية هذا الخليفة المثقف بقوله: «كان عالماً فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جماًعاً للكتب». (١). وفي ذلك دلالة على أن الحكم كان قارئاً مدمناً، يقضي جلّ ساعات النهار في مكتبته الزاخرة بصنوف المخطوطات، أو في صحبة العلماء والمؤرخين والفلاسفة. ومن أشهر معاصريه الذين استهوتهم شخصيته المثقفة، ابن حزم صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب، وأبو علي القالي اللغوي البغدادي الأصل ومؤلف كتاب الأمالي، حيث كانا على الأرجح من رواد مجالسه العلمية، لا سيما هذا الأخير الذي كان له عمل مرموق في بلاط الخليفة (٢).

ولكن الحكم المستنصر الذي كان له حسب ما تشير الروايات التاريخية سفراء متجولين، يمدّونه بما يقع في أيديهم من مخطوطات نفيسة مهما بلغ ثمنها (٣)، لم يكن أسير نهمه إلى المعرفة وانشغاله بالكتب ومجالسة العلماء، وإنما كان يجد من الوقت متسعاً للقيام بأعباء الدولة ومعالجة شؤونها. فقد جاء إلى الخلافة ولديه من التجربة الكافية المكتسبة في عهد أبيه، الذي كان لا يتردد في إشراك ولي عهده المختار منذ زمن مبكر والمهيأ للمنصب الكبير بعد موته. ومن هنا فإن التجاه إلى الكتب لم يكن هرباً من ضعف في شخصيته أو جزعاً من السلطة، لأن عهده كان ذروة الاستقرار السياسي في تاريخ الأندلس الأموية. غير أن الجهد الذي قام به كان متواضعاً إلى حد كبير، بالمقارنة مع الجهود العظيمة التي قام بها الناصر، حيث استمد قوته الرئيسية من رصيد الخليفة السابق، الذي ترك له عرشاً قوياً لا تقتله العواصف بسهولة. ولذلك فإن دور المستنصر تمثّل في المحافظة على تراث أبيه، آخر عظماء الأندلس من الأسرة

(١) أعمال الأعلام ص ٤١.

(٢) الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠٣، نفع الطيب ج ١ ص ٣٨٦، ٣٩٤ - ٣٩٥، جمهرة أنساب العرب ص ٢٨١ وما بعدها، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٥٩ - ٦١، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٠.

(٣) قيل إن الحكم اشترى النسخة الأولى من الأغاني بألف دينار ذهبي. المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٦٢.

الأموية حسب تعبير أحد المؤرخين^(١). ولعل أبرز وجوه الاختلاف بين الاثنين، أن السلف كان شديد الحذر لا يطمئن لمعاونيه إلا بمقدار، انطلاقاً من إيمانه بنظرية الحكم المطلق، بينما المستنصر ألقى كثيراً من أعباء الحكم، خاصة في شؤون الإدارة على عاتق وزيره (المصحفي)^(٢)، الذي مُنح صلاحيات واسعة، جعلته يبتّ بالأمور دون الرجوع إلى الخليفة، بحيث كان أول وزير يأخذ هذا الحجم في دولة الأندلس الأموية.

العلاقات مع الممالك الاسبانية

لم تكن لدى المستنصر مشاكل داخلية ذات أهمية، بعد سحق الثورات المختلفة في العهد الماضي. حيث كانت متاعبه في الغالب خارجية، لا سيما العلاقة مع الاسبان التي اتخذت حيزاً هاماً في سياسته، على الرغم من الطابع الودي الذي سادها في أواخر عهد الناصر، الذي كان له من النفوذ السياسي والمعنوي في بلاط الملك الليوني، ما يؤهله للتدخل في صراعات الحكم وتطاحن المتنافسين. وكان شنجة الأول (سانش) مديناً بعمره للخليفة الأموي، الذي وقف إلى جانبه ضد خصمه أردونيو الرابع، وكان الثمن كما أشرنا سابقاً، بضعة حصون تنازل عنها الملك في خلافة قرطبة. غير أن العلاقات ما لبثت أن ساءت بين الطرفين في مستهل عهد الحكم، حيث يبدو أن ملك ليون خرق اتفاق الهدنة المعقود مع الناصر، بعد أن استقامت له الأمور وشعر بقوته بعد غياب الخليفة القوي. ولكن شنجة لم يذهب أبعد من ذلك في مناجزة أعدائه الأمويين، لأن الظروف تألّبت عليه وشعر بأنه تورط في خرق نصوص المعاهدة التي التزم بها. ذلك أن منافسه المخلوع قام بزيارة الخليفة في قرطبة آملاً مساعدته على استرداد عرشه، كما فعل الناصر مع خصمه، فاستقبله الحُكم بحرارة وأحاطه بمظاهر

(١) لين بول، العرب في اسبانية ص ١٣١.

(٢) جعفر بن عثمان المصحفي. المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٦٢، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٣، فتح الطيب ج ١ ص ٤٠٢.

الحفاوة الملكية^(١)، خاصة وأن أردونيو كان على جانب من الدهاء والقدرة في استغلال المواقف. ولم تكن زيارته لضريح الناصر برغم الإعجاب الذي كان يدّخره للخليفة الراحل، غير مظهر يعبر عن ذكاء ومرونة تتمتع بها الملك المخلوع.

وكان نزول أردونيو في ضيافة الخليفة الأموي كافياً لأن يُفقد ملك ليون (شنجة) صوابه، ويُقدّر أي خطأ فادح أقدم عليه، لذلك سارع إلى تصحيح موقفه بتنفيذ شروط الاتفاق المذكور. ولم يكن ذلك السبب الوحيد الذي دفع الملك الليوني إلى المهادنة مع المستنصر، فهناك عامل آخر لا يقل أهمية، تعلق باضطراب الجبهة الإسبانية الموحدة، واتخاذ أمير قشتالة (فرديناند) صهر الملك المخلوع جانب قريبه، موجّهاً أول ضربة للتحالف التقليدي الذي ربط بين قشتالة وليون^(٢). غير أن التطورات التي حدثت بعد وقت قصير، أنقذت الوضع وأزالت الحرج لدى الملك والخليفة معاً. فقد جاءت وفاة أردونيو الرابع المطالب بعرشه، لتحرر المستنصر من التزاماته الأدبية بدعم معركته ضد ملك ليون، كما أنها أراحت هذا الأخير من كابوس ثقیل وأنقذت جبهته السياسية من الانهيار والتفسخ. ولكنها لم تكن بالنتيجة في مصلحة السلام والعلاقات الودية بين خلافة قرطبة وبين مملكة ليون، التي عادت إلى توترها التقليدي وقضت على أجواء السلام في جبهة الحدود الشمالية.

ومن الواضح أن الدويلات الإسبانية بُعِثَ هذه الأزمة، رجعت موحدة متماسكة وشعرت بأنها قادرة على استئناف الحرب ضد الخلافة الأموية، في وقت كان شنجة قد أصبح أقوى شخصية إسبانية وأكثر المتحمسين للقيام بدور صليبي، يعزّز من مواقفه بإعطاء زعامته السياسية بريقاً وجاذبية في العالم المسيحي. ولكن طموحه تعرّض أمام المبادرة السريعة التي اتخذها المستنصر بإعلانه

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٢٥.

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٣٨٤.

التعبئة العسكرية في الدولة، رداً على استعدادات الملك الليوني وحلفائه، ومن ثمّ القيام بهجوم تحت قيادته إلى قشتالة (٩٦٣/٣٥٢)، فتصدى له أميرها (فرديناند) ولكنه أصيب بهزيمة، فرقت جيشه وبعثرت قواته قبل إرغامه على مودة الخليفة، الذي عاد أذواجه بعد حملة ناجحة، تكللت برضوخ الأمير القشتالي لشروطه واحترام سلام الحدود^(١).

غير أن معاهدات السلام مع الاسبان، لم يكن لها عادة ذلك المفعول التنفيذي، فلا تلبث أن تنهاوى وتصبح فارغة من أي مضمون. ولهذا فإن استمرار الحرب في المنطقة نفسها لم يكن يثير الاستغراب، حيث شنّ الأمويون سلسلة من الهجمات على قشتالة في السنوات اللاحقة، كانت القيادة خلالها معقودة بصورة عامة لبحى بن محمد التجيبي والقائد الآخر غالب بن عبد الرحمن من أعوان الخليفة المقربين^(٢). وقد سبق أن اشترك هذان القائدان في عملية ناجحة ضد نافار، حيث سقطت في أيديهما بضعة حصون هامة. وهكذا استطاع المستنصر، مداومة الاسبان ومنعهم من اتخاذ أية مبادرة هجومية على مواقع العرب المسلمين، كما أرغم الملك الليوني على تسليم الحصون، محوّر الخلاف الذي انفجر بعد غياب الناصر.

العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الأقصى

إن أية علاقات عدائية مع الدولة الفاطمية، صاحبة السيادة على المغرب، لم يعد لها ذلك الطابع العسكري المهدّد لكيان الأمويين في الأندلس، منذ أن شقت هذه الدولة طريقها إلى الشرق حيث المجال أرحب لنشاطها السياسي والعقائدي. ويسقط مصر (٩٦٩/٣٥٨) في عهد الخليفة المعزّ، على يد قائده الشهير جوهر الصقلّي، تنطوي نهائياً فكرة الغزو الفاطمي للأندلس، ويتقلص معها النفوذ في المغرب الأقصى بصورة ملحوظة. ذلك أن الفاطميين اقتنعوا منذ

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٢٦.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.

الاستيلاء على مصر، بأن مسرح دورهم الكبير، الطامعين إلى القيام به، هو في الشرق وليس في أي مكان آخر، حيث الصراعات العقائدية والاجتماعية على أشدها، تطوّق خلافة بغداد فتزيدها اضطراباً وعزلة.

ولقد عانى الفاطميون في الواقع متاعب جمة في علاقاتهم مع البربر، الذين لم يلتزموا بالولاء لهم الالتزام الكامل. وكانت قبيلتنا صنهاجة وزناتة الأكثر نفوذاً وسطوة، والمنافسة بينهما على أشدها، حيث تبنّت الأولى الخط الفاطمي وعُيّن زعيمها (زيري بن مناد الصنهاجي) حاكماً على المغرب الأقصى، واتجهت الثانية إلى الدولة الأموية في الأندلس متحالفة معها ضد القبيلة الصنهاجية^(١). وكانت هذه نقطة الضعف في السيادة الفاطمية على المغرب، التي استغلّها الحكم المستنصر بإعطاء حليفته (زناتة) الدغم الكافي لتحقيق هدفين: الأول هو الاحتفاظ بالمواقع العسكرية التي كانت تحت سيطرة الأمويين على ساحل المغرب مثل طنجة وسبتة ومليلة، والثاني هو إضعاف الحكم الفاطمي في هذه المنطقة، بتحقيق تعادل في الموازين السياسية، هو في النتيجة لمصلحة المستنصر الأموي.

وما لبث الصراع في المغرب أن اتخذ بُعداً محلياً مع غياب الحكم الفاطمي المباشر، فأخذت القوى السياسية في الداخل تتزاحم على النفوذ، مستغلة هذا الفراغ الذي حدث مع تخلخل الزعامة الفاطمية في هذا الأقليم. وكان من بينها بقية الإدارة بزعامة الحسن بن كنون (قنون)^(٢)، آخر أمرائهم، قبل أن يقضي على دولتهم الفاطميون. فتحالف الزعيم الأدرسي مع الأسرة الأموية في الأندلس - عدوة الأمس - للوقوف في وجه الحكم الزيري الممثل للفاطمين الشيعية. كما أن زناتة إحدى أقوى القبائل المغربية، وحليفة الأمويين، حاولت أن تجد لها محلاً وسط هذا الصراع على النفوذ. فقوي شأن هذه القبيلة بتحالف زعمائها مع حكام المسيلة السابقين من بني حمدون الأندلسي^(٣). وكان هذا

(١) Voir: A. Julien, Hist de l'Afrique du Nord P 68

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

الحلف موجهاً ضد الفاطميين ومثليهم بني زيري، الذين دفعوا ثمن هذا التكتل هزيمة قاسية، قُتل فيها زعيمهم مثل الخلافة الفاطمية (٩٧١/٣٦١)^(١)، بحيث انعكس ذلك على نفوذ الأخيرة وحليفاتها القبيلة القوية صنهاجة، بينما تعزز وضع الأمويين الذين استعادوا موقعهم في المغرب الأقصى. غير أن الشعور الأموي بسحق النفوذ الشيعي والقضاء على السيادة الفاطمية الممثلة بالزيريين في هذا الإقليم لم يدم طويلاً، حيث قام الأدارسة بعد عام واحد فقط (٩٧٢/٣٦٢) بثورتهم في المغرب الأقصى وسيطروا على تطوان وطنجة واصيلاً^(٢)، وهي مواقع في غاية الأهمية، لا سيما طنجة التي حرص الأمويون على أن تكون إحدى ركائزهم العسكرية الأولى في المنطقة. فسقط بذلك التحالف السياسي القائم بين الأمويين والأدارسة، وهو في النتيجة تحالف مرحلي ضعيف، من الصعوبة أن يستمر طويلاً لاختلاف المفاهيم لدى كل من الطرفين. وشعر الحكم المستنصر بخطورة هذه التطورات، فصمّم على اتخاذ موقف حازم وقمع الثورة الادريسية المناوئة له بالسرعة القصوى. ولم يعد هنالك من تسوية لسياسة التدخل غير المباشر بواسطة الحلفاء المحليين وغيرهم من مؤيدي الخلافة الأموية، خاصة بعد الهزيمة القاسية التي تعرّضت لها قواتها في طنجة. ورأى المستنصر أن الوقت قد حان للقيام بعمل تاديبي في المغرب الأقصى، فأرسل حملة عسكرية بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس^(٣) إلى سبتة، قاعدة الحكم الأموي الوحيدة في ذلك الحين على الساحل المغربي. ومن هناك شنّ هجوماً عنيفاً على طنجة معقل الثورة الادريسية، حيث بذل زعيمها الحسن بن كنون جهوداً عظيمة في مقاومة الحصار الأموي، ولكنه فشل وانتهى الأمر باستسلام المدينة وعودة السيادة الأموية إليها، كما عادت إلى المدينة الأخرى (اصيلاً)، وهرب الزعيم الادريسي ولكن دون أن يلقي سلاحه أو يتوقف عن إثارة المتاعب ضد الأمويين. غير أن

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٥.

هذه الثورة وإن أصابها الفشل، إلا أنها كانت سبباً في توتير العلاقة بين الخلافتين الفاطمية والأموية وعودتهما إلى المجابهة مرة أخرى^(١).

استدعى المستنصر قائده المقرّب غالب بن عبد الرحمن إلى قرطبة وأمره بتنفيذ حملة إلى المغرب الأقصى، لتصفية جيوب المقاومة الإدريسية وإعادة السلطة الأموية المطلقة إلى قواعدها السابقة. وكان المستنصر شديد الاهتمام بالتطورات الأخيرة، لما سخره من طاقات بشرية ومادية في هذه الحملة التي استدعي قائدها من الجبهة الشمالية على تحوم نافار^(٢)، ومن المؤكد أن موقف المستنصر المتشدد كان نابعاً من خلفية مذهبية مترممة، هي في الحقيقة لا تتجزأ عن الذهنية العامة في الأندلس^(٣). فالخليفة الأموي المتدين والمحاط بطبقة من الفقهاء، لا يتردد في سحب قائده البارز من الجبهة الإسبانية وإرساله إلى المغرب، للوقوف في وجه خصومه الفاطميين والإدارسة. وفي رمضان ٣٦٢ هـ عبر غالب بن عبد الرحمن المضيق من الجزيرة الخضراء، وبعد نزوله في الضفة الأخرى انضمت إليه جميع القوات الأموية هناك، كقائد عام للجيش الأموي في المغرب. كما وصلته تدريجياً قوات إضافية أخرى منها حملة القائد المعروف يحيى بن محمد التجيبي، التي ضمت بين عناصرها محمد بن أبي عامر (المنصور)^(٤)، وكان لا يزال شخصية مغمورة في ذلك الحين. وما لبثت القوات الأموية أن أخذت تطارد الثوار الإدارسة الذين تجمعوا أخيراً بقيادة زعيمهم الحسن بن كنون في قلعة حصينة تعرف بـ «حجر النسر». وكانت مقاومة ضارية أبداها الإدارسة الذين أحيطوا بقوات الخلافة الأموية وبمؤامرات قائدها، تفعل مثل السحر في رؤوس جماعة الحسن التي مالت تحت تأثير الأموال الطائلة الموزعة بسخاء. فاستسلم الزعيم الإدريسي أخيراً

(١) راجع تفاصيل ثورة الإدارسة في المقتبس لابن حيان ص ٦٩ وما بعدها. البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) تروي المصادر التاريخية أن المستنصر خاطب قائده بقوله: سر سبر من لا إذن له بالرجوع حياً إلا منصوراً أو ميتاً فمعدوراً. ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨. ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧.

للقائد غالب وذهب أسيراً مع عائلته إلى الأندلس. فبقي هناك حتى موت المستنصر، عندما أبعده الوزير المصحفي إلى تونس (٩٧٥/٣٦٥)، ومنها إلى مصر حيث رجب به الخليفة الفاطمي (العزیز)، ليهيئ له بعد قليل من السنوات دوراً جديداً في إطار الصراع الفاطمي - الأموي في المغرب الأقصى^(١).

وكان الفاطميون بعد نجاحهم السياسي والعسكري في المشرق، قد عادوا إلى الاهتمام جدياً بتلك المنطقة، نواة دولتهم الكبيرة. ففي سنة (٩٧٩/٣٦٩)، كان حلفاؤهم الصنهاجيون من بني زيري، يقومون بشرة ذات طابع شيعي لاسترداد زعامتهم من الأمويين خلفاء الأندلس. وكان على رأسهم بلقين (بلقين)^(٢) بن زيري الصنهاجي، الذي بدأ تحركه من مدينة فاس وانطلق منها ليقضي على السيادة الأموية في المغرب. وما لبث الزعيم الأدرسي الحسن بن كنون أن وفد من مصر لمشاركة بلقين، في مطاردة الأمويين وترسيخ النفوذ الفاطمي هناك^(٣). ومن الواضح أن هذه العمليات جرت في وقت لاحق بعد وفاة المستنصر (٩٧٦/٣٦٦)^(٤)، وكانت السلطة السياسية الفعلية في الأندلس قد انتقلت إلى أحد موظفي الإدارة الأموية الكبار وهو محمد بن أبي عامر^(٥). وفي عهده ازدادت الأوضاع السياسية تعقيداً في المغرب، واحتلت جانباً غير يسير من اهتمامات رجل الدولة الجديد.

ومن الأهمية بمكان، التوقف قليلاً عند هذه الفترة من تاريخ دولة الأمويين في الأندلس. ذلك أن موت الحكم المستنصر، لم يكن حدثاً عادياً يتمثل بغياب حاكم ومجيء آخر، بل كانت له أبعاد أكثر خطورة على مستقبل النظام الأموي بصورة خاصة، إن لم نقل المستقبل السياسي للعرب المسلمين هناك بصورة

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٥.

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٣.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥١.

عامة. وبعبارة أوضح، كان غياب المستنصر، مؤشراً لسقوط الخلافة التي انتهت فعلياً بموته. وقد لا نبتعد كثيراً عن الحقيقة، إذا ما ربطنا الخلافة بشخصية مؤسسها الناصر، حيث ولدت معه كمؤسسة إدارية وسياسية، ثم أخذت تتحول تدريجياً إلى مجرد لقب رسمي، لخليفة لا تستهويه السياسة كما القراءة ومجالسة العلماء. وإذا كان المؤرخون التقليديون قد وجدوا في اعتكاف المستنصر بين كتبه ومخطوطاته أكثر ساعات النهار، سمة إيجابية في الخليفة العالم والمثقف، فإن ذلك يشكل إحدى نقاط الضعف في نظام المستنصر. ومن البديهي أن المعرفة الواسعة، من ضرورات نجاح الحاكم في كل زمان ومكان، أما أن ينصرف لها وتستحوذ على معظم اهتمامه، فلا بد أن يتحول معها من رجل سياسة بحكم منصبه إلى رجل بحث وعلم، ومن الصعب جداً الجمع بين المهمتين، لأن كلاً منها يستلزم التفرغ التام. ولعل ذلك أكثر ما ينطبق على رجل الدولة في الأندلس، أرض التناقضات والصراع السياسي، حيث يفترض أن تكون آلة الحكم مستأثرة بكل طاقاته، موزعة الاهتمام على مختلف الجبهات في الداخل والخارج. وبهذا نصل إلى نتيجة واضحة، أن المستنصر لم يكن رجل المرحلة المطلوب، فجل ما قام به هو تجميد الأوضاع السياسية في الأندلس، معتمداً في المقام الأول على تراث أبيه الخليفة السابق، والجمود لا يعني سوى الرجوع إلى الوراء في كل الحالات.

الدولة العامرية أبو يعقوب المنصور... على خطي الخليفة العظيم

٣٦٦-٣٩٣ / ٩٧٦-١٠٠٤

الخليفة الطفل و «الحاجب» القوي

إن أخطر مآسي النظام الوراثي في الحكم، هو ارتباط حاضر الدولة ومستقبلها بشخصية رجل غامض هو ولي العهد. فإذا كان من الصعوبة المراهنة على كفاءة من هو خارج الحكم، فكيف بطفل لم يتعد العاشرة أو دون ذلك^(١)، وهو هشام بن الحكم وحيد الخليفة الراحل؟

ولا يبدو أن المستنصر كان مطمئناً إلى سير الأمور مع ولنته الحدث بعد وفاته، ولكنه يقع في الخطأ الفادح، معتقداً أن ما يشبه مجلس الوصاية الذي شكّله قبل موته من كبار الأعوان الثلاثة: المصحفي وغالب والعامري، سيأخذ بيد الخليفة الطفل حتى يصبح مؤهلاً للحكم الفعلي. وعلى الأرجح أن قرار الخليفة كان تحت تأثير «زوجته» صبيح^(٢)، صاحبة الكلمة النافذة في القصر والطموح السياسي البعيد، لتمارس دوراً فاعلاً خارج هذا القصر، بواسطة ابنها هشام، حيث اختاره المستنصر «وكيلاً»^(٣) للأخير قبل وفاته.

(١) نفع الطيب ١-٢٥٣، أعمال الأعلام ص ٤٤، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٧٢.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥١.

ولكن اختيار هشام للمنصب الخطير، لم يردون اعتراض المعترضين. وما لبث أن احتدم الجدل بين رجالات الدولة، فاختلفت بينهم الآراء بعد وفاة المستنصر تبعاً لمصالحهم السياسية أو علاقاتهم الخاصة. وإذ برز في الساحة أكثر من تكتل، فإن الصراع الرئيسي قام بين اتجاهين: الأول يرفض الخليفة الطفل متذرعاً بصغر سنه وعجزه عن القيام بواجبات الحكم قبل مضي وقت طويل، ويرشح عمه المغيرة بن عبد الرحمن بما له من وقار وتجربة^(١). والثاني كان أصحابه رجال السلطة الفعلية منذ عهد المستنصر، الذين أصروا على تنفيذ الوصية، وهم في الأساس مشاركين في صنعها، وجلّهم من محترفي السياسة ومن أصحاب الطموح، لا يرون في تنصيب مرشحهم إلا ضماناً لاستمرار مصالحهم في الحكم. وتبلورت المنافسة على النفوذ من خلال المرشح للخلافة، لتصبح صراعاً عنيفاً بين قادة الجيش وبين رجال الدولة. فكبار القواد من الصقالبة (فائق وجؤذر) كانوا مع الاتجاه الأول^(٢)، بينما كان الوزير الصحفي وابن أبي عامر وغيرهما من كبار موظفي القصر مؤيدين للاتجاه الثاني، الذي فاز في السباق على السلطة. وبذلك تمّ تنصيب الطفل هشام ليكون الرقم الثالث في مسلسل خلفاء الأمويين في الأندلس، ولكنه ظل مجرد رقم لا أهمية له، وصورة باهتة معلقة في أحد جدران القصر الخلافي^(٣).

ومن الواضح أن قوة خفية كانت وراء جماعة المدنيين الذين جاءوا بهشام، وهي الأرملة القوية التي عُرفت باسمها العربي صُبُح، المأخوذ من الاسم الباسكاوي القديم Aurora^(٤). وقد بلغ من تأثير هذه المرأة التي دخلت بلاط المستنصر كجارية تحترف الغناء، أنها أصبحت الشخصية القوية في القصر خاصة بعد إنجابها هشام الابن الوحيد للخليفة، ومن ثم صار لها المقام الأول، لا يُردّ

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٩٦.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٠.

(٣) راجع سيرة هشام المؤيد في أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٤ وما بعدها.

(٤) Aurora كلمة إسبانية معناها الفجر، في اللغة الفرنسية.

لها قرار ولا تناقش كلمة. وقد ورد اسمها في المصادر الأوروبية يحمل لقباً ملكياً هو «السلطانة صُبح»^(١)، على الرغم من أن علاقتها بالخليفة لم تتعد حدود الجارية المحظية، أي أنها لم تكن له زوجة بالمفهوم التقليدي لهذه الكلمة. ويبدو أن هذه المرأة الذكية التي وصلت إلى قلب المستنصر وعقله، كان أكثر ما يستهويها بريق الخلافة وحياة القصور، وهو الجانب الذي طغى على اهتمامها وتفكيرها. أما الجانب الآخر في شخصية المستنصر الباحثة والقارية حتى الإدمان، فلم يأخذ منها سوى القليل، لأن علاقة إعجاب نمت بينها وبين شاب في مقتبل العمر هو محمد بن أبي عامر^(٢). فهذا الأخير الذي تحدر من أسرة يمنية عريقة ولكنها غير ميسورة، كان قد بدأ حياته كاتباً للرسائل أمام عتبات القصر^(٣)، واستطاع بذكائه الحاد وثقافته الأدبية الرفيعة، أن يرقى فوق الحواجز ويذل العقبات، حتى أصبح من رواد البلاط الخلافي ووصل إلى قلب المرأة النافذة، فاستهواها شبابها المتدفق وشخصيته الذكية ولسانه الذرب، حيث ألقن جيداً صناعة الكلمة الأنيقة، التي اكتسبها على ما يبدو من احتراف كتابة الرسائل فترة ما في بداية خروجه إلى الحياة العامة^(٤). وثمت العلاقة بين الجارية القوية وبين الشاب الذي لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد، فاتحة أمامه سُبُل الارتقاء إلى تحقيق طموحه الكبير. فأخذ يتدرج في مناصب الدولة ويرتفع من وظيفة إلى أخرى، حتى انتهى به الأمر صاحباً للشرطة^(٥) قبل وفاة الحكم، أي أنه أصبح الرجل الثاني في حكومة الخلافة بعد الوزير الأول جعفر المصحفي.

وبعد أن شغل منصب الخلافة بوفاة المستنصر، وكان لابن أبي عامر كما رأينا

. Dozy: Hist 2, 190—195

(١)

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري.

أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٥٩، المعجب لمعد الواحد المراكشي ص ٨٤. ابن عذاري ج ٢

ص ٢٥٨.

(٣) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٣٧.

(٤) راجع سيرة المنصور في أعمال الأعلام ص ٥٩، نفع الطيب ج ١ ص ٣٩٩.

(٥) أعمال الأعلام ص ٥٩ - ٦٠.

الدور البارز إلى جانب المصحفي في تنصيب هشام، لم يكن الوزير حتى ذلك الحين يشك بولاء صاحب الشرطة له وتنفيذ ما يأمره به، ولو كان قتل المغيرة بن عبد الرحمن، مرشح التكتل المنافس الذي قضى خنقاً بتدبير منه^(١).

لقد كان العامري نوعاً من الرجال الذين لا يقفون بطموحهم عند حدود، فالنجاح الذي تكلل بانتصار فريقه في البقاء على رأس السلطة، لم يكن بنظره غير خطوة مرحلية لا بد أن تعقبها خطوات أكثر اتساعاً، ليجد نفسه وقد أصبح الرجل الأول في دولة الأندلس الأموية. غير أن تحقيق هذا الهدف، كان دونه طريق شائك وخصوم أقوياء. ذلك أن تنافساً خفياً على الاستئثار بالحكم من وراء الخليفة الطفل، احتدم بين ثلاثة من كبار رجالات الدولة الذين آلت إليهم في الواقع مقاليد السلطة الفعلية. فالأول هو الوزير المصحفي الذي لا يزال متمتعاً بالنفوذ الأقوى، باعتباره رأس السلطة التنفيذية أو بمثابة الوزير الأول. والثاني هو محمد بن أبي عامر صاحب الشرطة والمدعوم من سيدة القصر (صُبح). أما الثالث فهو قائد الجبهة الشمالية غالب بن عبد الرحمن، وهو أقوى شخصية في الجيش، والرجل الذي يتمتع بشهرة عسكرية ذائعة ومحظى بتقدير جميع الأطراف. غير أن هذا الأخير كان أكثر تعلقاً بعمله العسكري، فلم يدخل حلبة التنافس السياسي بشكل ظاهر، وإن كان لثقله المعنوي تأثير خطير في ترجيح كفة أحد المتنافسين. لهذا فإن العامري اتجه باهتمامه إلى هذا القائد الذي اتخذ من «مدينة سالم» قاعدة له، وتمكن بأسلوبه المرن من اكتساب صداقة وثقته، قبل أن يتقارب الرجلان من بعضهما أكثر، بزواج العامري من ابنة القائد في وقت لاحق^(٢).

وهكذا انحصرت المنافسة الفعلية، بين رجلَي القصر في قرطبة: الوزير (الحاجب) وصاحب الشرطة. وشهد بلاط الخليفة الذي أعطي لقب «المؤيد بالله»، صراعاً على الدور الأول أخذ يتبلور ويتكشف في ذلك الوقت. وكان

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦١، نفع الطيب ج ١ ص ٣٩٦.

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٤٠٠، أعمال الاعلام ص ٦١، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧.

العامري الأسرع في اتخاذ المبادرة وفي اقتناص المناسبات، بعلمٍ أو بغير علم من الوزير. ففي القصر كانت الضربة التي أنزلها بقيادة الحرس الصقلي ورجالهم، الذين تجاوزوا الألف^(١)، تحت ستار التأديب لموقفهم المناوئ في معركة تنصيب الخليفة. وقد وجد سبيلاً لاقناع المصحفي بمنطقه، دون أن يكشف الأخير أبعاد العملية التي لم تكن في مصلحته. وما لبث العامري أن استبدل الحرس الخلافي بعناصر جديدة موالية له، فكانت هذه أولى قراراته الذكية في اتخاذ ركائز له في الدولة لا سيما القصر، توسلاً إلى تحقيق أهدافه السياسية. وفي تلك الأثناء وقعت حادثة كان لها دور إيجابي في بروز هذا الرجل، عندما شنت الإمارة الإسبانية قشتالة هجوماً على قلعة رباح (بين طليطلة وقرطبة)^(٢)، مستغلةً دون ريب ظروف التناحر السياسي في العاصمة بُعيد وفاة المستنصر. ولم تدرك قشتالة أنها خدمت في هجومها هذا مصلحة العامري دون قصد، ومهدت له الطريق إلى القمة بصورة غير مباشرة. فقد كانت المحنة التي نزلت بالقلعة في متهمى الشدة وتركت صداها المؤثر في عاصمة الخلافة، دون أن يحرك الوزير المسؤول ساكناً، حيث تجاهلها أو كاد، ربما لحشيشته مغادرة العاصمة في تلك الأجواء المتلبدة. وكان هذا الموقف شركاً أوقع المصحفي نفسه فيه دون أن يدري، وأفقده كثيراً من بريقه المعنوي. ذلك أن سياسة الجهاد في الأندلس عكست تأثيرها دائماً على شخصية المسؤول وحجمه، وهي معادلة عامة لها علاقة وثيقة بالأوضاع النفسية في أي مجتمع من المجتمعات، حيث تنعكس عليه الانتصارات أو الهزائم، فترفع الأولى إلى القمة، بينما تطفئ الثانية بريق الحكام وتمزج العروش.

وكان العامري يرقب بارتياح موقف الوزير اللامبالي من الهجوم القشتالي الجريء، فاقترح أن يقود الجيش بنفسه إلى الإمارة الإسبانية، رداً على عملية

(١) أعمال الاعلام ص ٦٠ - ٦١، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٣، نفع الطيب ج ١ ص ٤٠٠.

(٢) الروض المطار ص ١٦٣.

القلعة^(١). ولم يمانع الوزير، ولعله رحب بخروج منافسه من قرطبة والابتعاد عنها في حرب «القلاع» البعيدة، بعد أن شعر بوطأة وجوده وتحركاته السياسية المريبة. ولعل الباحث يتساءل عن دور قائد الجبهة الشمالية غالب والرجل القوي في الجيش، وعن تلكؤه في التصدي لهجوم القائد القشتالي؟ ولماذا لم يكن هو، رجل الحرب المتمرس، قائداً للحملة بدل العامري رجل القضاء والإدارة؟ فهل تمّ ذلك بالتنسيق مع هذا الأخير، ليقتطف ثمرة عمل يوظفه في خدمة طموحه السياسي؟ ذلك أنه برغم التودد بين الرجلين، لا يبدو أن غالباً كان في صميم اللعبة التي اتخذت من قرطبة مسرحاً لها، وإن كان من المرجح أن جبهة الثغر الأعلى عند حدود نافار ودائرة نشاطه العسكري، كانت من الخطورة بحيث صرف كل اهتمامه لها في ذلك الوقت.

وفي رجب ٣٦٦ هـ / شباط ٩٧٧ م، نفّذ العامري تجربته الأولى في الحرب على مستوى القيادة. وسار بحملته التي اتخذت طابعاً انتقامياً صرفاً، مستهدفاً الإمارة القشتالية. وانتهى به المسير إلى موقع عسكري للاستبان يُعرف بحصن الحمامة^(٢) (على مسافة غير بعيدة من مدينة سلمنقة)، فأنزل بالحصن ضربة قوية، كانت متكافئة مع هجوم الأمير القشتالي السابق على قلعة رباح^(٣). ولقد أصاب العامري بحملته الناجحة أكثر من هدف، حيث استطاع بواسطة أجهزته ومراكز نفوذه، أن يجعل منها انتصاراً باهراً قبولاً بارتياح وإعجاب في عاصمة الخلافة، وكشفت في نفس الوقت موهبة العامري العسكرية إلى جانب مواهبه العديدة الأخرى، وكان الخاسر الأكبر في ذلك الوقت الوزير المصحفي، الذي شعر بأفول نجمه وتراجع نفوذه. وبعد عودته لم يدخر العامري وسعاً في متابعة الجهود، للاستئثار بالسلطة ومحاصرة نذّه الوزير بحملات نفسية عنيفة تزيد في عزله وتحجيمه. بيد أن المعركة السياسية بين الخصمين الكبيرين لم تكن بهذه

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٤، ابن الأبار، الحلة السيرة ج ١ ص ٢٥٩.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٤.

(٣) المكان نفسه.

السهولة، فالمصحفي لا يزال قابضاً بيده على مقاليد الأمور ومستأثراً بالسيطرة على المناصب الحساسة، خاصة بيت المال بما لذلك من أهمية في اكتساب الأعوان وشراء الأنصار.

وكان القائد غالب الحليف الذي زاهن عليه العامري، في الصراع بينه وبين المصحفي. فالعلاقة بين القائد والوزير كانت فاترة منذ أن اتهم الأخير قائده بالتناقل في الدفاع عن الحدود الشمالية، خاصة أثناء الهجوم القشتالي على قلعة رباح. ووجد العامري في ذلك مدخلاً لاكتساب صداقة القائد وثقته، فتحوّل إلى مدافع عنه في أوساط القصر وتسويغ موقفه من حادثة القلعة، حيث تتّوجت الصداقة بين الرجلين في الحملة المشتركة التي استهدفت أيضاً قشتالة. وعلى الرغم من أن القيادة الفعلية كانت للقائد المحترف غالب، فإن العامري أبدى من البسالة والجرأة ما أثار إعجاب القائد الشهير. ومرة أخرى يعود العامري إلى قرطبة، مكلّلاً بهامات النصر وحائزاً على ثقة إحدى أقوى شخصيات الخلافة الأموية^(١). وبعودته تصبح المجابهة حتمية بينه وبين الوزير المصحفي، حيث كان أول مؤشرات المعركة، انتزاع العامري مرسوماً خلافاً بتعيينه حاكماً على قرطبة. ولم تكن سيدة القصر بعيدة عن هذا الإجراء الذي أطاح بابن الوزير (محمد بن جعفر) الحاكم السابق. وكان المنصب تجربة جديدة لكفاءة العامري، الذي برز فيه كما في قيادة الحملات العسكرية، عندما شهدت العاصمة هدوءاً واستقراراً لم تعرفهما منذ وفاة المستنصر.

ولم يكن عزل محمد بن جعفر في الواقع غير مقدمة للإطاحة بالأب الوزير، الذي شعر بالحصار السياسي والمعنوي المفروض عليه من القصر والجيش. وأخذت كرسي الوزارة تهتز به وهو يتراجع من هزيمة إلى أخرى، في وقت كان العامري ينتقل من نصر عسكري إلى آخر سياسي. فبعد الحملة الثالثة^(٢) التي

(١) أعمال الأعلام ص ٦١، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٥.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٧.

قام بها إلى سلمنقة بالإشتراك مع غالب (٩٧٨/٣٦٧)، تمكن من استصدار مرسوم خلافي آخر بتعيين حليفه القائد شريكاً للمصحفي في الوزارة^(١). وكان هذا الإجراء السهم الأخير المستهدف حياة الوزير السياسية، حيث طغى عليه نفوذ القائد وفقد كل صلاحياته التي انتقلت تدريجياً إلى شريكه. ثم جاءت الضربة القاضية، بعزله من منصبه نهائياً وزجه في السجن في العام نفسه^(٢).

وكانت التهمة الموجهة ضد الوزير والتي كان وراءها الجهاز الثلاثي الحاكم (ابن أبي عامر وأم الخليفة والقائد غالب)، هي استغلال أموال الدولة في شؤونه الخاصة^(٣). وانتهى الأمر بالمصحفي الذي تألق كأبرز الوزراء (الحجّاب) في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، إلى الموت قتلاً في سجن المطبق بالزهراء (٩٨٣/٣٧٢)^(٤). وكانت نكبة العائلة المصحفية بتصفية عميدها الوزير في السجن وملاحقة أبنائها واضطهادهم ومصادرة أموالهم، قرية الشبه بالنكبة الشهيرة التي تعرض لها البرامكة وزراء الدولة العباسية في عهد الرشيد. كما كانت مؤشراً لطبيعة العهد الجديد الذي أصبح على رأسه محمد بن أبي عامر بنزعته الفردية العنيفة، حيث لا يتردد في استعمال مختلف الوسائل من أجل تحقيق أهدافه السياسية، دون تيّب أو وجل. فبالسهولة وهدوء الأعصاب اللتين قضى بهما على المغيرة بن عبد الرحمن^(٥) مرشح الحرس الصقلي للخلافة، قضى على منافسه المباشر جعفر المصحفي ليأخذ مكانه في كرسي الوزارة، وبالطريقة نفسها سيلجأ إلى تحطيم قوة الخصم الآخر (غالب) بعد انتهاء دوره كحليف مرحلي، ولا يتورع عن الاصطدام بسيدة القصر (صُبُح)، التي كانت وراء نجاحه، حتى لا يجد في النهاية قوة غير قوته وسلطاناً غير سلطانه.

وإذا أردنا البحث عن المصدر الذي استمد منه العامري قوته في مواجهة

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٦.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٦٨.

(٤) ابن الأبار، الحلة السيرة ج ١ ص ٢٥٩، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٧٠ وما بعدها.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦١.

الخصوم الأشرار، فلا جدال في أن قوة القصر كانت وراء كل هذه المعارك السياسية الناجحة. لقد امتلك ناصية الأمور فيه، من خلال استحواذه على إعجاب شخصية القصر القوية، المهيمنة بدورها على ابنها الخليفة، الذي كان يوفّر لقرارات العامري التغطية الرسمية والشرعية. فمن القصر إذن استمد رصيده المعنوي الذي أمّن له الأرضية المناسبة لتحقيق أهدافه، حيث أصبح بنظر الناس ورجالات الدولة المدافع عن النظام وعن استمرارية الخلافة. غير أن القوة المادية التي كانت وسيلته إلى تنفيذ مخططاته الذكية والبارعة، تكمن في الجيش الخاص الذي سعى إلى تأليفه وتنظيمه بعد القضاء على الحرس الخلافي من الصقلية. فلجأ إلى ملء الفراغ بعناصر غير عربية غلب عليها الطابع البربري، مع أقلية محترقة ومرترقة من المقاتلين الأسبان، وكان القائد الفعلي لهذه القوة الجديدة جعفر بن علي بن حمدون أو الأندلسي اللقب الغالب عليه^(١)، الذي برز في الصراع بين الفاطميين والأمويين على المغرب الأقصى. فهو رغم انتسابه إلى أسرة أندلسية الأصل كما يبدو من اسمه، إلا أنه عاش في المغرب وارتبط مع أسرته بالولاء للخلافة الفاطمية، حتى إذا عهدت هذه الأخيرة بالحكم إلى حلفائها الزيريين، استبد الغضب بالأندلسي وغادر المغرب إلى قرطبة. ويبدو أن علاقة ودية ربطت بينه وبين العامري، منذ أن أرسل هذا في مهمة خاصة إلى المغرب، أثناء حملة غالب بن عبد الرحمن التي مرّ ذكرها، وقد جرت هذه الأحداث كما رأينا في عهد الحكم المستنصر.

وفي قرطبة تمت العلاقة بين العامري والأندلسي، حتى إذا تطورت الأمور لمصلحة الأول في بلاط الخلافة، عهد إلى صديقه القائد الشجاع والمهوب بالإشراف على تنظيم الجيش الجديد، الذي اعتمد كما أسلفنا على عناصر مغربية مدربة ومحترفة. ولقد أصاب بذلك هدفين: الأول سد الفراغ الذي أحدثه حلّ الحرس الصقلي المسؤول عن حماية القصر والعاصمة، والثاني محاولة كبح قوة

(١) ابن الأبار، الحلة السيرة ج ١ ص ٢٥٩، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٧٠.

القائد العام للجبهة الشمالية، حيث يرباط الجيش الرئيسي للخلافة. ومن الواضح أن تأليف هذه القوة العسكرية المطوعة وعلى رأسها قائد مخلص الولاء للعامري، كان يتماشى مع طموح هذا الأخير الذي بدأ يمارس مهام الوزارة (الحجابه) فعلياً بعد القبض على المصحفي، مع مشاركة رمزية من غالب. فهي عملية توازن مرحلي، لا سيما وقد بدأت المواجهة الفعلية بين الرجلين في الوزارة، ولا بد لأحدهما أن يزيع الآخر من طريقه قبل أن يقضي عليه.

إعلان السياسة الجهادية وحسم الصراع مع غالب امتازت السياسة الخارجية مع الاسبان بطابع جهادي ظاهر، منذ أن أصبح للعامري الكلمة النافذة في شؤون الخلافة الأموية التي تحولت مع الطفل القابع في قصره إلى مجرد رمز ولقب، بينما الدولة ارتبطت بالحاجب الطموح الذي عكس شخصيته وحضوره على كل مؤسساتها وأعطاهها ملامح جديدة ومستقلة، بحيث لم تعد الدولة أموية إلا في بلاط الخليفة المستضعف. وسياسة الجهاد عند العامري كانت منسجمة إلى حد كبير مع المراحل التي قطعها لبلوغ قمة السلطة، حيث اتخذها طريقاً إلى تحطيم خصومه واكتساب ثقة الشعب، بما للانتصارات من تأثير إيجابي عليه. كما اتخذها من جانب آخر لإرضاء نزعة خاصة فيه وهي حماية الدولة وحدودها من أعدائها المتربصين بها. وهذه السياسة لم تكن مرحلية فقط، استخدمها في تحقيق أهدافه الشخصية، بل كانت لها خلفية دينية^(١) وثيقة الصلة بالخط العام الذي تبناه في حياته السياسية، سواء في الطريق إلى السلطة أو في القمة بعد أن اتخذ من «المنصور» لقباً، اكتسبه بلا ريب من رصيده الجهادي، أم في علاقاته الودية مع الفقهاء وانسجام المواقف بينه وبينهم. وهي ظاهرة مميزة في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، حيث قام لأول مرة توازن في العلاقة بين السلطة والفقهاء، الذين لهم تأثيرهم الكبير في المجتمع، مما كان يؤدي أحياناً إلى المصادمة الدائمة على النفوذ بينهم وبين السلطة الزمنية، فلما أن تسود كلمتهم، كما حصل في عهود هشام الأول وعبد الرحمن الثاني والحكم

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٧.

المستنصر، أو يعيشون في الظل كما في عهود الأقوياء من الحكام من أمثال الحكم الربضي. وهكذا فإن العامري كان الحاكم الوحيد الذي بنى علاقات متكافئة مع الفقهاء، فلم يحاول تحجيم نفوذهم برغم سلطته المطلقة من جهة، ولم يفتح لهم أي نافذة للتدخل في شؤون الحكم من جهة أخرى. غير أنه كان واضحاً في تعاطفه الضمني معهم، أن العامري أثر عدم التصدي لهذه الفئسة التي يكن لها شعوراً ودياً، واحتراماً إنما يعود إلى تربيته الإسلامية وإلى المنافع التي تشرب منها ثقافته وعلومه الأولى، حيث تتلمذ على أئمة الفقهاء والمحدثين في مسجد قرطبة^(١).

لقد كانت سيامة الجهاد عند العامري نابعة من هذه الخلفية الدينية، إلى جانب استخدامها في تحقيق مآرب شخصية أخرى سبقت الإشارة إليها. ولعل ما يدفعنا إلى هذا الاعتقاد أيضاً، أنه كان أكثر حكام الأندلس الأموية ارتباطاً بهذه السياسة وتحمساً لها^(٢)، كونه الوحيد الذي أعطى من وقته هذا المبلغ للحملات العسكرية التي كان يقودها شخصياً، والتي نافت على الخمسين حملة، مما يعني أنه كان يقوم بأكثر من عملية حربية في العام^(٣) ضد الاسبان، في ليون وقشتالة ونافار ومواقع أخرى. وكان الطابع العام لسياسته الجهادية طابعاً هجوماً، بانتزاعه المبادرة من أعدائه الذين أرغموا على تغيير خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، حيث لا نجد مثيلاً لهذا النوع من العلاقات العدائية بين العرب المسلمين وبين الاسبان في العهود السابقة، بما فيها عهد الناصر.

ولعل أشهر حملات العامري وأكثرها خطورة، حملته الرابعة التي شنها على مملكة ليون في عهد راميرو الثالث، حيث حاصر مدينة سامورة Zamora^(٤)

(١) ابن الأبار، الحلة السراء ج ١ ص ٢٦٨، ابن هذاري ج ٢ ص ٢٥٧.

(٢) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٨٣.

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٤٠، المعجب ص ٨٤.

(٤) الروض المطار ص ٩٨ - ٩٩.

(إلى الشمال الغربي من سلمنقة) ، وذلك في مطلع سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م ، ولكنه تراجع عنها إلى مجابهة تحالف القوى الأسبانية بزعامة الملك الليوني على مقربة من قلعة سنت مانكش^(١) . وفي هذا المكان جرت معركة من أعنف المعارك ، نجلت فيها موهبة العامري القيادية وجراته النادرة ، بحيث أوقع بالأسبان هزيمة ساحقة ، وطاردت قواته فلولهم حتى أبواب ليون عاصمة المملكة الاستورقية . ويُعلّل المؤرخون عدم سقوط المدينة في أعقاب ذلك ، إلى صعوبة المناخ في تلك المناطق الباردة مع حلول الشتاء . ولا يبدو أن ذلك هو السبب الوحيد لتراجع العرب عن أسوار ليون ، لأن المعركة الفاصلة كان توقيتها في صيف تلك السنة (آب ٩٨١)^(٢) ، ولا يد أن سبباً أكثر وجاهة دفع العامري إلى الاكتفاء بهذا القدر من الانتصار العسكري ، في وقت بلغت العلاقة بينه وبين قائد الجبهة الشمالية (غالب) حدّاً كبيراً من الانهيار . ولا ريب أن النشاط الحربي المكثف الذي أخذ يمارسه العامري رجل الدولة ، قد أثار حساسية هذا القائد وترك لديه شعوراً بالخدر وعدم الثقة إزاء صهره الخطير . كذلك فإن غالباً العسكري المحترف ، لم يستغ بروز العامري في الميدان الذي تألق فيه ، دون منافس وأن يقطف ثمرات النصر على حسابه .

وهكذا انفجر الخلاف بين الرجلين الأكثر قوة في الأندلس الأموية ، وأصبحت المجابهة بينهما حتمية تنتظر الفرصة المناسبة ، دون أن يتخل أحدهما عن حذره كي لا يقع فريسة الآخر المتربص به . ففي نفس السنة التي حدثت فيها غزوة ليون (٣٧١ هـ) ، دعا غالب خصمه العامري الى القيام بعمل عسكري موحد ، في محاولة لاستدراج الأخير والقضاء عليه . وقد أورد ابن الخطيب تفاصيل هذه المؤامرة التي كان محورها قلعة اننيسه على الحدود الشمالية ، حيث كانت وليمة أعدّها القائد متظاهراً بتكريم صهره ، فإذا ما اجتمعا إلى بعضهما بعد عتاب قصير ، فاجأ غالب خصمه بضربة سيف كادت

R . Dozy : Hist 2,234

O . P . Cit . 2, 234 — 235

(١)

(٢)

تقضي عليه ، لولا أن كان العامري في منتهى البقطة والحذر ، غير أنه لم ينج من جرح في يده وصدغه^(١) .

واعتصم غالب في القلعة بعد فشل مؤامره ، بينما اتجه العامري إلى مدينة سالم قاعدة خصمه^(٢) . واتسعت دائرة الصراع بينهما لتضم عناصر من البشكنس ، كانوا إلى جانب غالب حسب رواية ابن حيان التي ينقلها ابن الخطيب^(٣) . غير أن تحالف غالب مع أعدائه التقليديين ، وهو المرتبط اسمه بالجهاد ضد الأسبان ، يحتاج إلى مناقشة برغم وضوح الرواية عند مؤرخ الأندلس (ابن حيان) ، الذي زعم «بأن طائفة من البشكنس مع ابن ملكهم ، قاتلت إلى جانب غالب . أي أن تحالفاً رسمياً بين الطرفين تم بموافقة الملك وليس مجرد مقاتلين مرتزقة ، كانوا أساساً في عداد قوات القائد العام للجهة الشمالية . ولعل في هذه الرواية شيئاً من عدم الدقة أو تعريضاً بهذا القائد لاعتبارات لم يكن المؤرخ بمنأى عن الالتزام بها . فعلى الأرجح أن العناصر الاسبانية التي قاتلت إلى جانب غالب ، كانت مرتزقة سبق للدولة أن استعانت بها ، خاصة بعد إعادة تنظيم الجيش في هذا العهد كما أشرنا في حينه . كما أن المؤرخ ابن حيان الذي عاش نفسياً في أجواء الموالاة للعامري عندما كان أبوه كاتباً لهذا الأخير^(٤) ، لا يُستبعد أن يكون قد ألصق هذه التهمة بالقائد الكبير ، الذي استمد شهرته العسكرية من حروبه ضد الأسبان .

كانت المجابهة صعبة ودقيقة بين القائدين ، حيث جند كل منهما أقصى امكاناته للقضاء على خصمه . وكان العامري قد اصطحب معه قائده (الأندلسي)^(٥) ، الذي احتل مكان غالب في الوزارة ، عندما حدثت المعركة

(١) أعمال الاعلام ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٤) أعمال الاعلام ص ٧٠ .

(٥) جعفر بن علي بن حدون . أعمال الاعلام ص ٦٣ .

الحاسمة التي انتهت بسقوط هذا الأخير إثر إصابته بجراح ، أو نتيجة ارهاق مبعثه بداية الشيخوخة^(١) . وكانت هذه المعركة من أصعب ما واجه العامري في حياته العسكرية ، إذ كاد يفقد حياته مرتين لو لم ينقذه الحذر في الأولى والحظ في الثانية ، عندما سقط خصمه القوي عن حصانه في أشد الظروف حرجاً .

وعاد العامري إلى قرطبة وقد أصبح الرجل الأقوى والحاكم المطلق في دولة الأندلس ، التي أخذت منذ ذلك الوقت تتخلص من ثوبها الأموي باستثناء لقب الخلافة ، الذي لم يعد يُسمع إلا في الخطبة الرسمية إبان صلاة الجمعة في المسجد الكبير . أما الدولة كمؤسسة ونظام فقد غابت عنها الشخصية الأموية تماماً وارتبطت كافة أجهزتها بهذا الشاب الطموح ، الذي تَوَجَّ نفسه بعد انتصاره على غالب والأسبان تحت لقب المنصور (أواخر ٩٨١ م) ، تيمناً باللقاب الملكية التي حملها أسلافه من الخلفاء الأمويين ، ثم نقش اسمه على النقود وأمر بترديده على منابر المساجد ، عدا مظاهر العظمة الأخرى التي أحيط بها في ذلك الوقت . ولعله كان متأثراً بسلفه الناصر إلى حد كبير ، فاستمد منه الطموح وقوة الاحتمال واللقب الملكي ، وحتى الذوق الفني في العمارة . وهل كانت « الزاهرة » ، ذلك القصر الفخم الذي بناه على ضفة الوادي الكبير ، إلا مظهراً من مظاهر هذا التأثير بالخليفة الأسبق ومحاكاة لمدينته الملكية الشهيرة (الزهراء) ؟

العلاقات مع الأسبان انفرد المنصور بالسلطة المطلقة بعد تصفية جميع خصومه ، وكان آخرهم قائده المقرَّب (الأندلسي) الذي تخلص منه في منادمة استدرجه إليها^(٢) . فقد كان يرتاب بكل الأقوياء ، ولا يطيق مشاركة إلا من هم دونه وخاضعين لإرادته . وهي ظاهرة عامة في نظام الحكم الفردي ، حيث تتحول كل أجهزة الدولة ومؤسساتها إلى قبضة رجل واحد ويرتبط مصيرها بمصيره .

ولقد أشرنا إلى النزعة الجهادية في شخصية المنصور وذكرنا أنه قام بعدة

(١) أعمال الأعلام ص ٦٤ .

(٢) المصدر نفسه لابن الخطيب ص ٧٧ ، ابن عذاري ج ١ ص ٢٨٠ .

غزوات إلى الجبهة الشمالية ، قبل أن يزيع من طريقه قائد هذه الجبهة ، لا سيما حملة ليون المظفرة التي وصل فيها إلى أسوار المدينة . ولا سبيل إلى تتبع كل حملات المنصور ، لأن ذلك يستلزم منا بحثاً خاصاً وتفصيلاً قد تضيق بها هذه الدراسة . على أن أبرز أعماله العسكرية بعد حملة ليون الآنف الذكر ، حملته إلى برشلونة في الشمال الشرقي من دولته . وكانت هذه المدينة قد انتزعت من أيدي العرب في أيام شارلمان ، وغدت عاصمة لاقليم مستقل عُرف باسم قطلونية ، الذي اندمج في وقت متأخر مع دويلة أراغون (إحدى الممالك الأسبانية) . وهذه الحملة يصنفها المؤرخون بأنها الثالثة والعشرون من غزوات المنصور ، وقد حدثت في سنة ٣٧٤ - ٩٨٥/٣٧٥ ، استطاع خلالها أن يوقع بحاكم الأقليم (بوريل الثاني) Borell II عدة هزائم تتوجت باقتحام المدينة^(١) . ومن حملاته الشهيرة أيضاً حملته الغربية عبر نهر (دويرة) ، إلى سانتياغو^(٢) في البرتغال (٩٩٧/٣٨٧) . غير أن أشد حملاته عنفاً حسب ما أورده ابن الخطيب^(٣) هي حملة قشتالة في سنة ٣٩٠ هـ/٩٩٩ م ، حين جابه المنصور في هجومه تكتل القوى الأسبانية بزعامة الملك شنجة في معركة طاحنة عند جبل جرييرة . وكان المنصور يعتمد على إمدادات القاعدة العسكرية المهمة في مدينة سالم ، حيث حالفه النصر الباهر مرة أخرى وأوقع بالزعماء الأسبان هزيمة قاسية^(٤) . ويبدو أن معركة جرييرة، كانت آخر أعمال المنصور الهامة ضد الممالك الأسبانية . فقد توفي بعد عامين منها (٣٩٢ هـ) ، دون أن تلحق به هزيمة ما، حيث كان النصر حليفه على مختلف الجبهات التي خاض عليها معاركه السياسية والعسكرية^(٥) . ولعله أول حاكم في الأندلس أعطى لجبهة الحدود الشمالية ذلك الاهتمام ، وكرّس لها هذا الوقت ، بحيث تغيرت في عهده خطط الحرب، من دفاعية تقريباً في عهود

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٧١ .

(٢) مدينة على ساحل المحيط . وردت البرتغال في أعمال الاعلام باسم (البرطقال) ص ٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٩ . ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٧ .

(٤) أعمال الاعلام ص ٦٩ - ٧٠ .

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٤٠٠ .

أسلافه ، إلى هجومية في عهده تترصد تحركات العدو وتوقع به الضربات المتوالية . ولا ريب أن سنواته السبع والعشرين التي أمضاها على قمة السلطة في الأندلس ، كانت كابوساً رهيباً أذاق ملوك الاسبان الخوف والدمار والهزائم . أما على صعيد الأندلس ، فقد رفعت هذه الانتصارات العظيمة المنصور إلى مصاف الأبطال الأفاض ، ومنحته تأييداً شعبياً واسعاً ، وظّفه في خدمة نظامه الفردي المطلق ، بحيث أن أي تحرك ثوري أو صوت معارض لم يجرؤ على الارتفاع في عهده . ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العديدة وما عكسته من رخاء اقتصادي على المجتمع الأندلسي ، أعطى لعهد المنصور شخصية مميزة وطبعه بالاستقرار والارتياح العام ، برغم سياسة القمع الداخلي التي خنقت أجواء الحرية الفردية ، وشلت كثيراً من النتاج الإبداعي والعطاء الفكري المتطور .

العلاقات مع الفاطميين كانت سياسة المنصور المغربية ، استمراراً للسياسة العامة التي سارت عليها دولة الأندلس منذ عهد الخليفة الناصر ، وهي في مضمونها تمثل أحد مظاهر الصراع السياسي والمذهبي ضد القوى الشيعية ، من الفاطميين وبقيّة الأدارسة في المغرب الأقصى . ولعل المنصور كان أكثر طموحاً في هذه المنطقة ، حيث أصاب نجاحات عسكرية مرموقة ، في وقت صرفت فيه الدولة الفاطمية جلّ اهتمامها إلى المشرق ، من ملاحقة القرامطة إلى التصدي للخطر البيزنطي في بلاد الشام . غير أن الفاطميين لم يحولوا أنظارهم نهائياً عن المغرب ، ذلك الأقليم الأثير ومركز إنطلاق دولتهم في العالم الإسلامي . فما كادت تلوح فرصة أمام الخليفة (العزیز) ، حتى أوعز إلى الزعيم الصنهاجي بلكين بن زيري ، بالتوجه إلى المغرب الأقصى لاستعادته من التبعية الأموية (٣٦٩/٩٧٩)^(١) . فتحرك بلكين على رأس قوات كبيرة ، مستهدفاً مدينة فاس (عاصمة الأدارسة) ، فاستولى عليها وتعب جماعة الأمويين وحلفائهم من قبيلة زناتة حتى الساحل الشمالي . ولم يستطع

(١) المبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٤٥ .

«الأندلسي» قائد الدولة العامرية الذي أرسله المنصور ، لمنع عودة النفوذ الفاطمي الى المغرب الأقصى ، أن يحقق شيئاً من مهمته فرجع الى قرطبة والسيادة الأموية تكاد تخرج نهائياً من تلك المنطقة .

وكان من نتائج هذا الانقلاب الزيري الذي أعاد السيادة الفاطمية الى المغرب الأقصى ، أن المنصور أخذ يعطي جانباً من اهتمامه العسكري لحدوده الجنوبية . وأقام لهذه الغاية مركزاً للعمليات الحربية في الجزيرة الخضراء ، من أولى مهماته إستعادة المغرب الأقصى ومراقبة الحركات المناوئة للدولة العامرية الممثلة للخلفاء الأمويين . ونتيجة لذلك ، ستشهد هذه المنطقة تطورات سريعة وانقلابات في المواقف السياسية ، لم يكن شيخ المنصور وحضوره القوي بعيدين عنها . فحركة ابن زيري لم تلبث أن استنفدت نفسها بعد الضغط «العامري» وحشوده المسلحة في سبته من جهة ، واضطراب الجبهة المؤيدة للفاطميين وتناقضاتها من جهة أخرى . ذلك أن ظهور الزعيم الإدريسي الحسن بن كنون فوق ساحة الصراع السياسي في المغرب ، أدى إلى خلط الأوراق ويلورة مواقف جديدة .

ويبدو أن الحسن بن كنون الذي التجأ بعد طرده من الأندلس الى بلطاج الفاطميين في القاهرة ، قد ثقل وجوده على خليفته العزيز ، كما ثقل في وقت سابق على المنصور ، فدفعه ذلك للعودة إلى المغرب للتنسيق مع ابن زيري والوقوف معه في وجه الأطماع الأموية . وراقت هذه الفكرة للزعيم الإدريسي ، خاصة بعد أن منحه العزيز تفويضاً لحكم هذا الاقليم باسمه . فتوجه فوراً إلى المغرب الأقصى (٩٨٣/٣٧٣) ، وما لبث أن استقطب تأييداً واسعاً من البربر خاصة بني يفرن ، من فروع القبيلة الكبيرة زناتة^(١) . ولعل أحد مؤشرات هذا الصراع في المغرب الأقصى ، ان القبيلة فقدت وحدتها السياسية تحت تأثير المصالح المختلفة التي تجاذبتها بين ولاء وآخر . ولم يكن ما يشير الدهشة أن

(١) السلاوي ، الاستعصا لأخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ٢٠٣ .

تنقسم القبيلة الواحدة بين اتجاهين متناقضين ، أو تنتقل بكاملها من المعارضة إلى الموالاتة أو العكس بالسرعة ذاتها . فبنو زناتة عُرفوا بولائهم الأموي التقليدي حتى أن الجيش الذي أرسله المنصور العامري ، لاسترداد النفوذ الضائع في المغرب كان يضم نسبة كبيرة من القبيلة الزناتية . وقد استطاع هذا الجيش الذي قاده ابنه عبد الملك ، وضم ابن أخيه عمرو بن عبد الله ، أن يقضي على محاولة الزعيم الإدريسي وسابقتها الزيرية في المغرب الأقصى ، الذي غاب عنه النفوذ الفاطمي مرة أخرى^(١) . وانتهى الأمر بزعيم الأدارسة إلى الاستسلام (٣٧٥ هـ) ، بعد أن وافق المنصور على مطلبه بالعمو عنه ، وتم الاتفاق على أن يقيم في العاصمة الأندلسية . غير أن المنصور لم يكن سوى متظاهر بالموافقة ، بينما هو يبيت قرار قتله عند أقرب مناسبة ، حتى إذا سار إلى قرطبة بعث إليه أحد رجاله لهذه الغاية وهو لا يزال في الطريق إلى الأخيرة . فغابت مع الحسن بن كنون آخر حلقة من تاريخ الإدارة السيامي في المغرب الأقصى ، وسقطت معها فكرة إحياء السيادة الفاطمية بالتعاون مع زعماء محليين ، يضمنون استمراريتها ولو في إطار رمزي^(٢) . وما لبثت هذه الحركات الأقليمية أن اتخذت طابعاً استقلالياً ، سيدفعها إلى الوقوف في وجه التيارين المتناقضين الفاطمي والأموي .

وكان المنصور بعد انتصاراته في المغرب الأقصى ، قد عين أحد مساعديه (الحسن بن أحمد السلمي) نائباً له في هذا الأقليم (٩٨٦/٣٧٦) ، وكانت زناتة إحدى أهم القوى السياسية التي اعتمد عليها في المغرب . والواقع أن هذه القبيلة ، برغم جنوح فروع منها بين الحين والآخر ، ظلت في صف واحد مع النظام الأموي في الأندلس ، خاصة بعد مجيء المنصور العامري إلى السلطة في قرطبة واعتماده في تنظيم جيشه على عناصر من هذه القبيلة . فكان أن وُحِّدَت هذه المبادرة مشاعر الزناتيين في الأندلس والمغرب ، ووضعتهم في جانب الموالاتة

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨١ .

(٢) أعمال الاعلام ص ٦٦ .

للدولة العامرية . وبلغ التحالف أقصاه باتخاذ حاكم المغرب العامري ، زعيم مغراوة ، إحدى فروع القبيلة الزناتية مساعداً له ، وهو المعروف باسم زيري بن عطية المغراوي^(١) .

وسادت المغرب في أعقاب هذه الاجراءات حالة من الهدوء والاستقرار ، امتدت نحو عشر سنوات (٣٧٦ هـ - ٣٨٦ هـ) ، كانت العلاقات خلالها بين السلطة الحاكمة وحلفائها الزناتيين ، ودية وتتسم بالتعاون . ونال زعيمها (المغراوي) مكانة رفيعة لدى حكومة قرطبة ، التي وقفت من هذا الدور الإيجابي موقفاً متعاطفاً وأحاطته بكثير من الاهتمام .

بيد أن تطورات مفاجئة قلبت العلاقات الودية بين الطرفين ، ودفعت الزناتيين المواليين بالطبيعة للدولة العامرية الى الثورة ، وذلك بزعماء الصديق المقرب من قرطبة ، زيري المغراوي نائب الحاكم في المغرب الأقصى . ولا نكاد نلمح في سطور الروايات التاريخية التي دَوَّنت أخبار هذه الثورة ، أي تسويغ مقبول لقيامها ، باستثناء ما قيل من أن أسباباً اقتصادية كانت وراء نفور الزعيم المغراوي ، أو ما قيل عن استخفاف هذا الأخير بلقب الوزارة الذي منحه إياه حكومة قرطبة ، حيث وجد فيه - حسب تعبير الرواية - تقليلاً من وزنه السياسي كأمر ينتمي إلى قبيلة كبيرة^(٢) . غير أن هذه المصادمة إن صح وقوعها بين المنصور وزيري ، فهي غير صالحة لأن تكون مقدمة ثورة شاملة تستقطب البربر ، دون أبعاد سياسية ورواسب تاريخية معروفة ، حدث بالزعيم المغربي إلى التمرد ضد الوصاية العامرية . فقد شعر زيري بقوته من خلال القاعدة الشعبية التي التفت حوله من سواد قبائل البربر ، التي استهواها دائماً الاستقلال بشؤونها السياسية والاقتصادية . وكان زيري بشخصيته الذكية قد احتل مكانة عالية لدى جماعته من البربر ، فتحول بنظرهم الى قائد شعبي ، تتجسد فيه آمالهم البعيدة في السيادة والاستقلال .

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) المكان نفسه .

وهكذا امتدت الثورة الى فاس واستولت عليها بعد مذبحة استهدفت أعوان الدولة العاصمية ، ثم أخذت تنتشر بسرعة في مناطق المغرب الأقصى حتى خضعت بكاملها ما عدا الجيوب الساحلية مثل طنجة وسبتة التي ظلت على ولائها لحكومة قرطبة . غير أن الثورة المعاكسة ما لبثت أن ظهرت في طنجة ، بعد وصول أحد قواد الجبهة الشمالية في الأندلس إليها ، إلا أن تأثيرها كان محدوداً ، حيث فشلت في التوغل بعيداً عن هذه المدينة . فاضطر المنصور الى اتخاذ إجراءات أكثر فاعلية ، وعاد إلى إحياء قاعدة العمليات القديمة في الجزيرة الخضراء ، وإرسال ابنه عبد الملك في حملة قوية الى المغرب الأقصى^(١) ، مؤدياً ذلك إلى نوع من التوازن في القوى بين الطرفين . غير أن المنصور اصطلم مرة أخرى بحجم التأثير المغربي والتأييد العريض الذي استقطبه ، مما حال دون حسم عسكري للثورة ، إلا بعد لجوء المنصور إلى اختراق جبهتها بأساليبه المبتكرة التي شقت وحدة الانسجام فيها ، والتي كان من نتائجها إصابة زيري بطعنة قوية نفذها أحد المقاتلين في معسكره ، بالتواطؤ مع المنصور^(٢) . وانتهى الأمر بحملة عبد الملك إلى الانتصار في معركة عتيفة (بالقرب من طنجة) ، وإعادة الهدوء الى المغرب الأقصى ، بينما هرب القائد الثائر بجماعته نحو الشرق ، واتخذ من إقليم الزاب في المغرب الأوسط مسرحاً جديداً لنشاطه ، حيث كانت السيادة المباشرة للصنهاجيين من بني زيري ، حلفاء الدولة الفاطمية . وما لبث الصراع التقليدي بين القبيلتين (زناتة وصنهاجة) أن تفجّر من جديد ، وشهد المغرب الأوسط سلسلة مواقع حربية بينهما ، أدت إلى وقوع اقليم تاهرت وتلمسان في قبضة الزعيم الثائر المغراوي^(٣) . وكانت من أولى نتائج هذه الانتصارات التي حققها الزناتيون ، أنها بذدت سحابة الخلاف بين الأخير وحكومة قرطبة ، وذلك لحاجته الى دعم سياسي وعسكري ، بعد أن

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٧٨٢ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) المكان نفسه ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣ .

أصبح على تخوم الدولة الفاطمية . وخيم على تلك المنطقة هدوء نسبي بعد عودة الحكم المباشر لدولة الأندلس في المغرب الأقصى ، وقيام حكم غير مباشر لها في بعض نواحي المغرب الأوسط ، استمر حتى وفاة المنصور العامري . فحدث آنذاك تحول جذري في الأوضاع السياسية بصورة عامة ، ليس فقط في المغرب الأقصى ولكن في الدولة العامرية نفسها ، حيث اهتز النظام المركزي بعد غياب القبضة الحديدية ، وافتقدت قرطبة آخر خيوطها الواهية التي تربطها ببقية الأندلس .

مات المنصور في رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، وقد ناف على الستين من عمره ، مختصراً فيه منجزات عهود . ولعله كان جزءاً ، مغرقاً في اليأس على مستقبل دولته التي بناها بالطموح والذكاء والإرادة الجبارة^(١) ، مدركاً أنها لن تعيش طويلاً بعد غيابه ، حيث قدر الدول التي تربط مصيرها بالافراد ، فتصعد مع الشخصيات الفذة وتهبط مع الضعفاء ، وكان أكثر ما ينطبق ذلك على الأندلس ، التي فشلت منذ البداية في اقامة نظام ثابت ، تستمد منه بقاءها وحيويتها المستمرة . فكان تاريخها على مدى القرون الثلاثة الماضية ، تاريخ أشخاص أكثر مما هو تاريخ دولة ، وهذا ما تجسّد بعد غياب المنصور ، أحد هؤلاء العظام الذين صنعوا دولة ولم تصنعهم ، فكان غيابه كارثة ومؤشراً الى خراب .

ولقد روت المصادر الأندلسية ان المنصور دُفن في مدينة سالم Mednaceli ، حيث توفي على الأرجح وهو يعدّ لغزوة أو أنه كان عائداً منها^(٢) . كما أن بناء قصر خاص له في هذه القاعدة العسكرية الهامة التي كانت تُوجّه منها الحملات

(١) تروي المصادر أن المنصور كان مدمناً على العمل ومراجعة شؤون الدولة حتى ساعة متأخرة من الليل حتى لا يفوته أمر من أمورها . ويشير ابن الخطيب إلى أن كاتب المنصور طلب من سيده أن يخلد إلى الراحة بعد سهر طويل فاجابه بقوله : « حارس الدنيا لا ينام إذا نامت السرعة ! لو استوفيت نومي ، لما كان في دور هذا البلد عين نائمة . » أعمال الاعلام ص ٧٦ .

(٢) يشير ابن الخطيب إلى أن المنصور توفي إثر عودته من غزوة في قشتالة . أعمال الاعلام ص ٨٠ - ٨١ ، الاحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٧٢ .

الى الممالك الاسبانية ، له دلالة واضحة على عمق الشعور الجهادي لدى المنصور ، بتكريسه الجانب الأهم من حياته السياسية لمقارعة الأسبان واجتياح معاقلمهم وتدمير مدنهم وانشاءاتهم . لقد طغى الجانب العسكري في عهده على كل ما عده من مجالات الدولة الأخرى ، بحيث لم يترك غير فسحة محدودة للنشاطات الثقافية التي عَجَّ بها قصر الخليفة السابق ، أو العمرانية التي كانت طابع العصر في عهد الناصر . كما أن حياة القصور المترفة لم تبهر المنصور ، الرجل القادم من بيئة متوسطة أو تفرقه في خموها . فعدا القصر الخاص الى الشمال الشرقي من قرطبة (٣٧٠/٩٨٠) ، الذي سماه الزاهرة^(١) ليحاكي به مدينة سلفه العظيم (الزهراء) ، أو القصر الذي نسب اليه في مدينة سالم ، فإن اهتماماته العمرانية لم يكن لها بعد خاص ، بل كانت في معظمها انشاءات عامة ، مثل القنطرة الشهيرة على نهر الوادي الكبير ، التي جَدَّدها وأضاف عليها تعديلات هامة (٣٨٩ هـ) ، والقنطرة الأخرى في مدينة استجة الواقعة على نهر شنيل^(٢) (أحد روافد الوادي الكبير) . بالإضافة إلى إنشاء سبل للماء في عدد من أحياء قرطبة لسقاية الناس ، دون ان ننسى طبعاً ذلك الجناح الكبير الذي زاد به المسجد الكبير ، حيث تقلد مساحته بثلاث المساحة العامة للمسجد^(٣) ، وهو يُعرف إلى الآن بجناح المنصور . وعلى الرغم من أن هذا الجزء دون بقية الأجزاء في المستوى الفني والزخرفي^(٤) ، بيد أنه لا يخرق أبداً وحدة الانسجام الهندسي للمسجد ، الذي يُعتبر حتى الآن أعظم مساجد العالم ، وإحدى المفاخر الحضارية التي تركها العرب المسلمون وراءهم في الأندلس .

(١) أعمال الاعلام ص ٧٦ ، الروض المطار ص ٨٠ - ٨٢ .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٨ ، الروض المطار ص ١٤ - ١٥ ، أعمال الاعلام ص ٧٦ .

(٣) أعمال الاعلام ص ٧٦ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٧ .

سقوط الدولة الأموية

لم يغيب المنصور عن المسرح السياسي في الأندلس ، دون أن يترك حضوراً في المؤسسة التي أقامها وارتبطت به الى حد كبير . ولو قدّر أن يرث دولته هذه أشخاص من طرازه ، لأمكن لها أن تصمد مدة أطول وتحقق ما لم يتح لمؤسستها أن يقوم به . على أن أبرز ملاحظة يمكن تسجيلها ، هي أن « الوزارة » التي هيمن من خلالها المنصور على خلافة الأمويين الأندلسية ما يقارب الثلاثين عاماً ، تجاوزت معه حدود هذا المنصب ، بحيث تحولت إلى دولة مستقلة ، لها ملامحها الخاصة . فجاء الابن الأكبر للمنصور ، عبد الملك (المظفر)^(١) إلى الحكم وكأنه يتلقى حقاً طبعياً اكتسبه بالوراثة . أما الخليفة الذي لم يعد طفلاً ، فلا زال يعيش بأحلام الطفولة في سجنه المترف ، غير شاعر بما يجري من حوله .

ولقد بدأ عبد الملك (المظفر) عهده بخطوات اصلاحية هامة ، مستلهماً تراث أبيه الجهادي بصورة خاصة ، دون أن يكون بعيداً عن أجواء الحرب وما تتطلبه من مهارة قيادية اكتسبها من تجارب عديدة سابقة . لذلك ارتبط عهده منذ مجيئه إلى السلطة بالسياسة الجهادية ضد الاسبان ، يحذوه إلى ذلك - عدا التأثير بوالده - ثقافة إسلامية ونزعة دينية ، فضلاً عن إحساس مشبع

(١) فتح الطيب ج ١ ص ٤٣٣ ، اعمال الاعلام ص ٨٣ - ٨٤ .

بالعدل والانفتاح، حتى وُصف بأنه أكثر إنسانية من المنصور^(١). غير أن المظفر كان بدون ريب ظلاً من ظلال هذا الأخير وليس نسخة عنه. فالأب كان عبقرياً من عمالقة السياسة والقادة العسكريين، بينما الابن لم يكن غير حاكم عادي، فيه من الصفات الجيدة التي تؤهله للقيام بأعباء المهمة الصعبة، ولكن الفراغ الكبير بعد المنصور، وضيق المسافة الزمنية لعهد الذي اقتصرت على سبع سنوات فقط، كانا من العوامل السلبية التي أعطت لعهد صورة باهتة، مما لا يتوافق مع الجهود التي بذلها في مختلف المجالات، والتي كان لها حظاً غير قليل من النجاح.

وتركز الروايات التاريخية بصورة خاصة على الجانب الجهادي في شخصية المظفر، الذي وجد نفسه في مواجهة التحركات الصليبية على جبهة الحدود مع الأسبان، بحيث أتاحت الفرصة لهؤلاء أن يخرجوا من وراء خط الدفاع المتراجع الذي فُرض عليهم في عهد المنصور، إلى محاولة استئناف المبادرات الهجومية بعد موته. لذلك استعادت الجبهة الأسبانية تماسكها الذي اهتز في أعقاب الهزائم العديدة في العهد السابق، حيث كان حاكم برشلونة^(٢) أول المبادرين إلى خرق السلام في هذا الأقليم، إلا أن المظفر كان قاسياً في رده على تحرك الأخير. ويبدو أن حادثة برشلونة أدت إلى تفتّح في الجبهة الأسبانية وإعادتها مجدداً إلى أجواء التشاحن والمقارعة، عندما نشب خلاف بين حاكمي قشتالة وجليقية^(٣)، بينما استغل المظفر في المقابل هذه الأجواء، مستدرجاً المتخاصمين إلى الاحتكام لديه^(٤)، على غرار ما جرى في أيام الناصر، لتسوية مشاكلهم الداخلية التي نجمت عن الخلاف، حول من له حق الوصاية على الملك الصغير، أمر الحاكم

(١) أعمال الاعلام ص ٨٤ - ٨٥، العبادي، المجلد في تاريخ الأندلس ص ١٣٨.

(٢) ابن عذاري ج ٣ ص ٤ - ٨.

(٣) كان هذا الأخير وصياً على ملك ليون الطفل (الفونسو الخامس)، راجع ابن عذاري ج ٣

ص ٥. أعمال الاعلام ص ٨٧.

(٤) ابن عذاري ج ٣ ص ١٠.

الأقليمي (كونثالث) أم خال الملك (شنجة)^(١)؟ ولم يكن قرار المظفر الذي حكم للاول ، إلا عاملاً لتصعيد الفوضى في أكبر الممالك الاسبانية ، التي بقيت مشلولة النشاط بصورة عامة حتى أواخر عهده^(٢) .

ومن ناحية أخرى فإن «حاجب الاندلس» ، اعتمد برنامجاً تقليدياً فيما يتعلق بسياسته الاسبانية ، فكان يقود كل عام تقريباً حملة عسكرية إلى ما وراء الحدود في الشمال ، بحيث أن مجموع هذه الحملات بلغ سبعة كما أوردت الروايات التاريخية^(٣) . ولعل المظفر كان يستمد قوته العسكرية من الجيش النظامي ، الذي خبر جغرافية المناطق الوعرة في الشمال على مدى أعوام طويلة سابقة ، ومن عدم الانسجام في الموقف السياسي بين القوى الأسبانية صاحبة الثقل المعنوي والمادي . وهذا ما أعطى المظفر فرصة تاريخية للاحتفاظ بالمبادرة في يده ، برغم المؤثرات التي أوجت بعد غياب المنصور ، بأن اختلالاً في المواقف بين الطرفين كان من المرتقب أن يحدث ، ويُعيد التوازن العسكري في المنطقة الشمالية الى سابق عهده . وهكذا فإن تراث المنصور الجهادي وتمزق الجبهة السياسية في مملكة ليون ، زعيمة التكتل الاسباني ، بالاضافة الى جدية المظفر وبراعته القيادية ، انعكست على هذا العهد من الدولة العامرية استقراراً سياسياً في الداخل ، ودوراً ساطعاً لعله الأخير في المحافظة على مبادرة الهجوم في مناطق الحدود الشمالية . وقد يصح القول إن سنوات المظفر الناجحة في حكم الأندلس ، كانت الفصل الأخير من الدولة العامرية في إطار المفهوم السياسي الذي تبناه مؤسسها المنصور .

وكانت سياسة المظفر المغربية أيضاً استمراراً لسياسة العهد السابق ، الرامية إلى تأكيد السيطرة على المواقع الساحلية الهامة واكتساب مودة البربر في المغرب الأقصى ، لا سيما زناتة الحليفة القديمة لدولة الأمويين الأندلس . أما في المغرب

(١) كان الأول حاكم جليقية بينما الثاني حاكم قشتالة .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

(٣) أعمال الاعلام ص ٨٧ ، ابن عذاري ج ٣ ص ٤ - ١٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٤٢٣ .

الأوسط ، حيث نجح المغراويون من هذه القبيلة ، بإقامة حكم لهم هناك في أعقاب ثورتهم على المنصور ، فقد استمرت العلاقات ودّية بين المعز بن زيري ، الذي أصبح حاكماً على هذا الأقليم بعد موت أبيه وبين المظفر وزير الدولة العامرية ، حيث دان الأول بتبعية غير مباشرة للثاني ، كان فيها من الافادة والمصلحة المشتركة للطرفين ، فضلاً عن اكتساب زعيم القبيلة الصنهاجية ، وما يرميه الى أبعاد شبح الفاطميين عن المغرب ، حتى أنه لم يتردد في اجتذاب بعض زعماء الزيريين من قبيلة صنهاجة واحاطتهم بالحفاوة والترحيب^(١) .

وبينما الأمور آخذةً خطفها المتوازن والطبيعي على مختلف الجهات الداخلية والخارجية ، تفتقد الأندلس حاكمها الجدي والوقور ، وهو يقود حملة عسكرية الى الشمال . وقبل انه أصيب بذبحة قلبية بعد وصوله إلى مدينة سالم^(٢) ، أو انه قضى اغتيالاً ، على يد أخيه وخليفته (عبد الرحمن)^(٣) .

وجاء إلى الحكم (الحجابه) أخوه عبد الرحمن ، المعروف في المرويات باسم «شنجول»^(٤) «Sanchuela» ، الذي كان نموذجاً مختلفاً عن سلفيه في الأسرة العامرية . فقد وُصف بأنه ضعيف الشخصية ، ميّال إلى الدعة والاسترخاء في أجواء الترف ، قليل الاهتمام بالسياسة الجهادية التي كانت مقياس كفاءة الحاكم الأندلسي في ذلك الحين . وما لبثت هذه الصفات أن تكشفت بعد أقل من شهرين على توليه الحكم^(٥) ، عندما طلب إلى الخليفة الذي لم يعقب ، بأن يسميه ولياً لعهد ، بحيث تنتقل إليه الخلافة بعد موت هشام وما يحيط بها من ألقاب

(١) العبادي في التاريخ المباني والأندلسي ص ٤٥٩ .

(٢) اعمال الاعلام ص ٨٩ .

(٣) ابن عذاري ج ٣ ص ٥٢ .

(٤) هذا اللقب تصغير لسانشو (شانجة) من ملوك اسبانيا ، حيث كان حفيداً له عبر أمه القشتالية

الأصل ، التي كانت قد اهديت الى المنصور في إحدى غزواته . ابن الخطيب ، اعمال الاعلام

ص ٦٦ . ابن عذاري ج ٣ ص ٣٨ . خالد الصوفي جمهورية بني جهور ص ٨ .

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٨ .

ملكبة، اتخذ بعضها حينذاك عندما لقب نفسه بالناصر والمأمون^(١)، تيمناً بالخلفاء العظام من العباسيين، والأمويين في الأندلس. وكانت هذه أول محاولة في تاريخ الإسلام، يطمح من خلالها حاكم ما إلى الخلافة من خارج قرطش، حيث اعتبرت سابقة وأثارت موجة من الاستياء في قرطبة^(٢).

والواقع أن «شنجول» اختصر الطريق إلى نهايته، التي بدت وشيكة بعد أن سوغت خطوته الجريئة، الذرائع للانقضاض عليه. فالدولة العامرية التي حكمت الأندلس من منصب «الحجابة»، لاغية دور الخليفة القابع في قصره، لم يُنح لها ذلك دون جهود المنصور وعبقريته السياسية، التي لم ينتقل منها شيء إلى ابنه «الجاهل» كما وصفه ابن عذاري^(٣). فعلى العكس من ذلك كان «الحاجب» الجديد - وهو القصير النظر - متآمراً عليها بسلوكه النافر، واستخفافه بالأعراف، قبل أن يسوقها إلى حتفها خلال شهور قليلة، وكأنه جاء فقط لتكريس عملية السقوط المخزي لهذه الدولة التي سقطت فعلياً مع وفاة سلفه «المظفر».

ونجد الإشارة إلى أن تجميد الخلافة لم يؤد بالضرورة إلى إلغاء الدور السياسي للأمويين نهائياً في قرطبة، حيث احتفظ هؤلاء بمواقع من النفوذ، برغم ملاحقة «المنصور» لزعمائهم وتصفية الخطيرين منهم. ومن هنا لم يتردد بنو أمية في التحرك بعد وصول العامري الضعيف إلى الحكم، في مواجهة محاولته الجريئة، الهادفة إلى إلغاء الخلافة في البيت الأموي. ولم يكن هذا الأمر - الذي تفاداه رجل العامريين ومؤسس سلطنتهم (المنصور) - أن صح وقوعه، تحدياً للأمويين فقط، بقدر ما كان استفزازاً لشاعر أهل الأندلس الذين استنكرت قبائلهم، لاختراق أحد أهم الأعراف السياسية والدينية في حياة العرب المسلمين. وقد انعكس هذا الاستنكار على مؤرخ من القرن الثامن الهجري (ابن عذاري)،

(١) راجع نص القرار بولاية العهد الصادر عن الخليفة هشام إلى شنجول. أعمال الاعلام ص ٩٠ -

٩٣. راجع أيضاً ابن عذاري ج ٣ ص ٣٨.

(٢) أعمال الاعلام ص ٩٣.

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٣.

الذي عبّر بدهشة عن هذا الموقف الذي اتخذهُ شنجول بقوله: «قد تقدم القول في سبب توصل هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجرية من غير تأول ولا أهلية، وكيف استهواه الشيطان وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة لم يشاور فيها نصيحاً ولا فُكر في عاقبة بل أخذها بالجملة...»^(١).

وفي الوقت الذي «صار عبد الرحمن في أهل المملكة إلى قصره بالزاهرة، يختال في ثوب الخلافة»^(٢) حسب تعبير ابن عذاري، كانت ثمة مؤامرة تحاك في الخفاء، للإطاحة بالدولة العامرية. أما بطلها فهو شاب مغامر من البيت الأموي يدعى محمد بن هشام^(٣)، كان قد أعد خطة متقنة مع جماعته ومن تحوّل إليه من خصوم العامريين، من القبائل القيسية وغيرها، ممن نقموا على العامري «شنجول» بسبب مشروعه الخلافي وسيرته السيئة^(٤). وقد جاء توقيت المؤامرة متوافقاً مع خروج الأخير من عاصمته، ومعه عدد غير قليل من الجند، حيث انقضّ الثائر الأموي (محمد بن هشام) على قرطبة في عتمة الليل، بعد أن أرسل إليها من «كسر سجن العامة»^(٥) لينطلق منه «اللصوص والذعار وأصحاب الجرائم»^(٦) الذين قاتلوا إلى جانب الأمير الأموي. وقيل أيضاً إن الذلفاء (أم المظفر) قد أسهمت في تهيئة الأجواء المعادية ضد عبد الرحمن (شنجول)، بعد أن اتهمته بتدبير اغتيال أخيه أي عبد الملك المظفر^(٧). وسرعان ما وضع يده على مرافق الدولة وامتلك ناصية الأمور فيها، بما في ذلك القصر الخلافي، حيث اقتحمه مزيلاً «عرش» الخليفة المنسي وجالساً مكانه على سدة الخلافة^(٨). ولم

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٣.

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤١.

(٣) محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر. أعمال الاعلام ص ٩٧.

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٧ - ٤٩.

(٥) البيان المغرب ج ٣ ص ٥٦.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢.

(٨) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٩ وما بعدها. تم استيلاء محمد بن هشام على السلطة في ١٦ جمادي الثانية

٣٩٩ هـ.

تسلم عاصمة العامريين (الزاهرة)، التي عشت فيها جنود الخليفة الجديد نهياً وحرقاً وتدميراً وملاحقة للأسرة العامرية^(١). أما «الحاجب» الأرعن الذي عاد أدراجه إلى العاصمة، ما لبث أن خسر أوراقه تباعاً، ولم يبق في يده ما يساوم عليه في النهاية سوى حياته، ولكن دون أن يبلغ هذا النال، حيث قتل بجوار قرطبة، مجسداً موته تلك الخاتمة المأساوية، لأسرة شغلت دوراً من أخطر الأدوار في تاريخ الأندلس. أما الخليفة الجديد، وبطل الانقلاب الذي أطاح بالأسرة العامرية وأعاد السلطة المباشرة المفقودة لبني أمية، فقد لقب نفسه بـ «المهدي»^(٢)، وهو لقب غير مألوف بين الألقاب الملكية المتداولة، التي كان لها مدلول أكثر ما يتعلق بالنصر والظفر، كالناصر والمتصور والمستنصر والمظفر. فلعله استلهم لقبه من ظروف خاصة بالأندلس وأكثر خصوصية بأسرته التي أفل مجدها على يد العامريين، آملاً أن يكون على يده «انبعاث» سلطانها المفقود.

وهكذا نجح «المهدي» في استعادة السلطة الفعلية المغتصبة من العامريين، وتوج نفسه خليفة بعد عزل هشام الثاني، الذي عاصر الدولة العامرية من وراء القضبان وعلى هامش السلطة، ويبدو أن «المهدي» استمد قوته من الفئات الشعبية^(٣)، التي ساندته في انقلابه ضد العامريين والخليفة الضعيف. فقد برز لفترة وكأنه شخصية المرحلة، المعقودة عليه الآمال لإقامة نظام قوي ومستقر، غير أن التجربة أثبتت خطأ ذلك، بعد فشل الخليفة الجديد في تحقيق توازن سياسي بين الأطراف المتشاحنة في قرطبة، حيث القاعدة التي استمد منها قوته الأساسية، لم يستطع كبح جماحها، فأفلتت من يده وارتدت ممارساتها السلبية عليه، لتزيد من إحراجة وضعف مركزه، ووجد نفسه في نهاية الأمر معزولاً في قصره، محاطاً بحصار من الخصومة والعداء، حتى من أسرته الأموية التي لم تخل من منافسين متعطشين للسلطة.

(١) ابن الخطيب أعمال الاعلام ص ٩٧. البيان المغرب ج ٣ ص ٦١ - ٦٤.

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٤٢٦. البيان المغرب ج ٣ ص ٦١.

(٣) أعمال الاعلام ص ١١١. ابن عذاري ج ٣ ص ٥٦.

ولم يطل المقام بالخليفة الجديد الذي فقد سلطانه بعد بضعة شهور في أعقاب هجوم البربر^(١) على قرطبة بقيادة زاوي بن زيري^(٢)، الذي هيا وصول سليمان بن الحكم^(٣) إلى الخلافة، ملقياً نفسه بالمستعين. ولكن «المهدي» الذي تعزز موقعه مجدداً في طليطلة التي لجأ إليها بعد فراره من قرطبة، والتحاق عدد من أنصاره السابقين به، واتصاله نتيجة لذلك بالأسبان لدعمه في استعادة سلطانه^(٤)، لم يدع خصمه يرتع في الخلافة، التي رجعت إليه بعد سبعة أشهر فقط من افتقادها. وهكذا يعود «المهدي» مرة ثانية إلى الحكم في قرطبة، ليخوض معركة الانتقام من البربر الذين تعرضوا للملاحقة والقتل، ولكن دون أن يتمتع طويلاً بانتصاره، حيث تضافر أعداؤه عليه وقتلوه في قصره، بالاتفاق مع الخليفة الأسبق هشام الثاني، الذي بوع مرة أخرى، بفضل تأييد البربر له^(٥).

ولعل هذا الصراع الذي استشرى بين أبناء الأسرة الحاكمة، يعبر عن الأزمة العاصفة التي مورت بها خلافة الأمويين في الأندلس، خلال نيف وعشرين عاماً، حيث تقاذف الخلافة حينذاك عدد من المغامرين، لم يستطع بعضهم الاحتفاظ بالسلطة أكثر من شهور قليلة. فقد أعاد البربر سليمان (المستعين) إلى الخلافة^(٦)، قبل أن تقوى شوكتهم وينصبون واليه على سبته علي بن حمود مكانه الذي قام بما يشبه الثورة، عندما اجتاحت جنوده قرطبة وقتلت سليمان وبعض أفراد عائلته، وذلك تحت ستار التحزب للخليفة السابق (هشام) والزعم بأن الأخير سمّاه ولياً لعهد^(٧).

(١) ابن بسام، الذخيرة. القسم الأول - المجلد الأول ص ٣٠.

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠.

(٣) سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر. البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ - ٩١.

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٤ - ٩٥.

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٩.

(٦) دامت خلافته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ونصف.

(٧) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول ص ٢٦. راجع أيضاً ابن عذاري، البيان المغرب ج ٣ ص ١١٧.

وهكذا خرجت الخلافة لأول مرة من الأسرة الأموية، بعد أن بويغ علي بن حمود، (الناصر لدين الله) ^(١) الذي يتحدر من الأدارسة الشيعية، بما يعنيه ذلك من تحول، لم ينعكس على الوضع السياسي في الأندلس ولكنه مسّ وحدته المذهبية، التي كانت متماسكة منذ أن دخلتها «المالكية» في بدايات الإمارة الأموية. على أن بني حمود «المغاربة» الذين اعتمدوا في حكمهم على البربر لا سيما قبيلة زناته، لم يحفظوا بتأييد عرب الأندلس، حيث كان الموقف غير الودي نحو الخليفة الجديد وحلفائه يحول دون تثبيت «شرعيته» في السلطة، انطلاقاً من قرطبة نفسها، التي كانت لا تزال - من خلال قوتها المعنوية على الأقل - الأكثر تأثيراً في هذه المسألة. ومن هذا المنظور تسارع قرطبة إلى الاعتراف بحركة تزعمها أحد الأمراء الأمويين ^(٢) في شرقي الأندلس، مما دفع ابن حمود إلى الانتقام من حاضرة الخلافة والتشديد على أهلها، وإلى زيادة اعتماده في المقابل على البربر والتودد إليهم. وسرعان ما قطف ثمار هذه السياسة، عندما قام باغتياله ثلاثة من «صبيان» الصقالبة، ولما يتجاوز حكمه الستين (٤٠٨ هـ) ^(٣). ولكن أخاه القاسم لم يدع الأمور تفلت من يده أسرته، حين سارع إلى قرطبة وأمسك بزمام الأمور فيها، فبويغ بالخلافة تحت اسم المأمون، لتكون أولى مهامه الانتقام لأخيه من الصقالبة، وملاحقة الثائر الأموي في شرقي الأندلس، حيث انتهى الأخير لاحقاً في غمرة الصراع الذي عصفت بهذه المنطقة ^(٤). وبعد ثيف وثلاث سنوات، ساد خلالها الهدوء في الأندلس، لأول مرة منذ سقوط «الدولة» العامرية، برز في الجنوب (سبتة) من عكر صفو هذه الأجواء، من الأسرة الحمودية نفسها، حين شار ابن أخي القاسم (يحيى بن حمود) على عمه وزحف إلى قرطبة معتمداً على «حزب» البربر الذي بايعه

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٠ - ١٢٢.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر. الذي لقب نفسه بالمرتضى. المصدر نفسه. ج ٣ ص ١٢٥.

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٢.

(٤) الذخيرة القسم الأول - الجزء الأول ص ٣٩٨. البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨.

بالخلافة باسم المعتلي بالله^(١)، بعد خروج القاسم ملتجئاً إلى أشبيلية.

لقد حاول الخليفة «الحمودي» الجديد إعادة النظر في العلاقة بين البربر والعرب، بحيث مالت إلى التوازن في عهده الذي خيم عليه الهدوء، ولكن ذلك لم يكن كافياً لفرض الاستقرار طويلاً، حيث بقي مهدداً من جانب أشبيلية - المدينة المنافسة لقرطبة - التي بايعت سلفه أبي القاسم، ليصبح هناك خليفتان معاً، بما لذلك من دلالة على الانحياز السياسي الذي عانته الأندلس في ذلك الحين. وما لبث القاسم أن عاد مرة أخرى إلى قرطبة التي ألقت هذا الوضع القبلي وانساق في، دون التمعّن بالنتائج الخطيرة المترتبة على الصراع الأموي - الأموي، والاندلسي - الإدرسي، ومن ثم الإدرسي - الأموي على السلطة، وما يرافقه من صراع سياسي واجتماعي وإقليمي أخذ يحتاج مدن وأقاليم الأندلس. فقد عاد القاسم إلى الخلافة، ثم عُزل بعد سبعة شهور فقط في المسجد الذي اقتحمه أحد الأمراء الأمويين^(٢) مع أنصاره وفرض بيعته على الحاضرين (رمضان ٤١٤ هـ)، متخذاً لقب «المستظهر بالله»^(٣)، ومستعيداً كما أخوه «المهدي» الخلافة إلى البيت الأموي، بعد أن سُمي عبد الرحمن العامري (شنجول) ولياً للعهد وبات على وشك الوصول إليها، بينما قام «المستظهر» باستعادتها بعد خروجها الفعلي إلى الأسرة الحمودية.

والواقع أن هذا النطاحن السياسي الذي شمل البلاد بكاملها، وتركز بصورة خاصة في قرطبة، قد ترك أثراً سيئاً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فيها، حيث جاء الخليفة الجديد ليجد بيت المال خاوياً، وبالتالي فإن تلبية احتياجات أنصاره دفعته إلى تحصيل الأموال بطرق غير مشروعة، مما أغضب الناس الذين أنهكتهم الصراعات السياسية والعسكرية، فاضطر إلى الاعتماد على البربر، مستثيراً بذلك قرطبة، التي لم تعدم أبداً آخر تبايعه، بعد أن

(١) أول جمادي الأول سنة ٤١٢ هـ. البيان المغرب ج ٣ ص ١٩١.

(٢) عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله - البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥.

(٣) المكان نفسه.

ألفت تغيير الوجوه خلال نيف وعشر سنوات من القوضى والانحلال السياسي . أما الخليفة الجديد فهو محمد بن عبد الرحمن ^(١) الملقب بـ «المستكفي بالله» (ذو القعدة ٤١٤ هـ) ، الذي وصف بأنه الأكثر سوءاً بين خلفاء «الفترة الأخيرة» من الدولة الأموية في الأندلس ، بحيث آثرت قرطبة العودة إلى بني حمود ، بعد أن بلغت الأوضاع حدّاً خطيراً من الانحدار ، دفعها إلى الاستنجاد بالخليفة الأسبق يحيى بن حمود ، الذي تولى الأمر مجدداً (رمضان ٤١٦ هـ) ^(٢) ، ولكن دون أن يأمن جانب قرطبة هذه المرة ، مؤثراً الإقامة في مالقة بعد أن ترك وزيره وكتابه نائباً عنه في الأولى ^(٣) .

ويبدو أن هواجس ابن حمود كانت في محلها ، عندما شهدت قرطبة فصلاً جديداً من الحرب الأهلية ^(٤) التي لم تنطفئ جذوتها خلال السنوات السابقة ، وإنما كانت تتراوح بين الامتداد والانحسار ، منذ أن أصبح البربر طرفاً في هذا الصراع ونجحوا في اختراق السلطة التي كانت عربية قبل ما سمي بـ «الفتنة» تلك التي ذرت قرنها نحو ربع قرن من الزمن ، كان البربر ، القوة المحركة فيها بصورة عامة . وفي غمرة هذه الأحداث يتولى الخلافة هشام بن محمد ^(٥) الملقب بالمتد بالله (ربيع الأول ٤١٨ هـ) ^(٦) ، الذي جاء نتيجة لهذا الصراع ، بعد اتجاهه لمصلحة «الحزب» العربي في قرطبة ، بيد أن طرفاً ما في هذا الأخيرة ، لم يكن في وضع القادر على الحسم ، أو تحقيق الاستقرار المنشود ، بعد أن فقدت الخلافة هالتها ، وتحول الخلفاء إلى دمي تحركها القوى النافذة سواء في هذا الفريق أو ذاك . ولم تعد الأسرة الأموية التي استمدت شرعيتها من خلافة

(١) محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله وهو ابن عم الخليفة السابق . البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٤٣ .

(٣) أحمد بن موسى . المكان نفسه .

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٤٦ .

(٥) هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر . المصدر نفسه ج ٣ ص ١٤٥ .

(٦) المكان نفسه

دمشق، ومن التواصل الذي جسده حفيد هشام بن عبد الملك ومؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبد الرحمن الداخل، قادرة على حماية هذه «الشرعية» وتمثيلها لدى الفئات المتصارعة.

ومن هنا فقد باتت الحاجة ماسة إلى منقذ أو شبه منقذ، يواجه هذا التدهور المريع قبل أن يفلت الزمام من الأيدي، لا سيما وأن الخطر لم يكن داخلياً فقط، وإنما كان الخطر الأدهى، جائئاً وراء التخوم، حيث الاسبان يرقبون المأساة، وقد تربصوا للانقضاض في اللحظة المناسبة.

ومن هذا المنظور، فقد كان على الخلافة أن تتحمل مسؤولية الفشل، بعد أن أدانت الناس تقصيرها وعجزها عن استعادة الأمن والاستقرار. ومعنى ذلك أن السلطة كمؤسسة وليس كأفراد فقط، كانت موضع التهمة، عندما «اجتمع الملأ على خلمه - أي هشام - وهتفوا بإبطال الخلافة جملة...»^(١) حسب تعبير ابن عذاري. وكان ثمة رجل وراء هذا الإجراء، يبدو أنه أحكم قبضته في قرطبة، من خلال حظوته عند الخليفة، كوزير له، هو أبو الحزم بن جهور الذي أعلن نهاية الخلافة الأموية (ذو القعدة ٤٢٢ هـ)، وأرسل من ينادي «في الأسواق والأرباض لا يبق بقربة أحد من بني أمية ولا يكفهم أحد»^(٢).

ولعل هذا القرار كان يحمل معه أيضاً، سقوط الحكم المركزي، بعد أن فقدت قرطبة دورها السياسي المميز، وتحولت إلى مجرد دويلة صغيرة على غرار الدويلات المتناثرة في بقاع الأندلس، التي كان بعضها قد أعلن قيامه قبل إلغاء الخلافة. ولم يكن بنو جهور طارئین على المسرح السياسي في قرطبة، حيث كان كبيرهم أبو الحزم قد شغل حينذاك الوزارة، مما أكسب دوره أهمية في توجيه أحداث الفترة الأخيرة من الخلافة الأموية، مهدداً السبيل إلى سلطة «الجماعة» في قرطبة، بعد إعلانه باسمها بإبطال الخلافة، تلك التي وجد فيها بعض المؤرخين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٠.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ١٣٩. ابن عذاري، البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٢.

نوعاً من الحكم الجمهوري^(١)، المتعارض في الصميم مع العرف الخلافي الذي حصر السلطة الأولى في قريش.

والواقع أن خلافة الأمويين في الأندلس، كانت قد انتهت فعلياً قبل ذلك الوقت، منذ أن برز المنصور العامري وقبض بكتلنا يديه على السلطة، لاغياً الدور التقليدي للخلافة كمؤسسة دينية وزمنية، فتلفت بذلك ضربة قاصمة وانتهت إلى ما آلت إليه هذه المؤسسة في عواصم أخرى من العالم الإسلامي. ولا نبالغ إذا ما قلنا إن الخلافة الأموية في الأندلس، التي كانت لها بواعثها الاقليمية والسياسية، لم تكن في جوهرها غير مظهر من مظاهر التمزق والشحناء الذي ساد الخلافة المركزية في بغداد، وخضوعها بدورها لطغيان الفئات العسكرية، التي سبقت «المنصور العامري» إلى إلغاء دور الخليفة السياسي والاقصصار على دوره الروحي فقط. ولا نبالغ أيضاً في القول، إن خلافة الأمويين في الأندلس، ارتبطت بفرد وليس بنظام، حيث جاء إعلانها منسجماً مع الموقع القوي الذي بلغه عبد الرحمن الثالث في الأندلس، بعد استرجاع وحدتها السياسية وإثبات وجوده على مختلف الجبهات، مرتبطة أولاً وأخيراً بشخصيته، وبالتالي فقد ولدت معه وغابت مع غيابه. وإذا استطاع «الحكم المستنصر» الاحتفاظ بلقبه الخلافي وسلطته الزمنية لأعوام محدودة، فذلك لأنه استمد رصيده السياسي من تراث سلفه الناصر، وليس من قوة النظام الذي كان يحمل معه بذور الفشل.

وليس ثمة شك أن فقدان التلاحم البشري في المجتمع الأندلسي، الذي كان خليطاً متنوع الهويات العرقية ومتناقض الانتماءات سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، أسهم في تفشيل النظام الأموي وتعرشه منذ بداية تأسيسه، حيث ظل

(١) راجع : مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٦٤ وخالد الصوفي ، جمهورية بني جهور ص ٤٩ .

العرب تلك الفئة المهيمنة على السلطة والمستأثرة بالامتيازات، وفي نفس الوقت ظلت الفئات الأخرى تجترّ ولاءها السطحي لهذا النظام، مقتربةً منه أو مبتعدة، حسب تقلّب الأحوال، دونما شعور بالولاء الحقيقي أو ارتباط بالمصلحة المشتركة.

البَابُ الثَّالِثُ مَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ

- ١ - الطوائف .
- ٢ - المرابطون والموحدون .
- ٣ - غرناطة .

الطوائف

٣٩٩-٤٤٨ / ١٠٠٩-١٠٥٦

لم تكن دولة بني جهور، رائدة الانفصال عن السلطة المركزية المتمثلة بالخلافة في الأندلس، بل كانت هنالك نماذج سابقة لهذا التفتت الذي أخذ ينتشر في شتى البقاع، مترافقاً مع التدهور المريع الذي بلغته الخلافة بعد سقوط الدولة العامرية، وما أعقبها من صراعٍ مأساوي بين مغامري الأسرة الأموية وإخفاقي في استرداد المبادرة من القوى (الأحزاب) التي ذافت طعم السلطة وبات من الصعب تطويعها أو احتواؤها، مما جعل الأندلس تتوزع بين عدة اتجاهات (أحزاب)، في الربع الأول من القرن الخامس الهجري، مشكلة ست عشر دويلة مستقلة في كافة شؤونها الداخلية وعلاقاتها الخارجية، ومتنافسة فيما بينها حتى الصراع الدموي، فضلاً عن الاستعانة بالعدو المشترك (الاسبان) ضد بعضها البعض.

وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هذه الكيانات الممسوخة بـ «الطوائف»، حيث استقلت كل «طائفة»، سواء كانت قبيلة أو موالية لقبيلة أو تجمعاً أو فرقة، بناحية ما صغيرة أو كبيرة من الأندلس. أما «الحزب» الأول الذي تغلب في «هذه الفتنة المبيدة»^(١) حسب ابن عذاري، فقد مثله ما عُرف

(١) البيان المغرب ج٣، ص ١٥٥.

بـ «الموالي العامرية»^(١) أو «العبيد العامريين»^(٢) الذين كانوا في معظمهم من الصقالبة، وقد أقاموا «دولتهم» في شرقي الأندلس، متضمنة دانية والمرية ومرسية وبلنسية وشاطبة. حيث تولى مجاهد العامري دانية منذ عهد المنصور، ثم أضاف إليها بعد «الفتنة» الجزائر الشرقية، قبل أن تنتقل إلى ابنه «إقبال الدولة» ومن ثم إلى بني هود (٤٦٨ هـ)^(٣). وتولى أمر بلنسية وشاطبة مبارك ومظفر العامريين، إلى أن استولى على الأولى أحد القادة الصقالبة^(٤)، ومن ثم آلت إلى حفيد لمؤسس الأسرة العامرية (المنصور) وهو عبد العزيز بن أبي عامر الذي سيطر على تلك المنطقة، متخذاً من بلنسية عاصمة لدولته. ومن زعماء الحزب جيران وزهير، وهما من الفتيان الصقالبة الموالين لبني عامر، وقد استولوا تبعاً على الميرية^(٥)، حتى سنة ٤٢٩ هـ، قبل انتقالها إلى عبد العزيز العامري (من العرب) كما أسلفنا القول.

و «الحزب» الثاني مثله المغاربة من البربر والعرب، سواء بنو زيري المتحررين من القبيلة الشهيرة صنهاجة (البربر) التي قامت بدور كبير في المغرب خلال العهد الفاطمي، أو بنو حمود (العرب) من بقايا الأدارسة الحسنيون في المغرب أيضاً. فبينما سيطرت المجموعة الأولى على غرناطة قامت المجموعة الثانية بالسيطرة على مالقة التي أصبحت نواة «الدولة الحمودية»، قبل انتقال مركزها إلى قرطبة في أعقاب القضاء على الخليفة الأموي «المستعين»^(٦). وتجدر الإشارة إلى أن بني حمود على الرغم من أصلهم العربي، كانوا متأثرين ثقافة بالبربر،

(١) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٢.

(٢) كان زعيمهم مجاهد العامري وقد وصفه ابن عذاري بأن المنصور قدّمه على مدينة دانية. البيان المغرب ج ٣ ص ٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٧.

(٤) لييب الصقلي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٥) البيان المغرب ج ٣، ص ١٦٦ - ١٦٧. العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٦٧.

(٦) إحصان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٣. العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٦٦.

ومرتبطين سياسة بالقوة التي يمثلها هؤلاء والتي كانت سبيلهم إلى السلطة خلال ما سمي بعهد «الفتنة». وثمة مجموعات أخرى من البربر، حققت مواقع هامة في ظل هذه الموجة العاصفة التي مرّقت البلاد طويلاً وعرضاً، سنأتي على ذكرها لاحقاً بشيء من التفصيل.

و «الحزب» الثالث والأكثر أهمية، فقد مثله العرب، الذين كان لهم حضور مميز خلال عهد الطوائف، حيث شكّل بنو عباد اللخمين القوة الأساسية فيه، إضافةً إلى بني جهور (من موالي العرب)^(١) وبني هود الجذاميين وبني صمادح النجيين^(٢) وبني عامر المعافرين^(٣) وغيرهم.

هذه بإيجاز أهم الاتجاهات السياسية التي تنازعت على النفوذ في أواخر سنوات الخلافة الأموية، ونجحت في تكوين دويلات مستقلة، متساوية في القوة والأهمية، وهي التي سميت بدول الطوائف، التي جاءت نتيجة لتفكك الدولة العربية وعجز الخلفاء الأمويين على إنقاذها من السقوط. ولم تكن هذه التجربة جديدة في الأندلس التي عانت في الأساس خللاً في تكوينها السياسي والاجتماعي، بل كانت مسبقة بتجربة مماثلة، وإن كانت أضيق دائرة وأقل تمزقاً، في ظلّ ما سمي بـ «الطوائف الأولى» التي جاءت محصلة لضعف السلطة المركزية خلال الفترة الممتدة ما بين وفاة عبد الرحمن الثاني وبجيء عبد الرحمن الثالث، الذي استطاع بفضل شخصيته القوية وكفاءته النادرة، إنقاذ الدولة الأموية المنحصرة حتى حدود قرطبة، وإعطاءها فرصة جديدة للحياة نافذة على القرن من الزمن.

وستتوقف الآن عند أبرز هذه الدويلات، التي كان لها - على الرغم من اقترانها بالتفتت وتراجع النفوذ العربي الإسلامي في الأندلس - وميضها في الحياة الفكرية، الإنجاز الأهم لتلك المجتمعات المنفتحة على شتى التيارات الثقافية،

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف ص ٢١.

(٢) البيان المغرب ج ٣، ص ١٦٧.

(٣) أعمال الأعلام ص ١٩٦.

شرقها وغربها، مما أوجد مناخاً شديداً للملاءمة للإنتاج الذي كان على الرغم من مساحات الحزن المسيطرة على بعض ألوانه، قمة العطاء الأندلسي الزاخر.

دولة بني عباد (٤١٤-٤٨٤هـ)

كانت هذه الدولة من أوائل دول الطوائف في الأندلس، حيث قامت في إشبيلية قبل سنوات ثمان من دولة بني جهور في قرطبة. كما كانت الأعظم شأنًا والأبعد صيتاً، وبلاطها كان الأكثر فخامة واستقطاباً لأهل الشعر والأدب والعلم، خلال نصف قرن من الزمن. ومؤسس هذه الدولة هو القاضي محمد بن عباد، الذي كان أحد ثلاثة^(١) أوكل إليهم أهل إشبيلية إدارة شؤونهم في أعقاب التمرد على «المستعين». ولعل بني عباد كانوا يطمحون إلى أن يكون لهم دور في الحياة السياسية، يضارع دور بني عامر، أي بمعنى آخر ربما تطلعوا إلى إعادة توحيد الأندلس تحت سلطانهم في ظل شرعية الخلافة، التي كان أكثر تمثيلاً لها الخليفة الأموي الأسبق هشام (المؤيد)، عندما زعموا أن الأخير لم يمت وأنه يقيم في بلاطهم في إشبيلية^(٢). ولعلهم أيضاً أقدموا على ذلك في معرض التحدي لبني حمود، الذين تعود أصولهم إلى الإدارة العلويين (قريش) وشكلوا قوة أساسية بين القوى المسيطرة حينذاك على الأندلس، مما دفع ابن عباد إلى إعلان موت الخليفة هشام، متضمناً عهد الأخير له بالأمر من بعده^(٣).

والواقع أن القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد، واجهته تحديات كبيرة في مرحلة تأسيس هذه الدولة، التي تطلعت إلى توحيد الأندلس تحت راية بني عباد، مجسدة ذلك في الإصرار على متابعة هذه السياسة بعد موت القاضي المؤسس (٤٣٣هـ) ومجيء ابنه عباد بن محمد، الذي لُقّب بفخر الدولة قبل

(١) أما الثاني فهو الفقيه أبو عبد الله الزبيدي والثالث فهو الوزير أبو محمد عبد الله بن مريم. البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٤

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ٣١٥. راجع أيضاً العبادي. في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٦٧ وعنان، دول الطوائف ص ٣٧.

(٣) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٩٦.

استبداله بلقب ملكي آخر يتماهى مع القاب الخلفاء السالفين وهو المعتضد بالله. وفي عهد الأخير، سطعت إشبيلية متقدمة على أقرانها من دويلات الطوائف، وتألقت نجم المعتضد كأعظم شخصيات المرحلة^(١)، بعد أن كلفته هذه المكانة سلسلة من الحروب والإغارات على الأقاليم المجاورة، دون أن يتورع عن استخدام شتى الوسائل من أجل تحقيق أهدافه^(٢). وقد وصفه ابن عذاري في رواية لابن حيان بقوله: «وكان عبّاد قد أوتي من جمال الصورة وتمام الخلقة وفخامة الهيئة وسباطة البنان وثقوب الذهن وحضور خاطر وصدق الحس ما فاق به أيضاً نظراءه، ونظر في الأدب مع ذلك قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان»^(٣). كما وصفه ابن الخطيب «بأنه كان شديد الجرأة قوي المنّة عظيم الجلالة مستهيناً بالدماء»^(٤). ومن هذا المنظور فإن شخصية المعتضد كانت نتاج تلك الأجواء المشبعة بالصراع والتطاحن والاقتتال، دون ثمة ما يحول واكتسابها سمة من العنف، كان يجد ما يسوغها في سبيل الدفاع عن سلطانه^(٥).

ولقد توفي المعتضد في العام ٤٦١هـ، تاركاً الأمر لابنه محمد بن عبّاد الذي تلقب بـ «المعتمد على الله»، وهو كثير الشبه بأبيه ويحمل معظم سماته، سواء في ميله إلى السلطان، أو في انفطاره على العنف أو في نزعه إلى الفخامة التي كانت عنوان بلاطه المزدهم بالشعراء، على نحو ربما فاق بلاط أبيه، لا سيما وأن المعتمد تمتع بشاعرية عالية، جعلته يحظى بتقدير شعراء عصره، حيث كان اثنان منها على الأقل من أعظم شعراء الأندلس وهما ابن زيدون وابن عمار.

ولعل هواجس المعتمد في مطلع حكمه، تجلّت في الاستيلاء على قرطبة

(١) راجع: عنان، دول الطوائف ص ٣٩.

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥. راجع أيضاً: علي أدهم، المعتمد بن عباد ص ٥٧.

(٣) المصدر نفسه ج ٣، ص ٢٠٧.

(٤) أعمال الاعلام ص ١٥٦.

(٥) البيان المغرب ج ٣، ص ٢٠٦.

التي كانت قد اتخذت حيزاً كبيراً من اهتمامه في عهد أبيه . وقد تم إسقاطها في العام التالي لولايته (٤٦٢)، ومعها «جمهورية» بني جهور، بما يعنيه انضمامها إلى دولة المعتمد من أهمية سياسية في ذلك الحين، بحيث قوي شأنها في مواجهة التحديات المختلفة التي طالعت هذا العهد . ولكن أبرز هذه الهواجس كانت متصلة بالصراع الذي احتدم خلال عهد «الفتنة» بين العرب والبربر، والذي ما انفك مستشرياً في عهد الطوائف، حيث كان من الطبيعي أن تتعارض مصالح بني عباد، الذين قامت سياستهم على التوسع، وبين البربر المنتشرين خاصة في الجنوب . ومن هنا كان القضاء على دولة غرناطة القوية^(١) أكثر ما يشغل المعتمد، بعد أن وجد فيها خطورة على دولته، كونها تمثل امتداداً لمنطقة تسودها أكثرية من البربر، وقد زاد العلاقة تازماً بين الدولتين، أن غرناطة أقامت حلفاً مع الاسبان وبادرت إلى غزو دولة المعتمد واحتلال أحد الحصون الهامة^(٢) .

والواقع أن لهذه الحادثة، دلالة على الوضع السياسي الذي بقي على انحداره، برغم ما وصل إليه بنو عباد وما لجأوا إليه من محاولة توحيدية لجزء من الأندلس، حيث لم يتورعوا أيضاً من الرد على مبادرة البربر بالطريقة نفسها، عندما قام المعتمد بعقد صفقة مع الفونسو السادس كلفته خمسين ألف دينار^(٣)، مقابل الوقوف إلى جانبه في السيطرة على غرناطة التي آلت بسبب ذلك إلى سلطة المعتمد . وتجدر الإشارة إلى أن وزير الأخير وشاعره الأثير ابن عمار كان يسهه اليمنى هذه العملية وعمليات أخرى في بقاع مختلفة من الأندلس . ويبدو أن هذه السياسة الانتهازية، قد بالغ ابن عمار في استخدامها، فضلاً عن محاولة توظيفها لمصلحته الشخصية، بعد استيلائه على مرسية، بطريقة مماثلة لما جرى في غرناطة^(٤)، وبالتالي الاستقلال بها، منتهزاً بعدها عن حاضرة سيده . وقد جرّ

(١) كان يحكمها حينذاك باديس بن حبوس الصنهاجي قبل أن يتولاها ابنه بلقين أو بلقين في العام ٤٦٥ هـ . عنان، دول الطوائف ص ٦٣ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) المكان نفسه .

(٤) أعمال الأعلام ص ١٦٠ .

ذلك إلى تربص المعتمد بوزيره المقرب الذي سرعان ما تحول صفقة، كذلك التي أبدعها ابن عمّار في عملياته السابقة، دون أن يبخل المعتمد في الحصول على غريمه، باذلاً لصاحب الحصن^(١) الذي قبض عليه ما شاء من الخيل والمال^(٢)، قبل أن يبادر إلى تسليمه، لينتهي بعدها ذليلاً إلى سجن المعتمد الذي قتله بيده في وقت لاحق^(٣)، مسجلاً إحدى أكثر الصفحات سواداً في تاريخه، الذي لن تكون نهايته خالية أيضاً من الإذلال والمعاناة، حيث توفي في المنفى بعد سنوات قليلة^(٤) إثر دخول المرابطين إلى الأندلس.

«جمهورية» بني جهور (٤٢٢ - ٤٦٢ هـ):

يصطّلع بعض المؤرخين على تسمية دولة بني جهور في قرطبة بـ«الجمهورية»، انطلاقاً من القرار الذي اتخذته مؤسس هذه «الدولة» أبو الحزم بن جهور، بعد إلغاء المنصب الخلافي وجعل الأمر شورى بين أهل الرأي في قرطبة الذين مثّلوا برأيه «الجماعة»^(٥) فيها، وذلك لأول في التاريخ العربي الإسلامي في الأندلس. وقد تكون هنالك دوافع ما وراء قرار أبي الحزم، الذي ينتمي إلى بيت غير عربي ولكنه عريق في هذه البلاد، حيث نسب لأحد أجداده الدخول إليها مع بلج بن بشر^(٦) في أواخر الربع الأول من القرن الهجري الثاني. لذلك فإن تمسكه بالخلافة لم يعد ما يسوغه، بعد أن فقدت الخلافة مضمونها الديني واقتربت بالعصية والفتنة، وتناحر المغامرين عليها، بحيث أصبح الموالي - جماعة أبي الحزم - وغيرهم من الفئات غير العربية، غير معنيين بهذا الصراع، العربي - العربي أو البربري، الذي استنزف البلاد وهدر طاقاتها من غير

(١) أعمال الاعلام ص ١٦٠، ١٦١.

(٢) المراكشي، المعجب ص ٦٨.

(٣) علي أدهم، المعتمد بن عباد ص ٣٢٧، وما بعدها.

(٤) توفي المعتمد في اغمات (المغرب) سنة ٤٨٤. علي عبد العظيم، ابن زيدون ص ٤٣.

(٥) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص ١٣٩، وما بعدها. البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٦.

(٦) عنان، دول الطوائف ص ٢١.

طائل. ومن هذا المنظور تتسوّغ الخطوة الجريئة التي قام بها أبو الحزم، «شيخ» قرطبة المعتدل، الحائز على تقدير غالبية الفئات وثقتها، دون ثمة اعتراض على ما حدث، على الرغم من خطورته بالنسبة لهذه «الجماعة» التي سلمت زمامها له، بعد تماوج في موقفها بين خليفة وآخر. ولا ريب أن أبا الحزم، الشيخ الوقور، والمتدين والزاهد والمتواضع، وليس آخراً، غير المستبد برأيه^(١)، قد نجح من خلال صفاته هذه الدخول إلى قلوب الناس، الذين وجدوا فيه شخصية المنقذ في زمن الانحدار الشديد.

تناولت إصلاحات أبي الحزم شتى الجوانب الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن العسكرية، عندما سعى إلى حلّ العناصر المقاتلة، والمؤلفة بأكثريتها من البربر، وتكوين قوة ذاتية، اتخذت مهمة مزدوجة، وهي فرض الأمن في قرطبة ومواجهة الأخطار المهددة لها من الخارج. بالإضافة إلى ذلك فإن سياسته مع الأسبان، اتصفت بالواقعية، ومراعاة الأوضاع السائدة في الأندلس، حيث سعى إلى إقامة علاقات غير عدائية معهم، ولكنها متكافئة في نفس الوقت، مما أبعد أخطار الحرب عن قرطبة خلال حكمه الذي استمر حتى العام ٤٣٥هـ^(٢).

وقد تولى الأمر بعد أبي الحزم، ابنه محمد (أبو الوليد)، الذي اقتدى في مطلع حكمه بسياسة والده، مقلداً إليه ذوي الرأي والعلم، لا سيما المؤرخ الشهير ابن حيان^(٣) وشاعر الأندلس ابن زيدون الذي اتخذ وزيراً له. ولكن الصلة مع الأخير لا تليث أن تسوء، بعد المكانة العالية التي بلغها في قرطبة، حيث تضافرت عوامل عدة في هذا السبيل، وفي طليعتها علاقته مع «ولادة» الشاعرة وابنة الخليفة الأسبق المستكفي، التي استقطبت المعجبين الكثر وبينهم

(١) ابن خلدون، كتاب العبر ج ٤، ص ١٥٩.

(٢) البيان المغرب ج ٣، ص ١٨٧. راجع خالد الصوفي، جمهورية بني جهور ص ٥٤، عنان، ملوك الطوائف ص ٢٥.

(٣) صاحب المقتبس في أخبار بلد الأندلس. راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٣.

خصوم لابن زيدون، مما أدى إلى سحق أبي الوليد على وزيره وشاعره، وإلى إيداعه ظلمات السجن، قبل أن يمهّد له أصحابه الحرب والالتجاء إلى بلاط إشبيلية، حيث رحب به المعتضد بن عباد وقلّده الوزارة^(١). ولكن أبا الوليد بن جهور، يأخذ في الانحراف تدريجياً عن خطّ أبيه، عندما ربط المؤرخون بين هذا التحوّل وبين البيعة لابنه (عبد الملك) ولياً للعهد، واصفاً ذلك ابن عذاري بقوله بأنّه - أي ابنه - «قد اعتدى وصحب الأردال واستباح أموال المسلمين وسلط عليهم أهل الفساد وأهمل الأمور الشرعية وأخاف الطرق وشرع في المعاصي والفسوق»^(٢). ويدلّ لنا من خلال هذا النص، أن أبا الوليد كان واقعاً تحت تأثير ابنه الذي فرض عليه، ليس المناداة به ولياً للعهد بعد وقت قصير من ولايته، ولكن أن تكون له السلطة الفعلية في قرطبة. ولذلك يسمي نفسه صاحب «السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله»^(٣)، كما ينفرد بسابقة في أسرته، عندما أمر بأن يخطب له «على المنابر»^(٤)، متجاوزاً بذلك سلطة «الجماعة» إلى السلطة الفردية تلك التي «ثار» عليه مؤسس الدولة الجمهورية وأصحابه.

بيد أن وزيره إبراهيم بن يحيى (ابن السقاء) الذي فوض إليه أمور الدولة، كان قوي الشخصية متمرساً بشؤون الإدارة والحكم، ممّا صرف الناس عن أخطاء سيده واستبداده، حيث ظلّ ممسكاً بالأمور نحو خمسة عشر عاماً، نعمت خلالها قرطبة بالأمن والنظام^(٥). ولكن أبا الوليد وقع فريسة هواجسه، التي أسهم في تأكيدها المعتضد، عندما لجأ إلى التخلص من وزيره القوي وقتله (٤٥٥هـ)، بعد أن أوحى إليه صاحب إشبيلية بأطماعه في السلطة^(٦)، بينما

(١) عنان، ملوك الطوائف ص ٢٥.

(٢) البيان المغرب ج ٣، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه ج ٣، ص ٢٢٣.

(٤) البيان المغرب ج ٣، ص ٢٣٢.

(٥) المصدر نفسه ج ٣، ص ٢٥٦.

(٦) أعمال الأعلام ص ١٤٩. راجع، الصوفي، جمهورية بني جهور ص ٩٣ - ٩٤.

كانت هي في الواقع أطماع الأخير الذي كان يرئوسين واسعة إلى قرطبة، التي سقطت فيما بعد على يد خليفته المعتمد.

وكان غياب ابن السقاء، إيداناً ببداية الانهيار، حيث لاحت تباشيره مع الصراع على الحكم بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبد الرحمن، الذي كان يحقد على أخيه اغتصابه لحقه بالتواطؤ مع أبيه، سواء عن أثره له أم عن تخوف منه، لا سيما وأنه تمكن من الهيمنة على الحكم في حياة أبيه وإجباره على تقديمه على الناس وأخذ العهد عليهم^(١)، كما سبقت الإشارة. وقد أدى ذلك إلى استقطاب كل منها أنصاره والموالين له، مما أوجد حالة انقسام في الدولة، تركزت مع رضوخ أبي الوليد إلى الأمر الواقع، وتوزيع السلطة بين ولديه، حيث حاز عبد الرحمن على «الاشراف والجبابة»، بينما حاز عبد الملك على «النظر في الجند»^(٢). ولكن عبد الملك الذي كان في موقع أكثر تأثيراً وقوة من أخيه، لم يحتل وجود شريك له في السلطة، حيث تعارض هذا الواقع ونزعتة إلى التفرد والاستبداد. وسرعان ما انقلب على أخيه وزج به في السجن ليقود منفرداً الدولة، وقد اعتمد على حاشية لم تكن في سلوكها أكثر مسؤولية منه، فضلاً عن ابن عبّاد الذي كان يظهر له المساعدة، ويطن مشروعه للاستيلاء على قرطبة الذي ما لبث أن تحقق بعد سنوات قليلة (٤٦١هـ)، وذلك بعد أربعين عاماً فقط من قيام الدولة الجمهورية، التي أسسها ابن الحزم، واستهان بها خليفته (أبو الوليد)، عندما تركها لنزوات أبنائه على مرأى عينيه.

دولة بني هود في سرقسطة (٤٨١-٥٠٤هـ)

كانت هذه إحدى أبرز الدول «الطوائفية»، حيث الموقع الجغرافي الذي احتلته على تخوم الاسبان، أو في منطقة الثغر الأولى، كما عرفت لدى أهل الأندلس، قد أعطاهما أهمية خاصة، سواء في السلم أم في الحرب. ولعل هذا

(١) البيان المغرب ج ٣، ص ٢٣٢.

(٢) المصدر نفسه ج ٣، ص ٢٥٦.

الموقع أيضاً كان من بواعث انفصالها المبكر عن السلطة المركزية، فضلاً عما فرضه عليها من التزامات غير عادية لمواجهة التحديات المحيطة بها من كل جانب. ففي الوقت الذي احتدم فيه الصراع العنيف على السلطة في قرطبة في مطلع القرن الهجري الرابع، وقبل أن تحتاج الموجة الانفصالية أقاليم الأندلس، قامت أسرة عربية (تحيب) - اتخذت نفوذها في دروكة (الثغر الجنوبي) - بالسيطرة على سرقسطة بقيادة المنذر بن يحيى (٤٠٨هـ)^(١)، الذي يعتبر مؤسس العهد الأول من دولة سرقسطة الذي دام نحو ربع قرن، أي حتى سقوط الخلافة وقيام أسرة عربية أخرى (بنو هود) بالسيطرة على الثغر الأعلى. وقد نعمت سرقسطة في عهده بالرخاء والاستقرار، دون أن يتورط في الصراعات التي ذرت قرنًا في شق بقاع الأندلس، كما «ساس عظماء الأفرنج، فحفظت أطرافه» في وصف ابن عذاري له^(٢). ولم يدم حكم المنذر أكثر من ست سنوات، عندما خلفه بعد وفاته (٤١٤هـ) ابنه يحيى الملقب بالمظفر، على عادة أمراء الأندلس الذين استهوتهم ألقاب التفضيم، لا سيما ذات العلاقة بالنصر. ولكن اللقب قد لا يعبر دائماً عن الواقع، خاصة إذا كان استخدامه خارج ساحات المعارك التي أكسبت مستحقيه سابقاً هذا الحق، من أمثال عبد الرحمن الناصر والمنصور العامري. ففي عهده اختلّ التوازن الذي أقامه المنذر مع الأسبان، مما دفع هؤلاء^(٣) إلى التحرك والإغارة على إمارته، وإرغامها على التخلي عن بعض الحصون. وبعد موته (٤٢٠هـ) خلفه ابنه المنذر في ظل ظروف دقيقة تزامنت مع الأيام الأخيرة للخلافة الأموية، بحيث لا تشير الروايات إلى ما هو جدير بالاهتمام خلال السنوات العشر التي أمضاها أميراً على سرقسطة، باستثناء ما أورده ابن عذاري في وصفه للأخيرة التي «أشرف أهلها على فتنة شديدة»^(٤).

(١) البيان المغرب ج ٣، ص ١٧٥ - ١٧٧.

(٢) المصدر نفسه ج ٣، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٣) الكونت رامون بويل صاحب برشلونة. راجع عنان، دول الطوائف ص ٢٦٨.

(٤) البيان المغرب ج ٣، ص ١٧٨ - ١٧٩.

وباستثناء حادثة اغتياله الغامضة، على يد قريب له^(١) (٤٣٠هـ)، ربما بتدبير من بني هود الذين كانت لهم أطماعهم في هذه المدينة بعد أن سيطروا مسبقاً على نطيلة ولاردة من أعمال الثغر الأعلى^(٢). ويرجح ابن خلدون هذا الاعتقاد، بضلوع بني هود في هذا الأمر، ملقياً تبعة الاغتيال على سليمان بن هود^(٣)، الذي بادر مع جماعته إلى السيطرة على سرقسطة (٤٣٥هـ) بعيد مقتل الأمير المنذر وإعلان نفسه أميراً عليها، منبياً بذلك العهد الأول (التجيبى) في تاريخ هذه «الدولة»، ومبتدئاً عهدها الثاني (المهدي) الذي استمر حتى دخول المرابطين إلى الأندلس.

ولقد تعاقب على دولة بني هود في سرقسطة خمسة من الأمراء، كان أولهم سليمان بن محمد بن هود الجذامي الذي اختار لنفسه لقب «المستعين». وهو ينتمي لقبيلة يمنية عريقة (جذام) شاركت في أحداث الأندلس، بدءاً بالفتح ومروراً بعهد الولاة حتى قيام الدولة الأموية وسقوطها. وقد أظهر المستعين مقدرة وكفاية في شؤون الحكم، حيث تجلّى ذلك بإحكامه السيطرة على المدينة والإمساك بزمّام الأمور فيها. كما تجلّى في صمود المستعين أمام التحديات التي واجهته، لا سيما المعارك التي قامت بينه وبين المأمون بن ذي النون (صاحب نطيلة) حول وادي الحجارة. وكان الأخير نسياً لأخر الأمراء التجيبيين المنذر بن يحيى، مما جعل العلاقة تسوء بين الطرفين، اللذين احتكما للقتال الذي حسم لمصلحة المستعين^(٤). وقد كشفت هذه الحرب ثغرات دويلات الطوائف، ومدى الأحقاد التي كانت تحملها الواحدة ضد الأخرى، دون التورع عن طلب المساعدة من الأسبان^(٥)، الذين كانوا يسهمون بشكل أو بآخر في تأجيج هذا الصراع أو في

(١) عبد الله بن حكيم. المصدر نفسه ج ٣، ص ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه ج ٣، ص ١٧٩.

(٣) العبر ج ٤، ص ١٦٢.

(٤) عنان، دول الطوائف ص ٢٧١.

(٥) البيان المغرب ج ٣، ص ٢٢٢.

توفير الظروف له، وكل ما يعزز مواقع نفوذهم على حساب هذا التراجع العربي الإسلامي.

والأمير الثاني هو أحمد بن سليمان (المقتدر) الذي كان أحد خمسة أبناء وزع عليهم «المستعين» مملكته في حياته، حيث آلت سرقسطة إلى الأول، بما يعنيه ذلك من تكريس لولايته بعد أبيه، ولكنه لم يشأ القبول بهذا الواقع بعد انتقال السلطة إليه، مما جرّ إلى صراع بين الأخوة، نجح خلاله المقتدر في إحكام قبضته على مواقع أخوته، باستثناء أكبرهم (يوسف) صاحب لاردة الذي لقب نفسه بحسام الدولة^(١). ولم يكن الأخير خصماً هيناً، لا سيما وأن «أهل الثغر» كانوا أكثر تعاطفاً معه، بعد أن أنكروا على المقتدر قسوته على أخوته وعدم التزامه بالعهد، حيث جرّ ذلك إلى خلع الكثيرين طاعته والتحول نحو أخيه الذي وُصف بالشهامة والفروسية واكتسب لقباً آخر بفضل ذلك وهو «المظفر»^(٢). وعلى عادة «ملوك» الطوائف الذين لم يتورعوا عن استخدام شتى الوسائل للاحتفاظ بالنفوذ، فقد توجه المقتدر، بعد احتدام الصراع مع أخيه واقتصار ولايته على سرقسطة، إلى الملك الأسباني طالباً منه المساعدة، التي كشفت مدى الانهيار في الوضع السياسي في الأندلس، كما كشفت ما وصل إليه المقتدر من انهيار خلقي، عندما اتفق مع الأخير، بأن يعتدي رجاله على قافلة محملة بالمؤن، كان قد أرسلها أخوه إلى تطيلة التي عانت حينذاك من المجاعة، وخشي من تربص المقتدر بها، مما دفعه إلى إرسال مبلغ من المال للملك الأسباني، كي يسمح بمرور القافلة في أراضيه، ولكن ما أرسله الأخير كان أكثر إغراء للملك، الذي هباً الظروف أمام رجال المقتدر لاعتراضها والفكك بها^(٣).

ولقد أدت هذه الحادثة إلى إعادة ترتيب الأوضاع في الثغر الأعلى، لمصلحة

(١) أحمد بن سليمان في سرقسطة وأخوه يوسف (لاردة) وعبد (قلعة أيوب ولّبا وشقة) والمنذر (تطيلة). البيان المغرب ج ٣، ص ٢٢٢.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه ج ٣، ص ٢٢٣.

(٤) المكان نفسه. راجع أيضاً: عنان، دول الطوائف ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

المقتدر، الذي سيطر إثر ذلك على طرطوشة، وهي نافذة الإقليم على البحر، مما عزز موقع المقتدر في «ملكته» التي بات الشخصية الأقوى فيها، بعد الضربة التي نزلت بمنافسه البارز «المظفر». ولكن النكبة التي حلت حينذاك بمدينة بربرشتر الواقعة بين لاردة ووشقة، إبّان حصار النورمان لها (٤٥٦هـ)^(١)، كان لها وقعها الشديد على الأندلس و«كان الخطب أعظم من أن يوصف»^(٢)، حسب تعبير ابن عذاري. فقد اجتاحت المهاجمون المدينة بعد صمود بطولي، لم يئل منه سوى قطع الماء عنها، وما ترتب عليه من سقوط المئات من أهلها ضحايا العطش، في الوقت الذي تباطأت فيه النجيدات لإنقاذها، على الرغم من الاستياء الذي عمّ الخواضر الأندلسية في ذلك الحين. وقد شجع هذا المناخ ابن هود (المقتدر) على استفزاز المقاتلين لإنقاذ المدينة، ومن ثم رفع الحيف عن نفسه بعد إتهامه بالتقصير إزاء المدينة المنكوبة. فاستجاب له عدد كبير، من بينها قوات أرسلها المعتمد بن عباد، تحرك بها المقتدر نحو الأخيرة وفرض عليه الحصار، قبل أن يتمكن رجاله من اقتحامها والانتقام الشديد من النورمان الذين سيطروا عليها نحو تسعة أشهر^(٣)، بحيث كان لهذا الانتصار الذي قطف ثماره المقتدر دويّه الكبير، ولكن مع تبعات على عاتقه في تلك الفترة التي تحركت فيها جبهة الثغر الأعلى، في أعقاب هجمات الممالك الأسبانية المجاورة. فقد كان هذا الإقليم هدفاً حيويّاً لهذه الأخيرة، لما يمثله من موقع جغرافي هام، قد يصحّ وصفه بأنه خطّ الدفاع الأول عن المسلمين في الأندلس. وقد تزامن هذا الخطر بصورة خاصة مع وصول القونسو السادس إلى عرش قشتالة، فارضاً الجزية على المقتدر الذي كان يدفع مثلها إلى ملكيّ أراغون ونافار، مما جعله في وضع صعب، لم يخفف منه سوى تحالفه مع القارس القشتالي الذي لمع نجمه حينذاك تحت اسم «السيد»، وذلك إثر خلافه مع القونسو السادس^(٤)، حيث أعاد هذا

(١) البيان المغرب ج٣، ص ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه ج٣، ص ٢٢٦.

(٣) المكان نفسه. راجع: عنان، دول الطوائف ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٤) دول الطوائف ص ٢٨١.

التحالف الجبهة الشمالية إلى الهدوء، والعلاقات مع الأسبان إلى التوازن، ليصبح المقتدر بفضل ذلك أحد أقوى ملوك الطوائف، وتسطع معه سرقسطة جاذبة إليها الضوء كأعظم مدينة في الأندلس في أواخر عهد المقتدر، الذي كان شاعراً وعالماً، إلى جانب ما تمتع به من كفاءة في السياسة والحرب.

ولكن الصراع على السلطة الذي بدأ مع هذا العهد، عاد إلى الظهور في نهاياته، عندما احتدم التنافس بين يوسف (المؤمن) الذي آلت إليه السلطة في سرقسطة وبين أخيه المنذر^(١). فبينما تحالف الأول مع «السيد» وجماعته المرتزقة، استعان الثاني بملك أراغون وقشتالة، حيث جرّ ذلك إلى معركة عنيفة بين الأخوين، انعقد فيها النصر للمؤمن وحليفه «السيد». وكان الأخير في الواقع الشخصية الأبرز في بلاط المؤمن والسيف المشهور في وجه أعدائه، سواء في الداخل أم على التخوم، على نحو جعل البعض يصفه بأنه «العقل المدبر»^(٢) للمؤمن. ولكن الأمير الهودي الثالث (المؤمن) لم يستمر في الحكم أكثر من أربع سنوات، مما أعاد مجدداً أجواء الصراع السياسي والعسكري إلى هذه الدولة، حيث تولى الأمر ابنه أحمد (٤٧٨هـ) الذي عُرف بالمستعين، أو بالمستعين الأصغر^(٣)، للتمييز بينه وبين مؤسس الدولة الهودية الذي حمل اللقب نفسه. وقد تزامن ذلك مع سقوط طليطلة (٤٧٨/١٠٨٥) عاصمة الثغر الأوسط، بما يعنيه سقوطها من خطورة على أوضاع الدويلات الإسلامية في الأندلس، كونها تقع في قلب هذه البلاد^(٤)، وكونها العاصمة القديمة في العهد القوطي، وما يحمله ذلك من دفع بالغ الأهمية للمشروع الصليبي، المدرج في إطار حركة «الاسترداد»، التي استهدفت لاحقاً الوجود العربي الإسلامي في إسبانية.

(١) دول الطوائف ص ٢٨٤. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، وعصر الطوائف والمرابطين ص ١٥.

(٢) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٥.

(٣) دول الطوائف ص ٢٨٦.

(٤) راجع وصف الشاعر ابن المال لهذا السقوط الذي شطر البلاد إلى شطرين وأنذر حسب رأيه المسلمين بالنهاية في الأندلس:

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس	فما البقاء بها إلا من الغلظ
الشوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

كما تزامن عهد المستعين الثاني مع تحديات لم تكن منفصلة عن سيطرة الاسبان على طليطلة، عندما قام الفونسو السادس إثر ذلك بمحاصرة سرقسطة التي كان من المفترض أن تلقى المصير نفسه لو لم تشهد الأندلس حينذاك أحداثاً هامة، مع دخول المرابطين إلى الأندلس وانتصار سلطانهم يوسف بن تاشفين الباهر على الفونسو في موقعة الزلاقة (رجب ٤٧٩هـ)، مجسدة ردة الفعل الإسلامية على سقوط طليطلة. وما لبث السلطان المرابطي الذي عاد إلى المغرب بعد موقعة الزلاقة، أن عبر إلى الأندلس بعد سنتين من هذه الأخيرة (٤٨١هـ) للقيام بمهمة مماثلة، ومن ثم عبر للمرة الثالثة بعد سنتين أيضاً، ولكن ليستولي على دويلات الطوائف، بعد أن ضاق ذرعاً بصراعاتها ومؤامراتها على بعضها، وتلاعب الملوك الاسبان بمصائرها، حيث سقطت في يده غرناطة وإشبيلية والمرية وبطليوس وغيرها من المدن الهامة في الأندلس. وفي غمرة هذا الانتشار المرابطي على حساب دول الطوائف، يستبد القلق بالمستعين على دولته ويتوجه إلى حليف أبيه (السيد) طالباً مساعدته ضد المرابطين، فيبادر الأخير الذي كان له نفوذ قوى في شرقي الأندلس إلى تلبية طلبه موحداً بينهما الخطر المشترك. ولكن المستعين أدرك بعد وقت قصير عبث اعتماده على «السيد» الذي كانت تحركه نوازعه السلطوية، فلم يجد بداً من التودد للمرابطين وإيفاد الرسل والهدايا إليهم. وفي الوقت الذي اطمأن المستعين إلى هؤلاء أو كاد، فوجيء بهجوم الاسبان على تطيلة، إحدى أهم القواعد في دولته، فلجأ إلى الدفاع عنها وخوض معركة عنيفة أسفرت عن هزيمته وقته (رجب ٥٠٣هـ)^(١).

ومع غياب الأمير الرابع في دولة بني هود، تشارف الأخيرة على نهايتها التي أصبحت محسومة على الرغم من بيعه خامس أمرائها عبد الملك الذي تلقب بعماد الدولة، والاشتراط عليه بالتخلي عن محالفة الاسبان، في وقت كانت أجواء البلاد مشبعة بالعداء ضد هؤلاء، فضلاً عما أحدثته انتصارات المرابطين عليهم من تعزيز للمعنويات، حيث كانت آخرها حينذاك معركة «إقليش» التي سُحقت

(١) راجع ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص ١٧٤.

فيها القوات القشتالية، مما دفع أهل سرقسطة - وقد وجدوا نكوصاً لدى أميرهم بما قطعه على نفسه في محاربة الاسبان - إلى الاتصال بالسلطان المرابطي وإعلان استعدادهم لتسليم مدينتهم إليه. وقد تم ذلك فعلاً، عندما خرج عماد الدولة من عاصمته بعد توجه قائد المرابطين إليها، أو أنه أجبر على الخروج منها تحت ضغط أهلها المنتظرين دخول الأخير إليها (٥٠٣هـ)^(١)، لينتهي أمر هذه الدولة، التي دامت حوالي قرن من الزمن، على نحو لم تبلغه دولة أخرى، إذا ما أخذنا في الاعتبار العهد «التجبيي» الأول الذي سبق عهد بني هود الجذاميين، الذي شغلوا دوراً ربما كان الأكثر خطورة في تاريخ تلك الفترة من الأندلس.

دولة بني ذي النون في طليطلة (٤٠٠ - ٤٧٨هـ):

تكتسب هذه الدولة أهمية خاصة، إنطلاقاً من موقعها المتاخم للممالك الاسبانية، كما جعلها دولة مواجهة - إذا جاز التعبير - أو حاجزاً بين هذه الأخيرة وبين الدويلات الإسلامية. وقد ارتبطت هذه الدولة التي اتخذت مقرها في قاعدة القوط القديمة طليطلة، بأسرة بني ذي النون التي تعود في أصولها إلى البربر (هواره)^(٢)، كانت قد دخلت في خدمة الأمير محمد بن عبد الرحمن (الأوسط)، وشارك أحد أبنائها (موسى بن ذي النون) في الفتنة التي سبقت عهد الخلافة وأدت إلى قيام الطوائف الأولى، عندما استقل بالثغر الأدنى (الأوسط) واتخذ من عاصمته طليطلة مقراً له، حيث ارتبط تاريخها بهذه الأسرة منذ ذلك الحين. وفي مطالع «الفتنة الثانية» التي رافقت انحلال الخلافة الأموية، وثلاثي الحكم المركزي، قام قاضي المدينة أبو بكر يعيش بن محمد الأسدي، بتسيير الأمور فيها، معتمداً على عدد من رؤساء القبائل^(٣). وقد ظلت هذه السلطة

(١) المصدر نفسه ص ١٧٥،

Dozy. Hist des musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête des Almoravides. Vol III. p. 154.

(٢) عنان، دول الطوائف ص ٩٥.

(٣) أعمال الاعلام ص ١٧٦.

الجماعية» تمارس نفوذها في طليطلة نحو عشرين عاماً، عندما وقع الانقسام بين أفرادها وقام أهل المدينة بعزل القاضي والاتصال بصاحب «شنت بربة» عبد الرحمن بن ذي النون (٤٢٧هـ) كي يتولى أمرهم، حيث أرسل إليهم ابنه إسماعيل الذي لقب نفسه بالطافر، وسار على سياسة نالت رضى الجميع^(١)، مما رسخ جذور هذه الأسرة في طليطلة وأدى إلى تعاقب أبنائها على الحكم حتى سقوطها على يد الاسبان (٤٧٨هـ/١٠٨٥م).

ثم تولى يحيى بن إسماعيل (المأمون) الحكم (٤٣٥هـ)، متأثراً بسياسة أبيه ونهجه، وعاصر خلال نيف وثلاثين عاماً من عهده الطويل أحداثاً خطيرة، حيث قام نزاع بينه وبين بني هود في سرقسطة حول وادي الحجارة، جرّاً إلى سلسلة من الحروب والوقائع كان النصر خلالها حليفاً لبني هود الذين طاردوا المأمون حتى طليطلة^(٢). ولكن الأخير لم يسكت على هزيمته، بل توجه إلى ملك قشتالة طالباً منه المساعدة لقاء «جزية» يؤديها له^(٣). فلبى الملك الاسباني دعوته، وأرسل جنوده يعبثون في أراضي اليهوديين قتلاً وتخريباً ودماراً، في الوقت الذي هاجم فيه المأمون مناطق أخرى وأنزل فيها ما أنزلته القوات القشتالية^(٤). وقد شجعت هذه التطورات المأمون على تقوية أوضاعه، حين مدّ يده إلى صاحب قرطبة المعتضد وطلب مساعدته ضد بني هود، حيث استجاب لذلك، ولكن شرط الاعتراف بالخليفة هشام (المؤيد) الذي اتخذ المعتضد وسيلة لتحقيق أهدافه السياسية، فاضطر المأمون إلى تلبية شرطه، بعقد البيعة لهشام والدعاء له على منابر طليطلة^(٥). بيد أن ذلك لم يؤد إلى تجميد العلاقة العدائية بين الدولتين، حيث لم يتورع ابن هود من السير في الطريق نفسه الذي سلكه المأمون

(١) البيان المغرب ج٣، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه ج٣، ص ٢٧٨.

(٣) المكان نفسه.

(٤) دول الطوائف ص ٩٩.

(٥) البيان المغرب ج٣، ص ٢٧٩.

مسبقاً، عندما تحالف مع الأسبان وردّ لخصمه الضربة بمثلها^(١)، مما دفع أهل طليطلة إلى مناشدة ابن هود الاستجابة إلى الهدنة. ولكن الأخير برغم تظاهره بالموافقة على الصلح، ما لبث أن شن هجوماً على مدينة سالم (من أعمال طليطلة)، معتمداً في ذلك على بعض خصوم المأمون من الأسرة الحاكمة، وكذلك على دعم حلفائه الأسبان^(٢). وهكذا كان دأب أمراء الطوائف، استفاد طاقاتهم في هذه الصراعات الدموية التي كان المستفيد الأكبر منها، الملوك الأسبان، المتقليل من موقع إلى آخر، فارضين شروطهم وضرائبهم على الدويلات الإسلامية، التي لم تنعظ من التجارب العديدة التي خاضتها مباشرة أم غير مباشرة.

ومن هذا المنظور، فإن المأمون ينتقل بعد ركود جبهته مع سرقسطة، في أعقاب موت أميرها سليمان بن هود، إلى إثارة هذه الجبهة مع بني عباد، ومنافستهم في مخططهم الرامي إلى السيطرة على قرطبة، معتمداً على أحد رجال ابن السقاء (وزير بني جهور) وربما أحد الضالعين بقتله، وهو حكم بن عكاشة لتحقيق هذا الهدف. وقد نجح الأخير في تنفيذ مشيئة المأمون، ممهداً له السيطرة على قرطبة ودخولها (٤٦٧هـ)، ولكنها كانت الأخيرة في عهده الطويل الذي لم يدم بعد ذلك سوى شهور قليلة، قضى بعدها المأمون تاركاً الأمر لابن عكاشة^(٣)، الذي عجز عن الاحتفاظ بموقعه أمام ضغط الماعتمد بن عباد، حيث قدّر له أن يقطف مشروعاً ناضجاً، كان أبوه المعتضد قد عمل كثيراً في سبيله.

وكان الأمير الثالث والأخير في هذه الأسرة، هو حفيد المأمون (يحيى بن هشام)، الملقب بالقادر الذي وُصف بأنه ضعيف الشخصية قليل التجربة، معتمداً في شؤون الحكم على وزيره جده^(٤)، كان الأخير قد أوصاهما بتسيير

(١) البيان المغرب ج ٣، ص ٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه ج ٣، ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٣) دول الطوائف ص ١٠٤.

(٤) ابن الفرج وأبو بكر الحديدي. المرجع نفسه ص ١٠٧.

أمور الدولة ورعاية الأمير الحدث. ولقد أثبت أنه قصير النظر في السياسة ومتأثراً بآراء صحبته الذين نفخوا فيه العزم للتخلص من هذه الوصاية، حيث دفع وزيره الفقيه (ابن الحديدي) ثمناً باهظاً لهذه الخفة في شخصية القادر، عندما استدعاه إلى مجلسه وترك المجال لخصومه بأن يفتكوا به. ولكن سرعان ما يستولي عليه الندم لغدره بوزيره، بعد أن وجد نفسه أسير الفتنة التي حرصته عليه وكانت المستفيدة من ارتفاع المراقبة عنها، والتدخل ما شاء لها في أمور الدولة، مما انعكس على موقع القادر الذي ازداد ضعفاً وارتهاناً للآخرين، المسكين بزمام الأوضاع فيها.

ومن جهة أخرى فإن المتاعب لم تقتصر على الشؤون الداخلية في طليطلة، ولكن ثمة متاعب أشد صعوبة كانت تحيط به من الخارج، حيث الأمير الهودي لم يدع له فرصة للاستكانة، ولا ينفك مظهراً أطماعه في دولته، التي افتقدت موقعاً هاماً في هذا الصراع بين الأميرين، عندما استولى ابن هود على مدينة شنتبرية التابعة لطليطلة. وفي الوقت نفسه، يمدّ الأخير يده إلى حاكم بلنسية (أبو بكر بن عبد العزيز) الذي ثار على طليطلة وأعلن استقلاله عنها، مما دفع القادر إلى إحياء حلفه مع الفونسو السادس، وطلب مساعدته لمواجهة الضغط الهودي عليه. ولكن ملك قشتالة لم يشأ القبول بالثمن نفسه الذي تقاضاه سابقاً، حين رفض الاكتفاء بالمال فقط، واشترط على القادر تسليمه بعض الحصون المتاخمة لدولته^(٢).

وهكذا فإن مصير هذه الدولة تقاذفته حينذاك أطماع بني هود من جهة، والاسبان من جهة ثانية، فضلاً عن الصراعات الداخلية الضارية، التي عجز القادر عن استيعابها واضطرت إلى مغادرة طليطلة بعد إعلان خصومه الثورة عليه (٤٧٢هـ)، ومن ثم المناداة بأمير بطليوس^(٣) حاكماً عليهم. على أن ذلك لم يطل

(١) دول الطوائف ص ١٠٧.

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٨.

(٣) التوكل بن الألفس.

كثيراً، حيث التجأ القادر إلى الفونسو لمساعدته في استرجاع «ملكه»، فلم يخيب الأخير طلبه، لا سيما وأنه كان يتوجه باطماعه حينذاك إلى طليطلة، ويعتبرها امتداداً لدولته وهدفاً حيوياً في مشروعه التوسعي. وفي الوقت الذي رجع فيه القادر تحت حماية القشتاليين إلى عاصمته، كان أمير بطليوس يغادرها، ولكن بعد أن أصبحت خاوية من المال والمؤن والسلاح، الذي تحوّل إلى عاصمة الأخير^(١). بيد أن هذه العودة المخزية للقادر، لم تكن تعني سوى أن المدينة أصبحت في آخر اللحظات من تاريخها العربي الإسلامي، بعد انهيارها الداخلي وما جرّ إليه ذلك من الفوضى والتقاتل، وبعد اقتراب الخطر الخارجي يوماً بعد آخر، منذراً بالمصير المظلم الذي يترصص بهذه المدينة. ذلك أن الفونسو عندما استجاب لمناشدة القادر بدعم عودته إلى عاصمته، لم يجد في حكم الأخير ما يستحق الدعم، سوى أن يكون توطئة لدخوله الوشيك إلى الحاضرة القوطية، بما لذلك من دلالة هامة على إحياء الدولة الأسبانية إنطلاقاً من عاصمتها القديمة، التي كانت الهدف المحوري لأبرز ملوك الأسبان في ذلك الحين. وفي ظل هذه المحنة التي عصفت بطليطلة خاصة وبقية مدن الأندلس عامة، حيث الأمراء جميعاً كانوا يتنافسون على ودّ الفونسو، دون تقدير لما ينتظر عاصمة الثغر الأدنى من خطر شديد، لم يتردد الأخير في الهجوم على المدينة ومحاصرتها (١٠٨٤/٤٧٧)، بعد أن حانت اللحظة الحاسمة لذلك. ولم يدم الحصار أكثر من بضعة شهور، عانت المدينة خلاله الشدائد والأهوال، دون أن يتحرك أحد من «ملوك» الطوائف لتخفيف الضغط عنها، باستثناء صاحب بطليوس الذي قام بمحاولة لنجدها لم يكتب لها النجاح. ولم تلبث طليطلة أن استسلمت للملك القشتالي مقابل شروط نصّت على تأمين أهلها في أنفسهم وأموالهم ومغادرة من يشاء منهم مع أموالهم وأن يدفع المقيمون فيها ضرائب للملك المنتصر، وأن يسلموا القلاع والحصون، على أن يحتفظوا بمساجدهم ويمارسوا شعائهم الدينية بحرية^(٢).

(١) ابن بسام، الذخيرة القسم الرابع - المجلد الأول، ص ١٢٤ - ١٢٦.

(٢) أعمال الاعلام ص ١٨١. دول الطوائف ص ١١٣ - ١١٤.

لقد عرضنا فيما تقدم أربعة نماذج من دويلات الطوائف، التي قامت على انقراض الخلافة الأموية في الأندلس. ولم نشأ في الواقع الإحاطة بجميع هذه النماذج، كونها لا تختلف كثيراً في أوضاعها السياسية وعلاقاتها مع بعضها أو مع الاسبان، وبالتالي فإن ذلك خارج عن سياق هذا الكتاب الذي يحاول التركيز على فترة الدولة المرتبطة بالأسرة الأموية في الأندلس. أما بقية هذه الأجزاء التي جرفتها تلك الموجة الانفصالية، فقد كان من أبرزها دولة بني الأقطس في بطليوس (الغرب) (٤١٣-٤٨٧هـ) حيث يحيط الغموض بأصول أصحابها إذا كانوا متحدرين من قبيلة نجيب التي تولى ثلاثة منها حكم سرقسطة قبل العهد الهودي، كما سبقت الإشارة، أو أنهم يتتبعون إلى البربر، حيث يرجع إحسانة عباس ذلك^(١). وقد قامت هذه الدولة بدور كبير في الأحداث السياسية، كما مرَّ معنا، سواء في علاقاتها العدائية مع بني عبَّاد أو في موقفها من الاسبان الذي تجلَّى في الانفراد بمساعدة طليطلة خلال محتتها الأخيرة. ومن هذه الدويلات أيضاً، دولة بني زيري من الصنهاجيين (البربر) في غرناطة ومالقة (٤٠٣-٤٨٣هـ) وبني حمود الحسينيين في مالقة والجزيرة الخضراء (٤٢٧-٤٤٦هـ) وبني برزال الزناتيين (البربر) في قرمونة (٤٠٤-٤٦٠هـ)، وبني يفرن الزناتيين أيضاً في رندة (٤٣١-٤٥٨هـ)، والصقالبة (موالي العامريين) في بلنسية (٤٠٦-٤٩٦هـ)، وبني صمادح التجيبيين^(٢) في المرية (٤٣٣-٤٨٤هـ) وبني طاهر (الصقالبة) في مرسية (٤٢٩-٤٧١هـ) وبني رزين أو هذيل (البربر) في السهلة (٤٠٣-٤٩٧هـ) وبني القاسم الفهريين (العرب) في البونت (٤٢١-٤٩٧هـ)، وغيرها من الدويلات الصغيرة التي كانت في الغالب تابعة للدويلات الأكثر قوة، دون أن يكون لها دور ما في المتغيرات السياسية، سوى أنها أضفت المزيد من التفتت والانقسام والصراعات

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٣.

(٢) ثمة من يدرجهم مع البربر. راجع: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٢ وخالد الصوفي، جمهورية بني جهور ص ٤١.

الداخلية التي أخذت تؤتي ثمارها لدى الاسبان، لولا أن شهدت الأندلس محطة أخرى من تاريخها الإسلامي المديد، مع دخول المرابطين الذين أنقذوها بدون ريب من السقوط، حيث لم يكن يمنع تكرار ما حدث في طليطلة وانتقال محتتها من مدينة إلى أخرى دون ثمة الكثير من العوائق.

المرابطون والموحدون في الأندلس

المرابطون في الأندلس

٤٤٨ - ٥٤١ / ١٠٥٦ - ١١٤٧

ثمة غموض ما يحيط بأخبار الدولة المرابطية وقيامها في المغرب الأقصى، حيث المصادر قليلة في هذا السبيل. ولكن المتواتر أن المرابطين ينتمون إلى «لتونة» إحدى فروع القبيلة الكبرى صنهاجة البربرية، التي كان لها دور كبير في أحداث القرن الهجري الرابع في تلك المنطقة، على الرغم من زعم البعض بأن أصولها عربية من حمير^(١). وكانت شنقيط (موريتانيا اليوم) في الصحراء الغربية موطنهم الأصلي، حيث البيئة قريبة الشبه من البيئة الحجازية، طبيعة وغطاً حياتياً واجتماعياً^(٢)، كذلك فإن الوثنية كانت عقيدة هؤلاء قبل أن يتسرب إليهم الإسلام في وقت متأخر نسبياً عن القبائل الأخرى في وسط المغرب وشماله، بحيث إن التغيير الحقيقي في عقيدتهم لم يحدث إلا في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، عندما شهد اللتانينيون أو «المثمنون»^(٣) كما أطلق عليهم، حركة توحيدية في صفوفهم، تزعمها يحيى بن إبراهيم الكدالي وهو رئيس «كدالة» المتفرعة من لتونة.

(١) روض القرطاس ص ٧٥.

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٧٨.

(٣) ثمة آراء عديدة حول استخدام اللتانينيون اللثام، يمكن الاطلاع عليها في تاريخ المغرب للدكتور إبراهيم حركات ج ١، ص ١٥٥ - ١٥٦. وفي التاريخ العباسي والأندلسي للدكتور مختار العبادي ص ٤٧٩ - ٤٨٠.

فقد هال هذا الأخير، رؤية التخلف والجهل في قومه، مما دفعه إلى الجولان في بعض المراكز العلمية في المغرب، باحثاً عن شخصية تتولى تثقيف جماعته وتنويرهم بأمور الإسلام، حتى إذا انتهى إلى القيروان - وكانت لها شهرتها العلمية والدينية الواسعة حينذاك - تعرّف على الفقيه المالكي الكبير أبي عمران القاسمي^(١)، الذي يعتبره البعض المنظر الأول للدعوة المرابطية، حيث انطلقت حينذاك فكرة تأسيس دولة على قواعد إسلامية صحيحة في المغرب، لإنقاذه من حالة التمزق والفوضى، فقد أرسله أبو عمران إلى تلميذ له (وجاج بن زولو اللمطي) كان يعتزل في «رباط»، على مقربة من مصب نهر السنغال في أقصى المغرب^(٢)، ذلك المكان الذي استوحى المثلثون الصحراويون اسمه لإطلاقه على دعوتهم^(٣) التي أخذت منعطفاً هاماً، مع انتداب وجاج أحد «المرابطين» معه لتفقيه الصحراويين في أمورهم الدينية، وهو عبد الله بن ياسين الجزولي الصنهاجي، الذي تتلمذ على شيخ قرطبة والقيروان، وتمتع بشخصية قوية ومؤثرة، فضلاً عن حماسه الشديدة للقيام بهذا الدور الذي لقي كثيراً من النجاح.

والواقع أننا غير معينين هنا بالتفاصيل الواسعة التي رافقت قيام هذه الدعوة وتوحيدها للمغرب الأقصى، بعد سلسلة من المواقع والصراعات القبلية، حيث الهدف من هذه الدراسة هو تتبع الدور المرابطي في الأندلس. فقد توفي الزعيم السياسي للحركة يحيى بن إبراهيم (٤٤٠هـ) وخلفه يحيى بن عمر في شؤون السياسة والحرب أيضاً، بينما ظل لابن ياسين الشؤون الدينية. وبعد سبع سنوات توفي ابن عمر (أبو زكريا)، ليخلفه في الرئاسة أخوه أبو بكر الذي اختار ابن عمه يوسف بن تاشفين لشؤون الحرب، حيث لمع اسمه فيها بعد، قائداً كبيراً ومقاتلاً شجاعاً، لا سيما في معارك السوس والمعركة الشهيرة ضد قبيلة

(١) ينتمي إلى غفجوم من بطون زناتة. العياشي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٨٠.

(٢) حركات تاريخ المغرب ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٣) يرى ابن عذاري أن عبد الله بن ياسين قد أطلق على أصحابه هذا الاسم بعد انتصارهم على «قبائل غير مسلمة مجاورة لقليلة لتونة». البيان المغرب ج ٤، ص ١٢.

برغواطة بالقرب من الرباط (٤٥١هـ)، التي استشهد فيها فقيه الدعوة ومنظرها ابن ياسين^(١). وبعد هذه المعركة بعامين فقط (٤٥٣هـ) أصبح يوسف بن تاشفين أميراً للمرابطين بعد تنازل أبو بكر له عن الخلافة، حيث يعتبر المؤسس الفعلي لدولتهم، بما يعنيه ذلك من اتخاذ عاصمة لها في مراكش وإنشاء أسطول بحري وجيش قوي، ملقباً نفسه بأمير المسلمين وناصر الدين^(٢).

وهكذا فقد تنوع توحيد المغرب في إطار حركة المرابطين، التي تحولت إلى دولة بكل ما تعنيه هذه الكلمة بقيادة ابن تاشفين. وكان هذا الأخير نموذجاً لرجال الدعاة المرابطية، الممثلين حاسة للجهاد الديني الذي جسده الفقيه ابن ياسين. ولذلك فإن هموم سلطان المرابطين لم تنحصر في المغرب، حيث كانت أخطار جسيمة تحاصر المسلمين وتهدد وجودهم على الضفة الأخرى من المضيق. فقد كانت الأندلس امتداداً للمغرب على أكثر من صعيد ومتداخلة معها سياسياً واجتماعياً، فضلاً عن التغيرات التي تزامنت مع قيام دعوة المرابطين، عندما تولي الحكم في قشتالة الفونسو السادس في ظل موجة صليبية أوروبية، تمكن خلالها من ضم ليون إلى مملكته وتحقيق الإنجاز الأهم بسقوط طليطلة، التي أثارت الرعب لدى أمراء الطوائف المسلمين. وكان بين هؤلاء من اعترف بعد لأي بهذا الواقع المرير، وهو المعتمد بن عباد، الذي لم يختلف عن أقرانه في أطماعه وشهواته السلطوية، ولكنه كان أكثر موضوعية منهم، عندما ناشد ابن تاشفين الدخول إلى الأندلس، معبراً عن ذلك بما نسب إليه من قول ردّ فيه على المحذرين من السلطان المرابطي وأطماعه: «رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير»^(٣)، حيث للمقارنة واضحة بين حال الأندلس تحت سيطرة الأسبان وبين حالها تحت سلطان المرابطين.

ولم يتحرك ابن تاشفين نحو الأندلس إلا بعد مراسلات مع ابن عباد

(١) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٥٠٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٥١٥.

(٣) الخلل الموشية ص ٣٢.

للموقوف على تفاصيل الوضع فيها، وربما بعد شروط من الأول، بأن تكون له الجزيرة الخضراء^(١). وقيل في هذا السياق إن الفونسو الذي بلغت مسامحة هذه الاتصالات، أرسل يهدد ابن تاشفين إذا ما استجاب لدعوة ابن عباد، مما أثار السلطان المرابطي ودفعه إلى التأهب للحرب واجتياز المضيق إلى الأندلس^(٢) متخذاً من الجزيرة الخضراء قاعدة له. وسرعان ما تقدم منها نحو إشبيلية، ليلتقي الملك الفونسو في سهل الزلاقة (١٠٨٦/٤٧٩) على مقربة من بطليوس في غربي الأندلس، ويحقق انتصاراً باهراً على الجيش الإسباني^(٣) الذي كان في أتم استعداد له وخارجاً لتوه من حصار سرقسطة، حيث كانت على وشك من السقوط.

تركت هذه المعركة تأثيراً عميقاً على مسار الأحداث في الأندلس في وقت بلغت فيه حافة النهاية وعانت أسوأ الظروف على الصعيد السياسية والاجتماعية. وقد بالغ المؤرخون في وصف هذه المعركة ونتائجها، حيث أدرجوها بين المواقع العظيمة التي شهدتها تلك البلاد مثل «وادي لكة» و«المصارة».

والواقع أن هذا التصور ينطوي على شيء من المبالغة، لأن أية معركة مهما عظمت، لم تكن قادرة حينذاك على تغيير حركة التاريخ التي بدا أنها اتخذت مسارها الآخر. وكان السلطان المنتصر مدركاً لهذه الحقيقة، بعد أن صدمته مواقف أمراء الطوائف وتناقضاتهم، مما حمله على العودة إلى المغرب تاركاً جنوده في الأندلس، بعد أن ضاق بأجوائها المريية. وهكذا يمكن القول إن أبرز نتائج معركة الزلاقة، أنها كسرت شوكة الملك المستغفرس الفونسو السادس، وعززت الروح المعنوية لأهل الأندلس، بعد أن وصلت إلى الحضيض قبيل ذلك، فضلاً عن الإنجاز الأهم وهو توحيد القطرين (المغرب والأندلس) تحت راية المرابطين الذين اتخذوا من مراكش عاصمة لهم.

(١) الحلل الموشية ص ٣٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) المراكشي، المعجب ص ١٣٢ - ١٣٥.

وقد أتاحت مغادرة ابن تاشفين الفرصة للملك القشتالي أن يعود إلى سابق نشاطه في إطار المشروع الصليبي الذي دأب على تحقيقه، بدعم من البابوية وبعض القوى الأوروبية، كذلك فإن الصراعات التي عادت إلى وتيرتها أو الكثير منها لدى أمراء الطوائف، وتبرّم بعضهم من حماية المرابطين وسيطرة جنودهم على بلادهم، كانت حافزاً لاستئناف تحركه ضد المسلمين في جنوبي شرق الأندلس. فقد ذكرت الروايات أن الفونسو بعد هزيمة الزلاقة لجأ إلى تحصين المواقع المتاخمة لمرسية وبلنسية، لا سيما لبيط (على مقربة من لورقة)، موعزاً إلى أحد قواده بأن يشن هجمات في هذه الجهات، مما أثار قلق المسلمين عامة والمعتد بن عبّاد خاصة الذي كانت له السيادة على بلنسية، حيث قام بحملة فاشلة لإنقاذ الأخيرة، دفعته إلى الاستنجاد مرة أخرى بالسلطان المرابطي. فعبر المضيق إلى المغرب والتقى ابن تاشفين عند وادي سبو^(١)، حيث كانت قد سبقته دعوات ملحة من فقهاء الأندلس محذرة من الخطر القشتالي. فاستجاب لنداء المعتد ودخل الأندلس ثانية (ربيع الأول ٤٨١هـ)^(٢)، بعد أن طلب من أمرائها موافقته عند حصن لبيط، ولكن دون أن ينجح في مهمته على الرغم من محاصرة الحصن والتضييق عليه، حيث اشتد الخلاف حينذاك بين المعتد بن عبّاد وابن رشيّق صاحب مرسية وأتهم الأول الثاني بالتحالف سرّاً مع الأسبان. بالإضافة إلى ذلك فقد أدرك ابن تاشفين عدم جدوى الحصار الذي لم يكن فيه سوى نفر قليل من الجند، ما لبث الفونسو أن أمر بإخراجهم من الحصن وإحراقه. وكانت هذه التجربة أكثر مرارة لابن تاشفين من سابقتها التي اقترنت بالنصر، بينما اقترنت الفشل بالصدمة في هذه المهمة، ليعود أدراجَه حائقاً إلى عاصمته في المغرب^(٣)، ومعه خيبة الأمل من أمراء الطوائف.

ولكن مرارة التجربة لم تحل دون قيام ابن تاشفين بواجبه حيث تشتد الحاجة، لا سيما وهو القوي العقيدة، المطبوع على الجهاد، مما جعل للفقهاء

(١) الحلل الموشية ص ٥٤.

(٢) روض القرطاس ص ٩٨.

(٣) المراكشي، المعجب ص ٨٩.

كلمة مسموعة عنده. فقام مرة ثالثة بالعبور إلى الأندلس (٤٨٣هـ) مستجيباً لدعوة هؤلاء، وفي ذنه افتاح طليطلة والسيطرة على البلاد بصورة فعلية.

وفي تلك الأثناء نشب خلاف بين المعتمد - وقد كان حتى ذلك الحين موضع ثقة ابن تاشفين - وبين سير بن أبي بكر قائد المرابطين في الأندلس، بسبب رفض الأول التنازل للمرابطين عن «دولته» ومحاولته الاستعانة بالاسبان، مما دفع القائد المرابطي إلى القبض عليه وإرساله أسيراً إلى أغمات (المغرب)^(١). أما يوسف بن تاشفين فقد جال في الأندلس، محاصراً طليطلة قبل أن يقضي على دويلات الطوائف، وتصبح موحدة تحت سلطانه المباشر. وقد توج أعماله الظافرة باستعادة أشبونة التي سبق للقشتاليين السيطرة عليها^(٢)، بحيث كان ذلك دافعاً إلى قيام الفونسو بحملة كبيرة إلى قرطبة، ولكنه تحول عنها إلى قرمونة وإشبيلية، ومن ثم قفل عائداً إلى بلاده بعد أن أدرك قوة حاميات هذه المدن وصعوبة اختراقها^(٣)، مكتفياً بما حققه من تخريب وبما ناله من غنائم.

وهكذا خضعت الأندلس لحكم المرابطين المباشر، باستثناء سرقسطة التي احتفظ بالسلطة فيها بنو هود بالاتفاق مع ابن تاشفين^(٤). وبعد أن حقق الأخير هذه المنجزات توفي في عاصمته (مراكش)^(٥)، بعد أن بايع ابنه علي الذي كان أقل كفاءة ومرونة من سلفه، وأكثر تأثراً بمواقف الفقهاء وانصياعاً لأرائهم^(٦). على أنه لم يختلف عنه حماسة للجهاد، حيث كان أخوه (نسيم) يتولى قتال الاسبان والإغارة على معاقلهم، مستفيداً من الوضع التراجعي لهؤلاء في تلك الحقبة، نتيجة صراعاتهم على الحكم، منتصراً عليهم في معركة اقلش الشهيرة

(١) الخلل المرشبة ص ٦٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥.

(٣) دول الطوائف ص ٣٧١.

(٤) حركات، تاريخ المغرب ص ١٦٥.

(٥) توفي سنة خمسماية للهجرة.

(٦) حركات ص ١٦٦.

(٥٠١هـ) ^(١) على أن أبرز قلعة المرابطين الذين قاموا بأعمال جهادية هامة، هو القائد سيربن أبي بكر في غزواته المظفرة في غربي الأندلس. ولكن الأسبان لم يدخروا جهداً في توحيد موقفهم واستئناف غزواتهم ضد المدن الإسلامية، متخذين من سرقسطة هدفاً محورياً، ما لبث أن تحقق بسقوط عاصمة الثغر الأعلى بعد دفاع مستميت من أهلها، دون أن تكون مجدية حملات المرابطين - على أهميتها - لاستعادة المدينة، التي هز سقوطها نفوذهم في الأندلس (٥١٢هـ). والواقع أن العد العكسي للمرابطين على الأقل - قد بدأ مع سقوط هذه المدينة، التي لم يتوقف عندها الأسبان، بل سقطت في أيديهم عدة مواقع هامة في شرقي البلاد وجنوبها.

وهكذا شغلت أحداث الأندلس وقت علي بن يوسف، دون أن يتمكن من ضرب الخطر الأسباني أو تحجيمه، كما حدث في أعقاب معركة الزلاقة. فلم تعد الظروف مواتية لانتصار مرابطي ماثل، بعد أن ثقلت المشاكل على عاتق السلطان، في وقت خبا فيه وهج الدعوة المرابطية وعزف الأندلسيون عنها أو خفت عندهم الحماسة، مما أوجد شرخاً في العلاقة مع قادتها في الأندلس. وإذا أضفنا إلى ذلك ما شهدته المغرب من حركة معارضة للمرابطين، بقيادة المهدي بن تومرت الذي حاول الاستيلاء على مراكش، لبات واضحاً أن دولة المرابطين احترقت مبكراً في أتون الأندلس، حيث بذلت فيه من الجهد ما جاء على حساب قاعدتها الأساسية في المغرب، الذي هبت عليه رياح دعوة جديدة بعد سنوات قليلة من وفاة علي بن يوسف، عندما دخل الموحدون مراكش (٥٤١ هـ) وورثوا الدور المرابطي في المغرب والأندلس.

الموحدون في الأندلس (٥٤١ - ٦٣٣ / ١١٤٧ - ١٢٣٥):

لقد شابهت الدعوة الموحدية سابقتها في عدة جوانب، ليس أقلها الجانب الديني الذي حرك الدعوتين اللتين قامتا في مرحلة تمزق الخلافة وتشرد المسلمين، وما رافق ذلك من الانهيار الأخلاقي، بحيث كان «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» أول عناوين هذه الدعوة الموحدية.

(١) حركات ص ١٦٦.

أما عناصر الاختلاف فكانت قبلية، عندما انطلقت الأخيرة من قبيلة متفرعة من مصمودة، ومذهبية حيث انتقد مؤسسها جهود الاجتهاد لدى الفقهاء المالكيين، وتنظيمية تتعلق بشخصية زعيمها (ابن تومرت) الذي كان «رجل سياسة ودين»^(١) في الوقت نفسه، خلافاً للدعوة المرابطية التي قادها اثنان: سياسي وديني كما سبقت الإشارة.

يتحدر زعيم الموحدين محمد بن تومرت من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة، من كبريات قبائل البربر في المغرب الأقصى، وإن زعم أن له نسباً عربياً شريفاً ينتهي إلى الحسن بن علي^(٢)، ومن ثم لُقّب نفسه بـ «المهدي»^(٣)، لإضفاء هالة على دعوته. أما نشأته فكانت في بيئة متدنية في السوس، دفعته إلى التجوال في عدد من المراكز العلمية مثل قرطبة والإسكندرية وبغداد، فضلاً عن أدائه فريضة الحج قبل عودته إلى بلاده^(٤). وقيل إنه أخذ يبشر بدعوته على متن السفينة ويلزم ركابها بإقامة الصلاة، حتى ضاق به الريان وألقى به في البحر، حيث أنقذه الركاب أو أنقذ نفسه بالوصول بعد لأي إلى «المهدية»، ثم انطلق منها إلى «بجاية» ومنها إلى «ملالة» المجاورة لها، ليلتقي مصادفة في الأخيرة عبد المؤمن بن علي الرناتي، وهو في طريقه إلى المشرق طلباً للعلم^(٥)، عندما أقنعه ابن تومرت بالعزوف عن ذلك. فاستجاب لرغبته وانضم إلى مسيرة أستاذه ولقي من التشريد والملاحقة والمعاناة ما لقيه الأخير، وهما يجولان المغرب ويشان الدعوة ضد المرابطين، ويستقطبان الاتباع والأنصار، لا سيما وأن كلاهما كانت له شخصية جذابة وقوية، وكان أول انتصار لهما على عامل السوس المرابطي^(٦)، ثم تابعا معاً في المغرب

(١) عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب ص ٦٦.

(٢) المعجب ص ١١٥، مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ.

(٣) عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب ص ٦٥.

(٤) المرجع نفسه ص ٥١.

(٥) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٤٩.

(٦) السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج ٢، ص ٧٧.

الأقصى، حيث القيادة العسكرية كانت لعبد المؤمن الذي أثبت جدارة أهله لخلافة مؤسس الدعوة بعد موته (٥٢٤هـ)^(١).

وبعد عشر سنوات كانت خطة عبد المؤمن قد نضجت للسيطرة على المغرب، حيث بدأت الفتح في جبال غمارة وانتهت في مكناس، التي صمدت نحو سبعة أعوام قبل السيطرة عليها سنة ٥٤٣هـ^(٢). وبعد ذلك توجه عبد المؤمن نحو المغرب الأوسط الذي تمت السيطرة عليه بعد أعوام قليلة، ومن ثم المغرب الأدنى بعد أن وصل مع قواته إلى تونس والمهديّة فضلاً عن طرابلس^(٣). ولعل ما يعنينا من هذا الانتشار السياسي والعسكري للحركة الموحدية، هو التوقف عند دورها في الأندلس، حيث كان من الطبيعي أن تتوجه إلى هذا الإقليم بعد أن سارت في حربها على المرابطين شوطاً لم يبلغه هؤلاء، فكيف بالأندلس التي كانت تعتبر امتداداً للمغرب الأقصى - معقل الحركة - ومتداخلة معه إلى حد كبير. والواقع أن وضع المرابطين كان قد ساء إلى حد كبير، بعد عجزهم عن المحافظة على وحدته السياسية وإيقاف التدهور الذي عاد أو كاد إلى ما يشبه مرحلة الطوائف، حيث كانت ثورة قرطبة (٥٣٩هـ) قد أجهزت على ما تبقى لهم من هيبة في الأندلس، بعد أن أدت التطورات حينذاك إلى دخول القشتاليين المدينة. ومن هنا، فإن الموحدين الذين تمسكوا - شأن أسلافهم - بنظرية الجهاد، لم يترددوا في الدخول إلى الأندلس والسيطرة عليها. فقد عبر عبد المؤمن إلى جبل طارق، وأشرف على عمليات عسكرية في الجهات الغربية، المهددة بقيام مملكة مستقلة فيها (البرتغال)، كما أعد في هذا السبيل، أسطولاً كبيراً وآلاف المجاهدين^(٤)، الذين انتشروا في الثغور المغربية تمهيداً لعبورهم إلى الأندلس. ولكن عبد المؤمن لم تتح له الفرصة لتنفيذ خطته، حيث وافته المنية في سلا وتولى بعده الأمر ابنه يوسف الملقب بأبي يعقوب (٥٥٨ - ٥٨٠هـ).

(١) ابن خلدون، المعبر ج ٦، ص ٣٢٧.

(٢) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٦١.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٦٣.

(٤) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٦٧.

وليس ثمة شك أن مهمة الموحدين في الأندلس، كانت أكثر دقة وصعوبة من أسلافهم، بعد أن ازدحمت بالتمردين الذين تداخلوا مع تحركات الاسبان، سواء في التآمر أم في التوقيت. فقد استفاد الفونسو السابع من حالة الاضطراب القائمة، واستولى على عدة ثغور هامة، كما هدد بطليوس، مما دعا الخليفة (وهو اللقب الذي اتخذته أمراء الموحدين) أبو يعقوب للعبور إلى الأندلس، بالقوة التي كان قد أعدها سلفه (٥٦٦هـ)، معلناً بدء الجهاد الحقيقي في هذه البلاد، فتمت له السيطرة على قرطبة وإشبيلية التي اتخذها الموحدون عاصمتهم، وذلك لأسباب عسكرية، بعد أن اشتد الضغط من جانب البرتغاليين على هذه الجهات.

ومن إشبيلية قام يوسف بغزوة إلى وبذة (وهي حصن بقرب أفليس)^(١)، فحاصرها وعاثت قواته في الأراضي القشتالية، ولكن دون أن ينجح في الاستيلاء على «باجة» التي استهدفها الخليفة. وفي الوقت الذي عاد إلى المغرب (٥٧١هـ)، كان الصراع لا يزال مستمراً بين الموحدين والأطراف الاسبانية، والغارات متبادلة بصورة خاصة مع البرتغاليين، الذين كانوا أشد ضغطاً وخطورة في تلك المرحلة^(٢). ونتيجة لذلك يعود الخليفة، بقوة كبيرة إلى الأندلس (٥٨٠هـ)، حيث كانت أولى منجزاته السيطرة على «شتتين»، قبل أن يرسل ابنه (أبو إسحق) للهجوم على أشبونة (البرتغال). ولكن البرتغاليين كانوا راصدين تحركاته، حين هاجم قائدهم سانشو معسكره، وأوقع الهزيمة بجيش الموحدين الذي ثبت على رأسه يوسف حتى سقوطه صريعاً في المعركة، في العام نفسه الذي دخل فيه إلى الأندلس^(٣).

وقد تولى الأمر بعده ابنه يعقوب الملقب بالمتصور (٥٨٠ - ٥٩٥هـ)، الذي كان معاصراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي، في وقت كانت المعركة الصليبية على

(١) الحميري، الروض المغطى ص ٦٠٧.

(٢) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٧١.

(٣) المكان نفسه.

أشدها في المشرق والمغرب. وكانت أولى أعماله في الأندلس، تلك الحملة الانتقامية التي قادها إلى شنترين وأشبونة، حيث انتشر جنودها في هذه المناطق وعاثوا فيها، وغنموا ما شاء لهم، دون أن يتصدى لهم أحد، في الوقت الذي نجح فيه قائده على قرطبة في السيطرة على شلب، بعد عام تقريباً من حملته (٥٨٦هـ). ويبدو أن اتفاقاً على الصلح قد عقده المنصور مع أعدائه، ثم نقضوه بعد خمس سنوات، مما دفعه إلى الدخول مرة ثانية إلى الأندلس (٥٩١هـ)، التي شهدت حينذاك مرحلة جديدة من الصراع المسيحي الإسلامي في اسبانية، بعد اتساع المشاركة الصليبية مع ملوك هذه الأخيرة، متوجاً أعماله الجهادية بانتصاره الباهر في معركة «الأرك» على الفونسو التاسع ملك قشتالة في العام نفسه^(١). وقد ماجت الأندلس بهذا الانتصار وراح الشعراء يمجدون في المنصور قيادته وشجاعته، ملتسمين فيه ما يمثّل انتصار الزلاّقة أو الكثير منه، إنطلاقاً من الصدى الواسع الذي تركته معركة «الأرك» على أهل الأندلس، المتعطشين لأخبار الانتصارات الكبيرة التي طال غيابها في ذلك الحين. على أن هذه المعركة لم تكن كسابقتها والظروف لم تكن ذاتها أيضاً، حيث صدى المعركة كان قوياً كذلك على الملوك الاسبان، فضلاً عن البابوية التي قامت بأوسع تعبئة للقوى المسيحية في أوروبا ضد مسلمي الأندلس، مرتفعة بذلك الوثيرة الصليبية إلى مداها البعيد. أما على جبهة الموحدين، فقد توفي المنصور بعد سنوات قليلة وهو يتابع جهاده في الأندلس (٥٩٥هـ) وتولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالناصر (٥٩٥-٦١٠هـ)، الذي كان عليه مواجهة تلك الأخطار الشديدة.

وكان الملوك الاسبان تحت ضغط البابوية قد تجاوزوا خلافاتهم التي نشبت في أعقاب معركة «الأرك»، حيث تركت الأخيرة أسى في نفس الملك القشتالي، دفعه إلى استنهاض خصومه والقيام بغزوة إلى جنوبي شرق الأندلس. ولم يلبث «الناصر» أن تصدى بدوره لهذا الموقف الخطير، وقاد جيشاً ضخماً لمواجهة الزحف القشتالي، بينما قام الاسبان الذين أمّتهم البابوية بعدد كبير من

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

المتطوعين، بالثأر لمعركة «الأرك» واسترجاع هذا الحصن. أما المسلمون بقيادة الناصر، فقد حاولوا التقدم نحو قشتالة، مروراً بحصن «سلبطرة»، دون أن يتمكنوا من السيطرة عليه، حيث أمضوا الشتاء بجواره خلافاً لرغبة الناصر الذي كان يريد متابعة زحفه شمالاً، لولا أن نصحه وزيره بذلك. وبعد سقوط الحصن صلحاً، توجه الناصر بقواته التي تسرب إليها الملل، فضلاً عن الانقسام بين الجنود المغاربة والأندلسيين، لمقابلة الزحف الاسباني المتماكب، حيث التقى الفريقان بالقرب من حصن «العقاب» (بين جيّان وقلعة رباح)^(١). وكانت الأخيرة قد سقطت لتوها في أيدي الاسبان - واشتبكا في معركة عنيفة (١٢١٢/٦٠٩)، انتهت بهزيمة قاسية للناصر وقواته^(٢).

والواقع أن هذه الهزيمة لم تكن عادية بالنسبة للمسلمين في الأندلس، حيث بات من الصعوبة كثيراً تجاوزها ومحاولة تعديل الموازين العسكرية لمصلحتهم مرة ثانية في هذه البلاد. فبعد أقل من ربع قرن فقط، أخذت المدن الأندلسية التي ارتبطت، تاريخياً وحضارة بالعرب المسلمين، تتساقط الواحدة تلو الأخرى، بدءاً بالعاصمة قرطبة (١٢٣٦م) وأشبيلية (١٢٤٤)، وبقيّة المدن الكبيرة والصغيرة، حتى كادت الأندلس بكامل أراضيها تنتهي إلى السقوط في ظل هذه الموجة الصارمة التي قادها بصورة خاصة ملكا ليون وقشتالة، اللذين توحدا في جبهة قوية ومتماسكة، كان من نتائجها ما حدث من منجزات هامة لدى الجانب الاسباني. ولكن ما جرى حينذاك، هو أن مقاطعة إسلامية في الجنوب الشرقي، بين جبال نيفادا وساحل البحر المتوسط، ظلت شاذة ومتحدية، برغم الحصار والأخطار المحدقة بها، تلك هي غرناطة التي قاومت السقوط نيفاً وقرنين من الزمن.

(١) الحميري، الروض المطار ص ٤١٦.

(٢) المكان نفسه.

”مملكة“ غرناطة

١٢٣٧/١٢٤ - ٨٩٨ - ١٤٩٢

لم تكن غرناطة مدينة شهيرة في العهد الأول من الحكم العربي الإسلامي في أسبانية، على غرار قرطبة وأشبيلية وسرقسطة وغيرها من المدن الكبيرة. وقد استمرت قاعدة ثانوية حتى سقوط الخلافة وقيام دويلات الطوائف، عندما شملتها رياح التمزق مع سيطرة بني زيري الصنهاجين عليها واتخاذها مقراً للملكهم في هذه المنطقة. ودام حكم هذه الأسرة البربرية نحو ستين عاماً، تقلد الأمر خلالها أربعة من الأمراء هم: المؤسس زاوي بن زيري وابن أخيه حبوس بن ماكس (المظفر) وباديس بن حبوس (الناصر) وعبد الله بن باديس (سيف الدولة)^(١). ثم خضعت، شأن بقية الأندلس لحكم المرابطين نحو ستين عاماً أخرى، قبل أن تخضع للموحدين (٥٥١ هـ) الذين احتفظوا بالسلطة فيها حتى معركة «العقاب» وقيام أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود بالثورة في هذه المنطقة (١٢١٧/٦١٦). وكانت حركة ابن هود ناجحة في بدايتها، حيث امتدت سيطرتها إلى عدد من المدن الهامة في جنوب وغربي الأندلس مثل أشبيلية وماردة وجيان وبطليوس، مستغلة على ما يبدو ارتباك الموحدين بعد هزيمتهم القاسية وتلكؤ الأسبان حيناً، قبل اجتياحهم المراكز الإسلامية الكبرى، مما أدى إلى زوال نفوذه بعد بضع سنوات، إثر تساقط

(١) عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين ص ٢٨، الصوفي، جمهورية بني جمهور ص ٤٣.

هذه المراكز ومن ثم قتله بعد ذلك في ظروف غامضة في المرية (٦٣٥هـ)^(١). وكان ثمة زعيم عربي قد ابرزته حينذاك الأحداث، هو محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي المعروف بابن الأحمر، استطاع ان يملأ غياب ابن هود في المنطقة لا سيما وأن بني نصر كانوا أصحاب أرجونة، القرية من جيان في جنوب الأندلس. فبعد مقتل ابن هود، قامت ثورة في غرناطة ضد الوالي (عتبة بن يحيى المغربي) الذي كان خصماً لابن الأحمر، انتهت بقتله وإعلان الأخير أميراً على المدينة.

وهكذا نشأت هذه «الدولة»، دون ان تكون لها جذور بعيدة في الأرض، ودون ان يكون للأسرة الحاكمة عمل بين الأسر التي مرت على السلطة في اليهود الماضية من تاريخ الأندلس. وقد انتشرت مساحة ما بين جيان وبياسة حتى البحر، وشرقاً حتى المرية وغرباً حتى مصب الوادي الكبير، وغمرتها في الوسط نهرا «شنيل والدارو»^(٢). وقد يفرض السؤال نفسه عن موقف الأسبان المتصربين من هذا الجيب النافر في دولتهم الموحدة، وعن الأسباب التي حدثت بهم الى التوقف عند تقوم هذه «الدولة» والسماح بقيامها أو استمرارها، في ظل الموجة الصليبية العاتية المسيطرة على اسبانية في ذلك الحين؟ فلعل ابن الأحمر تمتع بتأييد الأغلبية الإسلامية المتمركزة في الجنوب، حيث بدا لها الأمل الأخير في تلك الظروف المأساوية، مجسداً ذلك في اختياره الصعب، بأن يدافع عن امارته ضد الأسبان، الذين شنوا هجوماً في نواحي جيان، عندما قام بغزو إحدى القلاع التابعة لهم^(٣)، قبل ان يضطر الى رفع الحصار عنها بعد نجدهم لها، ولكن دون أن يتخذ ذلك ابن الأحمر من المواجهة مع اعدائه الذين حلت بهم الهزيمة وقتل عدد من قادتهم الكبار^(٤). وكان ذلك حافزاً للملك القشتالي فرناندو الثالث، بأن يتعاطى بصورة أكثر جدية مع هذا الجيب الإسلامي، حين اوفد ابنه الفونسو في حملة عسكرية الى جيان، تمكنت من اخضاع عدة حصون تابعة لغرناطة في

(١) ابن خلدون، ج ٤، ص ٢٦٩.

(٢) يوسف فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر ص ٢٥.

(٣) قلعة مرتش، الى الجنوب الغربي من جيان. نهاية الأندلس ص ٤٢.

(٤) عنان، نهاية الأندلس ص ٤٢.

هذه المنطقة، فضلاً عن حصارها لهذه الأخيرة ، التي دافعت عن نفسها وردت الحملة عن أسوارها ومعها خسائرها الكثيرة^(١) .

والواقع ان هذه المواجهة كان لها تأثيرها على الطرفين ، حيث ادرك ابن الأحمر صعوبة المضي فيها، كما رأى فرناندو خطورة استنزاف قواته في هذه المنطقة البعيدة، التي قامت في فترة نهوض جديدة في المشرق، قادها الماليك انطلاقاً من مصر، مسهمين في تعديل موازين العلاقات مع القوى الأوروبية لمصلحة المسلمين ، دون ان يكون المدى السياسي لهؤلاء محصوراً في بلاد الشام ، بعد ان دحروا فيها الجيوب الأخيرة للحركة الصليبية، ولكنهم وجدوا انفسهم معنيين بهذه الامارة الصغيرة (غرناطة) وتقديم العون لها، من خلال خطوط الامدادات التي بقيت مفتوحة على العالم الإسلامي في الجنوب ، دون ان ننسى المرينيين الذين قاموا على أنقاض الدولة الموحدية في المغرب، وما قدموه من مساعدة عسكرية لهذه الدولة الفتية . ومن هذا المنظور يُعقد اتفاق مهادنة بين ابن الأحمر والملك القشتالي، نصّ على تحديد الإطار الجغرافي والسياسي لدولة الأول، على أن يؤدي له ضريبة سنوية وبعض الحصون والقلاع^(٢) . ولا نستطيع في هذا السياق اغفال تجاهل ابن الأحمر للنشاط العسكري الإسباني ، الذي استهدف حينذاك المدن الكبرى، لاسيما اشبيلية التي سقطت بعد سنوات قليلة جداً من هذا الاتفاق، ومن ثم تبعتها مدن ومواقع أخرى، دون ان يجد ابن الأحمر ما يحمله على تغيير موقفه المرسوم في الاتفاق المشار اليه .

وهكذا يؤثر ابن الأحمر الهدوء في «ملكته»، متعاضداً ما أمكنه مع اعدائه الاسبان، واضعاً كل جهوده في تنظيم شؤونها وتعميرها، حيث نسب له بناء القصر الشهير (الحمراء)^(٣) ، الذي يعتبر إحدى مفاخر الحضارة العربية الإسلامية في

(١) عنان، نهاية الأندلس ص ٤٢ .

(٢) الذخيرة السنية، ص ٧٢ .

(٣) فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر ص ٣٢ .

الأندلس. وبعد حياة طويلة نافذ على الثمانين توفي ابن الأحمر، بعد أن أوصى بالحكم لابنته محمد الثاني المعروف بالفقيه^(١) (٦٧٢ - ٧٠١ هـ) الذي سار على خطى أبيه في سياسته الأسبانية المهادنة. ولكن ثمة ما عكس العلاقة مع الملك القشتالي، عندما ثار أصهار بني الأحمر^(٢) على الملك الجديد ورفض الأخير مساعدته إلا بعد تنازلات «حدودية» جعلته يتصل ببني مريين الزناتيين الذين خيسوا آماله في المساعدة، بعد أن أثروا عليه أصهاره، مما جعله ينكفئ على نفسه في غرناطة، في الوقت الذي تحمس فيه السلطان المريني للجهاد، وانتصر على الأسبان بالقرب من استجة^(٣) (٦٧٤ هـ)، حيث شجعه ذلك على المضي نحو أشبيلية في العام نفسه، قبل أن يعود إلى المغرب محملاً بأثقال الغنائم^(٤). والواقع أن الموقف المريني في الأندلس، خلف حرجاً لدى ملك غرناطة، الذي خشي انعكاس هذه الحوادث على وضعه السياسي، فبادر إلى تحسين علاقته بالملك القشتالي، محرصاً الأخير على خصمه المريني والحزول دون عودته إلى الأندلس، بينما عاد هذا الموقف بالفائدة على ابن الأحمر الذي استعاد مالة، بعد استدراج صاحبها إلى التنازل عنها^(٥) لقاء بعض الثغور البحرية جنوبي غرناطة^(٦).

على أن التطورات تتخذ منحى آخر، عندما عاود السلطان المريني (المنصور) عبوره إلى الأندلس مجدداً مهدد لإشبيلية (٦٨٤ هـ) ومستغلاً الصراع الداخلي في قشتالة. ذلك أن ابن الأحمر خرج عن مألوف موقفه المهادن للأسبان، إلى التحالف مع المنصور ومساعدته في هذه الحرب التي أفلقت الملك القشتالي ودفعته إلى طلب الصلح من السلطان، واستجابته لشروط الأخير

(١) ابن خلدون، ج ٤، ص ١٧٢.

(٢) بنو أشبيلية.

(٣) اللخيرة السنية، ص ١٧٠ - ١٧٢.

(٤) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٠١.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٠٢.

(٦) المكان نفسه.

بالمحافظة على المسلمين في الأندلس ورفع الضرائب عنهم وعدم الوقعة بينهم^(١). والواقع أن سياسة المرينيين في الأندلس، كان لها تأثيرها الإيجابي على غرناطة وعلى المسلمين بشكل عام، الذين شعروا بانحسار وطأة القشتاليين عن كاهلهم لأول مرة منذ وقعة «العقاب». لذلك يعتبر هذا العهد أحد المراحل الهامة في تكوين الإمارة الغرناطية، سواء في اتخاذ دورها على الصعيد السياسي أو بروزها على الصعيد العلمي والثقافي، حيث كان «ملكها» الفقيه، متضلعا في العلوم القرآنية راعياً لنهضتها الفكرية التي غدت من سماتها اللافتة في ذلك الحين.

وبعد هذا العهد التأسيسي الذي مثله محمد الأول وابنه محمد الثاني، تعاقب على غرناطة عدد كبير من «الملوك» المتحدرين من الأسرة النصرية نفسها خلال نحو قرنين من الزمن^(٢) بعد وفاة الأخير. وسنحاول هنا التوقف عند المحطات الهامة من تاريخ هذه «الدولة» لا سيما المتصلة بالتحديات الإسبانية، حيث كانت تخرج هذه الأخيرة ظافرة أحيانا، برغم اختلال الموازين بالمقارنة مع أعدائها الأقوياء. كما حدث على سبيل المثال في عهد «نصر بن محمد»، عندما هزم فرناندو الرابع القشتالي، بعد مؤازرة المرينيين له. وكذلك في عهد «محمد بن إسماعيل»^(٣) الذي هزم بمساعدة هؤلاء أيضاً الفونسو الحادي عشر (القشتالي)^(٤)، وخليفته (يوسف الأول) الذي وصفه ابن الخطيب بأنه «بدر الملوك وزين الأمراء»^(٥)، حيث دارت حروب عنيفة في عهده مع الإسبان وقتل ابنه في إحدى المعارك^(٦). وقد استمرت هذه العلاقة المميزة مع بني مرين في أيام الملك محمد الخامس الذي استوزر المؤرخ والشاعر الكبير لسان الدين بن الخطيب، بحيث كان لها دورها في التوازن العسكري القائم بشكل ما في ذلك الوقت،

(١) عنان، نهاية الأندلس ص ١٠٦.

(٢) راجع: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٢٣ - ٦٨.

(٣) ابن خلدون، ج ٧، ص ٢٤٠.

(٤) ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص ٩٣ - ٩٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

دون أن تغفل في هذا المجال الصراعات التي قامت بين قشتالة وأراغون بصورة خاصة^(١). ولم تلبث غرناطة أن شهدت هذا النوع من الصراع على السلطة، وذلك لأول مرة منذ تأسيس الدولة النصرية، عندما أرغم محمد الخامس على التخلي عن منصبه والخروج من «الحمر»^(٢)، بينما أودع وزيره ابن الخطيب السجن^(٣). ولكن هذا الغياب لم يطل كثيراً، حيث فشل المتغلب على السلطة في غرناطة الاحتفاظ بها، بسبب سوء سياسته، مهدداً بذلك الطريق لعودة محمد الخامس إلى عرشه المفقود بعد أقل من سنة على غيابه^(٤).

وقد وجد المؤرخون في هذا «الملك» شخصية مميزة، أضفى عليها جاذبية مساعده ابن الخطيب الذي عاد بدوره إلى الوزارة، وكذلك المؤرخ الشهير ابن خلدون سفير غرناطة إلى الملك القشتالي^(٥)، حيث كانت أواصر الصداقة قد توثقت بين المؤرخ وابن الخطيب خلال لجوء الأخير إلى المغرب. ومن ناحية ثانية، فإن اتصالاً جرى حينذاك مع السلطان المملوكي في مصر، لاكتساب مودته وضمان مساعده لمواجهة ما تحفظه القوى المسيحية المتربصة بغرناطة وما تعدّه للقضاء عليها^(٦). وكان نجم البلاط النصري بدون ريب، هو الوزير ابن الخطيب الذي حاز على النفوذ الواسع وحظي بالثقة العالية، ومعه أقرب معاونيه، الشاعر أبو عبد الله بن زمرك. وهنا تكمن مأساة كبار الساسة والقادة، الذين يبلغون هذه المراتب من السلطان، حيث يكون ذلك على حساب المسزول الأول الذي يكتشف ضعف نفوذه أمام أعوانه ومساعديه، سواء مباشرة أم عبر الآخرين من الحساد، التواقين إلى اتخاذ مواقعهم في السلطة. ويبدو أن ابن الخطيب شعر بهذا الجو العدائتي يحيط به، فقرر مغادرة غرناطة إلى المغرب واللجوء إلى بلاد السلطان المريني (٧٧٣ هـ)، تاركاً الوزارة لمساعده المقرَّب ابن زمرك الذي كان

(١) فرحات، غرناطة ص ٤٥.

(٢) المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ٨٤-٨٥.

(٣) أعمال الاعلام، ص ٣٠٩.

(٤) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤٢.

(٥) نفح الطيب، ج ١، ص ٣٢١.

في طليعة المتآمرين عليه . ولكن أشهر وزراء بني الأحمر وشاعر غرناطة وعالمها ومؤرخها الكبير ابن الخطيب، الذي تفادى الوقوع في الشرك المتربص به في الأندلس، لم يستطع النجاة منه في المغرب . فقد توفي صديقه السلطان بعد سنوات ثلاث من التجائه إلى بلاطه، تاركاً الدولة المرينية تتخبط اضطراباً في عهد ابنه الطفل، مما سهّل قيام انقلاب عليه أوصل أحمد بن سالم إلى العرش، بدعم من الملك الغرناطي الذي يمت بصداقة إلى هذا الأخير . وكان ذلك إيذاناً باقتراب نهاية ابن الخطيب، بعد أن تكاثرت أعداؤه في بلاطيه الدولتين، حيث أُلقي القبض عليه بتهمة الزندقة وقتل بُعِثَ ذلك (٧٧٦ هـ) ^(١) .

ولعل هذا العهد كان الأبرز في تاريخ الدولة النصرية، مستمداً بريقه من ملك قوي الشخصية ووزير موهوب، قل أن عرفت هذه الدولة مثيلاً لها عبر عهودها المتعاقبة، لا سيما الثاني الذي ترك فراغاً كبيراً في غرناطة، لم يستطع مساعده القديم أن يملأ القليل منه . فقد حقق ابن زمرك آماله في الوزارة (الحجابه)، بعد رحيل ابن الخطيب من غرناطة، ثم انقطع عنها في عهد يوسف بن محمد القصير، وعاد إليها في عهد محمد بن يوسف، ولكن لشهور قليلة عندما ضاق به الأخير وأوقع به ما وقع لسلفه ابن الخطيب، حين هاجمه رجاله في داره وقتلوه ^(٢) (٧٩٧ هـ) .

وستعرف الحقبة التالية، نفوذاً أقوى للوزراء، على حساب ضعاف الملوك الذين مثلوا هذه الحقبة، تاركين لبني سراج - المتحدرين من أسرة عربية عريقة في الأندلس ^(٣) - سياسة الدولة العامة والخاصة . وقد وزر أحد أبناء هذه الأسرة (يوسف) للملك محمد بن يوسف المعروف بالأيسر، الذي سادت النقمة في عهده واضطربت أحوال الدولة واستهدفتها غزوات الاسبان، مما سوّغ الثورة

(١) ابن خلدون، ج ٧، ص ٣٣٦ .

(٢) نفع الطيب، ج ٤، ص ٢٩٠ .

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٨ .

عليه والإتيان بابن أخيه^(١) المعروف بـ «الزغير» أو أبي عبد الله الصغير^(٢). ولم يستطع الملك الجديد، على ما تميز به من فروسية وثقافة، أن ينقذ دولته من الفوضى، لا سيما وأن بني سراج الذين كان لهم نفوذهم القوي فيها، كانوا من خصومه الألداء. ولم يلبث هؤلاء أن خرجوا من المدينة خوفاً من انتقام «الصغير»، واتصل زعيمهم بملك قشتالة طالباً حمايته، كما اتصل بالملك السابق (اليسر)، ودعاه إلى التحرك لاستعادة عرشه، حيث تم له ذلك وعاد إلى عاصمته في كنف بني سراج ودعم الملك القشتالي، الذي سرعان ما طلب تسديد ثمن العودة، وفوقه ضريبة سنوية باهظة، بحيث أدى ذلك إلى تآزم العلاقة بين الطرفين وقيام القشتاليين بغزو عدد من المواقع الإسلامية. وفي تلك الأثناء تضررب الأوضاع الداخلية في غرناطة، وتحاك مؤامرة أخرى للإطاحة باليسر ومبايعة أحد الأمراء النصريين، مستغلاً أصحابها سوء العلاقة بين الأول وملك قشتالة. وقد تصدى ابن سراج للمتآمريين على «ملكه» الذي تراجع إلى قصره وأخذ أمواله وكنوزه قبل أن يغادره إلى مالقة، بينما قتل الوزير بعد ارفضاض أكثرية المناصرين عنه^(٣). ومن المثير أن لا يبقى هذا الملك سوى ستة أشهر، ويعود الأيسر مرة ثالثة إلى الحكم دون أن يتدخل عن بني سراج، حيث تولى عبد البر بن يوسف الوزارة، مثباً كفاءته في السلم كما في الحرب، التي شهدته فارساً مقدماً، قبل أن يسقط في إحدى المعارك مع الأسبان^(٤).

بعد ذلك يأخذ نجم الدولة النصرية بالأفول، مع ارتفاع حدة التناقضات في الداخل وتصاعد الخطر من الخارج، بعد نجاح الأسبان في قطع أحد الخطوط الأسبانية مع المغرب، عندما وصلت قواتهم إلى جبل طارق^(٥).

ولعل بداية النهاية الحقيقية أخذت تتضح في السنوات الثلاثين الأخيرة من

(١) محمد بن محمد بن يوسف.

(٢) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٥.

(٣) المرجع نفسه ص ١٦٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٥) فرحات، غرناطة، ص ٥٦.

تاريخ هذه الدولة، متزامناً ذلك مع ولاية أبي الحسن علي (الغالب بالله) (١)، الذي اقترن اسمه بإحدى شهيرات المرحلة عائشة (٢) «الحرّة»، صاحبة الموقف الشهير في لحظة وداع العرب المسلمين للمكهم في الأندلس. وقد اتصف أبو الحسن بالشجاعة والحزم والنزعة إلى الجهاد، ولكن متاعبه الداخلية صرفته عن القيام بدوره الصعب، حيث تمرد عليه أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل الذي تلقى الدعم من الملك القشتالي، في الوقت الذي ثارت فيه مملكة، دون أن يفلح أبو الحسن في إخماد ثورتها، التي انتهت لمصلحة الزغل، بعد أن اتصل به المتمرّدون وبإيعامه ملكاً عليهم، مؤدياً ذلك إلى سابقة خطيرة وهي انقسام الدولة بين الأخوين المتنافسين (٣). ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الواقع الجديد إلى مزيد من التبعية للأسبان، حيث كلاهما كان بحاجة لدعمهم من أجل القضاء على الآخر، في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يمعنون في ابتزاز الطرفين والحصول على مكاسب جديدة، سواء تمثلت بالأرض أو بالمال. وما لبث الوضع الجديد أن تحول إلى أمر واقع ونسي أبو الحسن ما حلّ بدولته، لينصرف إلى الدعة والحياة المهادنة، حيث كان لزوجته الأسبانية الجديدة، تأثير كبير في هذه الرغبة عن مواجهة الأمور الجسام. فقد أنجبت من أبي الحسن ولدين، كانت تعمل على أن يكون الملك من نصيب أحدهما، دون ابني عائشة (زوجته الأولى)، التي وصل الأمر عليها من جانب منافستها الأسبانية وأعوانها في القصر، إلى حدّ «اعتقالها» في برج قمارش، قبل أن تتمكن من الخروج مع ولديها والاختفاء بعض الوقت (٤).

ويبدو أن خصوم أبي الحسن في الداخل، انتهزوا غيابه عن غرناطة لصد هجوم قشتالي على إحدى القلاع القريبة من الأخيرة، مخترقاً اتفاق الهدنة بين الطرفين، مما سهل عليهم ليس تأمين خروج عائشة من «معتقلها»، ولكن التمرد

(١) نفع الطيب، ج ٢، ص ٦٠٧.

(٢) ابنة أبي عبد الله الأيسر.

(٣) نهاية الأندلس، ص ١٩٢.

(٤) نفع الطيب، ج ٤، ص ٣١٢-٣١٤.

على الملك والبيعة لابنه (من زوجته الأولى) أبي عبد الله محمد. وفي الوقت الذي انصرف فيه الأخير إلى تثبيت سلطانه في المدينة، معتمداً على عدد من المؤيدين، لا سيما بني سراج الذين وقفوا إلى جانب والدته (عائشة)، التحق أبوه بمالقة حيث أخوه الزغل كان يستعد لصد هجوم قشتالي عليها^(١)، نجح بعد ذلك في صده وسط هالة من التأييد والإعجاب. وبدوا أن معركة الزغل مع القشتاليين أثارت حماسة أبي عبد الله لتحقيق انتصار عسكري يوظفه في تثبيت سلطته في المدينة، فقام بهجوم نحو قرطبة، حقق خلاله انتصارات محدودة، قبل أن يحاصر قلعة «لوسينا»، حيث نشبت معركة عنيفة، انتهت بهزيمة الغرناطيين ومقتل قائدهم ووقوع ملكهم في الأسر (ربيع الأول ٨٨٨ / نيسان ١٤٨٣)^(٢).

وكان من الممكن أن يؤدي هذا الأمر إلى نتائج خطيرة في غرناطة، لو لم تكن والدته (عائشة) على عاداتها قوية متماسكة وسريعة التحرك، تفادياً للفضي والتعرد. فبادرت إلى دعوة زوجها الملك المخلوع أبي الحسن لاستلام السلطة، ولكن الأخير الذي تقدمت به السن وأنهكت الأحداث، لم يستطع النهوض طويلاً بأعباء الحكم، حيث تنازل عنه لأخيه الزغل (٨٩٠/١٤٨٥). بيد أن «الملك» الجديد، على ما عُرف عنه من شجاعة وفروسية، لم يثبت جدارة في السلطة، التي كانت تحتاج إلى رجل فذ، تجتمع فيه السياسة إلى جانب الإقدام، وهو ما لم يتوفر في أي من ملوك السنوات الأخيرة من هذه الدولة. فما كاد الزغل يتولى مهام منصبه، حتى اندلعت ثورة ضده في أحد أحياء المدينة (البيازين)، كانت مقدمة حرب أهلية ضارية بين الزغل من جهة وبين أبي عبد الله الذي افتدته والدته بمبلغ كبير من المال، دفعته للملك القشتالي مقابل إطلاقه من الأسر^(٣). وقد انتهت هذه الحرب بانتصار أبي عبد الله الذي عاد إلى عاصمته

(١) نهاية الأندلس، ص ٢٠٢.

(٢) نفح الطيب، ج ٤، ص ٥١٥.

(٣) نهاية الأندلس، ص ٢٠٤، ٢١٣.

(١٤٨٧/٨٨٢)، بينما خرج منها الزغل إلى عاصمته السابقة (مالقة) التي كانت تواجه حينذاك خطر السقوط أمام القشتاليين الذين انتهزوا الصراع الداخلي في غرناطة وأخضعوا أحد أهم حصونها^(١) في ذلك الوقت.

كان ذلك هو الفصل الأخير من تاريخ دولة صغيرة عاشت في هذا الخضم من التحديات، التي تجاوزت كثيراً طاقتها المحدودة ورقعتها الضيقة من الأرض. فقد عادت الدولة مرة ثانية دولتين، إحداهما في غرناطة والثانية في مالقة، كما اشتد ضغط الاسبان الذين ما انفكوا يقطعون موقعاً إثر موقع، حتى بلغوا مالقة وحاصروها من البر والبحر (جمادي الثانية ٨٩٢هـ)، حيث دافعت عن نفسها بضراوة، بقيادة أميرها الزغل، وصمدت ثلاثة أشهر أمام الضغط الاسباني، لم يذخر خلالها الزغل وسيلة من أجل إنقاذها، ولكن محاولاته أخفقت ولم تنفع السفارات التي أوفدها إلى الملوك المسلمين في مصر والقسطنطينية (كانت قد سقطت في يد الأتراك العثمانيين) في إنقاذ المدينة، التي تجاهلها أيضاً ملك غرناطة المتكفيء على نفسه، مما أرغمها على الاستسلام أخيراً تحت وطأة القتل والمرض والجوع (١٤٨٧/٨٩٢)^(٢).

لقد كان من الصعب جداً احتواء ما حلّ بهذه المدينة التي شكلت الجناح الثاني لهذه الدولة بعد غرناطة، فضلاً عن موقعها الحيوي كثغر بحري هام بالنسبة للأخيرة، مما يعني تضيق دائرة الحصار حتى الاختناق حول العاصمة التي افتقدت معظم حصونها ومدنها خلال السنوات الأربع التالية لسقوط مالقة. وفي تلك الأثناء كان الزغل قد التجأ إلى وادي آش، ومكث وقتاً ساوياً خلاله الاسبان على التنازل عن كل المواقع التابعة له، مقابل مبلغ من المال والخروج من الأندلس^(٣)، بعد أن أدرك عبث البقاء في هذه الأخيرة، تاركاً ابن أخيه لمصيره القريب. وبالفعل فقد سارع ملكا قشتالة واراغون (فرديناندو وإيزابيلا) إلى

(١) حصن بلش. نهاية الأندلس، ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) عنان، نهاية الأندلس، ص ٢١٧. فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٦٢.

(٣) نفح الطيب، ج ٤، ص ٥٢٣ وما بعدها.

اعلان الحصار حول غرناطة (ربيع ١٨٩٧/١٤٩١)، التي غصت حينذاك بالمقاتلين، من أهلها ومن التحق بها من المغرب، والطلب الى ملكها تسليم المدينة^(١)، حيث ابو عبد الله لم يكن لديه سوى خيار المقاومة والدفاع عن عاصمته حتى الموت. وعلى الرغم من شدة الحصار الذي دام سبعة شهور، فقد قاتل الغرناطيون وعلى رأسهم ملكهم بضراوة، واستبسل قادتها الشجعان الذين اخترقوا مرات خطوط الحصار إلى الأسبان. على أن ذلك لم يغير من واقع الحال وانعدام التكافؤ عدداً وعدة بين الطرفين، مما دفع زعماء المدينة إلى اتخاذ قرار بتسليمها، رفض الالتزام به قائدها العسكري الأبرز موسى بن غسان^(٢) الذي يبدو أنه قاتل حتى الرمح الأخير.

وكان الوزير ابو القاسم عبد الملك، ممثل الغرناطيين في المفاوضات التي دامت بضعة أسابيع وانتهت الى معاهدة للتسليم تناولت بنودها الاساسية : وقف الحرب سبعين يوماً يجري بعدها تسليم غرناطة، وإطلاق الأسرى وتأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم واحتفاظهم بشريعتهم وقضائهم ومساجدهم، وأن لا يؤخذ منهم ضرائب تتجاوز ما كانوا يدفعونه للموكلهم، وان يترك للتجار حق الدخول الى سائر النواحي وأن لا يدفعوا من الضرائب فوق ما يدفعه التجار النصاري، كذلك ان يجتاز من يشاء الى المغرب من المسلمين، إلى آخر ما حوته هذه الوثيقة الشاملة من بنود تناولت كافة شؤون المسلمين وعلاقاتهم وحياتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية^(٣)، كما نصت الوثيقة على خروج الملك من الحمراء، على أن يقيم حيث يشاء في ضياعه وممتلكاته، مؤثراً البشرات المظلة على غرناطة وقصرها المنيف. ولم يلبث الاتفاق ان دخل حيز التنفيذ قبل اوانه بكثير، عندما أمر ابو عبد الله بفتح ابواب المدينة في مطلع العام (٢ كانون الثاني ١٤٩٢)، مهدداً الدخول لحاكمها الاسباني الجديد

(١) نهاية الأندلس، ص ٢٣٢.

(٢) فرحات، غرناطة، ص ٦٤.

(٣) نهاية الأندلس، ص ٢٤٥، وما بعدها.

«الكوفت تنديلا»، الذي تسلم مفاتيح المدينة، حيث سار في أعقابه الملكين
الظافرين، وارتفعت أعلامهما والصلبان على أبراج الحمراء، بينما غادر أبو
عبد الله مع أسرته وحاشيته إلى حيث اختار المقام في البشرات، حتى إذا بلغ تلة
مشرفة على قصره السابق، تلفت إلى الوراء وقد اعتصر قلبه الأسى قبل أن
يجهش بالبكاء. ولم تكن والدته عائشة التي قدّر لها مواكبة تلك الأحداث
الصعاب في غرناطة، أقل حزناً وحسرة منه، حين التفتت إليه بانكسار، لتقول
له عبارتها الشهيرة: «أبك مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

ملاحق

- ١ - الولاة الأمويون في الأندلس .
- ٢ - الأمراء والخلفاء الأمويون .
- ٣ - أمراء الطوائف .
- ٤ - أمراء غرناطة .
- ٥ - الخرائط .
- ٦ - المصادر والمراجع .
- ٧ - فهرست الأعلام .
- ٨ - فهرست القبائل .
- ٩ - فهرست الأماكن .
- ١٠ - محتويات الكتاب .

١ - الولاة الأمويون في الأندلس

- ١ - عبد العزيز بن موسى بن نصير ٩٥هـ / ٧١٤م
 - ٢ - أيوب بن حبيب اللخمي ٩٧هـ / ٧١٦م
 - ٣ - الحر بن عبد الرحمن الثقفي ٩٨هـ / ٧١٧م
 - ٤ - السمع بن مالك الخولاني ١٠٠هـ / ٧١٩م
 - ٥ - عنبة بن سُحيم الكلبي ١٠٣هـ / ٧٢٢م
 - ٦ - عذرة بن عبد الله الفهري .
 - ٧ - يحيى بن سلمة الكلبي
 - ٨ - حذيفة بن الأحوص القيسي ١٠٧هـ / ٧٢٦م - ١١٣هـ / ٧٣١م
 - ٩ - عثمان بن أبي نعمة الخثعمي
 - ١٠ - الهيثم بن عبيد الكتاني
 - ١١ - محمد بن عبد الله الأشجعي
 - ١٢ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ١١٣هـ / ٧٣١م
 - ١٣ - عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الأولى) ١١٤هـ / ٧٣٢م
 - ١٤ - عقبة بن الحجاج السلولي ١١٦هـ / ٧٣٤م
 - ١٥ - عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الثانية) ١٢١هـ / ٧٣٩م
 - ١٦ - بلج بن بشر القشيري ١٢٤هـ / ٧٤٢م
 - ١٧ - ثعلبة بن سلامة العاملي ١٢٥هـ / ٧٤٣م
 - ١٨ - أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ١٢٥هـ / ٧٤٣م
 - ١٩ - ثوابه بن سلامة الجذامي ١٢٨هـ / ٧٤٥م
 - ٢٠ - يوسف بن عبد الرحمن الفهري ١٢٩هـ - ٧٤٧م
- الصميل بن حاتم الكلابي

٣- أمراء الطوائف

١- بنو جهور - قرطبة

أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ٤٢٢ - ٤٣٥ هـ

أبو الوليد محمد بن جهور ٤٣٥ - ٤٥٦

عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٥٦ - ٤٦٢

٢- بنو عباد - اشبيلية

أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد (القاضي) ٤١٤ - ٤٣٣

أبو عمرو عباد بن محمد (المعتضد) ٤٣٣ - ٤٦١

أبو القاسم محمد بن عباد (المعتد) ٤٦١ - ٤٨٤

٣- بنو نجيب - سرقسطة

المنذر بن يحيى ٤٠٨ - ٤١٤

يحيى بن المنذر (المظفر) ٤١٤ - ٤٢٠

المنذر بن يحيى (معز الدولة) ٤٢٠ - ٤٣١

٤- بنو هود - سرقسطة

سليمان بن محمد بن هود (المستعين) ٤٣١ - ٤٣٨

أحمد بن سليمان (المقتدر) ٤٣٨ - ٤٧٤

يوسف بن أحمد (المؤمن) ٤٧٤ - ٤٨٧

أحمد بن يوسف (المستعين) ٤٧٨ - ٥٠٤

عبد الملك بن أحمد (عماد الدولة) ٥٠٤

٥- بنو زيري الصنهاجيين - غرناطة ومالقة

زاوي بن زيري ٤٠٣ - ٤١٠

حبوس بن ماكسن (المظفر) ٤١٠ - ٤٣٠

باديس بن حبوس (الناصر) ٤٣٠ - ٤٦٦

٦ - بنو حمود - مالقة

ادريس بن علي بن حمود (المتأيد بالله) ٤٢٧ - ٤٣١

يحيى بن ادريس (القائم) ٤٣١ - ٤٣١

الحسن بن يحيى (المستنصر) ٤٣١ - ٤٣٤

ادريس بن يحيى الثاني (العالي) ٤٣٤ - ٤٣٨

محمد بن ادريس (المهلي) ٤٣٨ - ٤٤٤

ادريس بن يحيى الثالث ٤٤٤

ادريس الثاني (مرة ثانية) ٤٤٤ - ٤٤٦

محمد بن ادريس (المستعلي) ٤٤٦ - ٤٤٩

٧ - بنو ذي النون - طليطلة

يعيش بن محمد بن يعيش ٤٠٠ - ٤٢٨

اسماعيل بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون ٤٢٨ - ٤٣٥

يحيى بن اسماعيل (المأمون) ٤٣٥ - ٤٦٨

يحيى بن هشام بن يحيى (القادر) ٤٦٨ - ٤٧٨

٨ - بنو الأقطس - بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة (المنصور) ٤١٣ - ٤٣٧

محمد بن عبد الله (المظفر) ٤٣٧ - ٤٥٦

يحيى بن محمد (المنصور) ٤٥٦ - ٤٦٠

عمر بن محمد (المتوكل) ٤٦٠ - ٤٨٧

٩ - بنو عامر - بنو صمادح - المرية

معن بن محمد صمادح ٤٣٣ - ٤٤٣

محمد بن معن (المتنصم) ٤٤٣ - ٤٨٤

أحمد بن محمد (معز الدولة) ٤٨٤

١٠ - بنو عامر - بنو طاهر - مرصية

خيران (صاحب المرية) ٤٠٣ - ٤١٩

زهير (صاحب المرية) ٤١٩ - ٤٢٩

أبو بكر بن طاهر ٤٢٩ - ٤٥٥

أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ - ٤٧١

١١ - بنو محصب - لبله

ابو العباس أحمد بن يحيى ٤١٤ - ٤٣٤

محمد بن يحيى (عز الدولة) ٤٣٤ - ٤٤٣

فتح بن خلف (ناصر الدولة) ٤٤٣ - ٤٤٥

١٢ - دولة بني مُزَيْن - باجة وشلب

الحاجب بن محمد ٤٣٢

محمد بن عيسى (عميد الدولة) ٤٣٢ - ٤٤٠

عيسى بن مُزَيْن (المظفر) ٤٤٠ - ٤٤٥

محمد بن عيسى (الناصر) ٤٤٥ - ٤٥٠

عيسى بن محمد (المظفر) ٤٥٠ - ٤٥٥

١٣ - بنو هارون - شتمرية

سعيد بن هارون ٤١٧ - ٤٣٣

محمد بن سعيد (المعتصم) ٤٣٣ - ٤٤٣

١٤ - بنو برزال - قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال ٤٠٤ - ٤٣٤

عزيز بن محمد (المستظهر) ٤٣٤ - ٤٥٩

١٥ - بنو دُمر - مورور

نوح بن أبي تزيدي الدمري ٤٠٣ - ٤٣٣

محمد بن نوح (عز الدولة) ٤٣٣ - ٤٤٥

مناد بن محمد (عماد الدولة) ٤٤٥ - ٤٥٨

١٦ - بنو خزرون - أركش

محمد بن خزرون (عماد الدولة) ٤٠٢ - ٤٢٠

عبدون بن محمد بن خزرون ٤٢٠ - ٤٤٥

محمد بن محمد بن خزرون (القائم) ٤٤٥ - ٤٦١

١٧ - بنو يفرن - رندة

هلال بن أبي قسرة اليفرنى ٤٠٦ - ٤٤٥

باديس بن هلال ٤٤٥ - ٤٤٩

أبو نصر بن هلال ٤٤٩ - ٤٥٧

١٨ - بنو عامر - دانية والجزائر

مجاهد بن يوسف بن علي العامري (الموفق) ٤٠٠ - ٤٣٦

علي بن مجاهد (اقبال الدولة) ٤٣٦ - ٤٦٩

١٩ - الصقالبة - بلنسية

مظفر ومبارك ٤٠٦ - ٤٠٨

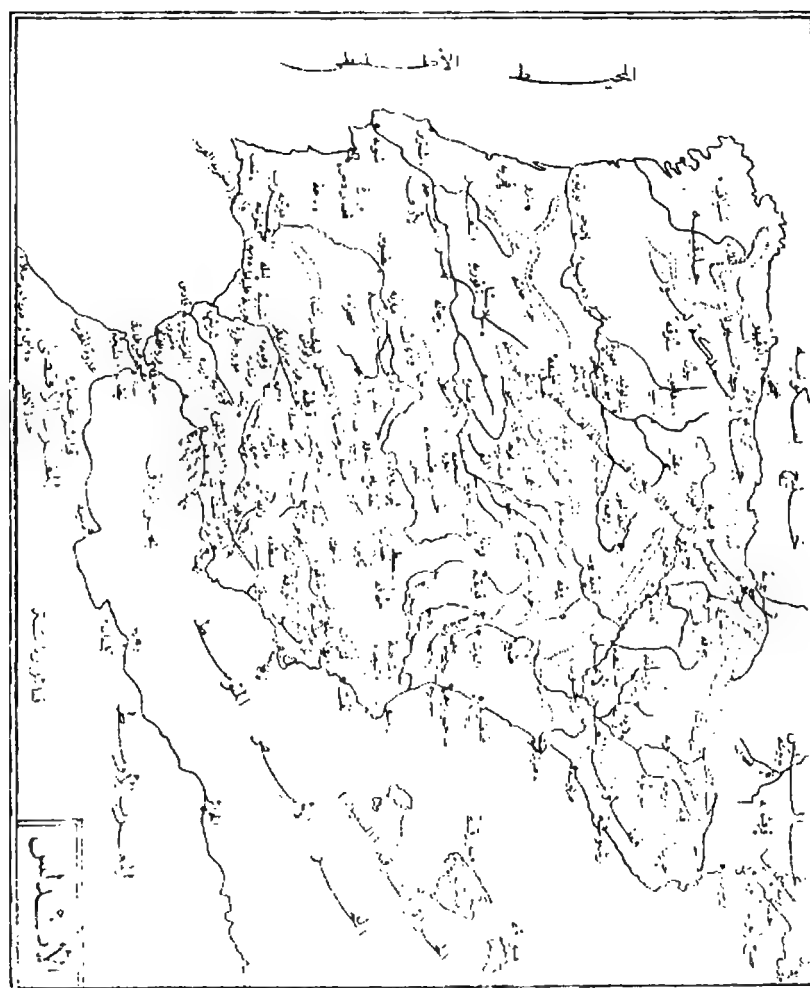
ليبب العامري ٤٠٨ - ٤١١

عبد العزيز (النصور) ٤١١ - ٤٥٢

عبد الملك بن عبد العزيز ٤٥٢ - ٤٥٧

٤ - أمراء غرناطة

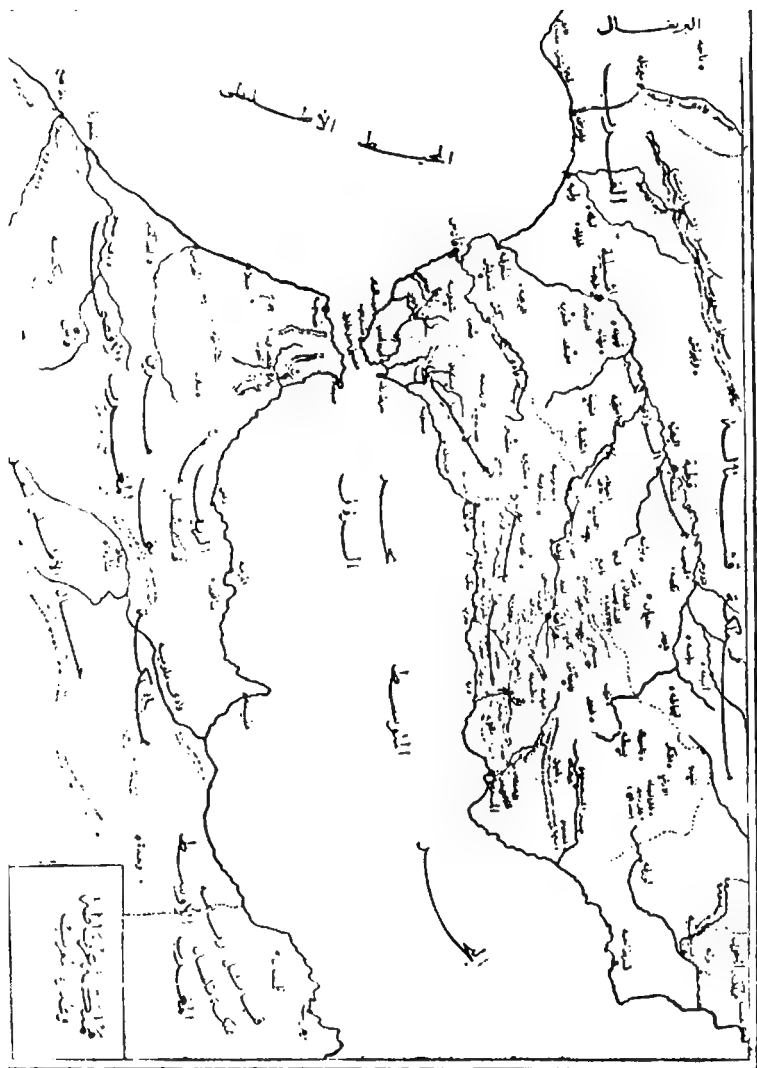
- ١ - أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر (ابن الأحمر) ٢٢٩ / ٦٧٢هـ
- ٢ - محمد الثاني (الفقيه) ٦٧٢ - ٧٠١هـ
- ٣ - محمد الثالث (أبو عبد الله) ٧٠١ - ٧٠٨هـ
- ٤ - نصر بن محمد ٧٠٨ - ٧١٣هـ
- ٥ - اسماعيل الأول ٧١٣ - ٧٢٥هـ
- ٦ - محمد الرابع ٧٢٥ - ٧٣٣هـ
- ٧ - يوسف الأول ٧٣٣ - ٧٥٥هـ
- ٨ - محمد الخامس (المرّة الأولى) ٧٥٥ - ٧٦٠هـ
- ٩ - اسماعيل الثاني ٧٦٠ - ٧٦٢هـ
- ١٠ - محمد الخامس (المرّة الثانية) ٧٦٢ - ٧٩٣هـ
- ١١ - يوسف الثاني ٧٩٣ - ٧٩٥هـ
- ١٢ - محمد السادس (الغني بالله) ٧٩٥ - ٨١٠هـ
- ١٣ - يوسف الثالث ٨١٠ - ٨٢٠هـ
- ١٤ - محمد السابع (الأيّس) ٨٢٠ - ٨٥٨هـ
- ١٥ - سعيد بن اسماعيل ٨٥٨ - ٨٦٨هـ
- ١٦ - أبو الحسن علي (مولاي حسن) ٨٦٨ - ٨٨٧هـ
- ١٧ - أبو عبد الله محمد (ابن الحرّة) ٨٨٧ - ٨٨٨هـ
- ١٨ - أبو الحسن علي (المرّة الثانية) ٨٨٨ - ٨٩٠هـ
- ١٩ - أبو عبد الله محمد بن سعد (الزغل) ٨٩٠ - ٨٩٢هـ
- ٢٠ - أبو عبد الله محمد (المرّة الثانية) ٨٩٢ - ٨٩٧هـ



(١) - عن «تاريخ الأدب الأندلسي» د. إحسان عباس



(٢) - عن «دول الطوائف» محمد عبد الله عنان



(٤) - عن «نهاية الأندلس» محمد عبد الله عثمان

المصادر والمراجع

١ - المصادر:

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي
- كتاب الحلة السراء. تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٣
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي
- الكامل في التاريخ، القاهرة ١٩٤٩
- ابن بسم، أبو الحسن علي الششتري
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - القاهرة ١٩٣٩
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي
- النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة - القاهرة ١٩٦٣
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد
- جمهرة أنساب العرب. تحقيق هارون - دار المعارف بمصر ١٩٦٢
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي
- صورة الأرض. ليدن ١٩٣٨
- ابن حيان، أبو مروان بن خلف القرطبي
- المقتبس في تاريخ الأندلس. باريس ١٩٣٧
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني
- الاحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان. القاهرة ١٩٥٦
- اعمال الاعلام، فيمن بومع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام. تحقيق ليفي بروفنسال.
بيروت ١٩٥٦
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر. القاهرة ١٩٦٧

- ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري
- تاريخ خليفة بن خياط تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٦٨
- ابن دحية الكلبي، ابو الخطاب عمر بن الحسن البلنسي
- المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق الأبياري. القاهرة
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي
- فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى - بغداد
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي
- العقد الفريد. تحقيق محمد سعيد العريان - بيروت
- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق كولان - ليفي بروفنسال. دار
الثقافة - بيروت
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري
- الامامة والسياسة (ينسب له) القاهرة (د. ت)
- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي
- تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق عبد الله طبايع. دار النشر للجامعيين - بيروت
- ابن كثير، أبو الفداء حافظ
- البداية والنهاية - بيروت ١٩٦٦
- الأدريسي، محمد بن عبد العزيز
- نزهة المشتاق في اختراق الأفاق - لندن ١٨٩٣
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر
- الفرق بين الفرق. القاهرة ١٩١٠
- الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي
- كتاب الروض المطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة
١٩٨٠
- الحشفي، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي
- تاريخ قضاة الأندلس - مدريد ١٩١٤
- الطبري، أبو جعفر بن جرير
- تاريخ الأمم والملوك، مكتبة خياط بيروت (د. ت)

- الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة
 - بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس . دار الكاتب العربي ١٩٦٧
 القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي
 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - القاهرة ١٩١٣
 المراكشي، عبد الواحد بن علي
 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان - القاهرة ١٩٦٣
 المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني
 - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٦٨
 مؤلف مجهول
 - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم. مدريد ١٨٦٧
 - الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية . الجزائر ١٩٢٠
 - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . تونس ١٣٣٧ هـ
 النويري، شهاب الدين محمد
 - نهاية الأرب في فنون الأدب . القاهرة
 ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله
 - معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦

١ - مراجع عربية. ومترجمة

بيضون، إبراهيم

- تاريخ العرب السياسي من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد (بالاشتراك مع د. سهيل كارك). دار الفكر ١٩٧٤

- ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري. دار النهضة العربية ١٩٧٩

- الدولة الأموية والمعارضة. دار. الحدائق ١٩٨٠.

لجنجاني، الطيب

- دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي. دار الطليعة

١٩٨٠

حركات، ابراهيم

- المغرب عبر العصور. دار الرشاد الحديثة ١٩٨٤

حسن، حسن إبراهيم، طه شرف

- المعز لدين الله. القاهرة

خربوطلي علي حسني

- العراق في ظل الحكم الأموي. القاهرة ١٩٥٩.

دايفز Davis:

- شارلمان. ترجمة السيد الباز العريفي. القاهرة.

رستم، أسد

- الروم، في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. بيروت ١٩٥٦.

رفاعي، أحمد فريد

- عصر المأمون. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٢٧.

ريسلي، جاك س

- الحضارة العربية. ترجمة غنيم عبدون. القاهرة.

الرئيس، محمد ضياء الدين

- الحراج في الدولة الإسلامية . القاهرة ١٩٥٧ .

- عبد الملك بن مروان، موحد الدولة العربية . القاهرة ١٩٦٢

سالم، السيد عبد العزيز

- المغرب الكبير (العصر الإسلامي) . القاهرة ١٩٦٦

- قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس . دار النهضة العربية ١٩٧١

- تاريخ مدينة المرية الإسلامية دار النهضة العربية ١٩٦٩

السلوي الناصري

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الدار البيضاء ١٩٥٦ .

سيديو (ل. أ)

- تاريخ العرب العام . ترجمة عادل زعير . الطبعة الثانية ١٩٦٩ .

الشامي، صلاح الدين

- الوطن العربي، دراسة جغرافية ١٩٦٣

الشعراوي، أحمد إبراهيم

- الأمويون أمراء الأندلس الأول . دار النهضة العربية ١٩٦٩ .

الصوفي، خالد

- جمهورية بني جهور . دمشق ١٩٥٩

عاشور، سعيد عبد الفتاح

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٤ .

العبادي، أحمد مختار

- في التاريخ العباسي والأندلسي . القاهرة ١٩٧١ .

- الصقالبة في اسبانيا . المعهد العربي للدراسات الإسلامية . مدريد .

العبادي، عبد الحميد

- المجلد في تاريخ الأندلس . القاهرة ١٩٦٤

عباس، إحسان

- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) دار الثقافة - بيروت ١٩٧٣

- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) دار الثقافة ١٩٨١

عبد الحميد، سعد زغلول

- تاريخ المغرب العربي، من الفتح حتى دول الأغالبة والرستميين والأدارسة. القاهرة ١٩٦٤.

العدوى، إبراهيم

- موسى بن نصير، مؤسس المغرب العربي. القاهرة

العروي، عبد الله

- تاريخ المغرب، محاولة في التركيب. ت. ذوقان قرقوط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٧.

علام، عبد الله علي

- الدولة الموحدية بالمغرب. دار المعارف بمصر

عمر، فاروق

- العباسيون الأوائل. بيروت ١٩٧٠.

- طبعة الثورة العباسية. بيروت ١٩٧٠.

عتان، محمد عبد الله

- دولة الإسلام في الأندلس. الطبعة الرابعة. القاهرة ١٩٦٩.

- دول الطوائف. الطبعة الثانية - مكتبة الخانجي ١٩٦٩.

- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. الطبعة الثالثة. القاهرة ١٩٦٦.

فرحات، يوسف

- غرناطة في ظل بني الأحمر. المؤسسة الجامعية للدراسات. بيروت ١٩٨٢.

كاشف، سيده اسماعيل

- الوليد بن عبد الملك. القاهرة ١٩٦٢

كاهن، كلود

- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. ترجمة د. بدر الدين القاسم، بيروت ١٩٧٢.

روم لاندو Rom landau

- الإسلام والعرب. ترجمة منير بعلبكي. بيروت ١٩٦٢.

لويس، أرشيبالد Archibald R. Lewis

- القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط . ترجمة أحمد محمد عيسى . القاهرة

١٩٥٠ .

لين بول، ستانلي Stanley Lane-Poole

- العرب في اسبانية . ترجمه علي الجارم . القاهرة ١٩٦٣ .

- طبقات سلاطين الإسلام . ترجمه إلى الفارسية عباس أقبال وإلى العربية مكّي الكعبي .

- حققه علي البصري . دار منشورات البصري ١٩٦٨ .

ماجد، عبد المنعم

- التاريخ السياسي للدولة العربية . القاهرة ١٩٦٠ .

- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى . بيروت

- الأطلسي التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى . بالاشتراك مع علي البنا .

القاهرة ١٩٦٠ .

محمود، حسن

- قيام دولة المرابطين . القاهرة .

مؤنس، حسين

- فجر الأندلس . القاهرة ١٩٥٩ .

- فتح العرب للمغرب . القاهرة ١٩٤٧ .

النص، احسان

- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي . بيروت

DOZY. R

- Histoire des Musulmans d'Espagne. Leyde 1932
- Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes. Leyde 1881.
- Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne. Leyde 1881.

FOURNEL

- Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes. Paris 1881

GABRIELI

- Les Arabes. Paris 1963

GAUDEL

- Les Premières Invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord. 1900

GAUTIER E. F

- Le passé de l'Afrique du Nord. Paris 1952.
- l'Islamisation de l'Afrique du Nord. Paris 1937

JULIEN. A

- Histoire de l'Afrique du Nord. 1955.

LAMBERT. E

- Les Origines de la masquée et l'Architecture Religieuse des Omeiyades. Paris 1956.

- Les Mosquées de type Andalou en Espagne et en Afrique du Nord. 1949.

LEGENDRE. M

- Nouvelle histoire d'Espagne. Paris. 1939

LEVI - PROVENÇAL

- Histoire de l'Espagne Musulmane, 3 tomes. Paris 1950.
- La péninsule Ibérique. Leyde 1938
- La civilisation Arabe en Espagne. Paris 1948
- Extraits des historiens Arabes du Maroc. Paris 1948.

Marçais. G

- La Berbérie Musulmane et l'Orient en Moyen Âge. Paris 1946

MERCIER ET SEGUIN

- Charlemagne et la bataille de Poitiers. Paris 1944

PERES. H

- La poésie Andalouse en Arabe classique au XI^e siècle. Paris 1953.

PERIER. J

- Vie d'al-Hadjadj Ibn Youssef al-Taqafi. Paris 1904

TERRASSE. H

- Histoire du Maroc. Casablanca. 1949.

YALAOUÏ

- Les Relations entre Fatimides de l'Afrique et Omayyades d'Espagne à travers le Diwan d'Ibn Hani, Madrid 1937.

٧ - الأعلام

- ابن الأحمر = محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي .
 ابن الأشعث ١٦٦ ، ٢٧٨ .
 ابن الحبحاب = عبيد الله بن الحبحاب .
 ابن حجاج ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
 ابن الحديد (وزير) ٣٧٠ .
 ابن حريث = يحيى بن حريث .
 ابن حزم (مؤرخ) ٢٣٠ ، ٣٠٣ .
 ابن حفصون = عمر بن حفصون .
 ابن حوقل (مؤرخ) ٢٩٢ .
 ابن حيسان (مؤرخ) ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ٣٢٥ ، ٣٥٥ .
 ابن خديج = معاوية بن خديج .
 ابن الخطيب (مؤرخ وشاعر ووزير) ١٨٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ .
 ابن رشيقي (صاحب مرسية) ٣٧٩ .
 ابن الزبير = عبد الله بن الزبير .
 ابن زمرك = أبو عبد الله بن زمرك .
 ابن زيدون (شاعر ووزير) ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
 ابن سراج ٣٩٤ .
 ابن السقاء = إبراهيم بن يحيى .
 ابن سعد = عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
- ابن شهاب (شيخ بني عامر) ١٤٢ .
 ابن أبي عامر = محمد بن أبي عامر .
 ابن عباس = عبد العزيز بن عباس .
 ابن عبد الحكم (مؤرخ) ٣٤ ، ٣٥ ، ١٠٩ .
 ابن عبد ربه (مؤرخ) ٢٧٤ .
 ابن عذاري (مؤرخ) ٢٨ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٢٤٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ .
 ابن عكاشة ٣٦٩ .
 ابن عمار (شاعر) ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ .
 ابن قسي ٢٦٩ ، ٢٧١ .
 ابن القوطية (مؤرخ) ٢٤٥ .
 ابن مغيث = عبد الكريم بن مغيث .
 ابن مهاجر ٢٣٦ .
 ابن هبيرة ١٦٨ .
 ابن هدين ١١٦ .
 ابن هود = أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود .
 ابن ياسين ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
 أبو بكر (قائد المرابطيين في الأندلس) ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ .
 أبو بكر بن عبد العزيز ٣٧٠ .
 أبو بكر يعيش بن محمد الأسدي ٣٦٧ .

أبو جعفر المنصور ١٤٠، ١٦٣، ١٨٦،
 ١٨٨، ١٩١، ١٩٦، ١٩٧.
 أبو الحسن علي (الغالب بالله) ٣٩٥،
 ٣٩٦.
 أبو الحزم بن جمهور ٣٥٧، ٣٥٨،
 أبو حفص البلوطي = عمر بن عيسى.
 أبو الخطار ٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠،
 ١٣٥.
 أبو زيد الفهري ١٨١.
 أبو سلمة الخلّال ١٦٨.
 أبو الشّماخ = محمد بن إبراهيم.
 أبو الصباح ١٩٠، ١٩١، ١٩٢.
 أبو العباس السّفّاح ١٦٨.
 أبو عبد الله (الزّغل) ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧،
 ٣٩٩.
 أبو عبد الله زمرك (شاعر) ٣٩٢، ٣٩٣.
 أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن اللّخمي
 ٢١٧.
 أبو عبد الله الصّغير ٣٩٤.
 أبو عبد الله محمد بن يعقوب (الناصر)
 ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٦.
 أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود
 ٣٨٨.
 أبو عثمان (عبيد الله) ١٧١، ١٧٢، ١٧٣،
 ١٧٦، ١٨٠، ١٨١، ٢٠٨.
 أبو العطاء (شيخ غطفان) ١٣٦، ١٤٢.
 أبو عمران القاسي (فقيه) ٣٧٦.
 أبو القاسم عبد الملك ٣٩٨.
 أبو مسلم الخراساني ١٦٧، ١٨٦، ١٩١.
 أبو المهاجر دينار ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣،
 ٤٧.

إبراهيم بن الحجاج ٢٧٣.
 إبراهيم (الإمام) ١٦٨.
 إبراهيم بن يحيى ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٩.
 ابقرط ٢٥١.
 أجيلون (أرملة الملك روفريق) ٩١.
 إحسان عباس (مؤرخ وناقد ومحقق) ٣٧٢.
 أحمد بن سالم ٣٩٣.
 أحمد بن سليمان ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥.
 أحمد بن طولون ٢٩٣.
 أحمد بن محمد (أبو العباس) ٢٦٨.
 الإدريسي (جغرافي) ٣٠١.
 أدولفو (ملك) ٦٧.
 الأذفونش = الفونسو الثاني.
 الاريك (ملك) ٦٧.
 أردونيو الأول ٢٦٠.
 أردونيو الثاني ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠،
 ٢٩٦.
 أردونيو الرابع ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥.
 أرمطو ٢٥١.
 اسحاق (راهب) ٢٣٩.
 إسماعيل بن عبيد الله ١٠٩.
 الأعرابي = سليمان بن يقطان الكلبي.
 الفارو (تاجر) ٢٣٨.
 أفلاطون ٢٥١.
 ألفونسو الأول ٢١٤، ٢٨٦.
 ألفونسو الثاني ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨،
 ٢٣٤، ٢٤٣.
 ألفونسو الثالث (ابن فرناندو) ٢٦٩، ٣٨٨.
 ألفونسو السادس ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٦٦.
 ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠.
 ألفونسو السابع ٣٨٤.

الفونسو التاسع ٣٨٥.

الفونسو الحادي عشر ٣٩١.

إقبال الدولة ٣٥٢

إقليدس ٢٥١.

أمية بن الحكم ٢٣٦.

أمية بن عبد الملك بن قطن ١٢١، ١٢٢،

١٢٣، ١٢٧.

أمية بن معاوية ٢٣٣.

الأندلسي = جعفر بن علي بن حمدون .

الأنصاري = الحسين بن يحيى .

أوتو (ملك) ٢٧٨، ٢٩٨.

أوديس (زعيم أكيتانية) ١٤٧، ١٤٩،

١٥١، ١٥٢.

الأيسر = محمد بن يوسف .

إيزابيلا (ملكة) ٣٩٧.

إيلونخيو (راهب) ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠،

٢٤٢، ٢٤١.

أيوب بن حبيب اللخمي ٩٤، ٩٥.

(ب)

البابا غريغوري الثالث ١٥٥.

باديس بن حبوس (الناصر) ٣٨٧.

بيّان هرستال (القصير) ١٤٥، ١٤٦،

١٥٩، ١٩٥.

بلتر (خادم) ١٦٨، ١٧٠، ١٨٧، ١٨٨،

١٨٩، ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٨.

بر فكتو (راهب) ٢٣٩.

برمندو (ملك) ٢١٤.

بشر بن صفوان الكلبي ٩٧، ١٠٥.

بطليموس ٢٥١

البلافري (مؤرخ) ٣٦.

بلع بن بشر القشيري ١١١، ١١٢، ١١٣.

١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢.

١٢٣، ١٢٤، ١٢٨، ١٧٠، ٣٥٧.

بللي ٢٨٥، ٢٨٦.

بلكين بن زيري الصنهاجي ٣١٠، ٣٢٨.

٣٢٩.

بشيو ٧٦.

بوريل الثاني ٣٢٧.

(ت)

تدمير (حاكم) ٩٠.

تمام بن علقمة ١٩٣.

تميم بن يوسف بن تاشفين ٣٨٠.

تيو دوريك الرابع ١٥٨.

تيوفيل (امبراطور) ٢٤٩.

(ث)

ثعلبة بن سلامة العاملي ١٢٤، ١٢٥،

١٢٧.

ثعلبة بن عبيد الجذامي ١٩٩.

ثوابة بن سلامة الجذامي ١٣٠، ١٣١،

١٣٣، ١٣٦.

(ج)

جالينوس ٢٥١.

جان دي جورز ٢٩٧.

جر جريو = جريجوريوس .

جريجوريوس ٣١.

جعفر بن علي بن حمدون ٣٢١، ٣٢٦.

الجليقي = عبد الرحمن بن مروان .

جوثر ٣١٤.

جوهر الصقلي ٢٩٣.

(ح)

الحارث بن الحكم ٣٠.

الحجاب بن رواحة ١٤١، ١٧٣، ١٧٤.

حبوس بن ماكس (المظفر) ٣٨٧.

حبيب بن أبي عبيدة الفهري ٨٦، ١٠٨.

١١٠، ١١١، ١١٢.

الحجاج بن يوسف الثقفي ٨٧، ٩٩.

١٠٤، ١٠٣.

الحسين بن عبد الرحمن الثقفي ٩٤، ٩٥.

١٤٧.

الحرة = عائشة ابنة الغالب بالله.

حمام الدولة = يوسف بن سليمان.

الحسام بن ضرار الكلبي = أبو الخطار.

حسان بن النعمان النسائي ٥٢، ٥٣.

٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩.

٦١، ٦٢.

الحسن بن أحمد السلمي ٣٣٠.

الحسن بن علي ٣٨٢.

الحسن بن علي بن نافع = زرياب.

الحسن بن كنسور ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩.

٣٣٠، ٣٢٩، ٣١٠.

الحسين بن يحيى الأنصاري ١٩٧، ١٩٨.

٢٢٠، ٣٠٣.

الحصين بن الذّجن ١٨٠.

الحكم الأول (الريضي) ٢١٨، ٢١٩.

٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥.

٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠.

٣١١، ٣٢٣.

الحكم الثاني (المستصر) ٢٢٩، ٣٠٠.

٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥.

٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠.

٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧.

٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٤١.

٣٤٧.

حنظلة بن صفوان الكلبي ١١٣، ١١٤.

١٢٦، ١٣١، ١٦٩.

(خ)

خالد بن أبي حبيب ١١٠.

خالد بن حميد الزناني ١١١، ١١٢.

خالد بن زيد ١٧٦.

(د)

الداخل = عبد الرحمن (الأول).

دوزي (مؤرخ) ١٠٥، ١١٦، ١٣٧.

٢٠٠، ٢٦٤.

(ذ)

الذلفاء (أم المظفر) ٣٤٠.

(ر)

راميرو الثاني ٢٨٨، ٢٩٠.

راميرو الثالث ٣٢٣.

ربيع بن زيد = رثموندو.

رثموندو ٢٩٧.

الرشيد ٢٥٢، ٣٢٠.

الرضا = هشام الأول.

روفریق ٦٩، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨.

٩٠، ٩١.

رولان ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣.

ريكاريدو (أسقف) ٢٤١.

(ز)

زاوي بن زيري ٣٤٢، ٣٨٧.

زرياب (مغني) ٢٣١، ٢٥٢، ٢٥٣.

٢٥٤.

زقطرتق ١١٦.

الزغل = أبو عبد الله.

زهير بن قيس البلوي ٣٨، ٤٣، ٤٨.

٥٢، ٥١.

زيادة الله (أمير القيروان) ٢٥٢.

زيري بن مناد الصنهاجي ٣٠٧، ٣٣١.

٣٣٢.

(س)

سانشو = شنجة.

سعيد بن جواس ١٢٨.

سعيد بن الحسين الأنصاري ٢١٣.

سعيد بن سليمان السعدي ٢٧٢.

سعيد اليحصي = المطري.

سليمان بن الحكم (المستعين) ٣٤٢.

٣٥٤، ٣٥٢.

سليمان بن عبد الرحمن الداخل ١٦٨.

٢١٢، ٢١٩.

سليمان بن عبد الملك ٨٧.

سليمان بن مارتين ٢٣٣، ٢٣٤.

سليمان بن هود ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٩.

سليمان بن يقطان ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠.

٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٩.

السمح بن مالك الخولاني ٩٥، ٩٦، ٩٧.

١٤٨، ١٤٧.

سوار بن حمدون ٢٧٢.

صير بن أبي بكر ٣٨١.

سيف الدولة = عبد الله بن باديس.

(ش)

شارل مارتل ١٠١، ١٤٦، ١٤٧، ١٥١.

١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧.

١٥٨، ١٥٩، ١٩٥.

شارلمان ١٥٩، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧.

١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢.

٢٠٣، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٦، ٢٢٧.

٢٩٧، ٣٢٧.

شلدبراند ١٥٨.

شنجة (ملك) ٢٨٦، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٠٤.

٣٠٥، ٣٢٧، ٣٣٧، ٣٨٤.

شنجول ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٤.

(ص)

صُبح (زوجة المستنصر) ٣١٣، ٣١٤.

٣١٥، ٣١٦، ٣٢٠.

الصقلي = عبد الرحمن بن حبيب

الفهري.

صلاح الدين الأيوبي ٣٨٤.

الصَّمِيل بن حاتم ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦.

١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١.

١٤٢، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤.

١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩.

١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣.

(ض)

الضحاك بن قيس الفهري ١٠١، ١٠٢.
الضراب = هاشم الضراب.

(ط)

طالوت بن عبد الجبار المعافري ٢٢٥.
طارق بن زياد ٦٣، ٧١، ٧٢، ٧٤، ٧٥،
٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢،
٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩،
٩٣، ١١٦، ١٥٥، ١٥٨.
الطبري (مؤرخ) ٣٦.
طروب (جارية) ٢٣٢، ٢٥٤، ٢٥٧.
طريف بن مالك المعافري ٧٣، ٧٤.

(ع)

عائشة (ابنة الغالب بالله) ٣٩٥، ٣٩٦،
٣٩٩.
عامر بن عمرو القرشي ١٣٩، ١٤٠،
١٧٣، ١٧٤.
العامري = ابن أبي عامر = محمد بن أبي
عامر = المنصور.
عبد الأعلى بن جريج ١٠٩.
عباد بن محمد = المعتضد بالله.
عبد البر بن يوسف ٣٩٤.
عباس بن فرناس ٢٥٤.
العباس بن عبد الله القرشي ٢٤٤.
عبد الرحمن بن أبي بكر ٣٠.
عبد الرحمن الأول (الداخل) ٩٤، ١٣٣،
١٤٢، ١٦٣، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١،
١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧،
١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.

١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧،
١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣،
١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨،
٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦،
٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١،
٢١٣، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢١، ٢٣٢،
٢٧٧، ٢٩٦، ٣٤٦.

عبد الرحمن الثاني (الأوسط) = عبد
الرحمن بن الحكم.

عبد الرحمن الثالث ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩،
٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥،
٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠،
٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧،
٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢،
٣٠٣، ٣٤٧، ٣٥٣.

عبد الرحمن بن جهور ٣٦٠.

عبد الرحمن بن حبيب الفهري ١١٧،
١٢١، ١٢٣، ١٢٧، ١٩٧، ١٩٨،
عبد الرحمن بن الحكم ٢٢٧، ٢٢٩،
٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦،
٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢،
٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،
٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٥،
٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٩٠، ٣٠١،
٣٢٢، ٣٥٣.

عبد الرحمن بن ذي النون ٣٦٨.

عبد الرحمن بن رماحس ٣٠٨.

عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ١١٢.

عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ١٢١،
١٢٣.

عبد الله بن عبد الرحمن (ابن طروب)
٢٥٧.

عبد الله بن عبد الملك ٦١.

عبد الله بن علي ١٦٨.

عبد الله بن عمر ٣٥.

عبد الله بن محمد ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧.

٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦.

عبد الله بن موسى بن نصير ٨٦.

عبد الله بن ياسين الجزولي ٣٧٦.

عبد الملك بن جهور ٣٥٩، ٣٦٠.

عبد الملك بن عمر ١٨٩.

عبد الملك بن قطن القهري ٩٩، ١٠٠.

١١٠، ١١٢، ١١٠، ١١٥، ١١٧.

١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣.

١٥٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣.

عبد الملك بن محمد بن أبي عامر

(المظفر) ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٥.

٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠.

٣٤١، ٣٦٤.

عبد الملك بن مروان ٣٤، ٣٥، ٥٠.

٥١، ٦٠، ٢٧٧.

عبد الملك بن مغيث ٢١٥، ٢٢٨.

عبد المؤمن بن علي الرناتي ٣٨٢، ٣٨٣.

عبد الله بن الحبحاب ١٠٠، ١٠٦.

١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١١.

عبد الله بن عثمان ١٩٢، ١٩٣.

عبد الله بن عبد الله البلنسي ٢٢٥، ٢٤٣.

عبد الله بن علي الكلابي ١٤١، ١٤٢.

عبيدة بن عبد الرحمن السليمي ٩٨، ٩٩.

١٠٥.

عبد الرحمن السافقي ٩٤، ٩٦، ٩٩،
١٠٠، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢.

١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٨.

عبد الرحمن = عبد الرحمن بن معاوية بن

هشام

عبد الرحمن بن محمد = ابن الأشعث.

عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر

(الناصر والعمون) = شنجول.

عبد الرحمن بن مروان (الجليقي) ٢٥٩.

٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٨٤.

عبد الرحمن بن معاوية = عبد الرحمن

الداخل.

عبد العزيز بن أبي عامر ٣٥٢.

عبد العزيز بن عباس ٢٦٢، ٢٦٣.

عبد العزيز بن مروان ٥١، ٥٩، ٦٠، ٦١.

عبد العزيز بن موسى ٨٣، ٨٦، ٨٧.

٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٤.

١٤٣.

عبد الكريم بن مغيث ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٢٩.

٢٤٣.

عبد الله بن أمية ٢٧٣.

عبد الله بن ياديس (صيف الدولة) ٣٨٧.

عبد الله بن الزبير ٣٠، ٣٥، ٥٠، ٥١.

٥٣، ١٠٢، ١٦٦، ٢١٧.

عبد الله بن سعد بن أبي سرح ٣٠، ٣١.

٣٢، ٣٤، ٣٧.

عبد الله بن طاهر ٢٢٦.

عبد الله بن العباس ٣٠.

عبد الله بن عبد الرحمن (البلنسي) ٢١٢.

٢١٣، ٢١٩، ٢٣٢.

عتبة بن يحيى المغيلي ٣٨٨.

عثمان بن عفان ٣٠، ٣٢، ٣٤.

العزير (خليفة) ٣٢٨، ٣٢٩.

عقبة بن حجاج السلولي ١٠٠، ١٠١.

١١١، ١٥٧، ١٥٨.

عقبة بن قدامة ١٠٦.

عقبة بن نافع المفهري ٢٩، ٣٣، ٣٧.

٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤.

٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٦.

٥٩، ٦٢، ٨٦، ١٣٢.

عكاشة بن أيوب التفراوي ١١٣، ١١٤.

العلاء = العلاء بن مغيث.

العلاء بن مغيث اليحصبي ١٨٦، ١٨٧.

١٨٨، ١٩٦.

علي بن أبي طالب ٣٢، ١٦٥.

علي بن حمود ٣٤٢، ٣٤٣.

علي بن يوسف بن ناشفين ٣٨٠، ٣٨١.

عماد الدولة ٣٦٧.

عمر بن حفصون ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣.

٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨.

٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٩.

٢٨٠، ٢٨١.

عمر بن الخطاب ٣٠.

عمر بن عبد العزيز ٩٥، ٩٦، ١٠٢.

عمر بن عيسى ٢٢٦.

عمرو بن ثوبة ١٣٢.

عمرو بن العاص، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٢.

٣٣، ٣٤.

عمرو بن عبد الله ٣٣٠.

عمرو بن عبد الله المرادي ١٠٨، ١٠٩.

عمروس بن يوسف ٢٢١.

عنبسة بن سحيم الكلبي ٩٧، ١٤٨.

١٤٩، ١٥٠.

عيشون ٢٠٣.

(غ)

غالب بن عبد الرحمن ٣٠٦، ٣٠٩.

٣١٠، ٣١٣، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩.

٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥.

٣٢٦.

الغالب بالله = أبو الحسن علي.

الغافقي = عبد الرحمن الغافقي.

الغزال = يحيى الغزال.

غومز بن أنطونيان ٢٤٢.

(ف)

فائق (قائد) ٣١٤.

الفاطمي ١٩٢، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٣.

٢١٣.

الفتح بن ذي النون ٢٧٥.

فجر الدولة = عباد بن محمد.

فرديناند (أمير قشتالة) ٣٠٥، ٣٠٦.

فرديناندو ٣٩٧.

فرناندو الثالث ٣٨٨، ٣٨٩.

فرناندو الرابع ٣٩١.

فرويلة ١٩٤، ١٩٥.

فلورا (تلميذة الراهب إيلوخيس) ٢٣٨.

٢٤١.

فلوراند ٧١، ٧٢.

الفهري = يوسف بن عبد الرحمن.

(ق)

- القادر = يحيى بن هشام .
القاسم بن حمود (المأمون) ٣٤٣ ، ٣٤٤ .
القالبي (لغوي) ٣٠٣ .
قرطوبوس (سفين) ٢٤٩ .
قسطنطين الثاني ٣٤ ، ٣٩ ، ٦٧ .
قسطنطين السابع ٢٥٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
قطن بن عبد الملك بن قطن ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٢٣ ، ١٢٧ .

(ك)

- كارل = شارل .
كافور الأخشيدي ٢٩٣ .
الكاهنة ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .
كريب بن عثمان ٢٧٢ .
كيلة بن لمزم ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ .
كلثوم بن عياض القشيري ١١١ ، ١١٢ ،
١١٨ .
كلوفيس ١٤٤ .
كونثال (حاكم) ٣٣٧ .
الكونت تديلا (قائد) ٣٩٩ .

(ل)

- لسان الدين بن الخطيب = ابن الخطيب .
لويس (ابن شارلمان) ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٢٣٤ .
الليثي = يحيى بن يحيى .
ليفي بروفنسال (مؤرخ) ٨٤ ، ٨٩ ، ٢١٨ .

- لين بول (مؤرخ) ٢٣٩ .
ليونيتوس ٥٧ .

(م)

- ماريا ٢٤١ .
مالك بن أنس (فقيه) ٢١٧ ، ٢١٨ .
المأمون بن ذي النون ٣٦٢ .
المأمون العباسي ٢٢٦ ، ٢٥٠ .
المأمون = عبد الرحمن بن محمد
العامري .
المأمون = القاسم بن حمود .
المأمون = يحيى بن إسماعيل .
مبارك العامري ٣٥٢ .
مجاهد العامري ٣٥٢ .
محمد بن إبراهيم ٢٣٣ ، ٢٤٣ .
محمد بن أبي عامر (المنصور) ٣٠٩
٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦
٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١
٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦
٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١
٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧
محمد بن إسماعيل ٣٩١ .
محمد بن تومرت (المهدي) ٣٨١ ، ٣٨٢
محمد الثاني (الفقيه) ٣٩٠ ، ٣٩١ .
محمد بن جعفر ٣١٩ .
محمد بن جهور ٢٦٣ .
محمد بن جهور (أبو الوليد) ٣٥٨ ، ٣٥٩
٣٦٠ .
محمد الخامس ٣٩١ ، ٣٩٢ .
محمد بن عباد ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

المظفر = يحيى بن المنذر.
 معاوية بن أبي سفيان ٣٢، ٣٤، ٤٠،
 ٤١، ٤٢، ١٠١، ١٦٣، ٢١١.
 معاوية الأول = معاوية بن أبي سفيان.
 معاوية الثاني = معاوية بن يزيد.
 معاوية بن خديج الكندي ٣٤، ٣٥، ٣٦،
 ٣٧، ٤٠.
 المعتض بالله ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٩.
 المعتلي بالله = القاسم بن حمود.
 المعتمد بن عباد ٣٦٩، ٣٧٧، ٣٧٨،
 ٣٧٩، ٣٨٠.
 المعتد بالله = هشام بن محمد.
 المعتمد على الله = محمد بن عباد.
 المعز ٢٩٢، ٢٩٤.
 المعز بن زيري ٣٣٨.
 مغيث الرومي ٧٨، ٨٥، ٨٨، ١٤٣،
 ١٩٨.
 المغراوي ٣٣١، ٣٣٢.
 المغيرة بن عبد الرحمن ٣١٤، ٣١٦،
 ٣٢٠.
 المقتدر ٢٨٣.
 المقتدر = أحمد بن سليمان.
 المقرئ (مؤرخ) ٢٠٥، ٢٠٦.
 المنصور = أبو جعفر المنصور.
 المنصور بالله المظفر بقضل الله =
 عبد الملك بن جهور.
 المنصور = يعقوب بن عبد المؤمن.
 المنصور بن محمد ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤،
 ٢٦٥.
 المنذر بن يحيى ٣٦١، ٣٦٢.
 منوسة (ثائر) ١١٦.

محمد بن عبد الرحمن ٢٥٧، ٢٥٨،
 ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣،
 ٢٦٤، ٣٤٥، ٣٥٨، ٣٦٧.
 محمد بن هشام ٣٤٠.
 محمد بن يوسف (الأيس) ٣٩٣، ٣٩٤.
 محمد بن يوسف بن محمد بن نصر
 الخزرجي (ابن الأحمر) ٣٨٨،
 ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٣.
 محمود بن عبد الجبار بن راحلة ٢٣٣.
 المرادي = عمر بن عبد الله.
 مروان الثاني ١٠٢، ١٣١، ١٦٨.
 مروان الثاني = محمد بن مروان.
 مروان بن الحكم ٣٠، ٣٨، ٥٠، ١٠٢.
 مروان بن عبد الملك ٢٨٧.
 مروان بن موسى ٦٢، ٦٣.
 المستعين ٢٩٣.
 المستعين = سليمان بن الحكم.
 المستعين = سليمان بن محمد بن هود.
 المستكفي بالله = محمد بن عبد الرحمن.
 المستنصر = الحكم الثاني.
 مسلمة بن مخلد ٣٣، ٣٧، ٤٠.
 المصحفي (وزير المستنصر) ٣٠٤، ٣١٠،
 ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨،
 ٣١٩، ٣٢٠.
 المطرف بن ذي النون ٢٦٩، ٢٧٥،
 ٢٧٨.
 مطروح بن سليمان ٢١٣.
 المطري ١٨٩، ١٩٠.
 المظفر = حبيب بن ماكس.
 مظفر العامري ٣٥٢.
 المظفر = عبد الملك بن محمد.

المهدي ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤.

المهدي = محمد بن تومرت.

موريكاتو (ملك) ١٩٥.

موسى بن أبي خالد ١١٠.

موسى بن حسان ٣٩٨.

موسى بن ذي النون ٢٥٩، ٢٦١، ٢٧٥.

٣٧.

موسى بن موسى ٢٤٤، ٢٥٩.

موسى بن نصير ٥١، ٦٠، ٦١، ٦٢.

٦٣، ٦٤، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤.

٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨١.

٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧.

٨٨، ٨٩، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٩.

١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٨.

الموصلي (مغني) ٢٥٢.

مؤنس (قائد تركي) ٢٨٣.

المؤيد = هشام بن الحكم.

ميسرة المطغري ١٠٨، ١٠٩، ١١٠.

(ن)

الناصر ٢٠٩، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٨.

٢٧٤.

الناصر = باديس بن حبوس.

الناصر = أبو عبد الله محمد بن يعقوب.

الناصر = الحكم بن عبد الرحمن.

الناصر = عبد الرحمن بن محمد العامري.

الناصر لدين الله = عبد الرحمن الثالث.

الناصر لدين الله = علي بن حمود.

نصر بن محمد ٣٩١.

نقفور ٣٥.

نقفور فوكاس ٢٢٦.

(هـ)

هاشم الضراب ٢٣٥.

هاشم بن عبد العزيز ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤.

هشام الأول (الرضا) ٢١١، ٢١٢، ٢١٣.

٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨.

٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣١.

هشام بن الحكم ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦.

٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٥٤، ٣٦٩.

هشام بن عبد الملك ٩٩، ١٠٠، ١٠٢.

١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٣.

١١٤، ١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٢٦.

١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ٢٠٧، ٢٠٩.

٣٢٢، ٣٤٦.

هشام بن عمرو الفهري ١٧٩، ١٨٤.

١٨٥.

هشام بن محمد ٣٤٥، ٣٥٧.

هشام المديوني ١٩٣.

هشام بن هذيل ٢٩٦.

الهواري = عبد الواحد بن يزيد.

هونوريوس (امبراطور) ٦٧.

الهشام بن عبيد الكلاني ٩٧، ٩٨، ١٥٠.

(و)

وجاج بن زولو اللمطي ٣٧٦.

ولادة (شاعرة) ٣٥٨.

الوليد الثاني ١١٦.

الوليد بن عبد الملك ٦١، ٧٠، ٨٥.

٨٧، ١٠٢، ١١٤، ١٤٤.

الوليد بن يزيد = الوليد الثاني.

وهب بن عامر بن عمرو القرشي ١٧٣.

وهب الله بن حزم ١٤٧.

ويتزا (ملك) ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٧، ٧٩، ٨٠.

(ي)

يحيى بن إبراهيم الكدالي ٣٧٥، ٣٧٦.

يحيى بن إسماعيل (السامون) ٣٦٨، ٣٦٩.

يحيى بن حبيب ٢٤٨.

يحيى بن حريث ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.

يحيى بن حمود ٣٤٣، ٣٤٥.

يحيى بن حكم البكري الغزال (سفير وشاعر) ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤.

يحيى بن ذي النون ٢٧٥.

يحيى بن صفالة ٢٧٢.

يحيى بن عبد الله ٢٣٣.

يحيى بن عمر ٣٧٦.

يحيى بن محمد التجيبي ٣٠٦، ٣٠٩.

يحيى بن المنذر (المظفر) ٣٦١.

يحيى بن هشام (القادر) ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١.

يحيى بن يحيى (فقيه) ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٥٤.

يزيد بن أبي مسلم ١٠٤، ١٠٦.

يزيد بن عبد الملك ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥.

يزيد بن معاوية ٤٢، ٥٠، ٥١، ١٠١، ٢١١.

يزيد بن مهلب ٨٧.

يعرب بن قحطان ٢٤.

يعقوب بن عبد المؤمن (المنصور) ٣٨٤، ٣٩٠، ٣٨٥.

يوحنا الجوزيني = جان دي جووز.

يوسف الأول ٣٩١.

يوسف بن بخت ١٧٠.

يوسف بن تاشفين ٣٦٦، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠.

يوسف بن سليمان ٣٦٣.

يوسف بن عبد الرحمن الفهري ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٥٧، ١٧١، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

يوسف بن عبد المؤمن (أبو يعقوب) ٣٨٣، ٣٨٤.

يوسف بن محمد (القصير) ٣٩٣.

بوليان ٦٣، ٧١، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨١، ٩٠.

٨ القبائل

(أ)

أزداجة ٢٦ .

الأسويون ٢٢ .

بنو الأفلس ٣٧٢ .

أورية ٢٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

(ب)

البيتر ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٥ ، ١٠٨ .

البربر ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ،

٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ،

٦٣ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ،

٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٥٣ ،

١٥٤ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،

١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ،

٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٨ ،

٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،

٢٩٠ ، ٣٠٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٤٣٢ .

٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،

٣٥٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ .

البرانس ٢٥ ، ٢٦ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٢ ،

٥٥ ، ٥٦ .

برزال ٣٧٢ .

برغواطة ١٠٨ ، ٣٧٧ .

بكرين وائل ٦٠ .

(ج)

بنو جذام ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ،

٣٦٢ .

جراوة ٥٥ .

الجرمان ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٧ .

بنو جهور ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ،

٣٥٧ .

(ح)

بنو حفصون ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

بنو حمود ٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٣٧٢ .

بنو حملون ٣٠٧ .

حمير ٣٧٥ .

(خ)

بنو خلدون ٢٧٢ .

(ذ)

بنو ذي النون ٣٦٧.

(ر)

بنو رزين ٣٧٢.

الرومان ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٤٨، ٦٦، ٦٧،
١٤٤.

(ز)

زناتة ٢٦، ١٠٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢،
٣٣٧.

زواغة ٢٦.

بنو زيان ٢٠.

بنو زيري ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٣٢،
٣٨٧، ٣٧٢.

(س)

بنو سراج ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦.

السكون ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢١٥.

(ص)

الصقالبة ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨،
٢٨٥، ٢٩٠، ٣٢١، ٣٤٣، ٣٥٢،

٣٧٢.

بنو صمادح ٣٧٢.

صهاجة ٢٦، ٤٦، ٣٣٢، ٣٣٨،
٣٧٥.

(ض)

ضريبة ٢٦.

(ع)

بنو عامر ١٤٢، ٣٥٣، ٣٥٤.
بنو عباد ٣٥٦، ٣٧٢.

(غ)

الغسانة ٥٣.

غسانة الشام ١٢٢.

غطفان ١٣٠، ١٤١.

(ف)

الفرس ١٦٧.

الفندال = الوندال.

الفيكنج ٢٤٥.

(ق)

بنو قاسم ٣٧٢.

القوط ٥٤، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١،

٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٦، ٩٠،

٩١، ١٠١، ١٤٤، ٢٠٩، ٢٢٠،

٢٨٥.

(ك)

كتامة ٢٦.

كدامة ٣٧٥.

قريش ٣٤٧، ٣٥٤.

كلب ١٣٤.

الكلبيون ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٢٩،

١٦٥، ١٣٠.

(ل)

بنو لخم ١١٨، ١٧٢، ٢٧٣.

لمتونة ٣٧٥.

لواتة ٢٦، ٢٨.

(م)

بنو مزغنة ٢٠.

المصامدة ٤٦.

مصمونة ٢٦، ٢٣٣، ٣٨٢.

مطفرة ٢٦، ١٠٨.

مقراوة ٣٣١، ٣٣٨.

مكناسة ١٠٨.

بنو الملائخ ٢٥٩.

(ن)

نفزة ٢٦، ١٦٩.

نفوسة ٢٦، ٢٩.

النورمان ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،
٢٩٠.

(هـ)

بنو هذيل ٣٧٢.

هرغة ٣٨٢.

بنو هود ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٦٠، ٣٦١.

٣٦٢، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٨٠.

(و)

الوندال ٢٢، ٤٨، ٦٦، ٦٧، ٦٨.

(ي)

يحصب ١٧٢.

بنو يفرن ٣٢٩، ٣٧٢.

٩- الأماكن

(أ)

أستورقه ٨٤، ٩٠، ١٩٤، ٢١٥، ٢٢٨،

٢٢٩، ٢٤٣، ٢٦١، ٢٨٦.

أستوريلس ٨٤، ١٩٤، ٢١٤، ٢٢٨.

الإسكلندرية ٢٨، ٣٥، ٢٢٦، ٢٨٢.

آسيا ٢٤، ٢١٥.

أشبر غوزة ٢٦٢.

أشبنونة = ليشبنونة.

أشيلية ٦٦، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٦، ٩٤،

١٤١، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٢، ١٨٣،

١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ٢٤١،

٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٦٦، ٢٦٨،

٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥،

٢٨٠، ٢٨١، ٣٥٤، ٣٥٩، ٣٦٦،

٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٨٧،

٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠.

أصيلا ٣٠٨.

أغمات ٤٦، ٣٨٠.

أفيدو ٢١٥.

أفينيون ١٥٥، ١٥٦.

أقريطش = جزيرة كريت.

أقلش (معركة) ٣٦٦، ٣٨٠، ٣٨٤.

أراغون ٨٤، ٩١، ١٤٤، ١٩١، ٢١٩،

٢٤٤، ٣٢٧، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٩٢،

٣٩٧.

أربونة ١٠١، ١٢١، ١٢٣، ١٤٧، ١٤٨،

١٤٩، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩،

٢١٥.

أرشدونة ١٧٦.

آرل ١٥١.

الأرك (معركة) ٣٨٥، ٣٨٦.

أرملة (قرية) ١٨١.

أسبانية ٢٢، ٥٤، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٧،

٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣،

٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٨٤،

٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١،

١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠،

١٥٨، ١٥٩، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٩،

٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٢،

٢١٩، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٥٩، ٢٨٦،

٢٩٠، ٣٠٥، ٣٦٥، ٣٨٥، ٣٨٧،

أستجة ٧٨، ١٣٠، ٢٦٤، ٢٦٧، ٣٣٤،

٣٩٠.

٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٠، ٢٨١،
 ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦،
 ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢،
 ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨،
 ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣،
 ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١١،
 ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٤،
 ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠،
 ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧،
 ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣،
 ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٢،
 ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠،
 ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥،
 ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣،
 ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠،
 ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦،
 ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٣،
 ٣٩٥، ٣٩٧.

أنطابلس ٢٧.

أوتان ١٤٩.

الأوراس ٤١، ٤٧، ٥٧.

أوستراسيا ١٤٥.

أونجا (كهف) ٢٨٥، ٢٨٦.

إيبيرية ٦٥، ٦٦.

إيطاليا ١٩٥، ٢١٥.

إيفيران يطوف ٤٦.

(ب)

بابش ١٧٧.

باجة ١٨٦، ٢٣٤، ٣٨٤.

أكيتانية ١٤٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢،
 ١٥٣، ٢١٥.

البحيرة ١٩٤، ٢١٤، ٢٤٣.

البيرة ٩٠، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٠،
 ١٨١، ٢٧٢.

ألمانيا ١٤٤، ٢١٥.

آلة (قاعدة) ٢٣٣.

أنسية (قلعة) ٣٢٤.

الأندلس ٦٥، ٦٦، ٧١، ٨٠، ٨١، ٨٢،

٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢،

٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨،

٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣،

١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦،

١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١،

١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦،

١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١،

١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨،

١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤،

١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٣،

١٥٦، ١٥٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١،

١٧٢، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠،

١٨٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠،

١٩٣، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٤،

٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢،

٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨،

٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١،

٢٣٢، ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٦،

٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٩،

٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٦،

٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٥،

بطليوس ٢٣٤، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢،
 ٢٧٢، ٢٨٤، ٢٨٧، ٣٦٦، ٣٧٠،
 ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٨، ٣٨٧،
 بغداد ١٦٧، ١٨٦، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٨،
 ٢١٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣،
 ٢٩٣، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٢٧، ٣٨٢،
 بلاط الشهداء (معركة) ١٥٤، ٢١٥،
 بُلاي ٢٦٨،
 بلنسية ٢١٩، ٢٣٢، ٣٥٢، ٣٧٠، ٣٧٢،
 ٣٧٩،
 بنبلونة ٩١، ١٧٣، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٤٣،
 ٢٤٤،
 بنزرت ٥٤،
 بواتيه ٩٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤،
 ١٥٥،
 بوردو ١٥١،
 البوسفور ١٤٣،
 بورغونية ٩٨،
 البونت ٣٧٢،
 بونة ٥٤،
 البيازين (حي) ٣٩٦،
 بياسة ٣٨٨،
 بير (Berge مجرى ماء) ١٥٧،
 (ت)
 تاهرت ٢٠، ٤٤،
 تاهودة = تهودة،
 تلمير ١٩٨، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥٤،
 تطوان ٣٠٨،
 تطيلة ٢٤٤، ٣٦٢، ٣٦٣،
 تلمسان ٢٠، ٢١، ٤٢، ١١٠،

بادريون ١٩٩،
 باريس ١٤٩، ٢٤٢،
 الباسك ٩١، ١٧٣، ١٧٤، ٢٠٠، ٢٠١،
 ٢٠٢، ٢٤٤، ٢٥٧، ٢٨٨، ٣٢٥،
 الباشكنس = الباسك
 باغاية ٤٤، ٤٥، ٥٥، ٣٨٢،
 بالوماس (جزيرة) ٧٣،
 بيشر ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٦٨،
 ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣،
 بجاية = باغاية،
 البحر المتوسط ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣،
 ٣٦، ٤٥، ٨٤، ١١٠، ٢٩٤،
 ٣٨٦،
 برباط (نهر) ٧٦، ٧٧،
 بربشر ٣٦٤،
 البرتغال ٨٩، ٣٢٧، ٣٨٣، ٣٨٤،
 برج أسامة ١٨٣،
 برج قمارش ٣٩٥،
 بردال = بوردو،
 البشّرات ٣٩٨، ٣٩٩،
 برشلونة ٨٤، ٩٠، ١٤٣، ٢٢٧، ٣٣٦،
 برغنديّة ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠،
 ١٥٧،
 البروفانس ١٥٧،
 برقة ١٩، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣، ٣٤،
 ٣٥، ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٦،
 البرينيّه ٦٥، ٨٤، ٨٥، ٩١، ٩٤، ٩٦،
 ١٠٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٨،
 ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٤،
 ١٧٣، ١٧٤، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠١،
 ٢١٥، ٢١٦، ٢٨٦،

تهودة ٤٧، ٤٩، ٥٦، ٦٢.

نور ١٥١، ١٥٢.

تولوز = طلوشة.

تونس ١٩، ٢٠، ٥٨، ٦٢، ٦٤، ٧٣.

٧٥، ٣١٠، ٣٨٣.

تيهوت = تاهرت.

(ث)

الثغر الأعلى ٣٦٢، ٣٦٣.

(ج)

جبال أطلس ٢٠، ٤٤.

جبال البرانس ٦٥.

جبال البرينيه ٧٠.

جبال غمارة ٣٨٣.

جبل جرميرة ٣٢٧.

جبل طارق ٦٥، ٧٥، ٧٦، ٣٨٣، ٣٩٤.

جبل العروس ٣٠٠.

الجزائر ١٩، ٢٠.

جزيرة أم حكيم ١٢٢.

الجزيرة الخضراء ٧٦، ٨١، ٨٢، ١١٩.

٣٠٩، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٧٢، ٣٧٧.

جزيرة طريف ١٣.

جزيرة كريت ٢٢٦.

جلولا ٣٦.

جند حمص ١٧٦.

جند فلسطين ١٧٦.

جند قنسرين ١٧٠.

جيان ١٧٨، ١٨٠، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٨٦.

٣٨٧، ٣٨٨.

جليقية ٨٤، ٩٠، ١٠١، ١٩٤، ٢٢٩.

٢٤٤، ٢٨٥، ٣٣٦.

(ح)

الحجاز ٥٠، ١٦٥، ٢١٧.

حجر النسر (قلعة) ٣٠٩.

حصن بقيرة ٢٨٨.

حصن الحمامة ٣١٨.

حلب ٣٨٥.

الحمراء (قصص) ٣٨٩، ٣٩٢، ٣٩٨.

٣٩٩.

الحميمة ١٦٨.

(خ)

خراسان ١٦٧، ١٦٨، ١٨٦.

الخنلق (معركة) ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠.

(د)

دار الأمانة ١٧٩، ١٨١، ٢٠٧، ٢٥٤.

دانية (بلدة) ٢١٥، ٣٥٢.

دروقة ٣٥.

دمشق ٣٣، ٤٢، ٥٠، ٧٧، ٨٤، ٨٥.

٨٦، ٨٧، ٩١، ٩٥، ٩٩، ١٠١.

١٠٢، ١٠٤، ١٠٩، ١١١، ١١٦.

١٢٢، ١٣١، ١٣٣، ١٤٢، ١٥٣.

١٦٥، ١٦٨، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٧.

٢٤٩، ٢٨٣، ٢٩١.

دوردوني (نهر) ١٥١.

دير جورز ٢٩٧.

دير سان مارتان ١٥١.

دوفنيه ١٥٨.

حيوانات ١٥٧.

(ر)

الرّايين ٢٠٠ ، ٢١٥ .

الرباط ٣٧٦ .

الرّريض (ضاحية) ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

الرّصافة ٢٠٩ .

رند ٢١٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٣٧٢ .

روما ٢٢ ، ٦٧ .

الرّون ١٠٠ ، ١٤٩ .

رونسفال (مصر) ٦٥ ، ١٥١ ، ٣٠١ ،

٢٠٢ ، ٢٠٣ .

رّية (مقاطعة) ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٧٥ ، ٢٦٢ ،

٢٦٣ .

(ز)

الزاب ١٦٨ ، ٣٣٢ .

الزاهرة (قصر) ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ،

٣٤١ .

زغوان (قلعة) ٦٢ .

الزّلاقة (موقعة) ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،

٣٨١ .

الزهراء ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،

٣٠١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ .

زويلة ٢٩ ، ٣٨ .

(س)

سامورة ٣٢٣ .

سانتياغو ٣٢٧ .

سانس ١٤٩ .

سبتة ٤٥ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١١٢ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٧٠ ،

٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ،

٣٤٢ ، ٣٤٣ .

سبمانية ١٠١ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥١ ، ١٥٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

سيطة ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ .

سجوما ٦٢ .

سرت ٢٩ .

سردينية ٦٤ .

سرقطة ٨٤ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،

١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ،

٢١٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ،

٢٨٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،

٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ،

٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ .

سلا ٣٨٣ .

سليطرة (حصن) ٣٨٦ .

سلمنقة ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ .

سنت مانكش (قلعة) ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٢٤ .

السفّال ٣٧٦ .

السودان ٣٣ .

السوس ٣٧٦ ، ٣٨٢ .

سوسة ٣٥ ، ٤٠ .

السهلة ٣٧٢ .

سيبة = سبو .

(ش)

شاتلرو ١٥٢ .

شاطبة ٣٥٢.

الشام ٢٦، ٥٠، ٥٣، ٨٦، ٨٧، ١٠٣،
١٢٢، ١٦٨، ٢٠٩، ٢١٢، ٣٢٨

٣٨٩.

شبه الجزيرة الإيبيرية ٨٥.

شذونة ٨٢، ١١٦، ١١٩، ١٣٠، ١٧٦

١٨٧، ١٩٠، ٢٦٤.

شقنلة (معركة) ١٣٥، ١٣٦، ١٧٢.

شتبرية ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤

٢١٣، ٢٧٥، ٣٦٨، ٣٦٨، ٣٧٠.

شترين ٩٠، ٣٨٤، ٣٨٥.

شندلة ٢٦٠.

شنقيط ٣٧٥.

جنيل ٣٣٤.

(ص)

صخرة بلّاي ٢٨٦.

صفاقس ٥٦.

صفين ٣٢.

صفلية ٣٦، ٥٤، ٦٤، ١٠٨، ٢٩١.

صنهاجة ٣٠٨.

(ط)

طبرق ٥٢.

طرابلس (الغرب) ١٩، ٢٢، ٢٨، ٢٩

٣٢، ٣٣، ٣٥، ٥٣، ٣٨٣.

طرش (قرية) ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦.

طرطوشة ٢١٣، ٢٢٧، ٣٦٤.

طركونة ٨٤، ٩٠.

طلبيّة ٨٣، ٣٦٨.

طلوشة (موقعة) ٩٦، ١٤٧، ١٥١، ٢١٥.

طلياطة (قرية) ٢٤٧.

طليطلة ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٦، ٧٨، ٧٩

٨٣، ٨٤، ٨٦، ١١٧، ١١٩

١٢٠، ١٤٢، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٣

١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٩، ١٩١

٢١٢، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٢١

٢٢٥، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٣

٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٥، ٣١٧

٣٤٢، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧

٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٧

٣٨٠.

طنجة ٢٢، ٣١، ٤٥، ٤٩، ٦٣، ٦٨

٧١، ٧٢، ٧٣، ٨٠، ١٠٨

١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١١٤

٢١٣، ٢١٩، ٢٩١، ٣٠٧، ٣٠٨

٣٣٢.

(ع)

العراق ٢٦، ٥٠، ٥١، ٩٩، ١٠٤

١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ٢٥٢

العقاب (حصن) ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١.

(غ)

غالة ٦٧، ٩٦، ١٤٣، ١٤٨.

غاليسيا = جيليقية.

غدامس ٣٨.

غرناطة ٦٦، ١٧٨، ٣٥٦، ٣٧٢، ٣٨٦

٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١

٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦

٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩.

(ف)

فاس ٢٠، ٢٢٦، ٣١٠، ٣٢٨، ٣٣٢.

الفرات ١٦٨.

فرنسا ٦٥، ٩٤، ٩٦، ٩٩، ١٤٤، ١٤٧،

١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩،

١٩٥، ١٩٦، ٢١٥، ٢٤٢.

فزان ٢٩، ٣٨.

الفسطاط ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٤٠،

١٥٣.

فلسطين ٨٦.

(ق)

قابس ٥٦.

قابس ٢٤٧.

القاهرة ٣٢٩

قرطاجنة ٢٢، ٣١، ٣٥، ٣٩، ٤٢، ٤٤،

٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٤، ٦٦،

٧٥.

قرطبة ٦٦، ٧٨، ٨٢، ٨٦، ٩٤، ٩٥،

٩٦، ٩٧، ١٠١، ١١٧، ١١٩،

١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥،

١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣،

١٣٤، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١،

١٤٨، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٨، ١٧١،

١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠،

١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥،

١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١،

١٩٢، ١٩٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٤،

٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢،

٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧،

٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤،

٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣،

٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١،

٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧،

٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤،

٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١،

٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧،

٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤،

٢٧٥، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٧،

٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥،

٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠،

٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٦،

٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٣،

٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢،

٣٣٤، ٣٣٩، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١،

٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦،

٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٧،

٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٨،

٣٦٩، ٣٧٦، ٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٣،

٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩٦.

قرقشونة ١٤٨، ٢١٥.

قرمونة ١٨٧، ٣٧٢، ٣٨٠.

القرن (معركة) ١١٣، ١١٤.

القسطنطينية ٢٢، ٦٧، ٨٧، ١٤٣،

١٥٥، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٩٢،

٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٠،

٣٩٧.

قشالة ٨٥، ٢١٤، ٢٢٨، ٢٤٣، ٣٠٥،

٣٠٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٧،

٣٣٦، ٣٦٤، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٨٦،

٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٧.

قطالونيا ٣٢٧.

القلع القديمة (منطقة) ٢١٤.

قلعة رباح ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٨٦.

قلعة شوذر ٢٦٧.

قلعة لوسينا ٣٩٦.

قلمرية ٩٠.

قلمونية = قونية.

قناة عامر ١٤٠.

قورية ١١٧.

قونية ٣٥، ٥٢.

القيروان ٣١، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤١،

٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٨، ٥٠، ٥١،

٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩،

٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٢، ٧٤،

٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٦، ٩٤، ٩٥،

٩٨، ٩٩، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩،

١١٠، ١١٣، ١١٤، ١٢٦، ١٥٣،

١٨٨، ٢٥٢، ٢٥٣، ٣٧٦.

(ك)

كليرة ١١٧.

كورونيا ١٩٤.

الكوفة ٥٠، ١٦٧، ١٦٨.

كولون ٢٠٠.

(ل)

لاردة ٣٦٤، ٣٦٥.

لبلة (مدينة) ١٨٩.

ليط ٣٧٩.

لورقة ٣٧٩.

اللوار ٩٩، ١٤٤، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣.

ليبيا ١٩.

ليشونة ٩٠، ٢٢٨، ٢٤٧، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٥.

ليون ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٦،

٣٠٤، ٣٠٥، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٧،

٣٣٧، ٣٨٦.

(م)

ماردة ٨٢، ٨٣، ١١٧، ١٢٥، ١٨٢،

١٩٢، ٢١٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٦١،

٢٨٧، ٣٨٧.

مالقة ٦٦، ٩٠، ٢٥٩، ٣٧٢، ٣٩٠،

٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧.

مايورقة ٦٤.

متر ٢٩٧.

المحيط الأطلسي ١٩، ٤٨.

المدينة البيضاء ٨٤، ١٣٧.

مدينة سالم ٣١٦، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣٣،

٣٣٤، ٣٣٨.

مراكش ٢٠، ٤٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٠،

٣٨١.

مرج راهط ٥٠، ١٠٢، ١٨٣.

مرسية ١٩٧، ٢١٣، ٢٣٣، ٢٥٤، ٣٥٢،

٣٧٩، ٣٥٦.

مرو ١٦٧.

المرية ٦٦، ٢٩١، ٣٥٢، ٣٦٦، ٣٨٨.

المسيلة ٤٤.

المُصاراة ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٠،

٣٧٨.

مصر ١٩، ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩،

(ن)

ناريون ١٠٠ .
 ناسفار ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٦
 ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٦٤
 نيرة = نافار .
 نفيس ٤٦ .
 نهر الأبرو ٢٢٧ .
 نهر أوربيو ٢١٥ .
 نهر تاجة ٩٠ ، ١٢٠ ، ١٩٢ ، ٢٢٠
 ٢٢١ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ .
 نهر الجارون ١٥١ .
 نهر دويرة ٣٢٧ .
 نهر ردونة ١٥١ .
 نهر السامون ١٤٩ .
 نهر سبر ١١٣ .
 نهر سليط ٢٦٠ .
 نوستريا ١٤٥ .
 نيمة ١٤٨ .

(و)

وادي الأبرو ٨٤ ، ٢١٤ .
 وادي آرون ٢٢٩ .
 وادي آش ٣٩٧ .
 وادي آنة ٨٢ ، ٨٣ ، ٢٣٤ ، ٢٨٤ .
 وادي تاجة ٨٣ .
 وادي الحجارة ٧٨ ، ١٩٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ .
 وادي درعة ٤٦ ، ٦٢ .
 وادي الرون ٩٩ ، ١٤٨ ، ١٥٧ .
 وادي سبر ١١٤ ، ١١٧ ، ٣٧٩ .
 وادي السليط ١٢٠ .

٣ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ،
 ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٢ .
 المغرب ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
 ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
 ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
 ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
 ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٢ ،
 ٨٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
 ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ،
 ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٩٢ ،
 ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢١ ،
 ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ،
 ٣٥٢ ، ٣٦٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،
 ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،
 ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ .

مكة ٥٠ ، ٥١ ، ١٠٢ .
 ملالة ٣٨٢ .
 مليلة ٢٩١ ، ٣٠٧ .
 ممس ٥٥ .
 المهديّة ٢٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .
 موريتانيا ٣٧٥ .

(ل)

لاخاندا (بحيرة) ٧٦ .
لاردة ٨٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .
اللووار ٩٤ .
ليون ٨٤ .

(ي)

يابرة ٢٨٧ .
اليمن ١٤٠ .

إدي شلف ١١٠ .

إدي غاديانا ٢٦١ .

إسوادي الكبير ٧٨ ، ٨٢ ، ٩٦ ، ١٣٥ ،
١٧٦ ، ١٣٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،
٢٢٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ ، ٢٩٩ ،
٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٨٨ .

إدي لكّة ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٥٥ ، ٣٧٨ .

إدي نالون ٢١٥ .

ينّة ٣٨٤ .

دان ٢٩ .

شقة ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٣٦٤ .

ليلة ٤٥ .

ليلي = وليلة .

المحتويات

٥	الإهداء
٧	مقدمة الطبعة الثالثة
١١	مقدمة الطبعة الثانية
١٣	مقدمة الطبعة الأولى
١٧	الباب الأول: اسبانية: الولاية الأموية
١٩	الفصل الأول: الفتح العربي للمغرب
٢٦	فتوحات المغرب في العهد الراشدي
٣٤	فتوحات العهد السفيني
٤٩	فتوحات العهد المرواني
٥٢	حسان بن النعمان الغساني
٦٠	موسى بن نصير
٦٥	الفصل الثاني: الفتح العربي لاسبانية
٦٥	اسبانية القوطية عشية الفتح
٧٠	مراحل الفتح العربي لاسبانية
٧٤	موقعة وادي لكّة
٨٩	الفصل الثالث: عصر الولاة الأمويين في الأندلس
٨٩	عبد العزيز بن موسى
٩١	الولاة الأمويون بعد عبد العزيز
٩٤	التوسع في أوروبا
٩٩	إشتداد الصراع القبلي وثورة البربر

١٠٣	ثورة البربر في المغرب
١١٥	ثورة البربر في الأندلس
١٢٠	غياب السلطة المركزية
١٤٢	الخطر الأموي على أوروبا
١٦١	الباب الثاني: دولة الأمويين المستقلة في الأندلس
١٦٣	الفصل الأول: عبد الرحمن الأول (الداخل)
١٦٣	دور التأسيس
١٩٥	العلاقة مع شارلمان
٢٠٤	السياسة الإصلاحية
٢٢١	خلفاء عبد الرحمن
٢١١	هشام الأول (الرضا)
٢١٨	الحكم الأول (الربضي)
٢٢٢	ثورة قرطبة (الربض)
٢٢٦	العلاقة مع الفرنجة والأسبان
٢٣٠	عبد الرحمن الثاني (الأوسط)
٢٣١	السياسة الدخيلية
٢٣٣	ثورات البربر
٢٣٦	المستعربون في قرطبة
٢٤٣	العلاقات العسكرية
٢٤٥	النورمان: إغارات ودبلوماسية
٢٤٩	العلاقات الدبلوماسية مع البيزنطيين
٢٥٠	مظاهر الحياة الاجتماعية
٢٥٢	زرياب: شخصية العصر الفني والاجتماعية
٢٥٧	الانتكاسة
٢٥٧	إختلال المركزية في قرطبة
٢٥٧	محمد بن عبد الرحمن

٢٦٢	ثورة ابن حفصون
٢٦٤	المنذر بن محمد
٢٦٥	عبد الله بن محمد
٢٦٦	بين عبد الله وابن حفصون
٢٧١	بين عبد الله وبني الحجاج في أشبيلية
٢٧٧	الفصل الثاني: عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)
٢٧٧	عبد الرحمن الأمير: إسترجاع الوحدة السياسية
٢٧٩	سياسته الداخلية
٢٨٤	سياسته الخارجية
٢٩٠	مع الفاطميين
٢٩٣	العلاقات الدبلوماسية
٢٩٨	قرطبة في أيام الناصر
٣٠٢	الحكم الثاني (المستنصر بالله)
٣٠٤	العلاقات مع الممالك الأسبانية
٣٠٦	العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الأقصى
٣١٣	الفصل الثالث: الدولة العامرية
٣١٣	أبو يعقوب المنصور
٣٢٢	إعلان السياسة الجهادية وحسم الصراع مع غالب
٣٢٦	العلاقات مع الأسبان
٣٢٨	العلاقات مع الفاطميين
٣٣٥	سقوط الدولة الأموية
٣٤٩	الباب الثالث: ما بعد الخلافة
٣٥١	الفصل الأول: الطوائف
٣٥٤	دولة بني عباد
٣٥٧	جمهورية بني جهور
٣٦٠	دولة بني هود في سرقطة

٣٦٧ دولة بني ذى النون في طليطلة
٣٧٥ الفصل الثاني: المرابطون والموحدون في الأندلس
٣٧٥ المرابطون في الأندلس
٣٨١ الموحدون في الأندلس
٣٨٧ الفصل الثالث: مملكة غرناطة
٤٠١ الملاحق
٤٠٣	١ - الولاة الأمويون في الأندلس
٤٠٤	٢ - الأمراء والخلفاء الأمويون
٤٠٥	٣ - أمراء الطوائف
٤٠٩	٤ - أمراء غرناطة
٤١٠	٥ - خرائط
٤١٥	٦ - المصادر والمراجع
٤٢٥	٧ - فهرست الأعلام
٤٣٧	٨ - فهرست القبائل
٤٤١	٩ - فهرست الأماكن
٤٥١	١٠ - المحتويات

كتب صدرت للمؤلف

- ١ - تاريخ العرب السياسي، من فجر الإسلام حتى سقوط بغداد (بالإشتراك مع د. سهيل زكار) - دار الفكر - بيروت ١٩٧٤.
- ٢ - التوابون - (ط ١) دار التراث الإسلامي - بيروت ١٩٧٥.
(ط ٢) دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٩٧٨.
- ٣ - الدولة العربية في اسبانية، من الفتح حتى سقوط الخلافة - دار النهضة العربية. بيروت. (ط ١) ١٩٧٧ - (ط ٢) ١٩٨٠ (ط ٣) ١٩٨٦.
- ٤ - ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري - دار النهضة العربية ١٩٧٩.
- ٥ - صفحات من تاريخ جبل عامل (مع آخرين) - المجلس الثقافي للبناد الجنوبي ١٩٧٩.
- ٦ - الدولة الأموية والمعارضة، مدخل إلى كتاب السيطرة العربية للمستشرق فاد فلوطن، مع ترجمة له (ط ١) دار الحداثة - بيروت ١٩٨٠ (ط ٢) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٥.
- ٧ - الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في أشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري - المؤسسة الجامعية للدراسات ١٩٨٣.
- ٨ - تكون الاتجاهات السياسية في الاسلام الأول، من دولة المدينة إلى دولة عمر دار إقرأ - بيروت ١٩٨٥.
- ٩ - من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول - دار إقرأ ١٩٨٦.
- ١٠ - اتجاهات المعارضة في الكوفة، دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي معهد الإنماء العربي - بيروت ١٩٨٦.

